www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

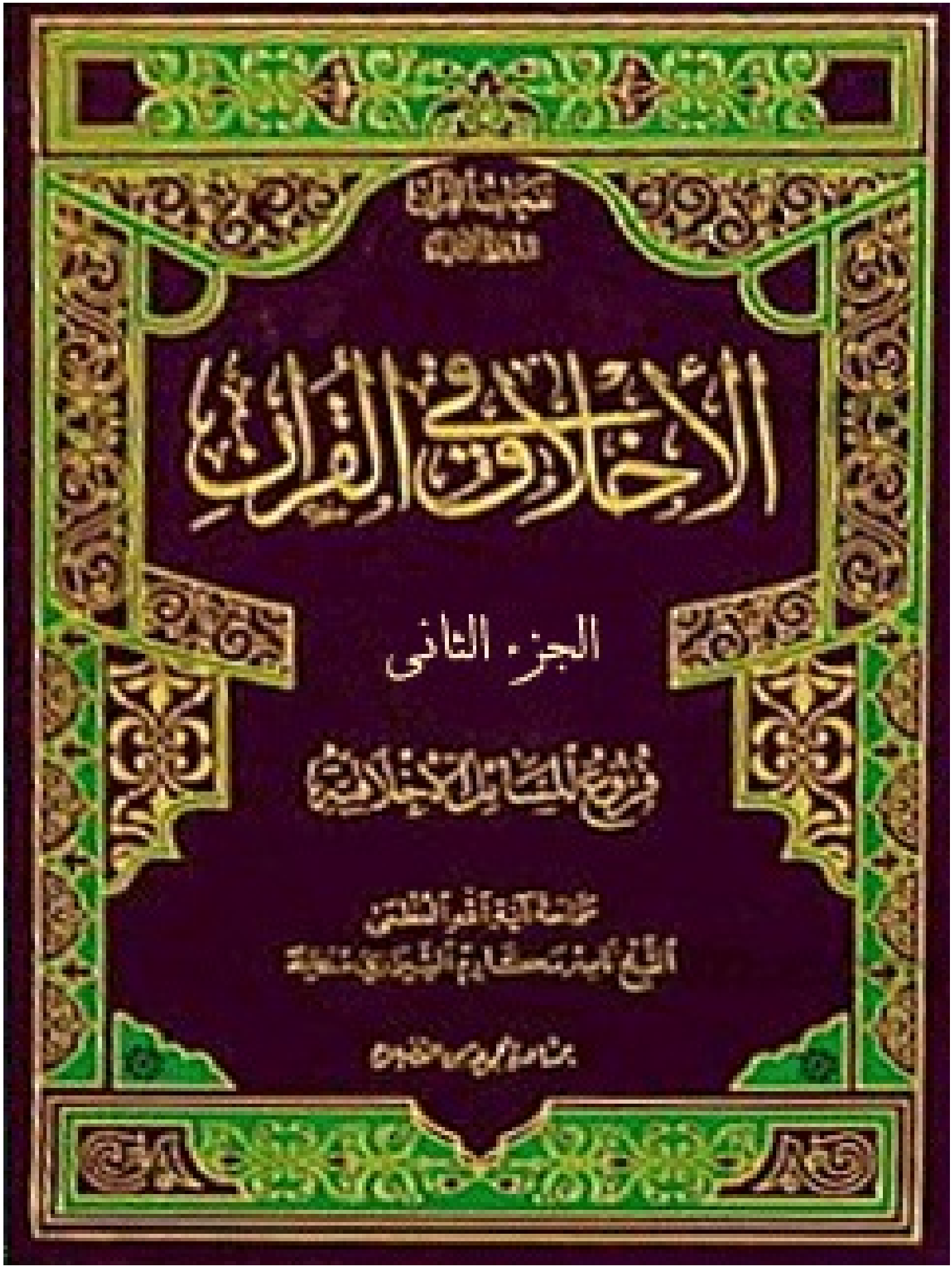

الأخلاق في القرآن
الجزء الثاني
فروع المسائل الأخلاقية

بسم الله الرحمن الرحيم

الاخلاق فی القرآن

كاتب:

آیت الله العظمی ناصرمکارم شیرازی (دام ظله)

نشرت فی الطباعة:

مدرسه الامام علی بن ابی طالب (ع)

رقمی الناشر:

مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة

الفهرس

الفهرس ----- ۵
الاخلاق فی القرآن ----- ۱۶
اشارة ----- ۱۶
الجزء الثانی ----- ۱۶
الأخلاق الحسنة والسیئة فی القرآن ----- ۱۶
مقدّمة (منهج البحث): ----- ۱۶
التکبّر والاستکبار ----- ۱۷
تنویه: ----- ۱۷
تفسیر و استنتاج: ----- ۱۸
البلاء العظیم علی طول التاریخ البشری: ----- ۱۸
النتیجة النهائیة: ----- ۲۴
التکبّر فی الروایات الإسلامیة: ----- ۲۴
التکبّر فی منطق العقل: ----- ۲۵
ملاحظات: ----- ۲۶
اشارة ----- ۲۶
۱- تعریف التکبّر وحقیقته ----- ۲۶
۲- أقسام التکبّر ----- ۲۶
۳- التکبّر علی مَنْ؟ ----- ۲۷
۴- دوافع التکبّر ----- ۲۷
۵- جذور التکبّر ----- ۳۰
۶- النتائج والعلائم ----- ۳۰
۷- مفاسد التکبّر وعواقبه الوخیمة ----- ۳۱
۸- علاج التکبّر ----- ۳۲

۹- الاختبارات العلاجیة ----- ۳۴
التواضع ----- ۳۵
تنویه: ----- ۳۵
تفسیر واستنتاج: ----- ۳۶
التواضع فی الروایات الإسلامیة: ----- ۳۷
اشارة ----- ۳۷
۱- تعریف التواضع ----- ۳۸
۲- التواضع وکرامة الإنسان ----- ۳۸
الحرص والقناعة ----- ۳۹
تنویه: ----- ۳۹
تفسیر واستنتاج: ----- ۴۰
النتیجة النهائیة: ----- ۴۳
الحرص وحبّ الدنیا فی الأحادیث الإسلامیة: ----- ۴۴
اشارة ----- ۴۴
۱- تعریف الحرص ----- ۴۵
۲- النتائج السلبیة للحرص فی حیاة الإنسان الفردیة والاجتماعیة ----- ۴۵
۳- غنی النفس ----- ۴۶
۴- الحرص المذموم والممدوح ----- ۴۶
۵- علاج الحرص ----- ۴۶
۶- إجابة عن شبهة ----- ۴۷
حبّ الدنیا ----- ۴۸
تنویه: ----- ۴۸
حبّ الدنیا فی الأحادیث الإسلامیة: ----- ۵۰
الدنیا المطلوبة والدنیا المذمومة: ----- ۵۱

الحسد ----- ۵۲
تنویه: ----- ۵۲
تفسیر واستنتاج: ----- ۵۳
نار الحسد المحرقة ----- ۵۳
النتیجة: ----- ۵۷
الحسد فی الروایات الإسلامیة: ----- ۵۷
امور مهمة: ----- ۵۷
اشارة ----- ۵۷
۱- مفهوم الحسد والغبطة ----- ۵۸
۲- دوافع الحسد ----- ۵۸
۳- علامات الحسد ----- ۵۹
۴- النتائج السلبیة للحسد ----- ۶۰
۵- مراتب الحسد: ----- ۶۱
۶- علاج الحسد: ----- ۶۲
۷- النُصح وحبّ الخیر للآخرین ----- ۶۳
الغرور والعُجُب ----- ۶۴
تنویه: ----- ۶۴
۱- مفهوم الغرور ----- ۶۴
الغَرور فی القرآن الکریم: ----- ۶۵
تفسیر واستنتاج: ----- ۶۵
النتیجة النهائیة: ----- ۶۸
اشارة ----- ۶۸
۱- الغرور فی الروایات الإسلامیة ----- ۶۸
۲- أسباب الغرور ----- ۶۸

۳- علائم الغرور ۶۹
۴- المعطیات الفردیة والإجتماعیة للغرور ۷۰
۵- طرق علاج الغرور ۷۱
طول الأمل ۷۱
تنویه: ۷۱
تفسیر واستنتاج: ۷۲
منابع طول الأمل ۷۲
طول الأمل فی الروایات الإسلامیة: ۷۵
الآثار السلبیة لطول الأمل: ۷۶
اشارة ۷۶
۱- طول الأمل مصدر الکثیر من الذنوب ۷۶
۲- طول الأمل وقساوة القلب ۷۶
۳- طول الأمل ونسیان الأجل ۷۶
۴- طول الأمل والعُسر فی الحیاة ۷۶
۵- طول الأمل والذلّة فی الحیاة ۷۷
۶- الحرمان من النعم والمواهب ۷۷
۷- طول الأمل وعدم إدراک الحقائق ۷۷
۸- طول الأمل وکفران النعمة ۷۷
دوافع طول الأمل وأسبابه: ۷۸
علاج طول الأمل: ۷۸
وهنا نقطتان: ۷۹
الآمال والتمنیات الإیجابیة والبنّاءة: ۸۰
التعصّب والعناد ۸۱
تنویه ۸۱

تفسیر واستنتاج: ۸۱
المنهج العام للأقوام المنحرفین ۸۱
النتیجة النهائیة: ۸۴
التعصب والعناد فی الأحادیث الإسلامیة: ۸۵
اشارة ۸۵
۱- مفهوم التعصّب ودوافعه ۸۶
۲- الآثار السلبیة للتعصّب والعناد ۸۶
۳- التعصّب الإیجابی والسلبی ۸۸
۴- التقلید البنّاء والأعمی ۸۸
۵- طرق العلاج ۸۹
۶- التسلیم مقابل الحق ۹۰
الجُبن والشجاعة ۹۰
تنویه: ۹۰
تفسیر واستنتاج: ۹۱
الأنبیاء والشجاعة ۹۱
النتیجة النهائیة: ۹۵
الجبن والخوف فی الروایات الإسلامیة: ۹۵
اشارة ۹۵
۱- الخوف المعقول وغیر المعقول ۹۵
۲- الآثار السلبیة للجُبن فی حرکة الحیاة الفردیة والاجتماعیة ۹۶
۳- دوافع الجُبن ۹۷
۴- طرق العلاج والوقایة ۹۷
۵- معطیات الشجاعة فی حیاة الإنسان ۹۸
ضعف النفس والتوکل علی اللّه ۹۹

تنویه: ۹۹
تفسیر واستنتاج: ۱۰۰
معطیات التوکل فی حیاة الأنبیاء ۱۰۰
النتیجة النهائیة: ۱۰۴
التوکل فی الأحادیث الإسلامیة: ۱۰۴
اشارة ۱۰۴
۱- حقیقة التوکل ۱۰۵
۲- معطیات التوکل وآثاره الإیجابیة ۱۰۷
۳- أسباب التوکل ۱۰۸
۴- درجات التوکل ۱۰۸
۵- طرق تحصیل التوکل ۱۰۹
الشهوة والعفاف ۱۰۹
تنویه: ۱۰۹
تفسیر واستنتاج: ۱۱۰
آثار اتباع الشهوات فی التاریخ البشری ۱۱۱
اتباع الشهوات فی الروایات الإسلامیة: ۱۱۳
عواقب اتباع الشهوة فی کلمات أمیرالمؤمنین علیه السلام: ۱۱۴
النتائج الوخیمة لاتباع الشهوة: ۱۱۴
اشارة ۱۱۴
۱- التلوث بالذنب ۱۱۵
۲- فساد العقل ۱۱۵
۳- تحقیر شخصیة الإنسان الاجتماعیة ۱۱۶
۴- اسر النفس ۱۱۶
۵- الفضیحة والعار ۱۱۶

عوامل وأسباب عبادة الشهوة: ۱۱۶
اشارة ۱۱۶
۱- ضعف الإيمان ۱۱۷
۲- عدم الاهتمام بالكرامة الاجتماعية والشخصية الإنسانية ۱۱۷
۳- الغفلة والجهل ۱۱۷
۴- المعاشرة مع رفاق السوء ۱۱۸
طرق علاج اتباع الشهوات: ۱۱۸
اشارة ۱۱۸
ألف) الطريق العلمي ۱۱۹
ب) الطريق العملي ۱۱۹
شهوة الأكل والجنس: ۱۲۰
العفة من أكبر الفضائل الأخلاقية ۱۲۱
تنويه: ۱۲۱
التفسير: ۱۲۲
الفقير المتعطش ۱۲۲
العفة السمة الأخلاقية للمؤمن: ۱۲۴
العفة مفتاح النجاة: ۱۲۴
العفة فى الروايات الإسلامية: ۱۲۴
النتيجة: ۱۲۵
طرق الوقاية من التحلل الأخلاقى: ۱۲۵
اشارة ۱۲۵
۱- الحجاب وترک الزينة أمام الأجانب ۱۲۵
۲- عدم اختلاط الرجل والمرأة ۱۲۶
۳- رؤية التصاوير الخليعة والأفلام الرخيصة ۱۲۶

عامل الغفلة ----- ۱۲۶
تنویه: ----- ۱۲۶
تفسیر واستنتاج: ----- ۱۲۷
«الغفلة» المنبع الأصلی للمشکلات ----- ۱۲۷
النتیجة: ----- ۱۳۱
الغفلة فی الروایات الإسلامیة: ----- ۱۳۱
النتیجة: ----- ۱۳۲
ملاحظات مهمة حول الغفلة: ----- ۱۳۲
اشارة ----- ۱۳۲
۱- عوامل الغفلة ----- ۱۳۳
۲- العواقب المشؤومة للغفلة ----- ۱۳۳
۳- علائم الغفلة ----- ۱۳۴
۴- الطرق الکفیلة بمکافحة الغفلة ----- ۱۳۵
۵- الیقظة والانتباه ----- ۱۳۶
التغافل الإیجابی: ----- ۱۳۷
التغافل فی کلمات المعصومین علیهم السلام: ----- ۱۳۸
البخل والشح ----- ۱۳۹
تنویه: ----- ۱۳۹
تفسیر واستنتاج: ----- ۱۴۰
مصیر البخلاء ----- ۱۴۰
النتیجة: ----- ۱۴۴
البخل فی منظور الروایات الإسلامیة: ----- ۱۴۴
جذور البخل وعلائمه: ----- ۱۴۵
آثار ونتائج البخل: ----- ۱۴۶

درجات البخل: ۱۴۷
الوقایة من البخل وعلاجه: ۱۴۷
الجود والسخاء ۱۴۸
تنویه: ۱۴۸
تفسیر واستنتاج: ۱۴۹
سیماء الکرماء فی القرآن ۱۴۹
السخاء فی الروایات الإسلامیة: ۱۵۱
معطیات السخاء: ۱۵۱
حدود السخاء: ۱۵۲
طرق تحصیل ملکة السخاء: ۱۵۲
العجلة والتسرع ۱۵۳
تلویح: ۱۵۳
تفسیر واستنتاج ۱۵۴
النتیجة: ۱۵۸
العجلة والتسرع فی الروایات الإسلامیة: ۱۵۸
ملاحظات مهمة: ۱۵۹
۱- مفهوم العجلة والتسرع ۱۵۹
۲- المسارعة فی الخیرات ۱۵۹
الآثار السلبیة للعجلة والتسرع: ۱۶۰
۱- اتلاف الوقت والطاقات ۱۶۰
۲- الیأس ۱۶۰
۳- الندامة ۱۶۱
۴- الحزن والغم ۱۶۱
۵- زیادة الخطأ ۱۶۱

۶- کثرة الزلل ---- ۱۶۱
جذور هذه الصفة الذمیمة: ---- ۱۶۲
۱- اتباع الهوی ---- ۱۶۲
۲- حبّ الدنیا والتعلق بها ---- ۱۶۲
۳- ضیق الصدر وسعته ---- ۱۶۲
۴- الجهل ---- ۱۶۲
طرق العلاج: ---- ۱۶۲
الصبر والتأنی ---- ۱۶۳
تنویه: ---- ۱۶۳
آیات الصبر: ---- ۱۶۳
تفسیر واستنتاج: ---- ۱۶۴
اسوة الصبر والمقاومة ---- ۱۶۴
الصبر فی الأحادیث الإسلامیة: ---- ۱۷۰
معطیات الصبر ونتائجه: ---- ۱۷۱
أقسام الصبر: ---- ۱۷۲
دوافع الصبر والاستقامة: ---- ۱۷۳
علاج الجزع وقلّة الصبر: ---- ۱۷۵
اشارة ---- ۱۷۵
۱- تشخیص المرض ---- ۱۷۵
۲- التفکیر بالعواقب السلبیة للجزع وقلّة الصبر ---- ۱۷۶
۳- مطالعة الآیات والروایات الواردة فی هذا الباب ---- ۱۷۶
۴- مطالعة حالات الأنبیاء والأولیاء ---- ۱۷۶
۵- تلقین الاعتماد علی النفس فی تحمّل الصعاب ---- ۱۷۶
الفرق بین الجزع والعواطف المعقولة: ---- ۱۷۷

نهایة الجزء الثانی: ---------- ۱۷۷

تعریف المرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة ---------- ۱۷۸

الاخلاق فی القرآن

اشارة

سرشناسه : مکارم شیرازی ناصر، ۱۳۰۵ - عنوان و نام پدیدآور : الاخلاق فی‌القرآن/ناصر مکارم‌شیرازی ؛ لمساعده مجموعه من‌الفضلاء ؛ تعریب‌الموسسه‌الاسلامیه‌للترجمه. مشخصات نشر : قم: مدرسه‌الامام علی‌بن‌ابی‌طالب (ع ۱۴۲۵ ق ۱۳۸۴. مشخصات ظاهری : ۳ج. فروست : نفحات‌القرآن؛ الدوره‌الثانیه. شابک : ۹۰۰۰۰ ریال: دوره ۹۶۴-۸۱۳۹-۲۷-X ؛ ج.۱ ۹۶۴-۸۱۳۹-۰۵-۹ ؛ ج.۲ ۹۶۴-۸۱۳۹-۲۶-۱ ؛ ج.۳ ۹۶۴-۸۱۳۹-۲۵-۳ ؛ ۸۰۰۰۰ ریال (دوره، چاپ دوم) یادداشت : عربی. یادداشت : عنوان اصلی: پیام قرآن دوره دوم: اخلاق در قرآن. عربی. یادداشت : ج. ۳(چاپ سوم: ۱۴۲۸ق=۱۳۸۶). یادداشت : ج. ۱ - ۳ (چاپ دوم: ۱۴۲۶ق. = ۱۳۸۵). یادداشت : کتابنامه. مندرجات : ج.۱. اصول‌المسائل‌الاخلاقیه. -ج.۲-۳. فروع‌المسائل‌الاخلاقیه. موضوع : قرآن -- اخلاق موضوع : اخلاق اسلامی موضوع : احادیث اخلاقی -- قرن ۱۴ شناسه افزوده : موسسه اسلامی ترجمه شناسه افزوده : مدرسه‌الامام علی‌بن ابی‌طالب (ع). رده بندی کنگره : BP۱۰۳/۳/م۷پ۹۰۴۳ ۱۳۸۳ رده بندی دیویی : ۲۹۷/۱۵۹ شماره کتابشناسی ملی : ۱۱۵۳۴۰۹

الجزء الثانی

الأخلاق الحسنة والسیئة فی القرآن

مقدّمة (منهج البحث):

تعرضنا فی الجزء الأوّل من هذا الکتاب (الأخلاق فی القرآن) إلی الاصول العامة فی المسائل الأخلاقیة والمناهج المختلفة لتهذیب النفس، والمذاهب الأخلاقیة، والدوافع والنتائج وقد بحثنا هذه المواضیع والمسائل بالتفصیل علی ضوء ارشادات وتعالیم القرآن الکریم علی شکل تفسیر موضوعی. ونری الآن أنّ الوقت قد حان لبحث جزئیات الفضائل والرذائل الأخلاقیة بالاستفادة من تلک الاصول العامة واستعراض مواردها علی ضوء تعلیمات الوحی والآیات القرآنیة. ومن ذلک سنتعرض فی هذا المجال للفضائل والرذائل الأخلاقیّة علی مستوی الآثار والنتائج والعواقب الإیجابیة والسلبیة لکلّ واحدة منها، وبالتالی طرق الوقایة من الرذائل الأخلاقیة ومعالجتها وکیفیّة کسب الفضائل والملکات الأخلاقیة الحمیدة. ولدی ورودنا فی هذا الموضوع وهذه الدراسة تأمّلنا کثیراً فی المناهج والنظم الدراسیة والعلمیة الّتی یمکن الاستفادة منها فی هذا البحث العمیق، فهل ینبغی البحث علی مستوی المناهج الیونانیة فی تقسیم الأخلاق إلی أربعة أقسام (الحکمة، العدالة، الشهوة، الغضب)؟ فی حین أنّ هذا التقسیم لا یتلاءم ولا ینسجم مع الآیات القرآنیة الّتی نرید دخول هذا البحث من خلالها وعلی ضوئها، ولا- أنّ هذا المنهج خال من العیوب والنقائص الّتی تمّت الإشارة إلیها فی الجزء الأوّل. أم أنّ ترتیب الفضائل والرذائل ینبغی أن یکون علی مستوی ترتیب حروف الالفباء، فی الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۶ حین أنّ هذا المنهج یختلف کثیراً عن منهج الدراسة المنطقیة ولا ینسجم معها کثیراً. أم ینبغی أن نقرر هذه الدراسة وفق منهج المذاهب الشرقیة والغربیة فی المسائل الأخلاقیة فی حین أنّ کلّ واحدة من هذه المذاهب لا تخلو من مشکلة أو مشکلات منهجیة، مضافاً إلی أنّها لا تتناغم مع التفسیر الموضوعی للقرآن الکریم والّذی نزمع دراسة القیم الأخلاقیة علی ضوئه. وفجأة وبلطف الله والالهام الباطنی تجلّی لنا منهج جدید فی استیحاء المفاهیم الأخلاقیة من القرآن الکریم، وهو أننا نعلم أنّ القرآن الکریم خصّص قسماً مهماً من أبحاثه الأخلاقیة والسلوکیة فی ضمن دراسته لسلوکیات الأقوام السالفة وتاریخ المجتمعات البشریة الماضیة وما ترجمه الأوائل علی المستوی العملی من أخلاق وقیم وفضائل کانت تتحرک فی تلک المجتمعات الإنسانیة وبالتالی الکشف عن عواقب تلک السلوکیات وعرض

نتائج تلكم الأعمال والممارسات الأخلاقية، وللانصاف فإن القرآن الكريم بحث المسائل الأخلاقية فی دائرة التجربة العينية والخارجية فی اطار ممارسة الأقوام السالفة لتتضح النتائج المترتبة عليها لكلّ قارئ ومستمع إلى هذا التاريخ الغابر، ويخرج منها بنتائج عملية وعميقة. ولهذا السبب رأينا أنّ من الأفضل فی معيار نظم المباحث الأخلاقية وبالنظر إلى السياق الّذی يحكم دراساتنا الماضية فإننا سوف نجعل من هذه الدراسة التاريخية للقرآن الكريم معياراً حاكماً فی هذه المباحث العلمية والأخلاقية. وبعبارة اخرى إننا بحثنا هذه المواضيع من قصة آدم وحواء ووسوسة آدم وهبوطهما من الجنّة وما ترتّب على ذلك من سلوكيات سلبية أدّت إلى هذه الواقعة التاريخية من طرد الشيطان الرجيم من مرتبة القرب الإلهی وحرمان آدم وحواء من الجنّة وأمثال ذلك، ونعلم أنّ الشيطان قد طُرد من الجنّة والمرتبة السامية بسبب (الاستكبار) و (الإنانية) و (العجب) وبالتالی بسبب (العناد والتعصب) حيث رفض السجود لآدم، وكذلك وقع آدم وحواء فی مصيدة الشيطان بسبب (الحرص) وحيث أكلا من ثمرة الشجرة الممنوعة بدوافع من الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۷ وساوس الشيطان، ثمّ تصل النوبة إلى قصة (هابيل) و (قابيل) وما تضمنت هذه القصة من صفات قبيحة كانت هی الدافع على قتل هابيل، ثمّ نصل إلى قصة نوح وما جرى على الأقوام البشرية من الطوفان وكذلك الحوادث الّتی جرت على قوم بنی إسرائيل ونبيهم موسى وما تضمّنته من سيرة الأنبياء من الفضائل والمكارم الأخلاقية فی ذلك الوسط المنحرف والّذی تسبّب بأنواع الأذى والعقوبات الإلهية على هؤلاء القوم. هذا المنهج مضافاً إلى كونه جذاباً ومشوّقاً فإنه يتناغم مع سياق البحوث القرآنية وتتجلّى فيه الفضائل والرذائل الأخلاقية فی صورة تجسيد عينی لها فی حركة الإنسان والواقع الاجتماعی على مستوى الحس والتجربة. نسأل اللّه تعالى توفيقنا وجميع أفراد المجتمع للتخلص من آثار الرذائل الأخلاقية الّتی تبدل المجتمع إلى جهنم وإلى نار محرقة، ونسأله تعالى أن يهب لنا التوفيق للتحرك من موقع الفضائل والمكارم الأخلاقية الّتی تصبغ قلوبنا بالصفاء والطمأنينة وتهب لنا السعادة والمراتب المعنوية السامية فی حركة الإنسان التكاملية، أی مرتبة القرب من اللّه تعالى. (آمين يا ربّ العالمين). ربيع الأوّل ۱۴۲۰ ه. ق قم- ناصر مكارم الشيرازی

التكبّر والاستكبار

تنويه:

إنّ أوّل صفة من الصفات الأخلاقية الذميمة وأوّل رذيلة نقرأها فی تاريخ الأنبياء وبداية خلقة الإنسان، وكما يعتقد أكثر علماء الأخلاق أنّها أُمّ المفاسد والرذائل الأخلاقية وأصل جميع أنواع الشقاء الإنسانی، هی (التكبر والاستكبار) والّتی وردت فی قصة إبليس عندما خلق اللّه سبحانه وتعالى آدم وأمر الملائكة وكذلك إبليس بالسجود له. هذه القصة المثيرة والمعبّرة هی قصة محذرة ومليئة بالعبر لجميع الأفراد والمجتمعات البشرية، والجدير بالذكر أنّ النتائج والعواقب الوخيمة للتكبر والاستكبار لا تتجلّى فی قصة خلق آدم فحسب، بل نراها متجلية على طول الخط فی سيرة الأقوام السالفة من تاريخ الأنبياء ومدى الدور المخرب والمدّمر لهذه الصفة الذميمة فی حركة الإنسان والمجتمع البشری. واليوم نری أنّ مسألة الإستكبار لها الدور الأوّل فی خلق الأجواء الفاسدة وزيادة المفاسد الأخلاقية والإجتماعية فی العالم والمجتمعات البشرية المعاصرة وتعد بحقّ البلاء الكبير على واقع الإنسانية المعاصرة والحضارة البشرية الفعلية والّتی لا نجد صدىً واسعاً وتجاوباً من قِبل المفكّرين والمصلحين فی إصلاح هذا الخلل الكبير الّذی يتعرض له الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۱۰ المجتمع البشری من جراء هذه الصفة الرذيلة. وبهذه الإشارة نعود إلى القرآن الكريم لنستوحی من آياته الشريفة ما يرشدنا ويُلقی بالضوء على هذا البحث، أی الآيات المتعلّقة بسيرة آدم إلى سيرة نبيّنا الأكرم فی دائرة آثار ودوافع هذه الصفة الأخلاقية الذميمة. ۱- «وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُواْ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ا لْكَافِرِينَ» «۱». ۲- «قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصغِرِينَ» «۲» ۳- «وَإِنِّی كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُواْ أَصبِعَهُمْ فِی ءَاذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْاْ

ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَاسْتَكْبَرُواْ اسْتِكْبَاراً» «۳». ۴- «فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُواْ فِى ا لْأَرْضِ بِغَيْرِ ا لْحَقّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُواْ بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ» «۴». ۵- «قَالَ ا لْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ» «۵». ۶- «وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُواْ فِى الْأَرْضِ وَمَا كَانُواْ سَابِقِينَ» «۶» ۷- «لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ا لْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَايَسْتَكْبِرُونَ» «۷». الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۱۱ ۸- «ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ* ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ* فَقَالَ إِنْ هَذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ» «۱». ۹- «الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِى ءَايَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ ءَامَنُواْ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ» «۲». ۱۰- «قِيلَ ادْخُلُواْ أَبْوَا بَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ا لْمُتَكَبِّرِينَ» «۳» ۱۱- «سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِىَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ ا لْحَقّ وَإِنْ يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لَّايُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِنْ يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لَايَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْاْ سَبِيلَ ا لْغَىّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ» «۴». ۱۲- «لَاجَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَايُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَايُحِبُّ ا لْمُسْتَكْبِرِينَ» «۵». ۱۳- «لَنْ يَسْتَنكِفَ ا لْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ا لْمَلَئكَةُ ا لْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتى وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا» ۱۴- «إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَاتُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَا بُ السَّمَآءِ وَلَايَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ ا لْجَمَلُ فِى سَمّ ا لْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِى الْمُجْرِمِينَ» «۶».

تفسیر و استنتاج:

البلاء العظیم علی طول التاریخ البشری:

إنّ الآیات القرآنیة الکریمة ملیئة ببیان مفاسد الاستکبار والعواقب الوخیمة المترتبة علی التکبر وکذلک المشکلات البشریة الّتی تزامنت وترتبت علی هذه الصفة الذمیمة علی طول التاریخ البشری وتأثیر هذه الصفة الرذیلة السلبی فی تقدّم وتکامل الإنسان فی أبعاده الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۱۲ المعنویة والمادیة حیث لا تخفی علی أحد، وما قرأنا فی الآیات أعلاه إنّما هو فی الحقیقة ناظرٌ إلی هذا الموضوع. «الآیة الاولی والثانیة» تتحدّث عن إبلیس والقصة المعروفة لسجود الملائکة عندما أمرهم اللّه تعالی بالسجود لآدم تعظیماً له وقد کان إبلیس فی ذلک الوقت فی صف الملائکة بسبب علوّ مرتبته ومقامه، وقد سجد جمیع الملائکة إلّاإبلیس لأنّه آثر عصیان الأمر الإلهی وتکبّر علی الحقّ وعلی اللّه، وبالتالی تمّ طرده من ذلک المقام السامی بسبب رفضه الصریح للسجود وحتّی اعتراضه علی أصل الأمر الإلهی له، ولذلک أمره اللّه تعالی بالخروج من ذلک المقام وتلک المرتبة إلی أسفل السافلین حیث تقول الآیة: «وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُواْ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ا لْكَافِرِينَ» «۱». «قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصغِرِينَ» «۲». وفی الحقیقة أنّ هذه أوّل معصیة وقعت فی عالم الوجود هذه المعصیة هی الّتی أدّت بمخلوق مثل إبلیس والّذی کان قد عبداللّه ستة آلاف سنة (کما ورد فی الخطبة القاصعة لأمیرالمؤمنین علیه السلام فی نهج البلاغة) وأُخرج من ذلک المقام بسبب تکبّر ساعة فحبطت أعماله وعباداته وطاعاته وسقط من ذلک المقام الّذی کان یُعدّ فیه مع الملائکة حیث یقول أمیرالمؤمنین علیه السلام: «إِذْ احْبَطَ عَمَلَهُ الطَّوِيلَ وَجَهْدَهُ الْجَهِيدَ، وَكَانَ قَدْ عَبَدَ اللَّهَ سِتَّةَ آلَافِ سَنَةٍ ... عَنْ كِبْرِ سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ» «۳». وفی هذه القصة المثیرة والمعبّرة نقرأ دقائق ونکات مهمّة جداً حول عواقب التکبّر ونستوحی منها أنّ هذه الصفة الرذیلة یمکن أن تؤدی إلی واقع الکفر والخروج من الإیمان تماماً کما ورد فی الآیات محل البحث «أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ا لْكَافِرِينَ»» .الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۱۳ وهکذا یتجلّی فی هذه القصة أنّ إبلیس وبسبب حجاب الکبر والغرور قد تعامل مع الواقع من موقع الجهل التامّ حیث خاطب اللّه تعالی من موقع الاعتراض والرفض للأمر الإلهی وقال: «قَالَ لَمْ اكُنْ لِاسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسنُونٍ» «۱». فی حین أنّ من الواضح أن شرف آدم لم یکن لأنّه مخلوق من الطین بل بسبب تلک النفخة الإلهیة والروح الإلهی الّتی نفخها اللّه تعالی فی آدم: «فَاذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِى فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ» «۲»، وحتّی إبلیس لم یکن لیدرک افضلیة التراب

على النار، التراب الّذى صار مصدر جميع البركات فى واقع الخِلقة وظهور الحياة وأنواع المعادن والذخائر الطبيعية من الماء والنباتات وسائر المواد الاخرى الّتى تتولد منها النار ولذلك قال بمنتهى الغرور «خَلَقْتَنِى مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ» «۳». مضافاً إلى أنّ الكثير من الأشخاص الّذين يقعون فى الخطيئة والزيغ فإنّهم قد يعودون إلى مسارهم الفطرى والسليم بعد أن يدركوا خطئهم ويتحركوا من موقع إصلاح الخلل والتوبة، ولكن حالة التكبّر والإستكبار هى من الامور الّتى لا تفسح المجال للإنسان المخطىء فى سلوك طريق التوبة بعد الانتباه وإدراك الخطأ، ولهذا السبب فإنّ الشيطان عندما التفت إلى خطئه لم يتب منه، لأنّ الكبر والغرور لم يسوّغ له أن يتحرك من موقع التسليم والتعظيم لجوهر الخلقة (أى الإنسان) بل إنّه زاد من تكبره وعناده وأقسم على إضلال جميع الناس (إلّا عَبادَ اللَّهِ المخلصين) وطلب من اللَّه تعالى العمر المديد ليستمر فى غيّه ونصب شراكه وفخاخه لبنى آدم ليضلهم عن سبيل اللَّه وعن سلوك طريق الحقّ. وبهذا فإنّ التكبّر والأنانية والعجب وأمثال ذلك تعدّ مصدراً من مصادر الحالات السلبية والصفات الذميمة الاخرى من قبيل الحسد، الكفر، الإفساد، ارتكاب الفحشاء والمنكر. وبهذا يكون الشيطان كما قال أميرالمؤمنين عليه السلام فى الخطبة القاصعة قد وضع أساس الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۴ التكبّر والتعصب فى الأرض وعمل على التصدى للقدرة الإلهية المطلقة من موقع العناد واللجاجة: «فَعَدُوُّ اللَّهِ امَامُ الْمُتَعَصِّبِينَ وَسَلَفُ الْمُسْتَكْبِرِينَ الّذى وَضَعَ أَسَاسَ الْعَصَبِيَّةِ وَنَازَعَ اللَّهَ رِدَاءَ الْجَبْرِيَّةِ وَادَّرَعَ لِبَاسَ التَّعَزُّزِ، وَخَلَعَ قِنَاعَ التَّذَلُّلِ» «۱». وبسبب هذه الحالة الدنيئة والفعل الدنىء فإنّ اللَّه تعالى قد جعل الشيطان ذليلًا وألبسهُ لباس الهوان والحقارة كما قال أميرالمؤمنين عليه السلام فى هذه الخطبة: «الَا تَرَوْنَ كَيْفَ صَغَّرَهُ اللَّهُ بِتَكَبُّرِهِ وَوَضَعَهُ بِتَرَفُّعِهِ فَجَعَلَهُ فِى الدُّنْيَا مَدْحُوراً، وَاعَدَّ لَهُ فِى الْآخِرَةِ سَعِيراً» «۲». والخلاصة أنّه كلّما تدبّرنا فى قصة إبليس وافرازات التكبّر والغرور فإننا نستجلى دقائق مهمّة وكثيرة عن أخطار التكبّر والاستكبار. «الآية الثالثة» تتحرك حول استعراض قصة نوح أول أنبياء اولى العزم وصاحب الشريعة، هذه القصة توضح لنا أنّ المصدر الأساسى للكفر وعناد قوم نوح مع نبيّهم يمتد إلى حيث صفة التكبّر والاستكبار. فعندما نقرأ الشكوى الّتى تقدّم بها نوح إلى اللَّه تعالى من قومه نجد أنّه يؤكد على هذه المسألة وهى أنّ مخالفتهم نابعة من شدّة استكبارهم حيث تقول الآية: «وَإِنّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُواْ أَصبِعَهُمْ فِى ءَاذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَاسْتَكْبَرُواْ اسْتِكْبَاراً» «۳». فهنا نرى أيضاً أنّ التكبّر ورؤية الذات من موقع الغرور والعجب والتفوق على الآخرين يمثل منبع الكفر والعناد مع الحقّ. لقد كان تكبرهم إلى درجة أنّهم لم يتحملوا حتّى سماع كلام الحقّ والّذى يمكن أن يؤثر فى تنبّههم وإيقاضهم من ضلالهم ولذلك كانوا يضعون أصابعهم فى آذانهم ويستغشون الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۵ ثيابهم على رؤوسهم لكى لا يصل إليهم صوت نوح ويتأثروا بهذا الكلام الإلهى الصادر من أعماق الفطرة الإنسانية، فهذا العداء وهذه الكراهية لكلام الحقّ ليس لها مسوّغ ودافع سوى حالة التكبّر الشديد الّذى كان يعيشه هؤلاء القوم الظالمون. هؤلاء كانوا يتعرضون لنوح ودعوته ويتساءلون من موقع الاعتراض أنّ نوح كان يحيط به الأراذل من الناس والفقراء والمساكين وأبناء الطبقات الضعيفة من المجتمع، فلذلك قرروا عدم الاقتراب من نوح والجلوس معه ما دام هؤلاء الأراذل والضعفاء بحسب تعبيرهم مع نوح. أجل فإنّ التكبّر والأنانية العجيبة الّتى كان يعيشها هؤلاء الناس كانت قد أحرقت الفضائل الأخلاقية فى واقعهم وحوّلتها إلى رماد. وفى الحقيقة فإنّ هذه الرذيلة الأخلاقية وهى التكبّر تعدّ عاملًا أساسياً لعنادهم وإصرارهم على الكفر إلى درجة أنّهم كانوا يضعون أصابعهم فى آذانهم ويغطّون رؤوسهم بثيابهم خوفاً من تأثير كلام نوح فى أنفسهم. ومن الملفت للنظر أنّ هذا العمل إنّما يدلّ على أنّهم كانوا يعترفون فى قرارة أنفسهم بحقّانية دعوة نوح ويعتقدون به ويدل على ذلك وضعهم أصابعهم فى آذانهم وتغطيتهم رؤوسهم بثيابهم. ويُحتمل أيضاً أنّهم كانوا يغطون رؤوسهم بثيابهم لكيلا يروا نوح ولا يراهم نوح فلعلّ رؤيتهم له توجب الأُنس به والرغبة والميل لسماع كلماته. وأخيراً فإنّ حالة العجب والغرور ورّثتهم الجهل وعدم سماع انذارات نوح عليه السلام فى آخر لحظات العمر حيث كانت هناك فرصة للنجاة فلم يكونوا يحتملون صدقه فى هذا الانذار لذلك عندما كان نوح عليه السلام يصنع السفينة فإنّ هؤلاء القوم الظالمين كانوا يمرّون عليه ويهزءون به ويسخرون منه ولكن نوح كان قد حذّرهم بقوله: «... انْ تَسْخَرُوا مِنّا فَانَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ» «۱»، ولكن فى ذلك اليوم سوف لا تكون لكم فرصة للتنبّه حيث تحيط الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۶ بكم أمواج البلاء

والطوفان فلا ملجأ. وأساساً فإنّ أحد علامات المستكبرين هو أنّهم لا يتعاملون مع المسائل الّتى لا تدور فى دائرة مصلحتهم ومنفعتهم من موقع الجديّة بل يتخذونها وسيلة للعب واللهو ويتحركون دائماً من موقع الاستهزاء والسخرية بالمستضعفين حيث يمثل ذلك جزءاً من سلوكهم وديدنهم فى حياتهم، وكم رأينا أنّهم فى مجالسهم ينطلقون للعثور على مؤمن مستضعف ليجعلونه محور سخريتهم وضحكهم، وبذلك يكون هذا السلوك منشأ للترفيه عن أنفسهم، فهؤلاء وبسبب هذه الروح الاستكبارية يرون أنّهم العقل الكلّى ويتصورون أنّ الثروة الّتى اكتسبوها من الطريق الحرام هى علامة وآية لذكائهم ولياقتهم الّتى تبيح لهم أن يتعاملوا مع الآخرين من موقع التحقير والتهميش. وفى «الآية الرابعة» نتجاوز عصر نوح عليه السلام لنصل إلى عصر (قوم عاد) ونبيّهم هود عليه السلام، وهنا نرى أنّ السبب الأساس لشقاء هؤلاء القوم الظالمين هو عامل التكبّر وروح الاستكبار المترسخة فى نفوسهم حيث تقول الآية: «فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُواْ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُواْ بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ» «۱». وهنا نرى أيضاً أنّ هذه الصفة الأخلاقية الذميمة وهى صفة التكبّر والاستكبار كانت سبباً بأن يتصوّروا أنفسهم أقوى الموجودات فى عالم الخلقة وحتّى أنّهم نسوا قدرة اللّه تعالى وبالتالى تعاملوا مع الآيات الإلهية من موقع الإنكار وأوجدوا جداراً سميكاً بينهم وبين الحقّ. والملفت للنظر أنّ الآية الّتى تليها (الآية ۱۶ من سورة فصلت) تشير إلى أنّ اللّه تعالى ولأجل تحقير هؤلاء المتكبرين المعاندين قد سلط عليهم اعصاراً شديداً ومهولًا فى أيّام نحسات بحيث جعلت من أجسادهم كالرماد المبثوث وكالريشة فى مهب الريح. الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۷ أجل فإنّ التكبّر يعدّ حجاباً على بصيرة الإنسان يمنعه من رؤية أيّة قدرة فوق قدرته حتّى أنّه لا يرى قدرة اللّه تعالى على نفسه وأفعاله. وتعبير «بغير الحقّ» هو فى الواقع قيد توضيحى، لأنّ التكبّر والاستكبار بالنسبة للإنسان هو بغير حقّ دائماً وبأيّة حالة، فلا يليق بالإنسان أن يتصرّف من موقع التكبّر ويلبس هذا الرداء الّذى لا يليق إلّابالقدرة الإلهية المطلقة. «الآية الخامسة» تتحدّث عن زمان شعيب وقومه، وهنا نرى أيضاً أنّ السبب الأساسى لشقاء قوم شعيب وضلالهم هو الاستكبار حيث تقول الآية: «قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ» «۱». لماذا يجب على شعيب والّذين آمنوا معه وسلكوا طريق التقوى والانفتاح على اللّه أن يخرجوا من ديارهم ومدنهم؟ هل هناك دليل آخر غير تحرّك الأثرياء والمتكبّرين من قوم شعيب فى التصدى للدعوة الإلهية والرسالة السماوية ونظرتهم إلى الّذين آمنوا من موقع الاستصغار والاستحقار وبالتالى الانطلاق فى سبيل إلغائهم ونفيهم وإبعادهم عن ديارهم؟ أما قولهم «أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا» فلا يعنى أنّ الّذين آمنوا مع شعيب كانوا على ملّة هؤلاء المستكبرين ودينهم، بل بسبب أنّهم كانوا منسوبين إليهم وإلى هذه المدينة، ونعلم أنّ التكبّر وحبّ الذات يوجب على الإنسان المتصف بهذه الصفة أن يرى كلّ شىء متعلّقاً به ومن ممتلكاته. «الآية السادسة» ناظرة إلى عصر موسى وفرعون وقارون، حيث تتحدّث هذه الآية عن قصة هؤلاء وترى أنّ العامل الأساس لانحراف وضلال وشقاء قوم فرعون هو حالة التكبّر فتقول: «وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُواْ فِى الْأَرْضِ الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۸ وَمَا كَانُواْ سَابِقِينَ» «۱»، ولهذا السبب فإنّهم لم يذعنوا للحقّ وبالتالى فقد أصابهم عذاب اللّه وأهلكهم ولن يستطيعوا الفرار منه. (قارون) ذلك الرجل الثرى الّذى كان يرى أنّ ثروته العظيمة دليلًا على مقامه ومنزلته السامية عند اللّه تعالى وكان يرى أنّ هذه الثروة العظيمة إنّما حصل عليها بسبب لياقته وذكائه، ولذلك تملّكه الغرور والفرح والفخر، فكان يخرج على قومه من فقراء بنى إسرائيل بعظيم الزينة ومظاهر الثروة إصراراً منه على تحقيرهم وإذلالهم، وكلّما نصحوه بأن يستخدم هذه الثروة لنيل الدرجات العليا فى الآخرة والسعادة المعنوية فى حركة الحياة والمجتمع، فإنّ هذه النصائح لن تؤثر فيه وذهبت أدراج الرياح، لأنّ الغرور والتكبّر منعه من إدراك حقائق الامور وصدّه عن دفع هذه الأمانة الإلهية الّتى بيده لأيّام معدودة لأصحابها الواقعيين. أمّا «فرعون» الّذى جلس على عرش السلطنة والقدرة فإنّه قد أصابه الغرور والتكبّر بأشد من صاحبه حتّى أنّه لم يقنع من الناس بعبوديتهم له بل كان يرى نفسه أنّه (ربّهم الأعلى). أمّا «هامان» الوزير المقرّب لفرعون والّذى كان شريكاً له فى جميع جرائمه ومظالمه بل إنّ جميع إدارة امور المملكة كانت بيده فإنّ القرآن الكريم صرّح أيضاً بأنّه ابتلى بالكبر والغرور الشديد. هؤلاء الثلاثة اتّحدوا فى مقابل موسى عليه السلام ودعوته الإلهية

وانطلقوا فی الأرض فساداً وأمعنوا فیها اضلالًا للناس وإذلالًا لهم إلی أن شملهم العذاب الإلهی الشدید، فأغرق فرعون وهامان فی أمواج النیل الهادرة حیث کانوا یعدون النیل مصدراً لقدرتهم وأساساً لملکهم، أمّا قارون فقد ابتلعته الأرض بکنوزه وثرواته الطائلة.

«الآیة السابعة» تتحدّث عن قوم عیسی بن مریم علیه السلام والفرق بینهم وبین الیهود حیث الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۱۹ تقول: «لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِینَ ءَامَنُواْ ا لْیَهُودَ وَالَّذِینَ أَشْرَکُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِینَ ءَامَنُواْ الَّذِینَ قَالُواْ إِنَّا نَصَارَی ذَلِکَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّیسِینَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَایَسْتَکْبِرُونَ» «۱». ثمّ تذکر الدلیل والعلّة لهذا التفاوت والفرق بین هاتین الطائفتین وتقول: «ذَلِکَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّیسِینَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَایَسْتَکْبِرُونَ». ومن هذه العبارة یتضح جیداً أنّ أحد العوامل الأصلیة لعداء الیهود للّذین آمنوا هو حالة التکبر والاستکبار تجاه الحقّ فی حین أنّ أحد أدلّة تعامل النصاری مع المؤمنین من موقع المحبّة واللطف هو عدم وجود هذه الصفة الذمیمة فی أنفسهم. إنّ الأشخاص الّذین یعیشون التکبر والاستکبار یریدون أن یقف الآخرون أمامهم موقف الذلّة والحقارة والعجز، ولهذا السبب فإنّهم إذا رأوا یوماً نعمة قد أنعم اللّه بها علی الآخرین فإنّهم یجدون فی أنفسهم عداءً وکراهیة شدیدة تجاه هؤلاء الّذین أنعم اللّه علیهم، أجل فإنّ الاستکبار هو سبب الحسد والحقد والعداء تجاه الحقّ والناس. صحیح أنّ هذه الآیة لا تتحدّث عن جمیع النصاری بل ناظرة إلی النجاشی وقومه فی الحبشة الّذین استقبلوا المسلمین المهاجرین إلیهم أحسن استقبال ولم یلتفتوا إلی وساوس أزلام قریش الّذین أرسلتهم قریش لیحرکوا النجاشی علی طرد المسلمین من الحبشة وتسلیمهم إلی المشرکین، وهذا الأمر هو الّذی تسبّب فی أن یجد المسلمون فی أرض الحبشة ملجأً وملاذاً لهم من شر المشرکین الّذین کانوا ینصبون لهم أشد العداوة والکراهیة، ولکن الآیة علی أیّة حال تقرر أنّ الاستکبار هو العامل الأساس للعداوة والبغضاء للحقّ وأهل الحقّ فی حین أنّ التواضع یُعد أساساً للمحبّة وتعمیق أواصر العلاقة والعاطفة مع أهل الإیمان والخضوع مقابل الحقّ. «الآیة الثامنة» تتحرّک من موقع التأکید علی هذا المعنی وتقریر هذه الحقیقة المهمّة، الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۲۰ وهی أنّ الاستکبار هو سبب (الکفر والعناد وعدم المرونة مقابل الحقّ)، وهنا تستعرض الآیة حالة (الولید بن المغیرة المخزومی) الّذی کان یعیش فی عصر نزول القرآن وتصف حالته فی مقابل الحقّ والآیات القرآنیة وتقول: «ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ* ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَکْبَرَ* فَقَالَ إِنْ هَذَآ إِلَّا سِحْرٌ یُؤْثَرُ» «۱». کلمة «سحر» توضح جیداً أنّ الولید قد أقرّ واذعن بهذه الحقیقة وهی أنّ القرآن الکریم له تأثیر عجیب علی الأفکار والقلوب ویتمتع بجاذبیة کبیرة لعواطف الناس، فلو أنّ الولید نظر إلی هذه الآیات نظر المنصف والطالب للحقّ فإنّه سوف یعد هذا التأثیر الغریب للقرآن دلیلًا علی إعجازه، وبالتالی سوف یؤمن به، ولکن بما أنّه کان ینظر إلیه من خلال حجاب الغرور والتکبّر فإنّه کان یری فیه سحراً کبیراً کسحر الأقوام السالفة، أجل فکلّما تراکم حجاب التکبر علی بصیرة الإنسان وقلبه فإنّه سینظر إلی آیات الحقّ بنظر الباطل وینقلب الباطل فی نظره إلی حقّ. والمشهور أنّ الولید کان یعیش الغرور إلی درجة أنّه کان یقول: «انَا الْوَحِیدُ بْنُ الْوَحِید، لَیْسَ لِی فِی الْعَرَبِ نَظِیرٌ، وَلَا لأَبی نَظِیرٌ!» فی حین أنّ الولید کان یُعتبر بالنسبة إلی الناس فی ذلک الزمان رجلًا عالماً وقد أدرک عظمة القرآن جیداً وقال فیه عبارة عجیبة مخاطباً بنی مخزوم: «إِنَّ لَهُ لَحَلَاوَةً، وَإِنَّ عَلَیْهِ لَطَلَاوَةً، وَانَّ أَعْلَاهُ لَمُثْمِرٌ وَانَّ اسْفَلَهُ لَمُغْدَقٌ، وَانَّهُ لَیَعْلُو وَلَا یُعْلی عَلَیْهِ». هذا التعبیر یقرب بوضوح إلی أنّ الولید أدرک عظمة القرآن أکثر من أیّ شخص آخر من قومه ولکن التکبّر والغرور منعه من رؤیة شمس الحقیقة والإذعان لنور الحقّ. وتأتی «الآیة التاسعة» لتستعرض فی سیاقها خطاب مؤمن آل فرعون لقومه ویحتمل أن تکون هذه الآیة جزءاً من خطابه أو جملة مستقلة معترضة من الآیات القرآنیة الکریمة حیث نقرأ فیها قوله تعالی: «الَّذِینَ یُجَادِلُونَ فِی ءَایَاتِ اللَّهِ بِغَیْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ کَبُرَ مَقْتًا الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۲۱ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِینَ ءَامَنُواْ کَذَلِکَ یَطْبَعُ اللَّهُ عَلَی کُلّ قَلْبِ مُتَکَبّرٍ جَبَّارٍ» «۱». «یطبع» من مادّة «طبع» وتأتی فی هذه الموارد بمعنی الختم، وتشیر إلی عمل تم فی الماضی والحال ویراد به الشیء الّذی یُراد بقائه دون استخدام وتصرف فیغلق علیه ویُسد بابه ویوضع علیها مادّة لاصقة إما من الطین أو الشمع أو ما شابه ذلک ویختم علیها بختم معین بحیث إذا أراد شخص فتحه سیضطر إلی کسر هذا الختم وبالتالی سیتّضح ویتبین أنّه تصرّف فیه فیحال إلی المحکمة. وعلی هذا الأساس فإنّ عملیة الطبع والختم علی قلوب المتکبرین یشیر إلی أن عناد هؤلاء وعدائهم للحقّ قد أسدل علی قلوبهم وأفکارهم حجاباً ظلمانیاً بحیث لا یقدرون معه علی

إدراک حقائق عالم الوجود، ولا یرون سوی أنفسهم ومصالحهم وأهوائهم النفسیة ونوازعهم الدنیویة، فکانت أذهانهم وعقولهم بمثابة ظروف مغلقة لا یمکن معها من إفراغ محتواها الفاسد ولا ملئها بالمحتوی السلیم والفکر الصحیح، وهذا فی الواقع هو نتیجة التکبر وحالة الجباریة الّتی یعیشها هؤلاء الاشخاص، وفی الواقع فإنّ الصفة الثانیة متولدة من الصفة الاولی لأنّ (جبار) تأتی فی هذه الموارد بمعنی الشخص الّذی یعاقب وینتقم من مخالفیه من موقع الغضب الشدید والنقمة لا من موقع العقل والحکمة، وبعبارة اخری: أنّ الجبّار هو الشخص الّذی لا یری إلّانفسه وأهوائه ولا یری للآخرین محلًا من الإعراب سوی أنّهم اتباع له. وبالطبع فإنّ هذه المفردة «الجبّار» تطلق أحیاناً علی اللّه تعالی أیضاً ویراد بها مفهومٌ خاص وهو الشخص الّذی یُجبر نقائص الآخرین ویصلحها. وتنطلق «الآیة العاشرة» لتشیر إلی أصل کلی لا یختصّ بطائفة معیّنة، وهو أنّ الکافرین عندما یقتربون من حافة جهنم یُقال لهم إنّ هذا العذاب هو بسبب أنّکم تتصفون بصفة التکبر الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۲۲ فتقول الآیة: «قِیلَ ادْخُلُواْ أَبْوَا بَ جَهَنَّمَ خَالِدِینَ فِیهَا فَبِئْسَ مَثْوَی ا لْمُتَکَبِّرِینَ» «۱». وشبیه هذا المعنی قد ورد فی آیات متعددة اخری من القرآن الکریم منها ما ورد فی الآیة ۶۰ من سورة الزمر: «الَیْسَ فِی جَهَنَّمَ مَثْوًی لِلْمُتَکَبِّرِینَ». ومن الملفت للنظر أنّ من بین جمیع الصفات الأخلاقیة الذمیمة لأصحاب النار قد أکدت الآیة علی مسألة التکبر ممّا یقرر هذه الحقیقة، وهی أنّ هذه الصفة الذمیمة هی الأساس فی سقوط هؤلاء فی هذا المصیر المؤلم بحیث تکون جهنم هی مقرّهم النهائی ومصیرهم الخالد. وممّا یلاحظ فی هذه الآیة أنّ کلمة «مثوی» من مادّة «ثوی تعنی المحل الدائم والمقر الّذی یستقر فیه الإنسان فی نهایة المطاف، وهو إشارة إلی أنّ هؤلاء لا نجاة لهم من العذاب الألیم فی الآخرة. «الآیة الحادیة عشر» تتحدّث أیضاً عن المتکبرین بشکل عام وتقول: «سَأَصْرِفُ عَنْ آیَاتِیَ الَّذِینَ یَتَکَبَّرُونَ فِی الْأَرْضِ بِغَیْرِ ا لْحَقّ وَإِنْ یَرَوْاْ کُلَّ آیَةٍ لَّایُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِنْ یَرَوْاْ سَبِیلَ الرُّشْدِ لَایَتَّخِذُوهُ سَبِیلًا وَإِنْ یَرَوْاْ سَبِیلَ ا لْغَیّ یَتَّخِذُوهُ سَبِیلًا ذَلِکَ بِأَنَّهُمْ کَذَّبُواْ بِآیَاتِنَا وَکَانُواْ عَنْهَا غَافِلِینَ» «۲». هذه العبارات المثیرة الواردة فی هذه الآیة الکریمة تخبر عن عمق المصیبة الّتی یبتلی بها هؤلاء المتکبرون، فإنّ اللّه تعالی سیجازی هؤلاء الأشخاص ویعاقبهم من موقع أنّهم لا یجدون فی أنفسهم قبولًا للحقّ بحیث إنّهم لو رأوا جمیع آیات اللّه ومعجزاته المتنوعة فإنّهم لا ینفتحون علی الإیمان ولا یسلکون خط الصلاح والهدی ولو أنّهم وجدوا الصراط المستقیم مفتوحاً أمامهم فإنّهم لا یسلکونه بل إذا وجدوا طریق الغی والضلال فإنّهم یسلکونه من فورهم ویتحرکون فی خط الضلالة والباطل والإنحراف. الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۲۳ وعبارة «بغیر الحقّ» هی فی الواقع قید توضیحی لأنّ العظمة والکبریاء مختصان باللّه تعالی وقدرته المطلقة، وأمّا بالنسبة للإنسان الّذی لیس سوی ذرّة صغیرة من ذرات عالم الوجود الواسع، فإنّ رداء العظمة والکبریاء بالنسبة له لیس حقّاً ولیس من حقّه أن یرتدی هذا الرداء. بعض المفسّرین ذهبوا إلی أنّ هذا القید هو قیدٌ احترازی وقالوا: إنّ التکبر علی قسمین: تکبر فی مقابل أولیاء اللّه فهو (بغیر الحقّ) وفی مقابل ذلک التکبر فی مقابل أعداء اللّه وهو (بالحقّ) ولکن مع الالتفات إلی جملة «یَتَکَبَّرُونَ فِی الْأَرْضِ» یتّضح جیداً أنّ هذا التفسیر غیر منسجم مع سیاق الآیة لأنّ التکبر فی الأرض وفی مقابل البشر جمیعاً هو خلقٌ مذموم وقبیح بصورة مطلقة. وعلی أیّة حال فإنّ الآیة الشریفة تشیر فی سیاقها إلی أهم آثار وعواقب التکبر الوخیمة، وهی أنّ مثل هذا الإنسان لا یذعن أمام آیات الحقّ ولا یؤمن بها بل علی العکس من ذلک، فإنّه وبسبب هذه الصفة الذمیمة سیدخل أبواب الضلالة، ویسلک سبیل الغی لدی مشاهدته فوراً. أجل فإنّ صفة الکبر والغرور تمثل حجاباً علی قلب الإنسان وروحه ممّا یتسبّب أن یری الحقّ باطلًا والباطل حقّاً، وبذلک یحجب عن الإنسان أبواب السعادة والنجاة ویفتح له أبواب الضلالة وعلی أساس أنّها أبواب السعادة، فما أعظم شقاء الإنسان الّذی لا یری علائم الحقّ ویتغافل عنها ویسلک طریق الضلالة والزیغ والإنحراف ویتصور أنّ هذا المسیر هو الّذی یؤدی به إلی السعادة والنجاة!! «الآیة الثانیة عشر» تقول: «لَاجَرَمَ أَنَّ اللَّهَ یَعْلَمُ مَایُسِرُّونَ وَمَا یُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَایُحِبُّ ا لْمُسْتَکْبِرِینَ» «۱». وقد ورد ما یشبه هذا المعنی فی القرآن الکریم مرّات عدیدة من قبیل قوله: الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۲۴ «وَاللَّهُ لَایُحِبُّ الظَّالِمِینَ» «۱». «وَاللَّهُ لَایُحِبُّ الْمُفْسِدِینَ» «۲» «إِنَّ اللَّهَ لَایُحِبُّ الْمُعْتَدِینَ» «۳» «إِنَّهُ لَایُحِبُّ الْمُسْرِفِینَ» «۴» «إِنَّ اللَّهَ لَایُحِبُّ الْخَائِنِینَ» «۵» «إِنَّ اللَّهَ لَایُحِبُّ الْفَرِحِینَ» «۶» ویقول فی الآیة محل البحث: «انَّهُ لَایُحِبُّ الْمُسْتَکْبِرِینَ». إنّ التدقیق فی مثل هذه العبارات یوضح وجود رابطه خاصة بین هذه الامور المذکورة فی هذه

الآيات، بحيث يمكن القول أنّ القدر المشترك بين الصفات الرذيلة فى هذه الآيات السبعة المذكورة آنفاً هو حبّ الذات والغرور والعجب أو التكبّر الّذى يعد منبعاً للظلم والفساد والإسراف والفخر على الآخرين. وهنا تقول الآية: إنّ اللّه تعالى لا يحب أيّاً من هذه الطوائف السبعة، ومفهومها أنّ من يتصف بهذه الصفات ويكون مصداقاً لأحد هذه الطوائف فإنّه مطرود من ساحة الربوبية والرحمة الإلهية الواسعة، لأنّه متصف بأخطر الرذائل الأخلاقية، وهى التكبّر المانع من القرب إلى اللّه تعالى. «الآية الثالثة عشر» من الآيات محل البحث وكما ورد فى الروايات فى شأن نزولها أنّها تتحدّث عن طائفة من نصارى نجران وتقول: «لَنْ يَسْتَنكِفَ ا لْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ ... الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۵ ا لْمَلئِكَةُ ا لْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا» «۱». وتقول الآية الّتى تليها مؤكدة على أصل مهم ومصيرى فى حياة الإنسان والمجتمع البشرى: «فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصلِحتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُواْ وَاسْتَكْبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَايَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَانَصِيرًا» «۲». هذه الآيات ناظرة إلى دعوى واهية لطائفة من النصارى الّذين ذهبوا إلى إلوهية المسيح وتصوّروا أنّهم لو أنزلوا المسيح من هذا المقام وأنّه عبداللّه فإنّ ذلك سيكون هتكاً لحرمته وإهانة لساحته ومقامه السامى. وأمّا القرآن فيقول لهم أنّه ليس المسيح ولا أى واحد من الملائكة أو من المقرّبين له هذا المقام، ولا يتصوّر أحد منهم ذلك بل يرون أنفسهم عباد اللّه ويذعنون أمام هذه الحقيقة الناصعة، ويأتون بطقوس العبودية له، ثمّ يذكر القرآن أصلًا كليّاً ويقول: إذا تحرّك أى واحد من المخلوقين حتّى الأنبياء الإلهيين أو الملائكة المقرّبين مبتعداً عن خط العبودية ومتلبساً بلباس الاستكبار أمام الحقّ تعالى واستنكف عن عبادته وتكبر فإنّه سوف لا يستطيع انقاذ نفسه من العذاب الإلهى ولا يستطيع أحد انقاذه من خالق العقاب الأليم المقرّر له. والملفت للنظر أنّ الآية الأخيرة تقرّر أنّ الإيمان والعمل الصالح يقعان فى النقطة المقابلة، للاستكبار والأنانية ورؤية الذات أعلى من الواقع، وبالتالى يمكننا أن نستوحى منها هذه النتيجة، وهى أنّ من يسلك طريق الاستكبار وينطلق فى فكره وسلوكه من موقع التكبّر فليس له إيمان حقيقى ولا عمل صالح. «الاستنكاف» فى الأصل من مادّة «نكف» على وزن «نصر» وهى فى الأصل بمعنى مسح قطرات الدموع على الوجه بالأصابع، وعليه فيكون الاستنكاف من عبودية اللّه تعالى الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۶ يعنى الابتعاد عنه وذلك بسبب أحد العوامل المختلفة من قبيل الجهل أو الكسل وحب الراحة وغير ذلك، ولكن عندما وردت جملة «اسْتَكْبَرُوا» بعد هذه العبارة فإنّ ذلك يشير إلى الاستنكاف الّذى يقع من موقع الكبر والغرور ويكون معلولًا لهما، وبذلك يكون ذكر هذه الجملة بعد تلك العبارة فى الواقع إشارة إلى هذه النكتة الدقيقة. وعلى أيّة حال فإنّ التعبيرات المثيرة فى هذه الآيات تدلّ على أهمية هذه المسألة وأنّ هذه الصفة الذميمة وهى الاستكبار تنتج هذه العواقب الوخيمة لدى كلّ إنسان يتصف بها. وفى «الآية الرابعة عشر» والأخيرة من الآيات محل البحث نقرأ نتيجة اخرى من النتائج الخطيرة والإليمة المترتبة على حالة الاستكبار حيث تقول الآية: «إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَاتُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَا بُ السَّمَآءِ وَلَايَدْخُلُونَ ا لْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ ا لْجَمَلُ فِى سَمِّ ا لْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِى الْمُجْرِمِينَ» «۱». ففى هذه الآية الشريفة ورد أوّلًا (التكذيب بآيات اللّه) إلى جانب (الاستكبار) وكما ذكرنا سابقاً أنّ أحد العلل المهمّة لإنكار آيات اللّه والتصدى لدعوة الأنبياء هى حالة الاستكبار الّتى يعيشها الأقوام البشرية، فأحياناً كانوا يقولون: ما هو امتياز هذا النبى عنا؟ ولماذا نزلت عليه آيات اللّه دوننا؟ ويقولون أحياناً اخرى: إن الاراذل والفقراء من الناس إلتفّوا حوله ونحن أعلى شاناً من أن نكون كأحدهم، ولو أنّ هذا النبى قد طرد هؤلاء المؤمنين به من حوله فسوف يفسح لنا المجال للدخول فى مجلسه والمشاركة فى الاستماع لكلماته ومواعظه، وهكذا من خلال هذه التبريرات والذرائع الواهية كانوا يعرضون عن الإيمان باللّه والتحرّك فى خط المسؤولية. عبارة: «وَلَايَدْخُلُونَ ا لْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ ا لْجَمَلُ فِى سَمِّ ا لْخِيَاطِ» والّتى وردت فى القرآن الكريم فى هذه الآية فقط هى تأكيد واضح على عظمة هذه الخطيئة وهذا الاتصاف السلبى والخطير فى حركة الإنسان فى الحياة، أى كما أنّ عبور الجمل (أو طبقاً لتفسير آخر: الحبل الضخم) غير ممكن ومستحيل من ثقب أبرة فإنّ دخول المتكبرين إلى الجنّة والنعيم الإلهى الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۷ محال أيضاً، ولعلّ ذلك يشير إلى أنّ طريق الجنّة إلى درجة من الدقّة بحيث يشبه ثقب الأبرة ولا يمر من خلاله إلّامن تحلّى بصفة التواضع ورأى نفسه من واقع حاله.

وجملة: «لَاتُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَا بُ السَّمَآءِ» هى إشارة إلى ما ورد فى الأحاديث الإسلامية أيضاً، وهو أنّ المؤمنين عندما ينتقلون من هذه الحياة الدنيا إلى الحياة الاخرى أنّ روحهم وأعمالهم تصعد إلى السماء وتفتح لهم أبواب السماء ويستقبلهم الملائكة، ولكن عندما يصعد بروح الكفّار والمتكبرين وأعمالهم إلى السماء فسوف توصد أبواب السماء أمامهم ويناد المنادى أنّه أذهبوا بها إلى جهنم وبئس المصير.

النتيجة النهائية:

ونستنتج من مفهوم الآيات المذكورة آنفاً أنّ القرآن الكريم يعتبر (التكبّر والاستكبار) من أقبح الصفات والأعمال على مستوى السلوك البشرى، وأنّ هذه الصفة الذميمة يمكنها أن تكون مصدراً للكثير من الذنوب العظيمة وحتّى أنّها قد تورث الإنسان حالة الكفر باللَّه تعالى والأشخاص الّذين يعيشون هذه الحالة لا يتسنّى لهم إدراك معنى السعادة الحقيقية والطريق إلى مرتبة القرب الإلهى موصد أمامهم، وعليه فإنّ على السالكين طريق الحقّ لابدّ لهم قبل كلّ شىء من تطهير أنفسهم وقلوبهم من تلوثات هذه الصفة الأخلاقية القبيحة بأن لا يروا لأنفسهم تفوّقاً فى وجودهم على الآخرين ولا ينطلقوا فى تعاملهم مع الناس من موقع التكبر والأنانية، فإنّ هذه الحالة من أكبر موانع الوصول إلى اللَّه تعالى والقرب المعنوى من الكمال المطلق.

التكبّر فى الروايات الإسلامية:

وقد ورد فى المصادر الروائية أحاديث كثيرة على مستوى ذمّ التكبر وبيان حقيقته ونتائجه الوخيمة على الفرد فى حركة الحياة والواقع وطرق علاجها ولا يسعنا ذكر هذه الروايات بأجمعها فى هذا المختصر، ولكننا نكتفى منها بما يلى: ١- ورد فى الحديث الشريف عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أنّه قال: «ايَّاكُمْ وَالْكِبْرَ فَانَّ ابْلِيسَ حَمَلَهُ الْكِبْرُ عَلَى أنْ لَايَسْجُدَ لِآدَمَ» «١». ٢- وهذا المعنى نفسه ورد بتعبير آخر فى خطب نهج البلاغة حيث نقرأ فى الخطبة القاصعة كلاماً كثيراً عن (تكبر إبليس) والنتائج المترتبة على ذلك حيث يقول: «فَاعْتَبِرُوا بِمَا كَانَ مِنْ فِعْلِ اللَّهِ بِابْلِيسَ اذْ احْبَطَ عَمَلَهُ الطَّوِيلَ وَجَهْدَهُ الْجَهِيدَ ... عَنْ كِبْرِ سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ فَمَنْ ذَا بَعْدَ إِبْلِيسَ يَسْلَمُ عَلَى اللَّهِ بِمِثْلِ مَعْصِيَتِهِ» «٢». إنّ العبارات المثيرة أعلاه تبين جيداً أنّ التكبر والأنانية وحالة الفوقية الّتى يعيشها إبليس والإنسان بإمكانها أن تفضى، ولو فى لحظات قليلة، إلى أخطر العواقب الوخيمة وكيف أنّها كالنار المحرقة الّتى تأتى على الأخضر واليابس من الأعمال الصالحة فتحرقها وتجعلها رماداً منثوراً وتتسبب فى الشقاء الأبدى والعذاب الخالد لصاحبها. ٣- وفى حديث آخر عن الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: «إِحْذَرِ الْكِبْرَ فَانَّهُ رَأْسُ الطُّغْيَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّحْمَنِ» «٣». وهذا الحديث الشريف يبين هذه الحقيقة، وهى أن مصدر الكثير من الذنوب والخطايا هى حالة الكبر والفوقية الّتى يعيشها الإنسان بالنسبة إلى الآخرين. ۴- وفى حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «مَا دَخَلَ قَلْبَ امْرِءٍ شَيْءٌ مِنَ الْكِبْرِ إلّا نَقَصَ مِنْ عَقْلِهِ مِثْلُ مَا دَخَلَهُ مِنْ ذَلِكَ! قَلَّ ذَلِكَ أوْ كَثُرَ» «۴». ۵- وفى اصول الكافى ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «اصُولُ الْكُفْرِ ثَلَاثَةٌ، الاخلاق فى القرآن، ج ٢، ص: ٢٩ الْحِرْصُ وَالْاسْتِكْبَارُ وَالْحَسَدُ، فَامَّا الْحِرْصُ فَانَّ آدَمَ حِينَ نُهِيَ عَنِ الشَّجَرَةِ حَمَلَهُ الْحِرْصُ عَلَى أنْ اكَلَ مِنْهَا، وَامَّا الْاسْتِكْبَارُ فَابْلِيسُ حَيْثُ امِرَ بِالسُّجُودِ لِآدَمَ فَابى، وَامَّا الْحَسَدُ فَابْنَا آدَمَ، حَيْثُ قَتَلَ احَدُهُمَا صَاحِبَهُ» «١». وعليه فإنّ أوّل الذنوب الّتى نشأت على الأرض كان مصدرها هذه الثلاثة من الصفات الأخلاقية الذميمة. ۶- وفى حديث آخر عن الإمام الباقر والإمام الصادق عليهما السلام قالا: «لَايَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ كِبْرٍ» «٢». ٧- وفى حديث آخر عن الإمام على عليه السلام أنّه قال: «اقْبَحُ الْخُلْقِ التَّكَبُّرُ»». إنّ الأحاديث الإسلامية الواردة فى المصادر الروائية كثيرة فى هذا الباب ولكن هذا المقدار المعدود من هذه الأحاديث يكفى لبيان شدّة قبح هذه الرذيلة. فقد قرأنا فى الأحاديث المذكورة آنفاً أنّ الكبر هو مصدر الذنوب الاخرى، وعلامة على نقصان العقل، وسبباً لإهدار طاقات الإنسان وقواه المعنوية، ويعتبر من أقبح الرذائل الأخلاقية بحيث إنّه يتسبب فى حرمان الإنسان من دخول الجنة فى نهاية

المطاف، وكلّ واحد من هذه الامور بحدّ ذاته يمكن أن يكون عاملًا مؤثراً فى ردع الإنسان عن التحرّك فى هذا الاتجاه وسلوك طريق التكبّر، فكيف بأن يتصف بمثل هذه الصفة الذميمة الّتى تؤدى إلى سقوطه من مقام الإنسانية ومرتبة الإيمان فى حركة التكامل المعنوى؟

التكبّر فى منطق العقل:

ومضافاً إلى الآيات والروايات الشريفة فإنّ (التكبّر والاستكبار) يُعتبر مذموماً فى منطق العقل بشدّة، لأنّ العقل يرى أنّ جميع أفراد البشر هُم عباد اللَّه تعالى وكلّ إنسان يجد فى نفسه نقاط إيجابية وقابليات وملكات فى طريق الكمال، وكلّهم من أب واحد وامّ واحدة، فهم سواسية فى ميزان الخلق، فلا دليل على أن يرى أى إنسان نفسه أعلى من الآخرين ويفتخر على غيره ويسعى لتحقيره، وحتّى لو رأى فى نفسه موهبة من اللَّه تعالى لم تكن لدى الآخرين، فمثل هذه الموهبة يجب أن تكون سبباً ليتحرك فى خط الشكر للَّه‌تعالى والتواضع لا فى خط الكبر والغرور. إنّ قباحة هذه الصفة الذميمة يعد من البديهيات الّتى يشعر بها كلّ إنسان فى وجدانه ويعترف بها، ولهذا فإنّ الأشخاص الّذين لا يعتنقون أى دين ومذهب يذمون حالة التكبّر والأنانية أيضاً ويرون أنّها من أقبح الصفات والسلوكيات فى دائرة السلوك الإنسانى. وفى الواقع فإنّ قسماً مهماً من مسألة (حقوق الإنسان) الّتى تم تدوينها من قِبل مجموعة من المفكّرين غير المؤمنين ناظرة إلى مسألة التصدى لحالة الاستكبار الدولى، ومع أننا قد نرى من الناحية العملية نتائج معكوسة على هذا القرار الدولى بحيث أصبح أداة طيّعة بيد المستكبرين للتحرك من موقع إدانة الآخرين لا العمل على تطبيق هذه المقررات الأخلاقية بإنصاف على جميع الدول والمجتمعات البشرية المعاصرة. وأساساً كيف يرتدى الإنسان رداء التكبّر فى حين إنه وكما يقول أميرالمؤمنين عليه السلام كان فى البدايه نطفة حقيرة، ثمّ جيفة نتنة، ثمّ هو فيما بينهما يحمل العذرة؟ الإنسان ضعيف وعاجز إلى درجة أنّ البعوضة تؤذيه وحتّى أقل من البعوضة، أى المكروب والفيروس الّذى لا يُرى بالعين المجرّدة قد يوقعه فى حبال المرض الشديد ويؤدى به إلى أن يرقد على سرير المرضى لمدّة طويلة، والإنسان الّذى يتالم من حرارة الهواء أو برودته ولو انقطع المطر مدّة عنه لشعر بالهلاك والتلف ولو أنّ المطر زاد قليلًا عن المألوف لوقع فى مصيبة أدهى ولو أنّه قد ارتفع ضغطه قليلًا لوقع فى خطر الموت وكذلك لو انخفض ضغطه أيضاً، وهو لا يعلم مصيره ومستقبله حتّى لمدى ساعة من المستقبل الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۱ القريب ولا يعلم متى يحين أجله وقد يكون أقرب الناس إليه هو الّذى يقتله ويذهب بحياته، وقد يكون الماء الّذى يروى حياته موجباً لموته أيضاً، وكذلك الهواء الّذى يتنسّمه ويستنشقه قد يتحول إلى إعصار مدمر فى حركة سريعة فيتحول بيته ومأواه إلى خرائب وبذلك يفقد كلّ شىء لأتفه الأسباب. ومن الامور الّتى تمثل علامة من علامات عجز الإنسان هى الأمراض الّتى تأخذ بحياة الإنسان وسعادته وسلامته والّتى غالباً ما تكون بسبب المكروبات والفيروسات الصغيرة جداً بحيث لا ترى إلّابأقوى المجاهر والمكرسكوبات وبإمكانها أن تصرع أقوى الناس واغناهم وأشدّهم قوّة وقدرة. إنّ مرض السرطان الموحش الّذى يُعدّ مرض العصر فى هذا الزمان ويحصد أكثر الضحايا على الرغم من سعى آلاف الأطباء والعلماء فى كلّ يوم وصرف مليارات من الأموال لعلاجه وايقافه عند حدّه هذا المرض كيف يحدث؟ أنّه يحدث بسبب طغيان واستكبار وتضخم خلية واحدة من خلايا البدن الّتى لا تُرى إلّابالمجهر العظيم حيث تشرع هذه الخلية بالتكثّر من دون وازع أو نظم معين، وهكذا تتضخّم هذه الخلايا وتصبح على شكل غدّة سرطانية فى زمن قليل. إنّ الكثير من القادة العسكريين ورؤساء العالم الّذين يقودون الجيوش العظيمة قد صُرعوا بهذا الداء الوبيل، أى أنّ جيوشهم العظيمة لم تقدر على التصدى لخليّة صغيرة جداً من خلايا الجسد. أجل فمثل هذا الضعف والعجز الذاتى للإنسان كيف يسوغ له إدّعاء العظمة والكبرياء بحيث يرتدى لباس العزة والعظمة على المخلوقين فى حين أنّ العظمة والكبرياء مختصّتان باللَّه تعالى وليس لسواه من المخلوقات سوى العجز والفاقة والفقر. ونختم هذا البحث بحديث عن أميرالمؤمنين عليه السلام يبين فيه خلاصة لهذا البحث المنطقى ببيان جميل حيث يقول: «مِسْكِينُ بْنُ آدَمَ مَكْتُومُ الْاَجَلِ، مَكْنُونُ الْعِلَلِ، مَحْفُوظُ الْعَمَلِ، الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۲

تُؤْلِمُهُ الْبَقَّةُ وَتَقْتُلُهُ الشَّرْقَةُ، وتُنْتِنُهُ الْعَرْقَةُ» «۱». فهل مع هـذا الحال يليق بالإنسان أن يرى لنفسه تفوقاً وتكبّراً على الآخرين ويفتخر عليهم من موقع رؤية العظمة للذات والأنا؟

ملاحظات:

اشارة

وقد بقيت هنا مسائل وامور مهمّة لابدّ من بيانها وهى كما يلى:

۱- تعريف التكبّر وحقيقته

قـال علماء الأخلاق: إنّ أساس التكبّر وتعريفه هو أن يرى الإنسان علوّاً وتفوقاً على غيره، وعليه فالتكبّر يتكون من ثلاثـة أركان: الأوّل أن يرى لنفسه مقاماً ومرتبـة معيّنـة، الثـانى أن يرى لغيره أيضـاً مقامـاً معيّنـاً، والركن الثالث أن يرى مقامه أعلى من مقام الآخر ويشـعر بالراحـة والفرح لأجـل ذلـك. وعلى هـذا الأساس قالوا: إنّ التكبّر يختلف عن العُجب، ففى العجب لا توجـد مقارنـة مع الآخر، بل إنّ الإنسان يتملّكه حالـة من رؤيـة العظمـة فى نفسه بسـبب العلم أو الثروة أو القدرة أو حتّى العبادة حتّى لو لم يكن إنسان آخر على وجه الأرض، ولكن فى حالـة التكبّر هناك مقارنـة مع الآخرين حتماً بحيث يرى نفسه أعلى منهم. إنّ مفردة «الكبر والتكبّر» تارة تطلق على الحالة النفسـية الّتى ذكرناها آنفاً، وتارة اخرى تطلق على العمل أو الحركة الناشـئة من تلك الحالة النفسانية، مثلًا أن يجلس الإنسان أو يسـير بخطوات أو يتحـدّث بحديث يظهر منه انه يرى لنفسه تفوقاً على أقرانه وجلسائه، فمثل هذه الأعمال والسـلوكيات تسـمّى بالتكبّر أيضاً والّتى تمتـد فى جذورها وأصـلها إلى تلك الحالة الباطنية والنفسانية الذميمة. الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۳ إنّ علائم التكبّر كثيرة، منهـا أنّ المتكبر يتوقع اموراً كثيرةً من النـاس مثـل أن يتوقع منهم أن يسـلموا عليه، وأن لا يـدخل أحـداً إلى المجلس قبله، وأن يجلس فى صـدر المجلس دائماً، والناس لا يرون لأنفسـهم شخصـية أمامه ولا يتكلمون معه من موقع الانتقاد والنقد بل حتّى من موقع النصـيحة والموعظة فيحفظون احترامه وحرمته دائماً ويقفون أمامه موقف الخاضع الخاشع ويتحدثون بعظمته ومقامه السامى دائماً. ومن البديهى أنّ ظهور وبروز هذه الحالات فى ممارسات الإنسان وسـلوكياته تابع لدرجة شدّة وضعف حالة التكبّر فى واقعه النفسانى، ففى بعض الموارد تتجلّى هـذه العلامـات جميعـاً، وفى بعضـها الآـخر يتجلّى قسم منها. هـذه الحالات والسـلوكيات فى الواقع الخارجى لها جـذور باطنيـة وأحياناً تكون ضـعيفة وخفيّة إلى درجة إن الإنسان نفسه لا يشـعر بوجودها بل قد يتصور هذه الصـفة الذميمة من موقع نقطـة القوّة (من قبيل الاعتماد على النفس وتوكيد الذات والشخصـية) فتختلط عليه الحالة، وأحياناً تكون ظاهرة إلى درجة أنّ الآخرين أيضاً يدركون وجودها فى هذا الإنسان.

۲- أقسام التكبّر

هناك مفاهيم متعددة تحكى عن هذه الحالة النفسانية حيث يتصور البعض أنّها مترادفة وبمعنى واحد، والحال أنّ هناك اختلاف دقيق فيما بينها رغم أنّها تمتـد جميعاً إلى أصل «التكبّر» ولكنها تتجلّى فى زوايا ووجوه مختلفـة. (حالـة الفوقية)، (الأنانية)، (الذاتية)، (عظمة الشخصـية)، (التفاخر)، كلّ هذه المفاهيم تمد جذورها إلى أصل «التكبر» رغم أنّها تعنى مفاهيم مختلفة وناظرة إلى سـلوكيات متنوعة فى حركـة الإنسان الإجتماعية والنفسـية. فقد تحكى الكلمة عن رؤية الذات أعلى من الآخرين وهى (النظرة الفوقية). وقد يرى الإنسان نفسه هو الأجـدر بسـبب هـذه الفوقيـة فيتحرّك ليسـتلم زمـام الامـور فى جميع المنـاحى الإجتماعيـة والمناصب السياسـية فهى (النظرة

الأنانیة). الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۳۴ والشخص الّذی یسعی فی المسائل الإجتماعیة وخاصة عند بروز المشکلات والأزمات أن یؤمّن منافعه الشخصیة ولا یهتم بمصالح الآخرین ومنافعهم فهی (الأنانیة). والشخص الّذی یسعی إلی تحکیم سلطته علی الآخرین وجعل الآخرین طوع إرادته فهو مبتلی بحالة (السلطویة)، وأخیراً فإنّ الشخص الّذی یسعی لاظهار ما لدیه من مقام أو ثروة أمام الآخرین ویتعزّز بها فهی حالة (التفاخر). وعلی هذا الأساس فإنّ هذه الصفات والحالات تشترک جمیعاً فی أصل «التکبّر» رغم أنّها تظهر وتتجلی بأشکال مختلفة.

۳- التکبّر علی مَنْ؟

یقسّم علماء الأخلاق التکبّر إلی ثلاث أقسام: ۱- التکبّر أمام اللّه. ۲- التکبّر مقابل الأنبیاء. ۳- التکبّر علی خلق اللّه. والمراد من التکبّر مقابل اللّه تعالی والّذی یُعد من أسوأ أنواع التکبّر وناشئاً من غایة الجهل هو أنّ الإنسان الضعیف یدّعی الإلوهیة، ولیس فقط أنّه لا یری نفسه عبداً للّه‌بل یسعی إلی دعوة الناس لعبادته أیضاً، أو یقول کما قال فرعون «... انَا رَبُّکُمُ الْاعْلَی» «۱» أو یقول «... مَا عَلِمْتُ لَکُمْ مِنْ الهٍ غَیْری ...» «۲». ومن البعید جداً أن یری الإنسان مثل «فرعون» الّذی حکم أرض مصر سنین متمادیة أنه واقعاً «الربّ الأعلی للناس وأنّه معبود الناس جمیعاً حتّی لو کان علی درجة شدیدة من قلّة العقل وقلّة الذکاء، إذن فالمراد حسب الظاهر أنّ فرعون وأمثاله ولغرض تحمیق عامّة الناس واستحمار السُذّج منهم أن یدعوا هذا الأدّعاء لتثبیت أرکان حکومتهم وسیطرتهم. الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۳۵ الشکل الآخر من التکبّر إمام اللّه هو ما نجده من تکبّر إبلیس وأتباعه حیث استکبروا ورفضوا إطاعة اللّه تعالی من موقع الأفضلیة لأنفسهم والاعتراض علی الحکم الإلهی وأمره حیث قالوا: إنّ إبلیس الّذی خلق من النار لا ینبغی له السجود لمخلوق من تراب کما تقول الآیة علی لسان إبلیس: «... لَمْ اکُنْ لِاسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَاءٍ مَسْنُونٍ» «۱»، أو تقول الآیة: «... قَالَ انَا خَیْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِی مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِینٍ» «۲». أجل فإنّ الحجاب العظیم للکبر والغرور قد یصل إلی درجة أن یحجب عقل الإنسان وبصیرته عن رؤیة حقائق الامور وأنّه موجود ضعیف فیری انه أعلم من اللّه تعالی. القسم الآخر للتکبّر هو التکبّر فی مقابل الأنبیاء والمرسلین الّذین أرسلهم اللّه تعالی إلی أقوامهم کما نری هذه الحالة فی طوائف المستکبرین من الأقوام السالفة أمام أنبیائهم اذ رفضوا طاعة الأنبیاء من موقع التکبّر والغرور وقالوا: «... أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَیْنِ مِثْلِنَا ...» «۳» أی موسی وهارون، وتارة کانوا یقولون مثل مقولة قوم نوح علیه السلام: «وَلَئِنْ اطَعْتُمْ بَشَراً مِثْلَکُمْ انَّکُمْ إذاً لَخَاسِرُونَ» «۴». وتارة اخری یتذرعون بذرائع طفولیة ویقولون من موقع العناد واللجاجة: «وَقَالَ الَّذِینَ لَا یَرْجُونَ لِقَائَنَا لَوْلَا انْزِلَ عَلَیْنَا الْمَلَائِکَةُ أَوْ نَری رَبَّنَا» «۵». القرآن الکریم یقول فی سیاق هذه الآیات الشریفة: «لَقَدِ اسْتَکْبَرُوا فِی انْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوّاً کَبِیراً» «۶». القسم الثالث من أقسام التکبّر هو التکبّر فی مقابل عباد اللّه بحیث یری نفسه أعلی منهم ویری الآخرین من موقع الحقارة والدنائة وأنّهم لا قیمة لهم أمامه وبالتالی فلا یری الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۳۶ للآخرین حقّاً علیه بل یتوقع من الآخرین أن یحترمونه ویعترفون بعظمته ویذعنون لأوامره ومطالیبه. وهذا النوع من التکبّر له نماذج کثیرة فی حیاتنا الإجتماعیة فلا حاجة للإطالة فی شرحه وبیان مصادیقه وموارده، وقد یمتد هذا النوع من التکبّر ویصل إلی درجة فی أعماق النفس إلی التکبّر فی مقابل الأنبیاء ثمّ التکبّر أمام اللّه تعالی. أجل فإنّ نار التکبّر والغرور تنشأ من التکبّر فی مقابل عباد اللّه عادة ثمّ یتدرج الإنسان ویتمادی فی هذه الحالة حتّی یتکبّر أمام دعوة الأنبیاء ویرفض إطاعتهم وبالتالی یصل به الأمر إلی التکبّر أمام اللّه تعالی.

۴- دوافع التکبّر

للتکبّر أسباب ودوافع کثیرة تعود کلّها إلی أنّ الإنسان یتصور لنفسه کمالًا معیناً، وبسبب حبّه لذاته فإنه یری نفسه أکبر من واقعها

ويحتقر الآخرين كذلك. بعض علماء الأخلاق مثل المرحوم (الفيض الكاشانى) فى كتابه المحجّة البيضاء يذكرون فى مسألة دوافع الكِبر وأسبابه سبعة أسباب: الأوّل: الأسباب الدينية من العلم والعمل، والاخرى الأسباب الدنيوية من النسب والجمال والقوّة والثروة وكثرة الأعوان والأصحاب، ثمّ ذكر الفيض الكاشانى لكلّ واحدة من هذه الأسباب شرحاً وافياً نذكره بشكل مختصر، حيث يقول: الأوّل: العلم، وما اسرع الكبر إلى العلماء ولذلك قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «آفة العلم الخيلاء» فلا يلبث أن يتعزّز بعزّ العلم، ويستشعر فى نفسه جمال العلم وكماله ويستعظم نفسه ويستحقر الناس وينظر إليهم نظره إلى البهائم ويتوقع أن يبدؤوه بالسلام. العلم الحقيقى هو الّذى يعرف الإنسان به نفسه وربّه وخطر الخاتمة وحجة اللَّه على العلماء وعظم خطر العلم فيه، كما سيأتى فى طريق معالجة الكبر بالعلم وهذه العلوم تزيد خوفاً وتواضعاً وتخشعاً ويقتضى أن يرى أنّ كلّ الناس خير منه لعظم حجة اللَّه تعالى عليه الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۷ بالعلم وتقصيره فى القيام بشكر نعمة العلم ولهذا قال أبو الدرداء: «من إزداد علماً إزداد خوفاً» وهو كما قال. الثانى: العمل والعبادة وليس يخلو عن رذيلة الغرور والكبر واستمالة قلوب الناس الزهّاد والعبّاد ويترشح الكبر منهم فى الدنيا والدين. أما الدنيا فهو أنّهم يرون غيرهم بزيارتهم أولى من أنفسهم بزيارة غيرهم ويتوقعون قيام الناس بقضاء حوائجهم وتوقيرهم والتوسع لهم فى المجالس وذكرهم بالورع والتقوى وتقديمهم على سائر الناس من الحظوظ إلى جميع ما ذكرناه فى حقّ العلماء وكأنهم يرون عبادتهم منّة على الخلق، وأما فى الدين فهو أن يرى الناس هالكين ويرى نفسه ناجياً وهو الهالك تحقيقاً مهما رأى ذلك قال النبى صلى الله عليه و آله: «إذا سمعتم الرجل يقول هلك الناس فهو أهلكهم»، وإنما قال ذلك لأن هذا القول يدل على أنّه لخلق اللَّه، مغتر باللَّه، آمن من مكره، غير خائف من سطوته، وكيف لا يخاف ويكفيه شراً احتقاره لغيره، قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «كفى بالمرء شراً أن يحقر أخاه المسلم» وكم من الفرق بينه وبين من يحبّه للَّهويعظمه لعبادته ويستعظمه ويرجو له ما لا يرجو لنفسه فالخلق يدركون النجاة بتعظيمهم إياه للَّهفهم يتقربون إلى اللَّه بالدنو منه وهو يتمقت إلى اللَّه بالتنزه والتباعد منهم كأنه مرتفع عن مجالستهم، فما أجدرهم إذا أحبّوه لصلاحه أن ينقلهم اللَّه الى درجته فى العمل وما أجدر إذا ازدراهم بعينه أن ينقله اللَّه الى حدّ الإهمال. وهذه الآفة أيضاً قلما ينفك عنها العباد وهو أنّه لو استخف به مستخف أو آذاه مؤذ استبعد أن يغفر اللَّه له ولا يشك فى أنّه صار ممقوتاً عند اللَّه ولو آذى مسلما آخر لم يستنكر ذلك الاستنكار وذلك لعظم قدر نفسه عنده وهو جهل وجمع بين العجب والكبر والاغترار باللَّه وقد ينتهى الحمق والغباوة لبعضهم إلى أن يتحدّى ويقول سترون ما يجرى عليه، وإذا اصيب بنكبة زعم أنّ ذلك من كراماته وأنّ اللَّه ما أراد به إلّاشفاء علته والانتقام له. فما أعظم الفرق بين مثل هذا الجاهل وبين بعض ما ورد عن أحد العباد الّذى قال بعد انصرافه من عرفات: كنت أرجو الرحمة لجميعهم لولا كونى فيهم، فانظر إلى الفرق بين الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۸ الرجلين. ونختم هذا البحث بحديث شريف عن النبى الأكرم حيث ورد فى الروايات أنّه تحدث بعض الأصحاب عن رجل وذكروه بخير للنبى صلى الله عليه و آله فأقبل ذات يوم فقالوا: يارسول اللَّه هذا الّذى ذكرناه لك، فقال: إنى أرى فى وجهه سفعة من الشيطان فسلم ووقف على النبى صلى الله عليه و آله وأصحابه، فقال النبى صلى الله عليه و آله: «أسألك باللَّه حدّثتك نفسك أن ليس فى القوم أفضل منك؟ فقال: اللهم نعم» «۱» ، فرأى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله بنور النبوة ما استكن فى قلبه سفعة فى وجهه. الثالث: التكبر بالنسب والحسب فالّذى له نسب شريف يستحقر من ليس له ذلك النسب وإن كان أرفع منه عملًا وعلماً وقد يتكبر بعضهم فيرى أنّ الناس له موالٍ وعبيد ويأنف من مجالستهم ومخالطتهم، والحال أنّ الإسلام ليس فيه تفاضل بالحسب والنسب، كما روى عن أبى ذر أنّه قال: قاولت رجلًا عند النبى صلى الله عليه و آله فقلت له: يا ابن السوداء فقال النبى صلى الله عليه و آله: «يا أبا ذر طف الصّباع ليس لابن بيضاء على ابن سوداء فضل». قال أبو ذر فاضطجعت وقلت للرجل: قم فطأ على خدى» فانظر كيف نبهه رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أنّه رأى لنفسه فضلًا بكونه ابن بيضاء وإن ذلك خطأ وجهل فانظر كيف تاب وكيف قلع من نفسه شجرة الكبرياء خمص قدم من تكبر عليه إذ عرف أنّ العزّ لا يقمعه إلّاالذلّ «۲». وعلى أى حال فقد قرأنا كثيراً من النصوص الشريفة فى القرآن والروايات تؤكد لنا أن لا فضل لإنسان على آخر بالنسب والعرق وأمثال ذلك، فهذه كلها امور اعتبارية تعرض على الإنسان من

الخارج، بينما تتقوم شخصية الإنسان وقيمته بما يتضمنه من امتيازات معنوية فى محتواه الباطنى، وعلى فرض أنّ ارتباطه مع بعض العظماء بالنسب يوجب له فضيلةً وامتيازاً على غيره، فلا ينبغى أن يكون ذلك سبباً للاحساس بالغرور والتكبّر والتفاخر على الآخرين. وعندما نرى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام فى نهج البلاغة، أو الإمام زين العابدين عليه السلام فى الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۹ خطبته المعروفة فى الشام يفتخران بنسبهما فذلك ليس من قبيل حبّ التفوق والتفاخر، بل بدافع آخر، حيث أرادا إظهار إمامتهما ورسالتهما الدينية الإلهية لبعض المغفلين والجهلاء، مثل ما يقوم به قائد الجيش من تعريف نفسه للجنود وبيان مكانته ومقامه بهدف دعوتهم الى اطاعته وامتثال أوامره. الرابع: التفاخر بالجمال وذلك يجرى أكثره بين النساء ويدعو ذلك التنقّص والثلب والغيبة وذكر عيوب الناس، ومن ذلك ما روى عن عائشة أنّها قالت: دخلت امرأة على النبى صلى الله عليه و آله فلما خرجت فقلت بيدى- هكذا- أى أنّها قصيرة، فقال النبى صلى الله عليه و آله: «قد اغتبتها» وهذا منشؤه خفى الكبر لأنها لو كانت أيضاً قصيرة لما ذكرتها بالقصر فكأنها أعجبت بقامتها واستقصرت المرأة فى جنب نفسها فقالت ما قالت. الخامس: الكبر بالمال وذلك يجرى بين الملوك فى الخزائن، وبين التجار فى بضائعهم، وبين الدهاقين فى أراضيهم، وبين المتجملين فى لباسهم وخيولهم ومراكبهم فيستحقر الغنى الفقير ويقول له أنت مكدّ ومسكين وأنا لو أردت لاشتريت مثلك واستخدمت من هو فوقك ومن أنت وما معك وأثاث بيتى يساوى أكثر من جميع مالك. ومن ذلك تكبر قارون اذ قال تعالى «فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَالَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظّ عَظِيمٍ» «۱» وقد ورد فى التواريخ أنّه كان يخرج على قومه من بنى إسرائيل بجميع خدمه وحشمه البالغ عددهم أربعة آلاف نفر وهم يركبون الجياد المزينة بالحلى وملابس الزينة ويصحبون معهم الجوارى الجميلات وهنّ فى كامل الزينة من الجواهر والذهب، ولكن كل ذلك ينتهى فى لحظة حيث خسفت به الأرض بأمر اللّه وابتلعت ما كان له من ثروات وقصور ودفن قارون معها أيضاً وصار عبرة لمن اعتبر «۲». السادس: القوة والقدرة البدنية وشدة البطش أو الموقع السياسى أو الاجتماعى، والتكبر الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۴۰ به على أهل الضعف، وغالباً ما يتوفر هذا الحال لدى الامراء والأقوياء وأصحاب السلطة من الناس حيث يرون أنفسهم «ظل اللّه فى الأرضين» ويتوقعون من الآخرين أن يتعاملوا معهم من موقع التعظيم والتكريم كما يفعل الغلمان والعبيد. ولو صدرت منهم أقل حركة أو كلمة خاطئة لا تتفق ومقامهم العالى وشأنهم الكبير فسوف لا ينجو صاحبها من العقاب. وقد ذكر فى بعض حالات السلاطين القدماء أنّه كلما أراد الناس الدخول عليه فى مجلسه فيجب عليهم تكميم أفواههم بمنديل أو أى شىء آخر لئلّا يتلوث معطف السلطان ببخار أفواه الرعايا ورائحة فمهم الكريهة، وهذا هو السبب فى تفعيل عنصر الكبر والغرور فى نفوس هؤلاء وما يتولد منه من أخطاء كبيرة ومآثم شنيعة تؤدى إلى الإسراع فى زوال حكمهم وإنهيار دولتهم. السابع: التكبر بالأتباع والأنصار والتلامذة والعلماء والعشيرة والأقارب والبنين ويجرى ذلك بين الملوك فى المكاثرة بالجنود وبين العلماء بالمكاثرة بالمتنفذين، وبالجملة فكلّ ما هو نعمة وأمكن أن يعتقد كمالًا وإن لم يكن فى نفسه كمالًا أمكن أن يتكبر به، حتّى أنّ المخنث يتكبر على أقرانه بزيادة قدرته ومعرفته فى صنعة المخنثين لأنّه يرى ذلك كمالًا فيفتخر به وإن لم يكن فعله إلّانكالًا وكذلك الفاسق قد يفتخر بكثرة الشرب وكثرة الفجور بالنسوان والغلمان ويتكبر به لظنه أنّ ذلك كمال وإن كان مخطأً فيه «۱». هذه الامور السبعة هى امور قد يصاب الأشخاص بجميعها أو ببعض منها ويتطاولون على الآخرين بالفخر والتكبّر، وبالطبع لا تنحصر الدوافع بهذه السبعة، فإنّ كلّ صفة كمال أو نقطة قوّة معنوية أو مادية سواءً واقعية أو خيالية يمكن أن تسبب الغرور وتدفع بصاحبها إلى التكبّر على الآخرين. وهذا الكلام لا- يعنى أنّ الإنسان يجب عليه للتوقى من التكبّر والغرور أن يبتعد عن أسباب الكمال ولا- يتحرّك باتجاه المعنويات والكمالات الإنسانية ويقتل فى نفسه عناصر الخير والصلاح لكى لا تكون منشئاً للغرور والفخر، بل الغرض من ذلك إن الإنسان كلّما الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۴۱ إزداد فى علمه وعبادته وقوته وقدرته وثروته فعليه أن يسعى ليكون أكثر تواضعاً وخشية وخضوعاً للحقّ، ويتفكر فى أنّ هذه الكمالات والمواهب ليست ثابتة له بالذات وكلّها لا تعدّ شيئاً مقابل قدرة اللّه تعالى وصفاته وأسمائه الحسنى

۵- جذور التکبّر

إن حالة التکبر الذمیمة لها جذور کما هو الحال فی سائر الرذائل الأخلاقیة، فینبغی البحث عنها بدقة ومعرفتها، وفی غیر هذه الصورة فإنّ قلع هذه الصفة من أعماق النفس وتطهیر القلب منها یکون أمراً محالًا. ویذکر بعض علماء الأخلاق مثل المرحوم (الفیض الکاشانی) فی کتابه المحجّة البیضاء أربعة جذور واصول للتکبر وهی: العجب، الحقد، الحسد، الریاء. ویری الفیض الکاشانی أنّ جذور التکبر الباطنیة تتمثّل فی (العجب) فهذه الحالة من رؤیة الذات والإعجاب بها وتعظیمها هی السبب فی أن یری الإنسان نفسه أعلی من الآخرین وأفضل منهم وبالتالی یتحرّک فی التعامل معهم من موقع التفاخر والتعالی، وهناک أصل آخر وهو (الحقد) والکراهیة الّتی یشعر بها الإنسان تجاه الشخص الآخر حیث یتسبب ذلک فی أن یتظاهر بمواهبه وامتیازاته أمام ذلک الشخص، والثالث (الحسد) الّذی یتسبّب فی إیجاد هذه الرذیلة الأخلاقیة، والرابع (الریاء) الّذی یؤدی إلی أن یتظاهر الإنسان بامتیازاته أمام الآخرین فیورثه ذلک حالة من التکبر علیهم. هذه الجذور الأربع تشکل الاصول والاسس لصفة التکبر، ولکن حسب الظاهر أنّ جذور التکبر لا تنحصر فی هذه الصفات الأربع بل هناک امور اخری یمکنها أن تکون منشئاً ومصدراً للتکبر.

۶- النتائج والعلائم

إنّ الأمراض الأخلاقیة هی مثل الأمراض النفسیة والبدنیة تکون مصحوبة دائماً بآثار وعلائم ظاهریة، فکما أنّ الإنسان إذا اشتکی مرضاً فی الکبد ظهرت علیه آثار هذا المرض الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۴۲ بصور مختلفة علی جلده ووجهه ولون عینه ولسانه وأمثال ذلک، فهکذا إذا ابتلی الشخص بمرض أخلاقی مزمن فتظهر آثاره وعلائمه فی أعماله وسلوکیاته وکلماته. وقد أورد الکبار من علماء الأخلاق آثار الکبر وعلائمه فی کتبهم المفصّلة، وهذه الآثار والعلائم قد تظهر علی الوجه أحیاناً مثل أن یقطب المتکبر وجهه فی مقابل الآخرین وینظر إلیهم بنظرة الاستحقار والمهانة بل قد لا یکون مستعداً لأن یقابلهم بجمیع وجهه. وأحیاناً اخری تظهر علائم هذا الخلق الذمیم علی کلمات الشخص، فیتحدّث بعبارات فیها نوع من المبالغة عن نفسه ویذکر نفسه بضمیر الجمع بل قد یتغیر لحن صوته لدی تحدّثه عن نفسه وعن الآخرین بما یحکی عن حالة الغرور والتکبّر الّتی تعتمل فی نفسه. فتارة یتجلّی الکبر فی أن یُبیح لنفسه التحدّث وقطع کلام الآخرین حیثما شاء ولا یسمح للآخرین بالحدیث ولا یُصغی لحدیثهم ویتوقع منهم الاصغاء لحدیثه وکلامه فقط، ویری أنّ کلام الآخرین طویلًا مهما قصر وکلامه الطویل والفارغ قصیراً وضروریاً. وأحیاناً یتجلّی التکبر علی حرکاته وأعماله وسلوکیاته فیحب أن یقف الآخرون تعظیماً له بینما یجلس هو أمامهم ولا یقوم لأحد عندما یرد علیه. ونقرأ فی الحدیث الشریف عن أمیرالمؤمنین علیه السلام قوله: «مَنْ ارَادَ انْ یَنْظُرَ الَی رَجُلٍ مِنْ اهْلِ النَّارِ فَلْیَنْظُرْ الَی رَجُلٍ قَاعِدٍ وَبَیْنَ یَدَیْهِ قَوْمٌ قِیَامٌ» «۱». وکذلک یحب أن لا یکون وحیداً عندما یمشی فی الشارع وأمام الناس بل یسیر معه وخلفه جماعة، فقد ورد فی الحدیث الشریف «کَانَ رَسُولُ اللَّهِ فِی بَعْضِ الْاوْقَاتِ یَمشِی مَعَ الْاصْحَابِ فَیَأْمُرُهُمْ بِالتَّقَدُّمِ وَیَمْشِی فِی غِمَارِهِمْ» «۲». وکذلک یحب المتکبّر أن یأتی الآخرون لرؤیته دون أن یذهب هو لرؤیة الآخرین، ویجتنب الجلوس مع الفقراء والمحتاجین ومن یظهر علیه انه من أهل المستویات الدانیة فی المجتمع، ولو انه اتفق له أن سار معه مثل هؤلاء الأشخاص فإنه یسعی جاهداً للتخلّص الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۴۳ منهم فی أقرب فرصة أو یوحی لهم بالإبتعاد عنه. ویحب أیضاً أن لا یعمل لأهل بیته شیئاً من السوق بیده ولا یقوم بعمل من أعمال البیت وتقوم زوجته وأولاده وخادمه بإظهار مراتب الخضوع أمامه والسعی لتلبیة حوائجه وأطاعة أوامره. وأحیاناً تظهر آثار التکبر علی طریقة لباسه وکیفیّته وخاصّةً فی الألبسة الغالیة الّتی تجلب الإنتباه أو فی مرکبه وسیارته أو فی ظاهر بیته ووسائل معیشته، أو فی مکان کسبه ومحله وتجارته بل حتّی فی لباس أولاده وأقربائه والمنتسبین إلیه وطریقة حیاتهم حیث یکون هدفه من کلّ ذلک أن یتفاخر علی الآخرین بثروته ویبرز إلیهم بنقاط قوته لیثبت لهم انه أفضل منهم وأکثر امتیازاً وعنواناً. وبالطبع فإنّ هذا الکلام لا یعنی أن یمتنع الإنسان من لبس الجیّد من

الثياب ويلبس الرث منها بل كما ورد فى الحديث النبوى الشريف «كُلُوا وَاشْرَبُوا وَالْبِسُوا وَتَصَدَّقُوا فِى غَيْرِ سَرَفٍ وَلَا مَخِيلَةٍ» «۱». وخلاصة الكلام أنّ ظهور هذا الخلق الذميم أى (التكبر) يمكن أن يستوعب جميع مناحى وشؤون حياة الإنسان ولا يمكن أن يبتلى الإنسان بهذه الصفة الرذيلة مهما كانت طفيفة إلّاوظهرت على قسمات وجهه وفى طىّ كلماته وأعماله وسلوكياته.

۷- مفاسد التكبّر وعواقبه الوخيمة

إن هذا الخلق الذميم كما سبقت الإشارة إليه له آثار مخربة جداً وعواقب وخيمة تعرض على روح الإنسان ومعتقداته وأفكاره، وكذلك تعرض على المجتمع البشرى أيضاً بحيث يمكن القول انه ليس هناك جهة من جهات حياة الإنسان الفردية والإجتماعية تقع فى أمان من عواقب هذه الصفة الأخلاقية السلبية، ويمكن الإشارة إلى عدّة موارد منها فيما يلى: الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۴۴ ۱- التلوث بالشرك والكفر إنّ أوّل مفسدة وأخطرها هو أن يورث التكبّر صاحبه التلوث بالشرك والكفر، فهل لكفر إبليس وانحرافه من مسير التوحيد بل حتّى اعتراضه على حكمة اللّه تعالى وأمره، له أصل ومصدر غير الكبر فى نفس إبليس؟ وهل أنّ الفراعنة والنمرودين وغيرهم من الأقوام الطاغية الّذين رفضوا دعوة الأنبياء كان لهم دافع غير التكبّر؟ أنّ التكبّر لا يبيح للإنسان أن يستسلم ويذعن أمام الحقّ، لأن التكبّر والغرور هو فى الحقيقة حجاب سميك على بصيرة الإنسان فيحجبه عن رؤية جمال الحقّ بل أحياناً يرى ملائكة الحقّ على شكل موجود مخيف وموحش، وهذا من أعظم الضرر الّذى يلحق بالإنسان من جراء التكبّر، ولعلّه لهذا السبب ورد فى الحديث الشريف عن الإمام الصادق عليه السلام عندما سأله الراوى عن أقل درجة الإلحاد فقال له الإمام «إِنَّ الْكِبْرَ ادْنَاهُ» «۱». ۲- الحرمان من العلم والمعرفة وأحد العواقب المشؤومة للتكبّر هو أنّ الإنسان يحرم نفسه من العلم والمعرفة ويعيش حالة الجهل المركب دائماً لأن الإنسان إنّما يصل إلى حقيقة العلم والمعرفة فيما لو سعى لتحصيلها من أى شخص وأى طريق كما يبحث الشخص عن جوهرة ثمينة والحال أنّ المتكبّر لا يكون مستعداً لتحصيل العلوم والمعارف من الأشخاص الّذين يراهم دونه أو فى مرتبته. الأشخاص الّذين يتحرّكون فى سبيل طلب العلم والمعرفة هم الّذى يعيشون التحرر فى أفكارهم من القوالب النفسانية فى حين أنّ صفة الكبر والغرور لا تسمح للإنسان أن يستوعب مطلباً مهماً. ولهذا نقرأ فى الحديث المعروف عن الإمام الكاظم عليه السلام فى كلامه لهشام بن الحكم يقول: «إِنَّ الزَّرْعَ يَنْبُتُ فِى السَّهْلِ وَ لَايَنْبُتُ فِى الصَّفَا فَكَذَلِكَ الْحِكْمَةُ تَعْمُرُ فِى قَلْبِ الْمُتَوَاضِعِ الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۴۵ وَلَا تَعْمُرُ فِى قَلْبِ الْمُتَكَبِّرِ الْجَبَّارِ، لِاَنَّ اللَّهَ جَعَلَ التَّوَاضُعَ آلَةَ الْعَقْلِ وَجَعَلَ التَّكَبُّرَ مِنْ آلَةِ الْجَهْلِ» «۱». ۳- التكبر المصدر الأساسى للكثير من الذنوب لو تأملنا فى حالات الأشخاص الّذين يعيشون الحسد، الحرص، بذاءة اللسان، والذنوب الاخرى لرأينا أنّ الأصل ومصدر جميع هذه الرذائل الأخلاقية تنشأ من صفة التكبر، فهؤلاء لا يجدون فى أنفسهم رغبة لرؤية من هو أفضل منهم، ولهذا فإنّ أيّة نعمة وموهبة وموفقية تكون من نصيب الآخرين فسوف يتعاملون معهم من موقع الحسد. إن هؤلاء ولغرض توطيد أركان حالة الفوقية لشخصياتهم فإنّهم يحرصون على جمع الأموال والثروات. ولغرض إظهار العلو على الآخرين يبيحون لأنفسهم تحقيرهم ويلوثون ألسنتهم بأنواع البذاءة فى الكلام والسبّ والشتم والهتك لإشباع هذه الحاجة والنقص فى أنفسهم ولإطفاء هذه النار المستعرة فى وجودهم. ونقرأ فى حديث عن أميرالمؤمنين قوله «الْحِرْصُ وَالْكِبْرُ وَالْحَسَدُ دَوَاعٍ الَى تَقَحُّمِ الذُّنُوبِ» «۲». ونقرأ فى حديث آخر عن الإمام على عليه السلام أيضاً أنّه قال: «التَّكَبُّرُ يُظْهِرُ الرَّذِيلَةَ» «۳». ۴- التكبر مصدر النفرة والفرقة إن من البلايا المهمة الّتى ترد على المتكبّرين هو الإنزواء الإجتماعى وتفرّق الناس من حولهم لأن شرف الإنسان وعزّته الذاتية لا تسمح له بالخضوع أمام الأشخاص المغرورين والمتكبّرين والانصياع لأوامرهم، ولهذا السبب فإنّ الناس وحتّى المقرّبين سوف يتحرّكون بعيداً عن هؤلاء المتكبّرين، وعلى فرض أنّ الآخرين يجدون أنفسهم مضطرين لمعاشرتهم الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۴۶ بسبب الروابط الإجتماعية وبعض الضرورات المعيشية فإنّهم يجدون فى أنفسهم التنفر والكراهية لهؤلاء. ونقرأ فى حديث عن الإمام أميرالمؤمنين أنّه قال: «مَنْ تَكَبَّرَ عَلَى النَّاسِ ذَلَّ» «۱». وفى حديث آخر عن الإمام الصادق أنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله قال: «امْقَتُ النَّاسِ الْمُتَكَبِّرُ» «۲». وفى

حدیث آخر عن الإمام علی أنّه قال: «ثَمَرَةُ الْکِبْرِ الْمَسَبَّةُ» «۳». وهذا المضمون ورد أیضاً فی حدیث عن الإمام أمیرالمؤمنین علیه السلام أنّه قال: «لَیْسَ لِلْمُتَکَبِّرِ صَدِیقٌ» «۴». وقال أیضاً فی حدیث آخر: «مَا اجْتَلَبَ الْمَقْتَ بِمِثْلِ الْکِبْرِ» «۵». ۵- التکبر سبب هدر المواهب الدنیویة إن کلّ إنسان لا یکون موفقاً فی حیاته إلّاإذا استطاع جذب تعاون الآخرین وانسجامهم معه من موقع توطید أواصر المحبة والتعاون المشترک بین الأفراد، أما الشخص الّذی یعیش الإنزواء ویسلک فی حیاته ومعیشته الوحدة فإمّا أن یفشل فی اطار المعیشة الکریمة أو یکون له نصیب قلیل من الموفقیة فی حرکة الحیاة، وبما أنّ التکبر یدفع بالإنسان إلی زاویة الإنزواء والعزلة فإنّ توفیقاته فی حرکة الحیاة الإجتماعیة ستکون قلیلة بالتبع. ونقرأ فی حدیث عن الإمام أمیرالمؤمنین أنّه قال «بِکَثْرَةِ التَّکَبُّرِ یَکُونَ التَّلَفُ» «۶» أی تلف وهدر عوامل التوفیق وعناصر النجاح فی الحیاة. ویمکن تفسیر هذا الحدیث بشکل آخر وهو أن یقال بأن الکثیر من الحروب الدامیة والنزاعات المدمرة تنشأ من حالة التکبّر والاستکبار، فالبعض یستلم زمام الامور فی دول الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۴۷ العالم ویرید أن یتحکم ویتسلط علی الآخرین من موقع القوّة والقدرة وهذا بدوره یکون سبباً فی حصول النزاعات الدمویة الکثیرة فتهدر الطاقات وتُسفک الدماء الکثیرة فی هذا الطریق وتتحول الدیار إلی الخراب الشامل. وأحیاناً یتجلّی التکبر من خلال القومیة والعرقیة حیث یری البعض أنّهم أطهر عرقاً وأسمی قومیة من الأقوام الاخری وهذه النظرة المتعالیة تمثل أحد الأسباب المهمة للحروب طیلة التاریخ البشری. فالنظرة الفوقیة والاستعلائیة للجنس الآری هو أحد العلل المهمة فی حدوث الحروب العالمیة الّتی خلفت ملایین القتلی والمجروحین وأتلفت ملیارات الثروات والأموال وخلّفت اضراراً لا تحصی وخلاصة الکلام أنّه: إذا درسنا الخسائر الّتی تتسبّب بواسطة التکبر علی روح وجسم الإنسان وفی حیاته الفردیة والإجتماعیة لرأینا أنّه لیس هناک صفة من الصفات الذمیمة تکون هدّامة ومخربة إلی هذه الدرجة الّتی تنتجها حالة التکبر فی الإنسان.

۸- علاج التکبّر

لقد بحث علماء الأخلاق علاج التکبر فی دراسات مفصلة تدور أغلبها حول محور العلاج بطریقین: العلم والعمل. أمّا الطریق (العلمی) فیمکن تصویره بأن یتفکر الأشخاص المتکبرین فی أنفسهم أنّهم مَن هم وأین کانوا وإلی أین یذهبون وما هو مصیرهم فی النهایة؟ ویتفکّرون کذلک فی عظمة اللّه ویشاهدون أنفسهم أمام قدرة اللّه المطلقة ورحمته الواسعة. إن التاریخ ملیء بالعِبر والحوادث المثیرة عن مصیر الفراعنة والنمرودیین والجبابرة من الأکاسرة والقیاصرة وأمثالهم بحیث لو أنّ الإنسان قرأ قلیلًا من هذه الحوادث والوقائع التاریخیة لعلم أنّ الانتصارات والملذات الدنیویة لا تعدّ شیئاً یمکن الاعتماد علیه علی الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۴۸ مستوی بیان عظمة الإنسان. عندما یکون الإنسان فی أوّله نطفة مهینة وفی آخره جیفة نتنة ویعیش بین هذین عدّة أیّام فلا یعدّ ذلک شیئاً یستحق الفخر والتکبر والغرور. إنّ الإنسان فی بدایة تولده لیس سوی طفل ضعیف جدّاً وعاجز عن کلّ شیء وحتّی انه لا یتمکن من حفظ الماء الملقّی فی فمه بشفاهه، وکذلک عندما یبلغ سن الشیخوخة یکون ضعیفاً إلی درجة أنّه إذا أراد المسیر عدّة خطوات وکان یتمتع بأقدام سالمة فإنه لا یتمکن من ذلک إلّابأن یستریح کُلما قَطّعَ کلّ عدّة خطوات ویجدد طاقته ثمّ ینهض لیکمل مسیره متوکأً علی عصاه وقد احنی الدهر قامته، ولو لم یکن ذا أقدام سلیمة فإمّا أن یکون قد ابتلی ببعض عوارض الشیخوخة الّتی یبتلی بها أکثر الأشخاص فیجب أن یُنقل من جهة إلی اخری بواسطة الکرسی المتحرک. ونقرأ فی حدیث عن الإمام الباقر أنّه قال «عَجَباً لِلْمُخْتَالِ الْفَخُورِ وَانَّمَا خُلِقَ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ یَعُودُ جِیفَةً وَهُوَ فِیما بَیْنَ ذَلِکَ لَایَدْرِی مَا یُصْنَعُ بِهِ» «۱». إذا ذهبنا یوماً إلی المستشفیات ورأینا الکثیر من الأقویاء والأصحّاء یرقدون علی أسرّة المستشفی بسبب حادثة اصطدام أو مرض معیّن حیث لا قدرة لهم علی الحراک، فندرک حینئذاک مقدار قوّة الإنسان وقدرته البدنیة الّتی یفخر بها. ولو نظرنا إلی الأثریاء المعروفین الّذین قد استولی علیهم حالة الإنهیار الاقتصادی والإفلاس المادی بتغیر بسیط فتحوّل حالهم من أعلی المقامات إلی أسفل السافلین وحینئذٍ نعلم أنّ الثروة الطائلة لیست شیئاً یعتمد علیه الإنسان ویفتخر به. ولو نظرنا إلی أصحاب القدرة والسلطة فی العالم وکیف أنّهم مع حدوث التغیر فی الوضع السیاسی

يسقطون من كراسيهم وعروشهم ويفقدون قدرتهم أو يقبعون خلف قضبان السجن أو يحكم عليهم بالأعدام لرأينا القدرة الظاهرية ليست قابلة للاعتماد والفخر. إذاً فبأى شيء يفخر الإنسان؟ وكيف يستولى عليه الغرور ويباهى الآخرين ويفتخر عليهم. الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۴۹ لقد ورد فى الحديث الشريف عن الإمام زين‌العابدين عليه السلام انه عندما وقع نزاع بين سلمان الفارسى وبين شخص مغرور ومتكبر، فقال ذلك الشخص لسلمان: مَنْ أنت؟ فقال له سلمان: أما اولاى واولاك فنطفة قذرة، وأما اخراى واخراك فجيفة منتنة، فإذا كان يوم القيامة، ووضعت الموازين، فمن ثقل ميزانه فهو كريم، ومن خف ميزانه فهو اللئيم» «۱». والخلاصة أنّ الإنسان كلّما تفكر وتأمل فى هذه الامور أكثر هبط من مركب الغرور والكبر ووجد نفسه من موقع الحقيقة الشاخصة وبعيداً عن الأوهام النفسانية والحالات الشيطانية. وأما علاج التكبّر على المستوى (العملى) فهو أن يسعى الإنسان فى دراسة سلوكيات المتواضعين ويتحرّك مثلهم فى تعامله الاجتماعى حتّى تترسخ هذه الفضيلة فى أعماق وجوده وتتجذر فى واقعه النفسانى فيكون متواضعاً أمام اللّه والناس فيسجد على التراب قائلًا: «لَا الَهَ إلَّااللَّهُ حَقّاً حَقّاً سَجَدْتُ لَکَ تَعَبُّداً وَرِقّاً لَامُسْتَنْکِفاً وَلَا مُسْتَکْبِراً». وأمثال هذه العبارات. وكذلك يلبس الملابس البسيطة ويأكل الأطمعة غير الممنوعة ويجلس مع عماله أو خدامه على مائدة واحدة ويتقدّم بالسلام على الآخرين ولا يجلس صدر المجلس ولا يتقدم على الغير فى مشيه. أن يتعامل فى علاقاته مع الصغير والكبير من موقع العاطفة الجياشة والمحبّة الصميمية ويجتنب مجالسة المتكبرين والمغرورين ولا يرى لنفسه أى امتياز على الآخرين، والخلاصة أن يتحرّك فى سلوكه بعلامات التواضع أو يسعى للتظاهر بمظاهر التواضع فى البداية فى عمله وكلامه وحالاته الاخرى حتّى تصير لديه عادة ثمّ ملكة التواضع. وجاء فى حالات نبى الإسلام أنّه كان يجلس على الأرض ويأكل الطعام ويقول: «إنَّمَا الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۵۰ أَنَا عَبْدٌ آكُلُ كَمَا يَأْكُلُ الْعَبْدُ» «۱». وقد سمعنا الحديث المعروف عن الإمام على أنّه كان لديه يوماً قميصان اشترى أحدهما بأربعة دراهم والآخر بثلاث دراهم ثمّ قال لغلامه قنبر: اختر أحدهما، فاختار قنبر القميص الّذى قيمته أربعة دراهم وأختار الإمام ما كان بثلاث دراهم «۲». وجاء فى خطبة ۱۶۰ من نهج البلاغة أنّ الإمام كان يتحدّث عن نبى الإسلام ويقول: «وَلَقَدْ كَانَ يَأْكُلُ عَلَى الْارْضِ وَيَجْلِسُ جَلْسَةَ الْعَبْدِ وَيَخْصِفُ بِيَدِهِ نَعْلَهُ، وَيَرْقَعُ بِيَدِهِ ثَوْبَهُ وَيَرْكَبُ الْحِمارَ الْعَارِىَ وَيُرْدِفُ خَلْفَهُ». وطبعاً هذه الامور وبسبب تغير الظروف الزمانية والمكانية لا تُعتبر معمولًا بها فى هذا العصر ولا يوصى باتباعها وسلوكها، ولكن الهدف هو أننا بمطالعة حالات هؤلاء العظام والتوجّه إلى مقامهم السامى نتعلم التواضع من سلوكياتهم ونُبعد بذلك الكبر والغرور عن ذواتنا وأفعالنا. هذا كلّه من جهة، ومن جهة اخرى: بما أنّ التكبّر له أسباب وعلل مختلفة تمت الإشارة سابقاً إلى سبع علل منها ذكرها علماء الأخلاق، فلأجل إزالة كلّ واحدة من هذه العلل والأسباب هناك طرق وخطوات عملية وعلمية للتغلب عليها ومعالجتها منها: الأشخاص الّذين يجدون فى أنفسهم افتخاراً على الناس بسبب نسبهم وعراقتهم الاسرية يجب أن يتأمّلوا فى هذه الحقيقة وهى أوّلًا: إن افتخارهم بكمالات الآخرين من الآباء والأجداد هو عين الجهل، فلو أنّ الأب كان إنساناً فاضلًا ولكن الابن يفتقد إلى أدنى فضل وكمال فلا ينتقل كمال الأب وفضله إلى الابن ولا يوجد فى الابن قيمة مشهودة، الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۵۱ وثانياً: إذا تأمل جيداً وجد أنّ أباه نطفة وجدّه الأعلى تراباً وهذه الامور ليست ذات قيمة يفتخر بها الإنسان ويرى لنفسه امتيازاً على الآخرين. وقد ورد فى الحديث الشريف أنّ لقمان الحكيم قال لابنه «يَا بُنَىَّ وَيْلٌ لِمَنْ تَجَبَّرَ وَتَكَبَّرَ، كَيْفَ يَتَعَظَّمُ مَنْ خُلِقَ مِنْ طِينٍ، وَالَى طِينٍ يَعُودُ؟ لَايَدْرى الَى مَاذَا يَصِيرُ؟ الَى الْجَنَّةِ فَقَدْ فَازَ أوْ الَى النَّارِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَاناً مُبِيناً». وأمّا الأشخاص الّذين يتملكهم الغرور والتكبّر بسبب جمالهم الظاهرى فيجب أن يتأملوا جيّداً أنّهم وبسبب مرض بسيط يصيب الجلد والوجه سيتحول جمالهم الباهر إلى وجه مشوّه وقبيح وحتّى لو لم يصبهم ذلك المرض فإنّهم بعد أعوام قليلة سيصلون إلى مرحلة الشيخوخة حيث يتراكم غبار السنين على وجوههم ويغيّر من ملامحه الجميلة ويحنى قامتهم المستقيمة ويدبُ فى مفاصلهم العجز والضعف فإذا كان ذلك الشيء المورث للفخر زائلًا بهذه السرعة، فكيف يكون سبباً للغرور والتفوق والتكبّر على الآخرين؟ وإذا كان سبب التكبّر هو قوته البدنية وقدرته الجسمانية فيجب أن لا ينسى انه قد يصاب أحياناً بعارضة قلبية صغيرة أو سكتة دماغية تكون نتيجتها أن يصاب قسم من بدنه بالشلل والعجز عن الحركة تماماً بحيث لا يتمكن من دفع حتّى ويتوقف الذباب عن نفسه ولو

أصابه شوكة أو وخزته ابرة لا يتمكن من إخراجها أو التخلص منها لوحده. وأمّا لو كان سبب التكبّر هو الثروة وكثرة المال والأعوان والأنصار فيجب أن يعلم أوّلًا: أنّ هذه الامور خارجة عن وجود الإنسان ولا تمثل شيئاً من ذاته وحينئذٍ لا تكون من عناصر الفخر والمباهاة، فكيف يفتخر الإنسان بشخصيته وعزّته الذاتية بامور من قبيل السيارة أو البيت أو الحصان وأمثال ذلك؟ وكيف يتصور شرفه وكرامته فى مثل هذه الامور المادية والأجنبية عن ذاته؟ هذه الامور يمكنها أن يمتلكها اللئيم من الناس واوضعهم نسباً وشرفاً، الامور الّتى يستطيع اللصوص بكلّ سهولة سرقتها منه فما أهون الشرف الّذى يستطيع اللصوص سرقته فيفتقده صاحبه بين عشية وضحاها. ومضافاً إلى ذلك فنحن نعلم أنّ الأموال والثروات الدنيوية تنتقل من يد إلى يد دائماً فالثروات الطائلة لدى الأغنياء قد تكون يوماً من نصيب الفقراء ويسكن أصحاب القصور الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۵۲ يوماً فى الأكواخ. فمثل هذا الشىء بمثل هذا القدر من التزلزل والاهتزاز كيف يمكنه أن يكون عنصر الافتخار للإنسان وسبباً لغفلته عن مصيره وكمالاته المعنوية فى حركة الإنسان والحياة؟ وإذا كان سبب الكبر والغرور هو العلم الكثير ومع الأسف يُعتبر هذا من أقبح الآفات النفسانية الّتى تصيب الإنسان وبهذه النسبة يكون علاجه أصعب وأعقد من العلل الاخرى وخاصة مع ورود الكثير من الآيات والروايات فى فضل العلم والتعلم حيث يمكن أن يصاب الإنسان بالغرور والكبر بعد قرائتها ومطالعتها، فيجب أن يتفكر أصحاب العلم والمعرفة أنّ القرآن الكريم وفى الآية (۵) من سورة الجمعة قد شبّه العلماء الّذين لا يتحركون على مستوى تطبيق علمهم فى ممارساتهم وسلوكياتهم، شبّههم بالحمار الّذى يحمل الكتب والأسفار على ظهره «كَمَثَلِ الحمارِ يَحملُ أسفاراً». وأيضاً يتفكر فى أنّ الشخص العالم ستكون مسؤوليته ثقيلة بنفس نسبة علمه إلى الآخرين ويمكن أن يغفر اللّه تعالى للجاهل سبعين ذنباً قبل أن يغفر للعالم ذنب واحد كما ورد فى الروايات الشريفة. ولا ينبغى أن ننسى أنّ حسابهم يوم القيامة أصعب وأشد من حساب الآخرين، فكيف والحال هذه يكون العلم هذا سبباً للمباهات والافتخار على الغير؟ وأخيراً إذا كان سبب التكبّر هو العبادة وطاعة اللّه تعالى فيجب على هذا الإنسان أن يتفكر فى أنّ اللّه لا يقبل من العبادة ما كان خليطاً بالعجب والكبر ويعلم أنّ الجاهل النادم أقرب إلى النجاة من العابد المغرور. هذا ولا سيّما إذا أخذنا بنظر الاعتبار أنّ قبول العبادة مشروط بأن يرى الإنسان فى نفسه الحقارة والدونية مقابل عظمة اللّه وقدرته وفضله على العباد ولو انه جاء بجميع عبادات الجن والأنس لوجد أنّ عليه أن يعيش الخوف والخشية من اللّه تعالى ولا يغفل عن ذلك طرفة عين.

۹- الاختبارات العلاجية

سبق وأن قلنا إن الأمراض الأخلاقية تشبه إلى حد كبير الأمراض البدنية وأنّ المقارنة بين هاتين الظاهرتين كفيل بحل الكثير من المشاكل، ومنها أنّ الطبيب فى الأمراض البدنية وبعد معالجة المريض يرسله مرّة اخرى إلى المختبر ليتأكد من شفائه الكامل، ولو انه رأى بعض آثار المرض لازالت فى بدنه فإنه يستمر فى علاجه حتّى يحصل المريض على الشفاء الكامل. وقد استخدم علماء الأخلاق فى مناهجهم وتعليماتهم الأخلاقية لعلاج الأمراض الخطرة مثل (التكبّر) هذا المنهج أيضاً بحيث إن الإنسان عندما يتحرّك فى سبيل علاج التكبّر ولأجل الاطمئنان من قلعه تماماً من وجوده ونفسه يجب أن يعرض على نفسه بعض الامور ويمتحنها لكى يطمئن إلى زوال جذور هذا المرض من أعماق نفسه. وقد ذكر الفيض الكاشانى بالاستفادة من (احياء العلوم) للغزالى تجارب فى هذا المجال ملفتة للنظر: الامتحان الأوّل: أن يناظر فى مسألة مع واحد من أقرانه فإنّ ظهر شىء من الحق على لسان صاحبه فثقل عليه قبوله والانقياد له والاعتراف به والشكر له على تنبيهه وتعريفه وإخراجه الحقّ فذلك يدل على أنّ فيه كبراً دفيناً. الامتحان الثانى: أن يجتمع مع الأقران والامثال فى المحافل ويقدمهم على نفسه ويمشى خلفهم ويجلس فى الصدور تحتهم، فإنّ ثقل ذلك عليه فهو متكبر فليواظب عليه تكلّفاً حتّى يسقط عنه ثقله فبذلك يزايله الكبر، وهاهنا للشيطان مكيدة وهى أن يجلس فى صف النعال أو يجعل بينه وبين الأقران بعض الاراذل فيظن أنّ ذلك تواضع وهو عين الكبر فإنّ ذلك يخف على نفوس المتكبرين إذ يوهمون أنّهم إنما تركوا مكانهم بالاستحقاق والتفضل فيكون قد تكبر، وتكبر بإظهار التواضع أيضاً، بل ينبغى أن يقدم أقرانه ويجلس تحتهم ولا ينحط عنهم

إلی صف النعال فذلک هو الّذی یخرج خبث الکبر من الباطن. الامتحان الثالث: أن یجیب دعوة الفقیر ویمر إلی السوق فی حاجة الرفقاء والأقارب فإنّ ثقل ذلک علیه فهو کبر فإنّ هذه الأفعال من مکارم الأخلاق والثواب علیها جزیل فنفور الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۵۴ النفس عنها لیس إلّاالخبث فی الباطن فلیشتغل بإزالته بالمواظبة علیه مع تذکر جمیع ما ذکرناه من المعارف الّتی تزیل داء الکبر. الامتحان الرابع: أن یحمل حاجة نفسه وحاجة أهله ورفقائه من السوق إلی البیت فإنّ أبت نفسه ذلک فهو کبر أو ریاء فإنّ کان یثقل ذلک علیه مع خلو الطریق فهو کبر فإنّ کان یثقل إلّا عند مشاهدة الناس فهو ریاء وکل ذلک من أمراض القلب ومله المهلکة له إن لم تتدارک. أقول لیس کل ریاء مذموماً بل قد یکون مستحباً بل واجباً إذ یجب علی المؤمن صیانة عرضه وأن لا یفعل ما یعاب علیه فلا یلیق بذوی المروات أن یرتکبوا الامور السیئة بأنفسهم عند مشاهدة الناس وإن جاز لهم فی الخلوة إلّاأنّ ذلک یختلف باختلاف الأزمنة والبلاد والأشخاص فلابدّ من مراعاة ذلک، روی فی الکافی عن الصادق علیه السلام: «أنّه نظر إلی رجل من أهل المدینة قد اشتری لعیاله شیئاً وهو یحمله، فلما رآه الرجل استحی منه، فقال علیه السلام: اشتریته لعیالک وحملته إلیهم أما واللّه لولا أهل المدینة لأحببت أن أشتری لعیالی الشیء ثم أحمله إلیهم». أراد علیه السلام لولا مخافة أن یعیبوا علی ذلک، مع أنّ جدّه أمیرالمؤمنین علیه السلام کان یفعل مثله إلّاأنّه لما لم یعیبوا علیه بمثله فی زمانه وفی شأنه جاز له أن یرتکبه وکان منقبة له وتعلیماً. الامتحان الخامس: أن یلبس ثیاباً بذلة فإنّ نفور النفس عن ذلک فی الملأ ریاء وفی الخلو کبر، وقد قال رسول اللّه صلی الله علیه و آله: «ومن اعتقل البعیر ولبس الصوف فقد برئ من الکبر» .ولکن لا ینبغی أن یکون الدافع لذلک هو التظاهر بالتواضع فإنّ ذلک بنفسه نوع من الکبر المقترن مع الریاء والشرک الخفی. ونکرر مرةً اخری بأن هذه الامور تختلف باختلاف الأزمنة والأمکنة والاشخاص. ولابدّ من الأخذ بنظر الاعتبار جمیع هذه الظروف والعمل طبق مقتضیاتها وما یناسبها من دون التورط فی حبائل النفس وخدع الشیطان، ولذلک ینبغی الاستفادة أیضاً من حکم الآخرین وآرائهم. الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۵۵ وهنا نثیر هذا السؤال وهو أنّه لماذا یهتم الناس کثیراً بالصحة البدنیة والطب الجسمانی ویتحرکون فی طلب الدواء والعلاجات لیطمئنوا علی سلامتهم البدنیة. والحال أنّهم لا یعیشون ذلک الاهتمام بأمر الطب الروحانی والأخلاقی الّذی یضمن لهم سعادتهم الاخرویة فی الحیاة الباقیة کما هو مدلول الآیة الشریفة: «إلّامن أتی اللّه بقلبٍ سلیم». الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۵۶

التواضع

تنویه:

من الواضح أنّ التواضع یشکل النقطة المقابلة للتکبر والغرور، ومن العسیر الفصل الکامل بین هذین البحثین، ولذلک نجد أنّ هذین البحثین متلازمین فی الآیات والروایات الإسلامیة وکذلک فی کلمات علماء الأخلاق، فإنّ ذم أحدهما یلازم مدح الآخر، وکذلک العکس فإنّ عملیة التمجید والثناء علی التواضع یستلزم کذلک ذم التکبر، وهذا من قبیل مدح العلم والثناء علی العالم والمتعلم الّذی یقترن دائماً مع ذمّ الجهل وتوبیخ الجاهل. وعلی کلّ حال فإنّ هذا الکلام لا یعنی أنّ بحثنا المتعلق بالتواضع هذا سیکون فی زاویة النسیان ونکتفی بذم التکبر وبیان قبائح وعواقب هذه الصفة الذمیمة لا سیّما أن بین التکبر والتواضع نسبة الضدّین. لا النقیضین أی أنّ التکبر کما انه صفة وجودیة فکذلک التواضع صفة وجودیة نفسانیة أیضاً ویقعان علی الضد من الآخر فی واقع الإنسان ونفسه، ولیسا من قبیل الوجود والعدم الّذی یستلزم بالضرورة وجود أحدهما عدم الآخر بالتبع. وفی الروایات الإسلامیة نجد إشارة إلی هذا المعنی أیضاً ومن ذلک قول الإمام علی علیه السلام: «ضَادُّوا الْکِبْرَ بِالتَّواضُعِ» «۱». الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۵۸ مع هذه الإشارة نعود إلی القرآن الکریم لنستوحی من آیاته ما یتعلق بمسألة التواضع ونختار منها ما یُلقی الضوء علی هذا البحث المهم رغم وجود آیات کثیرة تبحث هذا الموضوع بالکنایة أو بالملازمة. ۱- «یَا ایُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا مَنْ یَرْتَدَّ مِنْکُمْ عَنْ دِینِهِ فَسَوْفَ یَأْتِی اللَّهُ بِقَوْمٍ یُحِبُّهُمْ وَیُحِبُّونَهُ اذِلَّةٍ

عَلَى الْمُؤْمِنِينَ اعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ...» «۱» ۲- «وَعِبَادُ الرَّحْمنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْارْضِ هَوْناً وَاذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً» «۲». ۳- «وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» «۳».

تفسير واستنتاج:

«الآيـة الاولى» من الآيات مورد البحث تتحدّث عن مجموعة من المؤمنين الّذين شـملتهم رعاية اللّه وعنايته فكانوا يحبون اللّه ويحبهم، وإحـدى الصـفات البـارزة لهؤلاء أنّهم يتعـاملون مـع أخـوانهم المؤمنين من موقع التواضع والمودّة (اذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ) وكـذلك فى المقابـل (اعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ). (اذِلَّةٍ) جمع «ذلول» و «ذليل»، ومن مادة «ذُل» على وزن حُر، وهى فى الأصل بمعنى الملائمـة والتسـليم والليونـة والإنعطـاف فى حين أنّ كلمـة «اعِزَّة» جمع «عزيز» ومن مـادّة «عزة» وتـأتى بمعنى الشـدّة والصـلابة، ويقال للحيوانات المطيعة «ذلول» لأنها ملائمـة ومسـلّمة للإنسان، و «تـذليل» فى الآيـة الشـريفة «ذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا» إشارة إلى هذا المعنى، وهو سـهولة اقتطاف ثمارها ثمار الجنّة، وأحياناً تُستخدم كلمة «ذِلّة» فى موارد سـلبية وذلك إذا واجه الإنسان موقفاً يُجبر فيه على شـىء من غيره، وإلّا فإنّ المعنى السلبى لهـذه الكلمـة لا- الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۵۹ يوجـد فى بطنهـا ومفهومهـا فى الأصـل. وعلى أيّـة حال فإنّ الآية الشـريفة تـدل بوضوح على أهميـة التواضع وسـمو مقام المتواضـعين، ذلك التواضع الّـذى ينبع من أعماق الإنسان ويمتـد إلى وجدانه ليـذيع فى النفس احترام الطرف الآخر المؤمن ويتحرّك معه من موقع المودّة والتسـليم والانعطاف مع الطرف الآخر. فى «الآيـة الثانيـة» نجـد إشارة أيضاً إلى الصـفات البارزة والفضائل الأخلاقيـة لجماعـة من عباد اللّه تعالى الّذين وصـلوا فى سـلوكهم المعنوى إلى مرتبة عاليـة من الكمال الإنسانى والإلهى، حيث نقرأ فى آيات سورة الفرقان من الآيـة ۶۳ إلى الآية ۷۴ اثنا عشـر فضيلة مهمة وكبيرة لهؤلاء الأشـخاص، والملفت للنظر أنّ أول صـفة تـذكرها الآيـة لهؤلاء هى صـفة التواضع، وهـذا يـدلّ على أنّ التكبّر كما يمثل أخطر الرذائل الأخلاقيـة فكـذلك التواضع يمثـل أهم الفضائـل الأخلاقيـة فى واقع الإنسـان وحركته الإجتماعيـة والمعنويـة حيث تقول الآيـة «وَعِبَادُ الرَّحْمنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْارْضِ هَوْناً». (هون) مصـدر بمعنى الهـدوء والليونـة والتواضع، واسـتعمال المصـدر بمعنى اسم الفاعل هنا لغرض التأكيـد، أى أنّهم يعيشون التواضع والهدوء إلى درجة وكأنهم عين التواضع، ولهذا السـبب تسـتمر الآية فى سياقها بالقول «وَاذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً»؛ أى لو واجههم الجهلاء والأراذل من النـاس من موقع الشتيمـة والكلام الباطل فإنّ جوابهم لا يكون إلّابعـدم الاعتناء وغض الطرف من موقع عظمـة شخصـيتهم وكِبَر نفوسـهم. وفى الآيـة الّتى تليها وبعـد أن يتم الحديث عن التواضع مع الآخرين من الناس يتحدّث القرآن الكريم عن تواضـعهم أمام اللّه تعالى ويقول «وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً». ويقول الراغب فى كتابه «مفردات القرآن»: الهوان على وجهين، أحـدهما: تـذلل الإنسان فى نفسه لما لا يلحق به غضاضة، فيمدح به (ثم يورد الآية محل البحث) ونحو مـا روى عن الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۶۰ النبى صـلى الله عليه و آله: «المؤمن هيّن ليّن» «۱». الثانى: أن يكون عن جهة متسلِّط مستخف به فيذمّ به «۲». ولا يخفى أنّ المقصود بقوله: «الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْارْضِ هوناً» ليس هو المشى فى حالة التواضع فحسب، بـل المقصود نفى كـلّ نوع من التكـبّر والأنانيـة والسـلوكيات السـلبية النابعـة من حالـة التكبّر السـلبية والّتى تتجلّى فى أعمـال الإنسـان وأفعـاله الاـخرى، وذكرت الآيـة المشـى باعتباره نموذج عملى للدلالـة على وجود التواضع كملكـة نفسانيـة لـدى هؤلاء، لأن الملكات الأخلاقية تتجلّى دائماً على كلمات الإنسان وحركاته الخارجية إلى درجة أنّه فى الكثير من الحالات يُستدل على وجود أنواع من الصـفات الأخلاقيـة فى الشـخص بواسـطة المشـى. أجل فإنّ أول صـفة لعباد الرحمان هى التواضع الّـذى يملأ وجودهم وينفذ إلى أعمال نفوسـهم فيتجلّى ويظهر على حركاتهم وسـكناتهم وكلماتهم، وعندما نرى أنّ اللّه تعالى فى الآية ۳۷ من سورة الإسراء يأمر نبيه الكريم بـالقول «وَلَا تَمْشِ فِى الْارْضِ مَرَحاً» فالمقصود ليس هو النهى عن حالـة المشـى بصورة معينـة، فحسب بل الهـدف هو غرس التواضع فى جميع الحالات والسـلوكيات الاخرى والّـذى يُعـد علامـة على عبودية اللّه تعالى. «الآية الثالثة» تخاطب النبى الأكرم وتقول «وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ». «خفض» على وزن «كرب» هـو فى الأصـل بمعنى السـحب إلى الاسـفل، وعليه فجملة

«وَاخفِض جَناح» كنايـة عن التواضع المقرون بالمحبـة والحنان كما هو حال الطائر الّـذى يفتـح جناحه ويضم إليه فراخه إظهاراً للمحبّة وبدافع الحنان ولصونهم من الأخطار المحتملة وحفظهم من التفرّق، وعلى هذا الأساس فإنّ النبى الأكرم صلى الله عليه و آله مأمور بأن يتحرّك مـن هـذا الموقع ليحفـظ المـؤمنين تحت جنـاحه وظلّه. الاخلاـق فى القرآن، ج۲، ص: ۶۱ وهـذا التعبير جميـل جـدّاً ومليء بالمعـانى والنكـات الدقيقـة الّتى جُمعت فى جملـة واحـدة. وعنـدما يُؤمر نبى الإسـلام بـالتواضع وإظهـار المحبّـة للمؤمنين فـإنّ وظيفة المؤمنين وتكليفهم الأخلاقى تجاه بعضـهم البعض واضـح، لأن النبى الأكرم يُعتبر قـدوة واسوة لجميع أفراد الامّـة الإسـلامية. وقد ورد هذا المضمون أيضاً فى الآية ۸۸ من سورة الحجر حيث يقول تعالى «وَاخْفِضْ جَنَاحكَ لِلْمُؤْمِنِينَ» وهنا نرى أنّ المخاطب فى هذه الآية هو النبى الأـكرم أيضـاً حيث أمره اللَّه تعـالى بخفض جناحه للمؤمنين أى بالتواضع المقرون بالمحبّـة فى تعامله مع اتباعه من المؤمنين. وشبيه هذه العبارة مع تفاوت بسيط ورد فى سورة الإسراء كتكليف للمسلم تجاه والديه حيث تقول الآية «وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ». ومن مجموع ما ورد من الآيات أعلاه نسـتوحى جيداً أنّ القرآن الكريم لم يكتف بذم التكبّر والاسـتكبار فى مجمل السلوك الأخلاقى للإنسان بل أكد على النقطة المقابلة له أى التواضع والانعطاف واثنى عليه بتعبيرات مختلفة.

التواضع فى الروايات الإسلامية:

اشارة

لقـد ورد فى المصادر الروائيـة لـدى الشيعة وأهل السـنّة أحاديث كثيرة فى باب التواضع تبين أهميـة هـذه الصـفة الأخلاقية فى حركة الإنسان التكاملية والإجتماعية، وورد فى بعضها علامات المتواضعين ونتائج وثمار التواضع وحدوده وآدابه. أما عن أهمية التواضع فقد وردت تعبيرات جميلة وجذابة فى الروايات الشريفة منها: ۱- ورد فى الحديث الشريف أنّ رسول اللَّه قال يوماً مخاطباً أصحابه: «مَا لِى لَـاارى عَلَيْكُمْ حَلَـاوَةَ الْعِبَـادَةِ؟! قَـالُوا: وَمَا حَلَاوَةُ الْعِبَادَةِ؟ قَالَ: التَّوَاضُعُ!» «۱». الاخلاـق فى القرآن، ج۲، ص: ۶۲ ولاـ يخفى أنّ حقيقة العبادة هى غايـة الخضوع امام اللَّه تعالى فالشـخص الّـذى ذاق حلاوة الخضوع والتواضع مقابل حقيقـة الالوهيـة والـذات المقدسة فإنه سيتحلّى أيضاً بالتواضع مع الخلق. ۲- وفى حديث آخر عن أميرالمؤمنين عليه السـلام: «عَلَيْكَ بِالتَّوَاضُعِ فَإِنَّهُ مِنْ اعْظَمِ الْعِبَادَةِ» «۱». ۳- وورد عن الإمـام الحسن العسـكرى عليه السـلام: «التَّوَاضُعُ نِعْمَـةٌ لَايُحْسَـدُ عَلَيْهَـا» «۲». ومن الطبيعى أنّ كـلّ نعمـة تصـيب الإنسـان فإنه سيتعرض فى الجهـة المقابلة لأذى الحساد حيث تتحرك فيهم عناصـر الحسد والكراهية أكثر بحيث يضـيق الفضاء على صاحب النعمة ويعيش فى حالة من التوتر الّذى يفرزه حالة الحسد فى الطرف المقابل ولكن التواضع مستثنى من هذه القاعدة فهو نعمة لا تتغير بحسد الحسـاد. ونختم هـذا البحث المفصـل بحـديث آخر عن النبى الأكرم: ۴- «يُبَاهِى اللَّهُ تَعَالَى الْمَلَائِكَـةَ بِخَمْسَـةٍ: بِالْمُجَاهِـدِينَ، وَالْفُقَرَاء، وَالَّذِينَ يَتَوَاضَـعُون لِلَّهِ تَعَـالَى، وَالْغَنِىِّ الّـذى يُعْطِى الْفُقَرَاءَ وَلَـا يَمُنُّ عَلَيْهِمْ، وَرَجُـلٍ يَبْكِى فِى الْخَلْوَةِ مِنْ خَشْـيَةِ اللَّهِ عَزَّوَجَـلَّ» «۳». وعن ثمرات التواضع ونتـائجه الإيجابيـة وردت روايـات كـثيرة عن المعصومين نكتفى بـذكر نمـاذج منهـا: ففى حـديث شـريف عن الإمـام أميرالمؤمنين: «ثَمَرَةُ التَّوَاضُعِ الْمَحَبَّةُ وَثَمَرَةُ الْكِبْرِ الْمَسَبَّةُ» «۴». وفى حديث آخر عن هذا الإمام أيضاً: «بِخَفْضِ الْجَنَاحِ تَنْتَظِمُ الْامُورَ» «۵». ومن الواضح أنّ عملية تنظيم امور المجتمع لا تتسنّى إلّابالتعاون والتكاتف الإجتماعى الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۶۳ والعاطفى بين الأفراد، وهذا التعاون والتكاتف لا يكون إلّابأن يكون المدير والمدبّر والقائم على امور المجتمع لا يتعامل مع الأفراد بالضـغط والإجبار أو بأن يتباهى ويتفاخر على الآخرين ويرى نفسه أفضل منهم، فإنّ المـدير الموفق فى عمله هو من يعيش حالة الحزم والقاطعية فى عين التواضع والمحبـة مع الآـخرين. ونقرأ فى حـديث آخر عن رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله: «التَّوَاضُعُ لَايَزِيـدُ الْعَبْـدَ الّـا رَفْعَـةً فَتَوَاضَـعُوا يَرْفَعْكُمُ اللَّهُ» «۱». أحياناً يتصور الإنسان أنّ التواضع يقلل من قيمة الشخصـية ويصـغر شخصـية الفرد فى نظر الآخرين، فى حين أنّ هذا التصـوّر سـاذج ومجـانب للصـواب، فإننـا نرى أنّ الأشـخاص المتواضـعين فى المجتمع يتمتعـون بالاـحترام البـالغ مـن قِبـل الآـخرين،

وتواضعهم لا- يزيدهم إلّا احتراماً وعزّة فى نفوس الناس. ويُستفاد من الأحاديث الإسلامية انّ التواضع شرط فى قبول العبادات والطاعات ومن ذلك ما ورد فى الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «التَّوَاضُعُ اصْلُ كُلِّ خَيْرٍ نَفِيسٍ وَمَرْتَبَةٌ رَفِيعَةٌ ... وَمَنْ تَوَاضَعَ للَّهِ شَرَّفَهُ اللَّهُ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ ... وَلَيْسَ للَّهِ عَزَّوَجَلَّ عِبَادَةٌ يَقْبَلُهَا وَيَرْضَيها الّا وَبَابُهَا التَّوَاضُعُ، وَلَا يَعْرِفُ مَا فِى مَعْنى حَقِيقَةِ التَّوَاضُعِ الَّا الْمُقَرَّبُونَ الْمُسْتَقِلِّينَ بِوَحْدَانِيَّتِهِ، قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ وَعِبَادُ الرَّحْمنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْارْضِ هَوْناً وَاذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً» «۲». ونختم هذا البحث بحديث عن السيّد المسيح عليه السلام حيث قال: «بِالتَّوَاضُعِ تَعْمُرُ الْحِكْمَةُ لَا بِالتَّكَبُّرِ، كَذَلِكَ فِى السَّهْلِ يَنْبُتُ الزَّرْعَ لَافِى الْجَبَلِ» «۳». والخلاصة أنّ التواضع فى حركة الحياة العلمية والثقافية يؤثر إيجابياً فى حياة الإنسان (لأنّ الشخص المتكبر يكون محجوباً عن رؤية حقائق الامور بسبب تكبره) وكذلك يؤثر التواضع تأثيراً إيجابياً فى حركة الإنسان الإجتماعية (لأنّ الشخص المتواضع يزيده الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۶۴ تواضعه محبة فى قلوب الناس ويحترمه الجميع لأخلاقه الحسنة والطيبة) وكذلك يؤثر التواضع تأثيراً إيجابياً فى علاقة الإنسان بخالقه لأن التواضع يمثل روح العبادة ومفتاح قبول الأعمال والطاعات. وبالنسبة إلى علامات التواضع فقد وردت روايات لطيفة وجميلة فى الروايات الإسلامية، ففى حديث عن الإمام على بن أبى طالب نقرأ: «ثَلَاثٌ هُنَّ رَأْسُ التَّوَاضُعِ: انْ يَبْدَءَ بِالسَّلَامِ مَن لَقِيَهُ، وَيَرْضَى بِالدُّونِ مِنْ شَرَفِ الْمَجْلِسِ، وَيَكْرَهُ الرِّيَاء وَالسُّمْعَةَ» «۱». وفى بعض الروايات نقرأ علامات اخرى أيضاً للتواضع منها ترك المراء والجدال، أى أنّ الإنسان لا يدخل فى مناقشة وجدل فكرى من أجل اشباع رغبة التفوق على الآخرين واظهار فضله عليهم، ومن العلامات الاخرى عدم الرغبة فى ثناء الناس عليه ومدحهم له «۲».

۱- تعريف التواضع

«التواضع» من مادّة «وضع»، وهى فى الأصل بمعنى وضع الشىء إلى الأسفل. وهذا التعبير ورد بالنسبة إلى النساء الحوامل اللآتى يلدن حملهن فيقال «وضعت حملها» وكذلك بالنسبة إلى الخسارة والضرر الّذى قد يتحمله الإنسان فيقال «وضيعة»، وعندما تُطلق هذه الكلمة ويُراد بها صفة أخلاقية فى الإنسان فإنّ مفهومها أنّ الإنسان ينخفض بنفسه عن مكانته الإجتماعية، بعكس حالة التكبر الّتى يفهم منها استعلاء الإنسان عن واقعه الإجتماعى وطلب التفوق على الآخرين. ويرى البعض من أهل اللغة أنّ «التواضع» بمعنى «التذلل» والمقصود من التذلل هنا الخضوع والتسليم. وذكر المرحوم النراقى فى «معراج السعادة» فى تعريف التواضع أنّه قال (التواضع عبارة الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۶۵ عن الإنكسار النفسى الّذى لا يرى معه الإنسان نفسه أعلى من الآخرين ولازمه أن يتحرك الشخص تجاه الآخرين من موقع الاحترام والتعظيم لهم بكلماته وأفعاله) «۱». وفى حديث آخر عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام قال عندما سُئِل: «مَا حَدُّ التَّوَاضُعِ الّذى إذَا فَعَلَهُ الْعَبْدُ كَانَ مُتَوَاضِعاً؟ فَقَالَ: التَّوَاضُعُ دَرَجَاتٌ مِنْهَا انْ يَعْرِفَ الْمَرْءُ قَدْرَ نَفْسِهِ فَيُنَزِّلُهَا مَنْزِلَتَهَا بِقَلْبٍ سَلِيمٍ لَايُحِبُّ انْ يَأْتِىَ الَى احَدٍ الّا مِثْلُ مَا يُؤْتَى الَيْهِ، انْ رَأَىَ سَيِّئَةً دَرَاهَا بِالْحَسَنَةِ، كَاظِمُ الْغَيْظِ، عَافٍ عَنِ النَّاسِ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ» «۲». وممّا ورد فى هذه الرواية الشريفة والمهمة هو فى الحقيقة علامات التواضع حيث يمكننا من خلالها التوصل إلى تعريف التواضع. وفى حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «التَّوَاضُعُ الرِّضَا بِالْمَجْلِسِ دُونَ شَرَفِهِ وَانْ تُسَلِّمَ عَلَى مَنْ لَقِيتَ وَانْ تَتْرُكَ الْمِرَاءَ وَانْ كُنْتَ مُحِقّاً» «۳». والحقيقة هى أن تعريف التواضع لا- ينفصل عن علامات التواضع لأن من أفضل التعاريف للمفردات اللغوية والأخلاقية هو التعريف المشتمل على علامات ذلك الموضوع المراد تعريفه.

۲- التواضع وكرامة الإنسان

عادة نرى فى مثل هذه المباحث الأخلاقية أنّ البعض يسلك فيها مسلك الافراط والبعض الآخر مسلك التفريط، مثلًا يتصور البعض أنّ حقيقة التواضع هى أنّ الإنسان يستذل نفسه أمام الناس ولا يرى لنفسه مقداراً وشأناً من الشؤون، وقد يقوم بأعمال واهنة يسقط

بسببها من أنظار الناس فيساء الظن به كما ذكر فی حالات الصوفية هذا المعنی أيضاً وأنّهم عندما يشتهرون فی منطقة بالصلاح والفضل فإنّهم يرتكبون أعمال قبيحة ومنافية الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۶۶ للمروءة ليسقطوا فی أنظار الناس، مثلًا لا يهتمون بأمر العبادة وقد يرتكبون الخيانة فی أمانات الناس بحيث يتركهم الناس، وبهذه الطريقة يتصورون أنّ هذا الاسلوب هو نوع من التواضع ورياضة النفس. بينما نجد أنّ الإسلام لا يُبيح للإنسان تحقير نفسه وإذلالها باسم التواضع ولا يرضی بأن يتحرّك الإنسان لإسقاط شخصيته وكرامته وسحقها، فالمهم أنّ الإنسان فی عين ممارسة التواضع يحفظ شخصيته الإجتماعية ولا يذل نفسه، فلو أنّ الإنسان سعی للتحلی بالتواضع بصورته الصحيحة فليس لا يجد هذه الآثار السلبية فحسب بل علی العكس من ذلك، فإنّ احترامه وشخصيته ستزداد وتتعمق فی أنظار الناس، ولهذا ورد فی الروايات الإسلامية عن أميرالمؤمنين أنّه قال «بِالتَّوَاضُعِ تَكُونُ الرِّفْعَةُ» «۱». ويقول الفيض الكاشانی تحت عنوان غاية الرياضة فی خلق التواضع: «اعلم إنّ هذا الخلق كسائر الأخلاق له طرفان وواسطة، فطرفه الّذی يميل إلی الزيادة يسمی تكبراً، وطرفه الّذی يميل إلی النقصان يسمی تخاسساً ومذلة، والوسط يسمی تواضعاً، والمحمود أن يتواضع فی غير مذلة ومن غير تخاسس، فإنّ كلا طرفی قصد الامور ذميم، وأحب إلی اللَّه تعالی أوساطها. فمن يتقدم علی أمثاله فهو متكبر، ومن يتأخر عنهم فهو متواضع، أی أنّه وضع شيئاً من قدره الّذی يستحقه، والعالم إذا دخل عليه اسكاف فتنحی له عن مجلسه وأجلسه فيه ثم تقدم وسوی له نعله وغدا إلی الباب خلفه فقد تخاسس وتذلل، وهذا أيضاً غير محمود بل المحمود عند اللَّه العدل وهو أن يعطی كل ذی حقّ حقّه، فينبغی أن يتواضع بمثل هذا لأمثاله ولمن بقرب من درجته، فأما تواضعه للسوقی فبالقيام والبشر فی الكلام والرفق فی السؤال وإجابة دعوته والسعی فی حاجته وأمثال ذلك، وأن لا يری نفسه خيراً منه بل يكون علی نفسه أخوف منه علی غيره، فلا يحتقره ولا يستصغره وهو لا يعرف خاتمة أمره وخاتمته» «۲». الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۶۷ و ۴

الحرص والقناعة

تنويه:

سبق وأن قرأنا فی الفصل السابق الحديث الوارد عن الإمام علی بن الحسين زين‌العابدين يذكر فيه أنّ أوّل مصدر للمعصية هو التكبّر حيث تكبّر إبليس ورفض السجود لآدم بسبب تكبره وطغيانه، ثمّ ذكر الإمام زين العابدين (الحرص) بعنوان انه المصدر الثانی للمعصية حيث ذكر فيه ما صدر من الترك للأولی من قِبل آدم وحواء وأكلهما من الشجرة الممنوعة بدافع من الحرص، ثمّ ذكر (الحسد) الّذی يتمثل فی حسد قابيل لأخيه هابيل وقتله. إن افرازات الحرص السلبية لم تتجلّی فقط فی قصّة آدم بل فی قصص الأنبياء وتصدّيهم لسلوكيات أقوامهم المنحرفة طيلة التاريخ البشری، فنحن نری فی قصص الأقوام البشرية السالفة والمجتمعات المختلفة أنّ الحرص والطمع كان يمثل المصدر للكثير من الجرائم والحروب الدموية والغارات الوحشية وسحق المبادئ الإنسانية والفضائل الأخلاقية فی حركة الحياة البشرية والمجتمعات الإنسانية. والنقطة المقابلة لهذه الرذيلة الأخلاقية هی (القناعة) الّتی تورث الإنسان الطمأنينة والهدوء النفسی، العدالة، الصلح، الاخوة والصفاء فی دائرة العلاقات الإجتماعية، وبالنظر الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۶۸ إلی المنهج المتّبع لترتيب الفضائل والرذائل الأخلاقية (المنهج الّذی يبتدئ فی دراسة واستعراض حالات الأنبياء من آدم إلی نبيّنا الكريم الواردة فی القرآن المجيد) فإنّ ثانی صفة من الصفات الرذيلة هی الحرص المتمثل فی قصّة آدم، وكذلك قصة شعيب وداود وبشكل عام اليهود، وسنتعرض كذلك ما ورد من الحوادث المتعلقة بالمسلمين والمشركين العرب فی عصر النزول أيضاً. وبهذه الإشارة نعود إلی القرآن الكريم لنستوحی من آياته الشريفة ما ورد فی هذا المضمون الأخلاقی: ۱- «فَوَسْوَسَ اِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ ادُلُّكَ عَلَی شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَايَبْلَی* فَاكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَی آدَمُ رَبَّهُ فَغَوی «۱». ۲- «وَاِلَی مَدْيَنَ اخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ اِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَائَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَاوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا

تَبْخَسُوا النَّاسَ اشْيَائَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِی الْارْضِ بَعْدَ اصْلَاحِهَا ذَلِکُمْ خَيْرٌ لَکُمْ انْ کُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» «۲». ۳- «انَّ هَذَا اخِی لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِیَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ اکْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِی فِی الْخِطَابِ* قَالَ لَقَدْ ظَلَمَکَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِکَ الَی نِعَاجِهِ وَانَّ کَثِيراً مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِی بَعْضُهُمْ عَلَی بَعْضٍ الَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ انَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاکِعاً وَانَابَ» «۳». ۴- «وَلَتَجِدَنَّهُمْ احْرَصَ النَّاسِ عَلَی حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ اشْرَکُوا يَوَدُّ احَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ الْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ انْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ» «۴». الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۶۹ ۵- «انَّ الْانْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً* اذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً* وَاذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً» «۱». ۶- «وَاذَا رَاَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا الَيْهَا وَتَرَکُوکَ قَائِماً قُل مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ» «۲». ۷- «وَيْلٌ لِکُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ* الَّذی جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ* يَحْسَبُ انَّ مَالَهُ اخْلَدَه» «۳»

تفسیر واستنتاج:

تتحدّث «الآیة الاولی» من الآیات المذکورة آنفاً عن قصة آدم وزوجته حواء وما جری لهما مع الشیطان الرجیم، فطبقاً للآیات القرآنیة فإنّ اللّه تعالی قد اسکن آدم وحواء الجنّة ونهاهما عن الاقتراب من الشجرة الممنوعة وحذرهما من إغواء إبلیس ووسوسته، ولکن الشیطان افلح فی إغوائه ووسوسته وارتکب آدم ترک الأولی وأکل من الشجرة الممنوعة، وبذلک طرد من الجنّة وغرق فی دوّامة البلایا والمشاکل الدنیویة فی هذه الحیاة. الآیات أعلاه تشیر إلی هذه الحادثة التاریخیة وتقول: «فَوَسْوَسَ الَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ ادُلُّکَ عَلَی شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْکٍ لَايَبْلَی* فَاکَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَی آدَمُ رَبَّهُ فَغَوی . وفی الواقع فإنّ الشیطان ذکر لآدم عن الشجرة الممنوعة بانّ کلّ من یأکل منها سوف یحظی بطول العمر ویغرق فی النعمة والسعادة الخالدة. ما هو السبب الّذی دفع آدم إلی قبول وسوسة الشیطان والاعتماد علی کلماته ووعوده ونسیان الأمر الإلهی ونهیه عن تناول ثمرة الشجرة الممنوعة؟ ألیس الحرص والطمع هو الّذی حجبه عن رؤیة حقائق الامور؟ وبهذا نری أنّ حالة التکبّر هی الّتی أدّت إلی ضلال الشیطان وعصیانه لأوامر اللّه تعالی الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۷۰ فی بدایة الخلقة، وترتب علی ذلک أعظم المفاسد فی عالم الوجود، وهکذا نری أنّ حالة الحرص والطمع والرغبة فی الملّذات المادیة والدنیویة هی العامل الآخر لشقاء الإنسان وغرقه فی وحل المفاسد والمشاکل الکثیرة فی حیاته، ولهذا السبب فقد ورد فی النصوص الدینیة أنّ اصول الکفر ثلاثة: «التکبّر» الّذی أدّی إلی ضلال إبلیس وانحرافه عن طریق الحق، «الحرص» الّذی تسبب فی انحراف آدم وخروجه من الجنّة، و «الحسد» الّذی تسبب فی قتل هابیل علی ید أخیه قابیل. وصحیح أنّ النهی الإلهی المتوجه لآدم لم یکن نهیاً تحریمیاً ولذلک لم تکن مخالفته معصیة مطلقة بل کان من قبیل (الترک للأولی ، أو بتعبیر آخر کان نوعاً من النهی الإرشادی کما فی نهی الطبیب للمریض عن تناول بعض الأطعمة غیر الملائمة لصحته ومزاجه ولکن علی أیّة حال فقد کان المتوقع من آدم أن لا یرتکب هذا الترک الأولی، لکن صفة الحرص والطمع قد دفعت بآدم إلی هذا المنزلق الخطیر، وبالتالی أوقع نفسه وذریته من البشر فی دوّامة من المشاکل والشدائد والمصائب فی حرکة الحیاة. «الآیة الثانیة» تتحدّث عن قصّة قوم شعیب الّذین دفعهم الحرص علی المزید من الملذات الدنیویة والطمع فی التکاثر فی الأموال والثروات المادیة أن یدیروا ظهورهم عن الحقّ ویترکوا دعوة نبیهم شعیب وإنکار التعلیمات السماویة الّتی جاء بها هذا النبی الکریم لتهدیدهم وتخلیصهم من أدران الشهوات المادیة الرخیصة حیث تقول الآیة: «وَالَی مَدْيَنَ اخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَکُمْ مِنْ الَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَائَتْکُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّکُمْ فَاوْفُوا الْکَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ اشْيَائَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِی الْارْضِ بَعْدَ اصْلَاحِهَا ذَلِکُمْ خَيْرٌ لَکُمْ انْ کُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ». وطبقاً لهذه الآیة فإنّ انحراف قوم شعیب کان یتمثل أوّلًا فی الشرک وعبادة الأوثان ثمّ التطفیف فی المیزان وأکل أموال الناس بالباطل والغش والإفساد فی الأرض، وهکذا نری أنّ هؤلاء القوم کانوا حریصین علی الدنیا إلی درجة أنّهم قالوا لشعیب کما تصرّح الآیة الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۷۱ «قَالُوا يَا شُعَيْبُ اصَلَاتُکَ تَأْمُرُکَ انْ نَتْرُکَ مَا يَعْبُدُ آبَائُنَا اوْ انْ نَفْعَلَ فِی امْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ...» «۱». هذا والحال أن غصب حقوق الناس والتطفیف فی المیزان لم یکن لیؤدی إلی عدم زیادة ثرواتهم وأموالهم

فحسب، بل كما أشار القرآن الكريم ادّى إلى فساد المجتمع وإيجاد الخلل والارتباك فى مفاصله وزوال الثقة بين الأفراد فى عملية التفاعل الإجتماعى واهدار الطاقات واتلاف الأموال وأمثال ذلك، وعليه فإنّ صفة الحرص أدّت إلى نتائج معكوسة فى مسيرتهم الإجتماعية والدنيوية. «الآية الثالثة» من الآيات محل البحث تستعرض الحادثة الّتى حدثت لداود والّتى تعكس فى مضمونها الصفة الذميمة للحرص وابعادها السلبية فى حياة الإنسان وعلاقته مع الآخرين، وتتلخص هذه القصة فى أخوين جاءا إلى النبى داود فقال أحدهما «انَّ هَـذَا اخِى لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ اكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى الْخِطَابِ» «۲» وهكذا نجد أنّ صاحب التسع وتسعين نعجة طمع فى ضم نعجة أخيه الواحدة إلى نعاجه وأصرّ عليه بقبول هذا العرض والطلب، وعندما سمع داود هذا الكلام تأثر كثيراً و «قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤ آلِ نَعْجَتِكَ الَى نِعَاجِهِ» ثمّ ذكر داود لهذين الأخوين أنّ هذه الحالة تكاد تكون طبيعية لدى بنى البشر وخاصة فى حالة الشركة مع بعضهم فيتحرك بعضهم من موقع الظلم والاجحاد بحقّ البعض الآخر، باستثناء المؤمنين الّذين يمنعهم إيمانهم من سلوك طريق الباطل وقال لهما «وَانَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ الَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ». ونقرأ فى ذيل الآية الكريمة «وَظَنَّ دَاوُدُ انَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَانَابَ» «۴». الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۷۲ ولكن ماذا حدث لداود فى هذه الفتنة وهذا الامتحان الإلهى؟ هناك كلام كثير بين المفسّرين، وأما ما ورد فى التوراة المحرّفة الحالية فيتلخص فى أنّ داود كان قد طمع فى زوجة أحد قادته العسكريين ويدعى «اوريای حتى» والّذى كانت له زوجة جميله جدّاً فعشقها داود واحتال لتحريرها من قيد زوجيتها مع اوريا ليتمكن من الزواج بها مع انه كانت له أزواج عديدة، وهكذا نرى أنّ هذه القصة المفتعلة لا تتناسب مطلقاً مع قداسة الأنبياء الإلهيين بل لا تتناسب مع الأخلاق الإنسانية لدى أىّ إنسان فى المستوى المتوسط من الأخلاق، فانّ كلّ إنسان يستقبح هذه الحالة فى نفسه وفى غيره من البشر. والمشهور بين المفسّرين الإسلاميين هو أنّ امتحان داود كان يتعلق بمسألة القضاء وانه استعجل فى حكمه وقبل أن يسمع حجّة الطرف الآخر حكم بينهما وقضى للأوّل على الثانى، وبالرغم من أنّ حكمه وقضائه كان مصيباً للحقّ فإنّ اللّه تعالى وبّخه على تركه للأولى فى هذه القضية، ثمّ إنّ داود التفت إلى ذنبه وتاب منه. وعلى أيّة حال فمقصودنا من استعراض هذه القصة هو أنّ الإنسان عندما يستولى عليه الحرص والطمع فإنه يتحرّك من موقع ارتكاب الظلم والجور حتّى بالنسبة إلى أخيه الضعيف والمسكين ولا يأبى عن غصب حقّه وحرمانه من أبسط لوازم الحياة والمعيشة. أجل فإنّ الحرص على الدنيا وملذاتها لا يعرف حدّاً وحدوداً بل يجرّ الإنسان إلى ارتكاب أشنع الظلم والجور فى حقّ الآخرين. «الآية الرابعة» من الآيات التى جاءت فى البحث وتشير إلى حرص اليهود على الحياة الدنيا، وتنطلق الآية من موقع الذم لهؤلاء فتقول: «وَلَتَجِدَنَّهُمْ احْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ اشْرَكُوا». هؤلاء حريصون على جمع الأموال والثروات، حريصون على الملك والتسلط على الدنيا، حريصون على التمسّك بزمام الامور، والعجيب أنّهم احرص من المشركين الّذين لا يلتزمون بأىّ دين ولا يعتقدون بأيّة شريعة سماوية فى حين أنّ التعليمات السماوية تذم الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۷۳ هذه الحالة الأخلاقية السلبية والمفروض بالإنسان الملتزم بالدين والشريعة أن تؤثر فيه هذه التعليمات السماوية وتحدد من حرصه على الدنيا وزخارفها الزائلة ولكننا نجد أنّ اليهود كانوا أحرص من المشركين عليها. وكما تقول الآية «يَوَدُّ احَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ الْفَ سَنَةٍ». فهؤلاء و من أجل جمع الثروات وبدافع الخوف من العذاب الإلهى الّذى ينتظرهم بسبب ظلمهم وعدوانهم وغصبهم لحقوق الآخرين وسفكهم لدماء الأبرياء فإنّهم كانوا يتمنون هذا العمر الطويل. والملفت للنظر أنّ حالة اليهود فى هذا العصر لم تختلف عنها فى العصور السابقة فنراهم يعيشون حالة الحرص الشديد هذه بل وأشد من السابق، فإنّ التاريخ المعاصر يشهد بأن اليهود لا يمتنعون من ارتكاب أيّة جناية فى سبيل المزيد من جمع الثروات والأموال، فما أكثر الحروب الدامية الّتى أشعلوها بين المجتمعات البشرية، وما أكثر دماء الأبرياء الّتى سفكوها، وما أكثر الفتن الّتى أوقدوا نيرانها بين الشعوب، وما أكثر الأسلحة والمواد المخدّرة الّتى تاجروا بها لإفساد وتدمير العلاقات الإجتماعية بين أبناء البشر، كلّ ذلك من أجل تحكيم اركان سيطرتهم على مقدّرات الامم والشعوب، وما أكثر الكذب والدجل والذى يروجونه بين الناس من الإذاعات العالمية الّتى يقف الصهاينة واليهود من ورائها. إذا أردنا أن نستعرض النتائج السلبية والعواقب الوخيمة لحالة الحرص والطمع وحب

الـدنيا على الإنسان فينبغى أن نسـتعرض أعمال هؤلاء على هذا المسـتوى وتعبير «حياة» الّذى جاء فى الآية بصورة نكرة لعله إشارة إلى هـذه الحقيقة، وهى أنّ هؤلاء القوم يريدون ويطلبون الحياة لأجل اللّذة فقط ولكن أيّة حياة؟ هل هى حياة إنسانية، أو حياة حيوانية، أو حياة الوحوش فى البرارى والغابات؟ كلّ ذلك غير مهم فى نظر هؤلاء. وكما قال بعض المفسّرين أنّ هـذه الآية لا تتحدّث عن اليهود فقط بل تمثل تحـذيراً لجميع أفراد البشـر تحـذرهم من الحرص وعواقب حبّ الدنيا لكيلا يبتلوا بما ابتُلى به اليهود فى حياتهم الدنيوية وسلوكياتهم الأخلاقية. الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۷۴ وقد ورد فى الآيات القرآنية والروايات الشـريفة عن اليهود أنّهم قتلوا الكثير من الأنبياء الإلهيين لمجرّد مخالفتهم لهم ونهيهم عن سـلوكياتهم المنحرفة ورغباتهم اللامشـروعة فى هـذه الحياة، وكـذلك تحريفهم لآيات اللّه وكتبه السـماوية وكلّ ذلك كان بسـبب حرصـهم وحبهم للـدنيا. «الآيـة الخامسة» تتحرّك على مسـتوى اسـتعراض صـفات الإنسـان وحالاـته السـلبية من الحرص والجزع والبخـل وأمثـال ذلـك وتقول: «انَّ الْانْسَـانَ خُلِقَ هَلُوعاً* اذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً* وَاذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً». وقد ذكر المفسّرون وأرباب اللغة لكلمة «هلوع» معان كثيرة، وفى الواقع أكثرها من باب اللازم والملزوم ومتقاربة المعنى، ومن ذلـك مـا ذكره صـاحب لسـان العرب من المعـانى الأربعـة لهـذه الكلمـة وهى: الحرص، الجزع، الضـجر، وقلـة الصبر، وأورد فى «مجمع البيان» أيضاً لمعنى الهلوع: «ضـجور» و «شـحيح» و «جزع» و «شديد الحرص». وذهب صاحب كتاب التحقيق أنّ الجذر الأصلى لهـذه الكلمـة هو رغبـة الإنسـان فى الاسـتمتاع بـالنعم والملـذات، أما الجزع والحرص وقلّـة الصبر فكلّها من آثار هـذه الكلمـة ومعناها الأصـلى. ومن مجموع ما تقـدّم يظهر أنّ هذه الكلمة تتضـمن ثلاث نقاط سـلبية فى دائرة الأخلاق وهى: الحرص، الجزع والبخل. وفى الواقع فـإنّ تفسـير كلمـة «هلوع» ورد فى نفس السورة بعـد هـذه الآيـة حيث يمكن اسـتفادة المفهوم الواقعى لهـا بحيث تتضـمن هـذه المعـانى الثلاثـة لأـن «جزوع» من مادة «جزع» و «منوع» من مادّة «منع»، ويـدخل فى معناها البخل والحرص. وعلى أيّـة حال فإنّ الآيات المـذكورة وردت فى مقـام ذم الأشـخاص الّـذين يسـتولى عليهم الحرص والبخـل والجزع. ويمكن القـول أنّ «الحرص» هـو المصـدر الأسـاس للبخـل، لأـن الحريص يريـد الاحتفاظ الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۷۵ بكـلّ شـىء لنفسه ومنه ينشأ البخل، وكـذلك فإنّ الحرص أحياناً يسبب الجزع وقلّة الصبر، لأن الحريص إذا فقد بعض ممتلكاته ومتعلقاته فسوف يتألم كثيراً ويتعامل مع الامور من موقع الجزع والحـدّة. فالآيـة الشـريفة تقرر بأن الإنسان قـد خُلق بهـذه الصـفات، ولكن قد يُثار فى الذهن هذا التساؤل، وهو أنّ اللّه تعالى قد خلق الإنسان من أجل السـعادة الخالـدة ونيل المقامات والكمالات المعنويـة، فكيف يخلقه بهـذه النقائص ونقاط الضـعف الّتى تحجبه عن سـلوك طريق الحقّ وتصـدّه عن السـير فى طريق الكمال والسـعادة؟ وقد أجاب البعض على هذا السؤال بأن هذه الصـفات السـلبية تتعلق بالإنسـان الفاقـد للإيمان، فإنّ طبع الإنسان المؤمن يتناغم مع الصبر والمثابرة والكرم وأمثال ذلك ولكن عنـدما ينفصل عن دائرة الإيمان، فمن الطبيعى أن يجزع مقابل أقل مشـكلة وأدنى شدّة لأنّه يفتقد السند والدعامة الأساسية فى حياته العملية ويجد نفسه وحيداً فى مقابل تحدّيات الواقع الصـعبة، فلذلك يتعامل مع الحياة من موقع الحرص والبخل ولا يجد فى نفسه اعتماداً وتوكلًا على اللّه تعالى الّـذى بيده مفاتح الغيب وبالتالى لا يطمئن إلى غده وما سـيواجهه فى المسـتقبل من حوادث وأزمات. والشاهد على هذا هو أنّ الآيات الّتى جاءت بعد هذه الآية استثنت المصلين من هذا الحكم العام على الإنسان، ويحتمل أيضاً أنّ الآيات محل البحث كما هو الحال فى كثير من الآيات الشـريفة الّتى تصف الإنسان بأنه «ظلوم» و «جهول» و «يؤوس» و «كفور» و «طغى وأمثال ذلك، فتشـير هذه الآيات إلى وجود بُعـدين فى كيان الإنسان: البُعـد الّـذى يأخـذ بالإنسان ويصـعد به إلى أعلى علّيين، وهو ما يصـطلح عليه بقوس الصـعود، والبُعد الآخر ما يجره إلى أسفل السافلين وهو قوس النزول. ويرى العلّامة الطباطبائى فى «الميزان» رأياً آخر فى هذا الصدد، فيقول بأن الحرص صفـة من الصـفات الذاتيـة للإنسان ومتفرعـة على حبّ الذات، وهى فى الأصل ليست من الرذائل لأن حبّ الذات الّذى تتولد منه هذه الصـفات هو المحور الأساس الّذى يسوق الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۷۶ الإنسان إلى الكمال المعنوى ويدفعه نحو طريق السـعادة الخالـدة، فهـذه الصـفات إنّما تكون ذميمـة وقبيحـة فيما لو لم يسـتخدمها الإنسان فى الطريق الصـحيح واللائق، وفى الحقيقـة أنّ هـذه الصفات مثل سائر الصفات النفسانية الّتى إذا لزمت حدّ الاعتدال تُعدّ فضيلة وإذا تجاوزت إلى جهة الافراط أو التفريط فإنّها تكون من

الرذائل. وعلى أيّة حال فالآيات أعلاه تبين أنّ القرآن الكريم دعا جميع الناس إلى الإيمان والصلاة والدعاء والإنفاق فى سبيل اللّه لإطفاء نار الحرص والبخل والجزع فى وجوده وواقعه النفسانى. «الآية السادسة» تستعرض واقعة من الوقائع الّتى جرت فى زمان صدر الإسلام حينما كان المسلمون يعيشون القحط والجوع وغلاء الأسعار، وهناك وردت قافلة إلى المدينة محملة بالبضائع والمواد الغذائية من الشام وقد صادف دخول هذه القافلة الظهر من يوم الجمعة حيث كان النبى يخطب فى الناس خطبتى الجمعة. وقد كان المتعارف فى ذلك الزمان أنّه عندما تَرد قافلة إلى مدينة معيّنة تُدق الطبول ويُعزف على آلات الموسيقى حتّى يجتمع الناس بسرعة لشراء ما يحتاجونه من هذه القافلة، وعندما سمع المصلون صوت القافلة الواردة إلى المدينة ترك بعضهم من الّذين أسلموا حديثاً صلاة الجمعة وتوجّهوا إلى السوق لشراء البضاعة من القافلة فى حين لم يكن لذلك ضرورة لازمة وكان من الممكن التوجّه إلى القافلة بعد إتمام صلاه الجمعة، وعلى أيّة حال فلم يبق فى المسجد سوى اثنا عشر رجلًا وامرأة واحدة، فنزلت الآيات أعلاه تذم هؤلاء الّذين تركوا صلاة الجمعة بدافع الحرص على زخارف الدنيا، وقد ورد فى الحديث الشريف أنّ النبى قال حينها: لو لم يبق هؤلاء النفر لأمطرت السماء حجارة على الناس. ويُستفاد من سياق الآية أعلاه أنّ التوجّه إلى السوق والقافلة لم يكن بدافع من تأمين الحاجات الضرورية للمعيشة بل بدافع من الهوى وسُماع الألحان الموسيقية لدى البعض، وقد يكون بدافع من التجارة والربح المادى لدى البعض الآخر. الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۷۷ وعلى أىّ حال فإنّ القرآن الكريم يبين هذه الواقعة بهذه العبارة «وَاذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِماً». ثمّ يخاطب النبى الكريم بالقول «قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ». ويُحتمل أنّ البعض ترك الصلاة والنبى الأكرم وتوجّه إلى السوق والقافلة لتأمين حاجاته الضرورية للحياة (بالرغم من وجود الوقت الكافى لتهيئتها بعد الصلاة) ولكن التعبير أعلاه يبين بوضوح أنّ فئة من هؤلاء توجّهوا إلى القافلة بدافع من الحرص على شراء السع والبضائع بقيمة زهيدة ثمّ بيعها بأعلى الأثمان طمعاً فى الثروة والمال الكثير، وجماعة توجّهوا إلى القافلة بوحى الأهواء والنوازع النفسانية وبذلك حرموا أنفسهم من السعادة العظمى فى حضور الصلاه مع النبى الأكرم صلى الله عليه و آله. وجاءت الآية السابعة» والأخيرة من الآيات محل البحث لتتحدّث عن الأشخاص الّذين يتحركون فى تعاملهم مع الآخرين من موقع السخرية والاستهزاء وذلك بدافع من الغرور لما يعيشونه من حالة الثراء ويتصورون أنّ ذلك يسوّغ لهم الاستهزاء بالمؤمنين الفقراء. فتقول الآية «وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ* الّذى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ* يَحْسَبُ انَّ مَالَهُ اخْلَدَه» فمثل هذا الشخص الّذى يجمع الأموال بدون حساب للحلال والحرام ويتصور أنّ هذه الأموال تؤدى إلى بقائه وخلوده وابتعاد الموت عنه أنّ هذه الثروة تُبيح له السخرية بالآخرين من الفقراء والمُعدمين. جملة «عَدَّده» الناظرة إلى حساب الأموال من قِبَل أصحاب الثروة تشير إلى شدّة حرصهم وولعهم بهذه الأموال والثروات بحيث إنه كلّما ازدادت أموالهم ازدادوا حبّاً وشغفاً بها ولذلك فهم يعدّدونها دائماً ويجدون فى ذلك لذّة كبيرة. وجملة «الّذى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ» هى فى الواقع بمثابة العلّة للهمز واللمز المذكور فى الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۷۸ الآية الاولى، أى أنّ الثروة الدنيوية الطائلة ادّت بهم إلى درجة من الغرور والسكر بحيث إنّهم كانوا ينطلقون من موقع السخرية والاستهزاء بفقراء المؤمنين وكانوا يتصورون انه ليس فقط هذه الأموال والثروات هى الخالدة مدى الدهر بل أصحاب الثروة كذلك. إنّ دراسة حال أصحاب الدنيا العجيب وتعاملهم الغريب مع الواقع يرشدنا إلى ما يحيّر العقول من عجيب سلوكياتهم، فترى البعض منهم رغم احاطتهم الوافرة بالعلوم المادية والطبيعية ليس لهم هدف سوى جمع الأموال والثروات، وعندما يُسألون هؤلاء عن هدفهم من جمع المال رغم أنّهم لا يمتلكون عائلة ولا ينطلقون فى سفرات ترفيهية وسياحية، فيجيبون بأننا نفرح بإضافة صفر أمام أرقام الأموال المُودعة لنا فى البنوك!

النتيجة النهائية:

من مجموع ما تقدّم من الآيات الشريفة وما ذكر لها من تفسير نستنتج أنّ مسألة الحرص والطمع وحبّ الدنيا والشغف بجمع الأموال والثروات أمر خطير جدّاً فى دائرة المفاهيم القرآنية، وهو مصدر لكثير من أشكال الشر والفساد ويُعد من أقوى الموانع فى مسيرة

تهذیب النفس وفی خط التکامل الأخلاقی والمعنوی.

الحرص وحبّ الدنیا فی الأحادیث الإسلامیة:

اشارة

إن مفردة «الحرص» والکلمات المرادفة لها وردت فی الأحادیث الإسلامیة بشکل واسع علی مستوی أبعادها ودوافعها ونتائجها السلبیة حیث نختار منها نماذج معدودة: ۱- نقرأ فی الحدیث الشریف عن النبی الأکرم یخاطب فیه أمیرالمؤمنین فیقول: «اعْلَم یَا عَلِیُّ! انَّ الْجُبْنَ وَالْبُخْلَ وَالْحِرْصَ غَرِیزَةٌ وَاحِدَةٌ یُجْمَعُهَا سُوءُ الظَّنِّ» «۱». الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۷۹ ۲- وهذا المعنی والمضمون نجده بصورة اخری فی نهج البلاغة فی عهد أمیرالمؤمنین لمالک الأشتر حیث أوصاه الإمام أن یحذر ویتجنب من استشارة البخلاء والجبناء وأهل الحرص والطمع فقال «انَّ الْبُخْلَ وَالْجُبْنَ وَالْحِرْصَ غَرَائِزُ شَتَّی یَجْمَعُهَا سُوءُ الظَّنِّ بِاللهِ» «۱». فالشخص الّذی یحسن الظن باللّه تعالی وقدرته المطلقة علی الوفاء بالعهد وتأمین الرزق للعباد فإنه سوف لا یحرص أبداً علی جمع الأموال والثروات. الإنسان الّذی یعیش حالة التوکّل علی اللّه ویؤمن بألطافه وعناياته فإنه لا یخشی غیره ولا یخاف أیّة قوّة غیر قوته المطلقة. والإنسان الّذی یأمل دائماً برحمة اللّه تعالی ولطفه فإنه لا یجد فی نفسه بخلًا اطلاقاً. أجل فإنّ المؤمن الکامل فی توحیده وإیمانه باللّه تعالی وبأسمائه وصفاته الحسنی فإنه لا یمکن أن یتلوث بهذه الخصال الثلاثة القبیحة والرذیلة رغم انها تشترک فی الباطل بأصل واحد (ولهذا السبب نجد أحیاناً انها تسمّی باسم غریزة واحدة وأحیاناً اخری بأسماء مختلفة لأنها متعدّدة فی الظاهر ولکنها متّحدة فی الباطن). ۳- إنّ الحرص علی الدنیا وملذاتها وزخارفها بإمکانه أن یورث الإنسان التعب والشقاء ویورّطه فی السعی الدائب لتأمین رغباته الوهمیة، وقد ورد فی الحدیث الشریف عن أمیرالمؤمنین أنّه قال «الْحِرْصُ مَطِیَّةُ التَّعَبِ» «۲». ۴- وفی حدیث آخر عن الإمام أمیرالمؤمنین أیضاً أنّه قال: «الْحِرْصُ عَنَاءٌ مُؤَبَّدٌ» «۳». وعندما ندرس حالات الّذین یعیشون الحرص والطمع فی حرکة الحیاة نری مدی التعب والشقاء الّذی یعیشه هؤلاء لیل نهار فی سبیل جمع الأموال والزخارف الدنیویة من دون الاستفادة منها، وهذا شاهد صدق علی الحدیث المذکور آنفاً. ۵- الإنسان الحریص لا یجد طعم الشبع أبداً، ولهذا السبب فهو دائماً یسعی لجمع الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۸۰ الأموال واکتناز الثروات حتّی لو لم ینتفع بها، ولذلک ورد عن أمیرالمؤمنین علیه السلام قوله: «الْحَرِیصُ فَقِیرٌ وَلَوْ مَلَکَ الدُّنْیَا بِحَذَافِیرِهَا» «۱». ۶- وقد ورد فی الأحادیث الشریفة أنّ الأشخاص الّذین یتخلصون من شراک الحرص ولا یقعون اسری الطمع هم الّذین یتمتعون بالغنی الباطنی، ومن ذلک قول أمیرالمؤمنین علیه السلام فی حدیث آخر «اغْنَی الْغِنَی مَنْ لَمْ یَکُنْ لِلْحِرْصِ أَسِیراً» «۲». ۷- الحرص علی جمع الأموال والمادیات یُفضی بالإنسان إلی الوقوع فی الهلکة، ولیست الهلکة المعنویة فقط بل فی کثیر من الأحیان تکون مصحوبة بالهلکة المادیة أیضاً، حیث نقرأ فی الحدیث الشریف عن رسول اللّه قوله: «انَّ الدِّینَارَ وَالدِّرْهَمَ اهْلَکَا مَنْ کَانَ قَبْلَکُمْ وَهُما مُهْلِکَاکُمْ» «۳». ۸- إنّ الإنسان الحریص یُکبّل نفسه بالقیود یوماً بعد آخر إلی أن یوصد أمامه طریق النجاة والفلاح، کما نقرأ فی المثال الّذی ورد عن الإمام الباقر علیه السلام أنّه قال: «مَثَلُ الْحَرِیصِ عَلَی الدُّنْیَا مَثَلُ دُودَةِ الْقَزِّ، کُلَّمَا ازْدَادَتْ مِنَ الْقَزِّ عَلَی نَفْسِهَا لَفّاً کَانَ ابْعَدَ لَهَا مِنَ الْخُرُوجِ! حَتَّی تَمُوتَ غَمّاً!» «۴». ۹- إنّ الحرص والطمع یهدم شخصیة الإنسان ویسحق کلّ قیمة له فی أنظار الناس کما یقول أمیرالمؤمنین علیه السلام «الْحِرْصُ یَنْقُصُ قَدْرَ الرَّجُلِ، فَلَا یُزِیدُ فِی رِزْقِهِ!» «۵». ۱۰- إنّ الحرص من الامور الّتی تؤدی إلی الکثیر من الذنوب والخطایا والقبائح منها عدم مراعاة الحلال والحرام وترک احترام حقوق الآخرین والتلوث بأنواع الظلم والجور والعدوان، ولذلک ورد عن أمیرالمؤمنین علیه السلام من جملة ما أوصی به مالک الأشتر فی عهده الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۸۱ المعروف أنّه قال «لَاتُدْخِلَنَّ فِی مَشْوَرَتِکَ حَرِیصاً یُزَیِّنُ لَکَ الشَّرَهَ بِالْجَوْرِ» «۱». وعلی هذا الأساس فإنّ عواقب الحرص ونتائجه وخیمة جداً فی حیاة الإنسان حیث یورثه البعد عن اللّه تعالی ویهدم مروئته ویکسر شخصیته ویسلب منه الراحة والطمأنینة وبالتالی یُفضی به الحرص

إلی الوقوع فی وحل الـذنوب الکبیرة الاخری فیبتعـد یوماً بعـد آخر عن السـعادة والکمال المعنوی ویغدو أسـیراً وذلیلًا فی قیود النفس الأمارة وأحابیل الشیطان، وبکلمة واحدة انه یفقد دینه ودنیاه.

۱- تعریف الحرص

بالرغم من أنّ معنی ومفهوم (الحرص) واضـح للجمیع إجمالًا، ولکن الدقـة والتوجه إلی مضـمونه العمیق یکشف لنا نقاط جدیـدة فی دائرة هذا المفهوم. یقول الراغب فی مفرداته فی تعریف الحرص بأنه بمعنی شدّة الرغبة والمیل إلی شـیء معیّن، ویری أنّ هذه الکلمة فی الأصـل تأتی بمعنی الضـغط علی اللباس عنـد غسـله بالماء بواسـطة ضـربه بالخشـبة وأمثال ذلک. وقـد ورد عن أمیرالمؤمنین تعبیر جمیـل جـداً فی تعریف الحرص عنـدما سُـئل: مـا هو الحرص؟ فقـال «هُوَ طَلَبُ الْقَلِیـلِ بِاضَاعَـةِ الْکَثِیرِ) «۲» ویری علمـاء الأخلاق أنّ الحرص من الرذائل الأخلاقیة المتعلّقة بقوّة الشـهوة وذکروا فی تعریفه (أنّ الحرص صفة من الصفات النفسانیة تدفع الإنسان إلی جمع ما هو أکثر من حاجته، وهو من شُـعب حبّ الدنیا ومن الصفات المهلکة والأخلاق الفاسدة) ویمثلون للحرص بأنه کالصحراء المترامیة الأطراف وکالأرض الموحشـة الّتی لا حـدود لها فکلّما سار فیها الحریص لا یصل إلی غایتها ومنتهاها. الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۸۲ (الحریص) یُقال لشـخص مبتلیاً بمرض، مثل مرض الاستسقاء حیث کلّما شرب من الماء فإنّ عطشه لا ینطفأ. إنّ الشخص الحریص لا یقبل أی دلیلٍ منطقی علی سلوکیاته، فلو قیل له مثلًا إنک بلغت من العمر ثمانین سنة ولم یبق من عمرک إلّاالقلیل، فلماذا هذا الولع والشوق لجمع الأموال والثروات؟ وبالرغم من انه یفتقد الجواب الصـحیح لهذا السؤال ولکنه یستمر فی سلوکه الطفولی ولا ینتهی منه، بـل علی العکس من ذلک حیث نری أنّ بعض الناس یزداد حرصاً وطمعاً کلّما ازداد سـناً وأوغل فی مرحلـة الشـیخوخة، کما ورد فی الحدیث المعروف عن النبی الأکرم أنّه قال: «یُشِیبُ بْنُ آدَمَ وَیَشُبُّ فِیهِ خَصْلَتَانِ: الْحِرْصُ وَطُولُ الْاَمَلِ» «۱».

۲- النتائج السلبیة للحرص فی حیاة الإنسان الفردیة والاجتماعیة

رأینا فی الآیات والروایات الشریفة المذکورة سابقاً مدی النتائج السلبیة والعواقب الوخیمة لحالة الحرص فی واقع الإنسان، ولذلک فإنّ مطالعتها تغنینا عن أی شرح وتفسیر آخر فی هـذا المجال ومن ذلک: ۱- إنّ الحریص مُبتلی فی التعب المسـتمر والعسـر والحرج فی حرکة الحیاة. ۲- إنّ الحریص لا یشـبع أبـداً، ولهـذا فإنه لو ملک الدنیا بأجمعها فإنه یعیش عیشة الفقراء أیضاً. ۳- إنّ الحریص یعیش عیّش الفقراء ویموت موت الفقراء ولکنه یحـاسب فی الآخرة حساب الأغنیاء. ۴- إنّ الحرص یفضـی بالإنسان إلی الهلکة لأن الإنسان الحریص وبسبب عشقه للدنیا ولزخارفها فانه لا یری آفاق الخطر المحیطة بها بل یسارع إلیها بکلّ عجلة وهلع. ۵- إنّ الإنسان الحریص یکبل نفسه بقیود الماديات وأحابیلها ویزداد قربه من هـذه القیود یوماً بعـد آخر حتّی یوصد أمامه سبیل النجاة. ۶- إنّ الحرص یذهب بشـرف الإنسـان ومـاء وجهه ویسـقط حرمته ومروءته فی أنظار الناس، لأن الحریص ولغرض الحصول علی مقصوده لا یلتزم بالاعراف الاجتماعیـة ولا الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۸۳ یتقید بالقیم والمُثل والسـلوکیات المعتبرة فی المجتمع الانسانی بل یعیش کالأسـیر المقیـد بسلسـلة من رقبته یقـوده الحرص من هنـا إلی هنـاک. ۷- إنّ الحرص یـؤدی بالإنسـان إلی التلوث بـأنواع الـذنوب کالکـذب، الخیانـة، الظلم والعـدوان وغصب حقوق الآـخرین وأمثال ذلک، لأنّه إذا أراد مراعاة الحلال والحرام فإنه سوف لن یصل إلی مقصوده فی حیاته الدنیویـة. ۸- إنّ الحرص یتسبّب فی إبعاد الإنسان عن اللّه تعالی ویورثه الصـغار فی أنظار عباده ویسـلبه الطمأنینة والسـکینة والهدوء النفسی فیعیش حیاته مع العذاب الروحی والقلق المزمن. ۹- إنّ الحریص یجمع الأموال والثروات الّتی یتحمل مسؤولیتها فقط بینمـا ینتفع بها الآخرون. ۱۰- إنّ الحرص إنّمـا هو نتیجـة من نتائـج سوء الظن بـاللّه وفی نفس الوقت یعمق هـذه الحالـة لـدی الإنسان ویؤکد فی نفسه سوء الظن هذا

۳- غنی النفس

والملفت للنظر أنّ الإنسان الحریص یطلب الغنی من خارج ذاته ووجوده فی حین أنّ أصل الغنی وحقیقته یجب أن یحصل علیها الإنسان من داخله. وقد سُئل أحد العلماء عن حقیقة الغنی وعدم الحاجة والفقر فقال: أن تقصر من آمالک وترضی بما قسم لک. وفی الحدیث الشریف الوارد عن رسول اللّه وکذلک عن أمیرالمؤمنین أیضاً نقرأ هذا المضمون السامی فی دائرة القیم الأخلاقیة والمعنویة «خَیْرُ الْغِنَی غِنَی النَّفْسِ» «۱». وفی روایة اخری عن رسول اللّه أنّه قال: «الْغِنَی فِی الْقَلْبِ، وَالْفَقْرُ فِی الْقَلْبِ» «۲». أجل فإذا کانت روح الإنسان تعیش الجوع المعنوی بسبب الحرص فإنه لو ملک هذا الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۸۴ الإنسان الدنیا بحذافیرها فإنه یعیش فقیراً کذلک، ولو أنّ روحه کانت تعیش الغنی الذاتی ولم یجد فی نفسه الحاجة والطمع فإنه لو سُلب منه جمیع ما فی الدنیا فإنه یعیش الغنی کذلک.

۴- الحرص المذموم والممدوح

إنّ مفردة (الحرص) تأتی فی الموارد السلبیة فعندما تُطلق هذه الکلمة یراد منها الحرص علی الأموال والثروة والمقام وسائر الشهوات المادیة والدنیویة، وذلک بسبب أنّ هذه الکلمة تستعمل غالباً فی هذه الموارد المذمومة والقبیحة. ولکن أحیاناً تستخدم هذه الکلمة فی موارد إیجابیة ونافعة وبذلک تستحق المدح ولا تکون من الأخلاق الرذیلة بل تُعد من الفضائل أیضاً وذلک عندما تتحکم هذه الصفة فی الإنسان فی موارد الشوق والرغبة الشدیدة فی أعمال الخیر والصلاح. ومن جملة ما ذکر القرآن الکریم من فضائل نبی الإسلام هو حرصه علی هدایة الناس وانقاذهم من الضلال حیث یقول: «لَقَدْ جَائَکُمْ رَسُولٌ مِنْ انْفُسِکُمْ عَزِیزٌ عَلَیْهِ مَا عَنِتُّم حَرِیصٌ عَلَیْکُمْ بِالْمُؤْمِنِینَ رَؤُفٌ رَحِیمٌ» «۱». ویقول فی مکان آخر: «انْ تَحْرِصْ عَلَی هُدَاهُمْ فَانَّ اللَّهَ لَایَهْدِی مَنْ یُضِلُّ وَمَالَهُمْ مِنْ نَاصِرِینَ» «۲». وقد ورد ما یشبه هذا المعنی والمضمون فی آیات اخری من القرآن الکریم أیضاً «۳». وطبعاً وردت هذه الکلمة فی القرآن الکریم فی مصادیق سلبیة أیضاً. أما فی الروایات الإسلامیة فإنّ کلمة «الحرص» وردت فی موارد کثیرة إیجابیة وفی ذلک یقول أمیرالمؤمنین علیه السلام فی خطبته المعروفة فی بیان صفات المتقین مخاطباً لهمّام الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۸۵ «فَمِنْ عَلَامَةِ احَدِهِمْ انَّکَ تَری لَهُ قُوَّةً فِی دِینٍ وَحِرْصاً فِی عِلْمٍ» «۱». وورد فی الروایات الشریفة موارد متعددة أنّ من علامات المؤمن هو حرصه علی التفقه فی الدین أو حرصه علی الجهاد فی سبیل اللّه أو الحرص علی التقوی وأمثال ذلک «۲». ونختم هذا البحث بحدیث شریف عن الإمام الباقر یقول «لَا حِرْصَ کَالْمُنَافِسَةِ فِی الدَّرَجَاتِ» «۳». وعلی هذا فإنّ للحرص مفهوم واسع ویأتی بمعنی شدّة العلاقة والرغبة بشیء معین بحیث یسعی جاهداً لتحصیله، فلو وقع هذا الشیء فی طریق الخیر والسعادة والصلاح لکان ممدوحاً، ولکن إذا وقع فی طریق الدنیا وتحصیل المال والثروة والملذات الرخیصة فإنه یکون مذموماً کذلک، ولکن الغالب فی استعمال هذه الکلمة هو فی الموارد السلبیة والسلوکیات الذمیمة.

۵- علاج الحرص

من المعلوم أنه وفی علاج الأمراض البدنیة لزوم الرجوع إلی الأسباب والجذور، لأن العلاج بدون قطع جذور المرض لا ینفع علی المدی الطویل وستبقی النتائج والآثار السلبیة فی وجوده، وحتّی لو تمّ العلاج من خلال استخدام المهدئات والعلاجات المؤقتة فإنّ المرض سوف یتجلّی ویظهر بعد مدّة. وهکذا الحال فی الأمراض الأخلاقیة، فلابدّ أوّلًا من التوغل لمعرفة جذور المرض ثمّ قطعها من الأساس. وکما تقدّمت الإشارة إلیه، (وورد فی الأحادیث الإسلامیة أیضاً) أنّ أحد جذور الحرص هو سوء الظن باللّه وعدم التوکل علیه، وکلّ ذلک یعود إلی اهتزاز ارکان التوحید الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۸۶ الأفعالی لدی الإنسان. فالشخص الّذی یعتقد بأن

اللَّه قادر ورازق وأنّ مفتاح الخيرات بيده فقط «بِيَدِكَ الْخَيْرُ انَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» «۱» فسوف لا يجد فى نفسه حالة الحرص على جمع الأموال والنعم المادية الاخرى. إنّ الشخص الّذى يعيش الإيمان الكامل بوعد اللَّه تعالى وقوله: «مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ ...» «۲» فبدلًا من الحرص على جمع الأموال فإنه سيحرص على انفاقها فى سبيل اللَّه. وعندما تهتز أركان الإيمان فى وجود الإنسان وخاصّة التوحيد الأفعالى فإنّ الصفات الرذيلة سوف تتجذر فى نفس الإنسان وأخطرها الحرص، وحينئذٍ فلابدّ من تقوية أركان الإيمان لمنع تفشى هذه الصفة ورسوخ هذه الحالة السلبية فى باطن الإنسان. وأحد الأسباب الاخرى للحرص هو الجهل وعدم الاطلاع على حقائق الامور وما يترتب عليها من نتائج وآثار فى الواقع العملى. فإذا علم الإنسان أنّ الحرص يتسبّب فى سلب طمأنينته وهدوئه فى حركة الحياة وانه سيوقعه فى العسر والشقاء والتعب الدائم، وأنّ الحرص سوف يُهدم مروءته ويحطّم شخصيّته ويسقطه فى أنظار الناس، وأنّ الحرص يتسبب فى أن يعيش عيشة الفقراء بالرغم من غناه الظاهرى وأنّ ما جمعه من الأموال والثروات سينتفع به الآخرين ولكنه سيُسأل عنها يوم القيامة بالرغم من أنّ الآخرين هم الّذين ينتفعون بها فى الدنيا. أجل فإنّ الحريص إذا فكر فى هذه النتائج والعواقب الوخيمة فإنّ ذلك سيؤثر فى نفسه وروحه تأثيراً ايجابياً. ويقول الفيض الكاشانى فى المحجّة البيضاء: إعلم أنّ هذا الدواء مركّب من ثلاثة أركان «الصبر» و «العلم» و «العمل» ومجموع ذلك خمسة امور: الأوّل وهو العمل: الاقتصاد فى المعيشة والرفق فى الانفاق، فإنّ هذا القدر يتيسّر بأدنى الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۸۷ جهد ويمكن معه الإجمال فى الطلب، فالاقتصاد فى المعيشة هو الأصل فى القناعة ونعنى به الرّفق فى الإنفاق وترك الفرق فيه. قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «من اقتصد أغناه اللَّه، ومن بذّر أفقره اللَّه، ومن ذكر اللَّه عزّوجلّ أحبّه اللَّه» «۱». الثانى: أنّه إذا تيسّر له فى الحال ما يكفيه فلا ينبغى أن يكون شديد الاضطراب لأجل الاستقبال، ويعينه على ذلك قصر الأمل والتحقّق بأنّ الرّزق الّذى قدّر له لابدّ وأن يأتيه وإن لم يشتدّ حرصه، قال تعالى: «الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ ا لْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَآءِ» «۲». الثالث: أن يعرف ما فى القناعة من عزّ الاستغناء وما فى الطمع والحرص من الذل فإذا تحقّق له ذلك إزدادت رغبته فى القناعة لأنّه فى الحرص لا يخلو من تعب وفى الطمع لا يخلو من ذل، قال النبى صلى الله عليه و آله: «عزّ المؤمن استغناؤه عن الناس» «۳». الرابع: أن يكثر تأمّله فى تاريخ بعض اليهود والنصارى وأراذل الناس والحمقى ومن لا دين لهم ولا عقل، ثمّ ينظر إلى أحوال الأنبياء والأولياء والصحابة والتابعين ويستمع أحاديثهم ويطالع أحوالهم ويقارن بينهم ويخير عقله بين أن يكون على مشابهة أرذل الخلق أو على الاقتداء بمن هو أعزُّ أصناف الخلق عند اللَّه حتى يهون عليه بذلك الصبر على الضنك والقناعة باليسير. الخامس: أن يفكر فى مخاطر جمع المال والثروة من دون قيد أو شرط، وكذلك فى عواقب هذا العمل فى الدنيا والآخرة، وكذلك عليه أن يفكر فى العواقب الحميدة التى تأتى من القناعة. وعليه أن يفكر دائماً فى أمور دنياه وينظر الى مادونه من الخق، لا أن ينظر الى من هم أعلى منه فى الغنى لأن الشيطان يسوّل للانسان دائماً ويدعوه للنظر الى مافوقه، ويقول له فى الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۸۸ وساوسه: ماذا ينقصك حتى يكون فلاناً أغنى منك؟ لماذا لا تسعى لكى تصل الى ما هم فيه؟ أُنظر الى هؤلاء وقد غرقوا بالخير والنعمة وتمتعوا بلذائذ الدنيا؟! وأنت تفكر فقط فى الخوف من الله، وقد ضيقت على نفسك بالتزامك المستمر بالحلال والحرام، هل أنت اكثر تديناً من هؤلاء ام أنت أخوف منهم من الله؟! قال أبوذر: «أوصانى خليلى أن أنظر إلى من هو دونى لا إلى من هو فوقى- أى فى الدنيا-».

۶- إجابة عن شبهة

وهنا يمكن أن يتصور البعض أنّ الإسلام ومن خلال هذه الآيات والروايات المذكورة فى هذا الباب لا يتلائم مع تطور الحياة المادية والدنيوية للناس أو أنّه ينظر إلى اصول التمدن المادى والتطور العلمى على مستوى الطبيعة بنظرة سلبية، من خلال دعوته لاتباعه إلى التجرد عن الدنيا وعدم التعلّق بها، فى حين أنّ هذا التصور اشتباه كبير، فالإسلام يتصدّى لمحاربة الحالات الأخلاقية السلبية فى واقع الإنسان الّتى تنطلق من الحرص وحب الدنيا والتضحية بالقيم الأخلاقية والإنسانية من أجل الرفاهية الدنيوية واشباع الملذات الرخيصة،

لا أنّه يقف أمام استخدام الطاقات الفكرية والمواهب الطبيعية فى عملية التطور العلمى فى خط الكرامة الإنسانية وتوكيد حرية الإنسان من النوازع والأهواء النفسانية وتقوية القيم المعنوية. وتوضيح ذلك: أنّ المواهب المادية فى حد ذاتها هى أدوات ووسائل للوصول إلى المقاصد الاخرى وتحقيق طموحات الإنسان فى حركة الحياة وليستفيد منها فى الصعود فى مدارج الكمال المعنوى والإنسانى، فلو انه استخدمها فى غير هذا الغرض وتحرّك معها من موقع الأهواء والشهوات الرخيصة فسوف يبتعد بذلك عن الهدف من الخلقة ويسقط فى مهاوى الرذيلة والانحطاط والتسافل الأخلاقى، وهذه الامور تتقاطع مع التعاليم الإسلامية. ومثلها كمثل الأدوات الصناعية والمنتوجات المادية الّتى يمكن الاستفادة منها بوجهين، فالطائرة يمكن الاستفادة منها للتنقل السريع وتسهيل وصول الإنسان إلى مقصده والتوسع الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۸۹ فى العمران وتأمين المعيشة ومساعدة الفقراء والمحتاجين وأمثال ذلك، كما يمكن الاستفادة منها بطريقة اخرى وذلك بجعلها أداة حربية لقتل البشر وإلقاء القنابل على الأبرياء وتخريب المدن والقرى وإحراق الأخضر واليابس وإتلاف مواهب الطبيعة. وعليه فلا ينبغى النظر إلى موقف الإسلام السلبى من حالة الحرص والطمع وحبّ الدنيا لدى الإنسان كذريعة لترك النشاطات الاقتصادية والتطور العلمى والصناعى وبالتالى يتحول معها الإنسان إلى شخص خامل وكسول ويتعامل مع الأحداث والمجتمع من موقع الانزواء والعزلة كما نلاحظ ذلك لدى بعض المتصوفة حيث يسلكون هذا المسلك بالتوسل بأمثال هذه المفاهيم الدينية والنصوص الإسلامية.

حبّ الدنيا

تنويه:

إنّ أحد جذور (الحرص) وما يترتب عليه من عواقب وخيمة سبق أن ذكرناها فى الفصل السابق، هو حبّ الدنيا والتعلق بزخارفها وزبارجها. فعندما تتقد نار هذا الحب الدنيوى فى أعماق الإنسان فسوف تقوده إلى أنواع الحرص والولع بالنسبة إلى المواهب المادية والدنيوية من قبيل سائر أنواع العشق الّذى يغطى على فكر الإنسان وعقله ويسوقه يوماً بعد آخر إلى السقوط فى لجّة التلوث بالخطايا والالتصاق بالعالم السفلى. ولهذا السبب فإنّ القرآن الكريم ومن أجل قطع جذور الحرص والولع قد تحرّك فى آياته الكريمة من موقع ذمّ حبّ الدنيا والافراط فى التوغل فى ملذاتها والتشبّث بزخارفها والّذى يمثل الجذور الأصلية للحرص والطمع فى بُعدهما السلبى، ونقرأ فى المفاهيم القرآنية تعبيرات مختلفة تحط من قدر الدنيا وقيمتها لكى يخفف ذلك من حب أهل الدنيا لها ويتحركوا بعيداً عن أجوائها ويتخلصوا بذلك من الحرص والطمع ولا يضحوا بالقيم الأخلاقية والمثل الإنسانية على مذبحها. وبهذه الإشارة نعود إلى آيات القرآن الكريم لنستوحى من تعبيراتها الدقيقة ما يضىء لنا الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۹۲ الطريق لدراسة هذه المبادئ والمواقف الأخلاقية المهمة: ۱- إنّ القرآن الكريم يرى أنّ الدنيا ما هى إلّالعب ولهو كما يلهو ويلعب الأطفال، وقد ورد وصف ذلك فى آيات متعددة، ففى قوله تعالى: «وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا الّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ...» «۱». وفى آية اخرى قوله تعالى «اعْلَمُوا انَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى الْامْوَالِ وَالْاوْلَادِ ...» «۲». وفى الحقيقة أنّ هذه الآيات الكريمة تشبّه أصحاب الدنيا بأنّهم كالأطفال الّذين يعيشون الغفلة والجهل عمّا يدور حولهم ولا همّ لهم إلّاالاشتغال بالتوافه والسفاسف من الامور فلا يرون حتّى الخطر القريب المحدق بهم. بعض المفسّرين قسّم حياة الإنسان إلى خمس مراحل (من الطفولة إلى أن يبلغ مرحلة الكهولة فى سن الأربعين) وذكر أنّ لكلّ مرحلة ثمان سنوات وقال: إنّ السنوات الثمانية الاولى من عمر الإنسان هى مرحلة اللعب، والسنوات الثمانية الثانية هى مرحلة اللهو، والسنوات الثمانية الثالثة حيث يعيش الإنسان فى فترة الشباب فإنه يتجه إلى الزينة والالتذاذ بالجمال، والسنوات الثمانية الرابعة يقضى وقته وطاقاته فى التفاخر، وأخيراً فى السنوات الثمانية الخامسة يهتم بالتكاثر فى الأموال والأولاد، وهنا يثبت شخصية الإنسان ويستمر على هذه الحالة إلى آخر عمره، وبالتالى فإنّ أصحاب الدنيا لا يبقى لهم مجال للتفكر فى الحياة المعنوية والقيم

الإنسانیة السامیة. ۲- ومن الآیات الاخری فی هـذا المجال نری مفهوم «متاع الغرور» بالنسبة إلی الحیاة الدنیا حیث یقول تعالی «... وَمَا الْحَیَاةُ الدُّنْیَا الّا مَتَاعُ الْغُرُورِ» «۳». الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۹۳ ویقول فی مکان آخر «... فَلَا تَغُرَّنَکُمُ الْحَیَاةُ الـدُّنْیَا وَلَا یَغُرَّنَّکُمْ بِاللَّه الْغَرُورُ» «۱». وهـذه التعبیرات تـدلّ علی أنّ زخـارف الـدنیا وبریقهـا الخادع یُعـد أحـد الموانع المهمـة للتکامل المعنوی والصـعود فی درجات الکمال الإلهی للإنسان وما دام هـذا المانع موجوداً فإنه لا یصل إلی شـیء من هـذه الکمالات المعنویـة. إنّ الحیاة الدنیا مثلها کمثل السـراب الّـذی یجـذب العطاشـی نحوه فی الصـحراء المحرقـة ولکنهم لا یحصـلون علی شـیء منه أخیراً، وهکذا حال التعلقات المادیـة الدنیویـة فإنّها تجـذب أصـحاب الـدنیا نحوها طمعاً فی إرواء ظمأهم وعطشـهم إلّاأنّهم لا یجـدون ما یطلبونه فی هـذا المسـیر المنحرف بـل یزدادون ظمـأً وحُرقـة، وکمـا أنّ السـراب یبتعـد عن الإنسـان کلّما مشـی نحوه وهکـذا یظل یرکض وراء السـراب حتّی یهلـک، فکـذلک الـدنیا تبتعـد عن الإنسـان کلّمـا اتّجه نحوها فتزیـده عطشاً لها وارهاقاً حتّی یهلک. ونری هـذه الحالـة فی الکثیر من أصـحاب الدنیا الّذین یرکضون وراء متاع الدنیا وزخارفها سـنوات مدیدة من عمرهم وعندما یحصـلوا علی شـیء منها فانهم یصرّحون بأنّهم لم یجدوا ضالّتهم إلّاوهی (الهدوء النفسی والطمأنینة الروحیة) بل یعیشون الجفاف الروحی أکثر ویجدون أنّ ملذات الحیاة الدنیا تقترن دائمـاً مع الاـشواک والمنغصـات وبـدلًا من أن تورثهم الهـدوء والطمأنینـة فإنّهـا تعمـل علی إذکاء حالـة القلق والإضـطراب فی جوانحهم وأعماق وجودهم وبـذلک لا یجدون مبتغاهم فیها. ۳- وهناک طائفـة اخری من الآیات الکریمة الّتی تقرر لنا هذه الحقیقة، وهی أنّ الانجذاب نحو زخارف الدنیا وزبارجها یؤدی إلی أن یعیش الإنسان الغفلة عن الآخرة، أی أن یکون الشـغل الشاغل له وهمه الوحیـد هو تحصـیل هـذه الزخارف الخادعـة، فتقول الآیـة الشـریفة: «یَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الْحَیَاةِ الـدُّنْیَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمُ غَافِلُونَ» «۲». الاخلاـق فی القرآن، ج۲، ص: ۹۴ فهؤلاء یجهلون حتّی الحیاة الـدنیا أیضاً وبـدلًا من أن یجعلونها مزرعـة الآخرة وقنطرة للوصول إلی الحیاة الخالـدة ونیل المقامات المعنویـة ومیـداناً لممارسـة السـلوکیات الّتی تصـعد بهم فی سُـلّم الفضائل الأخلاقیـة ومدارج الإنسانیة، یتخـذون الـدنیا بعنوان انهـا الهـدف النهائی والمطلوب الحقیقی والمعبود الواقعی لهم، ومن الطبیعی أنّ مثل هؤلاء الأشـخاص یعیشون الغفلـة عن الحیاة الاخری. ویقول القرآن الکریم فی آیـة اخری: «ارَضِـیتُمْ بِالْحَیَاةِ الـدُّنْیَا مِنَ الْآخِرَةِ» ثمّ تضـیف الآیـة «فَمَا مَتَاعُ الْحَیَاةِ الدُّنْیَا فِی الْآخِرَةِ الّا قَلِیلٌ» «۲» أجل فإنّ الأشـخاص الّذین یعیشون ضیق الافق ومحدودیة الفکر فانهم یرون الدنیا کبیرة وواسعة وخالدة وینسون الحیاة الاخری الأبدیـة الّتی قرّرها اللَّه تعالی لحیاة الإنسان الکریمة والملیئة بالمواهب الإلهیة والنعیم الخالد. ۴- ونقرأ فی قسم آخر من الآیات الکریمـة أنّ الـدنیا هی (عرض) علی وزن (غرض) بمعنی الموجود المتزلزل والّـذی یعیش الاهتزاز والتغیر والتبدل فی جمیع جوانبه وحالاـته، ومن ذلـک قوله تعـالی «تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَیَاةِ الـدُّنْیَا فَعِنْـدَ اللَّهِ مَغَانِمُ کَثِیرَةٌ» «۳». وتقول الآیـات فی مکـان آخر مخاطبـة لأصـحاب النبی الأکرم «... یُرِیدُونَ عَرَضَ الدُّنْیَا وَاللَّهُ یُرِیدُ الْآخِرَةَ ...» «۴». وفی آیات اخری نجـد هذا التعبیر أیضاً حیث یدلّ علی أنّ جماعـة من المسـلمین أو غیر المسـلمین وبـدافع من الحرص والطمع ترکوا الاهتمام بالمواهب الإلهیـة الخالدة والحیاة الاخری والقیم الإنسانیة العالیة واشـتغلوا فی جمع زخارف الدنیا الزائله واشـباع الملذات الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۹۵ الرخیصة فی حرکة الحیاة الـدنیا. أجل فان النعمة الحقیقیة هی ما عند اللَّه تعالی وما بقی فکلها (عرض) یقبل الزوال والاندثار. وهذا التعبیر هو فی الحقیقة انـذار لجمیع طلاـب الـدنیا بـأنّهم ینبغی علیهم الاهتمـام بمـا لـدیهم من طاقات ورأس مال عظیم وبإمکانهم اسـتخدامها فی سبیل حیاة کریمـة وخالدة فلا یضـیعونها فی الامور الرخیصة والزائلة. ۵- ونقرأ فی قسم آخر من الآیـات التعبیر عن المواهب المادیـة بأنّهـا «زِینَةُ الْحَیَاةِ الدُّنْیَا» «۱». ووردت تعبیرات مشابهـة لهـذه الآیـة فی آیات اخری أیضاً فی قوله (مَنْ کَانَ یُرِیـدُ الْحَیَاةَ الـدُّنْیَا وَزِینَتَهَا نُوَفِّ الَیْهِمْ اعْمَالَهُمْ فِیها وَهُمْ فِیهَا لَایُبْخَسُونَ» «۲». وفی مکان آخر یخاطب القرآن الکریم نساء النبی صـلی الله علیه و آله ویقول: «یَا أَیُّهَا النَّبِیُّ قُلْ لِازْوَاجِکَ انْ کُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَیَاةَ الـدُّنْیَا وَزِینَتَهَا فَتَعَالَیْنَ امَتِّعْکُنَّ وَاسَرِّحْکُنَّ سَرَاحاً جَمِیلًا» «۳». وهـذه التعبیرات توضح بصورة جیدة أنّ هذا البریق لزخارف الحیاة الدنیا ما هو إلّازینة للحیاة المادیة، وبدیهی أنّ الإنسان لا یُعبّر عن الامور الحیاتیة والمصیریة بتعبیر (زینة) أو (زینـة الحیاة الـدنیا) أی الحیاة السـفلی والتافهـة. ومن الجـدیر بالـذکر انه حتّی أنّ مفهوم (الزینة) نجده فی آیات اخری مبنیاً للمجهول

حيث ورد تعبير (زُيّن) وهـذا يـدلّ على أنّ هـذه الزينـة غير حقيقيـة بل خياليـة ووهمية. مثلًا نقرأ فى سورة البقرة الآية ۲۱۲ قوله تعالى: «زُيِّنَ لِلَّذِيـنَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الـدُّنْيَا ...». ونقرأ فى سـورة آل عمران الآيـة ۱۴ قـوله تعـالى: «زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الـذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ». الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۹۶ هـذه التعبيرات وتعبيرات اخرى مماثله تشير إلى أنّه حتّى مفهوم (الزينـة) فى مثل هـذه الموارد ما هى إلّازينـة وهميـة وخياليـة حيث يتوهم الناس من طلاب الدنيا انها زينة حقيقية وواقعية. وهنا يتبادر سؤال مهم، وهو انه لماذا جعل اللَّه تعالى مثل هذه الامور زينة فى أنظار الناس؟ ومن المعلوم أنّ الدنيا إنما جُعلت لتربية الإنسان واختباره وامتحانه لأن الإنسان إذا ترك مثل هـذه الزينـة الجميلة والخادعة والّتى تكون مقرونة بالحرام والإثم غالباً من أجل اللَّه تعالى والسير فى خـط التقوى والإيمـان فـإنّ ذلك من شأنه أن يعمق فى نفسه روح التقوى والقيم الأخلاقيـة ويصـعد به فى مـدارج الكمال المعنوى وإلّا فإنّ صرف النظر عن هذه الامور المخادعة بمجرّده لا يُعدّ افتخاراً ومكرمة للإنسان. وبعبارة أدق فإنّ التمايلات والرغبات الباطنيـة والأهواء النفسانيـة تزين للإنسان الامور الماديـة بزينـة جميلة لكى تـدعوه إلى ارتكاب الاثم وممارسة الحرام، وعليه فإنّ هذه الزينة تنبع من ذات الإنسان ومن باطنه، وعندما نرى فى الآيات الكريمة نسبة التزين إلى اللَّه تعالى فذلك بسبب أنّ اللَّه تعالى هو الّذى خلق هذه التمايلات والرغبات والأهواء الطاغية، وعندما نقرأ فى بعض الآيات نسبتها إلى الشيطان الرجيم فى قوله تعالى: «... وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ اعْمَالَهُم ...» «۱» فـذلك بسـبب أنّ عمليـة التزيين هـذه بالرغم من انها من جهة منسوبة إلى اللَّه تعالى بسـبب القانون العام فى عالم الخِلقة، إلّاأن إتّباع هذه الأهواء والشـهوات من جهة هو عمل الشـيطان الرجيم الّذى يسوّل للإنسان هذه الامور الخاطئة ليوقعه فى الاثم والـذنب. وعلى أيّـة حال فإنّ المسـتفاد من مجموع الآيات المـذكورة أعلاه أنّ «حبّ الـدنيا» إذا اسـتقر فى قلب الإنسان وبصورة مفرطة فإنه سيؤدى به إلى الابتعاد عن اللَّه تعالى والغفلة عن الآخرة.

حبّ الدنيا فى الأحاديث الإسلامية:

وقـد ورد ذمّ الـدنيا وحبهـا فى الروايات الإسـلامية كثيراً ولاسـيّما ما ورد فى كلمات النبى الأكرم وخطب نهـج البلاغـة بصورة واسـعة ومفصّلة ومن ذلك: ۱- ما ورد فى الحديث الشريف عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله عندما سُئل عن سبب تسمية الدنيا بالدنيا فقال «لِانَّ الـدُّنْيَا دَنِيَّةٌ خُلِقَتْ مِنْ دُونِ الْآخِرَةِ» «۱». ۲- وفى حديث آخر عن رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله أيضاً أنّه قال: «اكْبَرُ الْكَبَائِرِ حُبُّ الدُّنْيَا» «۲». ۳- ونفس هـذا المعنى ورد فى كلمـات أميرالمؤمنين حيث قال: «حُبُّ الـدُّنْيَا رَأْسُ الْفِتَنِ وَاصْلُ الْمِحَنِ» «۳». ۴- ونقرأ فى حديث آخر أيضاً عن الإمام على عليه السـلام قوله: «انَّ الدُّنْيَا لَمُفْسِدَةُ الدِّينِ وَمُسْلِبَةُ الْيَقِينِ» «۴». ۵- وورد فى حديث آخر عن الإمام الصـادق عليه السـلام أنّه قـال: «انَّ اوَّلَ مَـا عُصِـىَ اللَّهُ بِهِ سِتٌّ: حُبُّ الـدُّنْيَا وَحُبُّ الرِّئَاسَـةِ وَحُبُّ الطَّعَامِ وَحُبُّ النَّوْمِ وَحُبُّ الرَّاحَـةِ» «۵». واغلب هـذه الامور السـتة أو جميعها نجدها متوفرة فى قصة طغيان الشـيطان الرجيم ومعصـيته وترك الأولى لآدم ومعصـية قابيل، ولذا ذُكرت بأنّها أول الخطايا والمعاصى. ۶- ونقرأ فى حديث آخر أنّه سئل الإمام على بن الحسين عليهما السلام: «ايُّ الْاعْمَالِ افْضَلُ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ؟» قال: «مَا مِنْ عَمَلٍ بَعْدَ مَعْرِفَةِ اللَّهِ جَلَّ وَعَزَّ وَمَعْرِفَةِ رَسُولِهِ افْضَلُ مِنْ بُغْضِ الدُّنْيَا وَانَّ لِذَلِكَ لَشُعَباً كَثِيرَةً وَلِلْمَعَاصِى شُعَباً». ثمّ يذكر الإمام عليه السلام اصول المعاصى الثلاث وهى «الكبر» لدى إبليس، و «الحرص» الّذى سبب فى اخراج آدم وحواء من الجنة، و «الحسـد» الّذى دفع قابيل لأن يقتل أخاه، ثمّ أضاف: «فتشـعب من ذلك حبّ النساء وحبّ الـدنيا وحبّ الرئاسة وحبّ الراحة وحبّ الكلام وحبّ العلو والثروة، فصـرن سـبع خصال، فاجتمعن كلهنّ فى «حبّ الـدنيا» فقال الأنبياء والعلماء بعـد معرفـة ذلك: «حبّ الـدنيا رأس كلّ خطيئة». ثمّ إنّ الإمام ومن أجل التمييز بين الدنيا الممدوحة والمذمومة ذكر فى نهاية الحديث «وَالدُّنْيَا دُنْيَا بَلَاغٍ وَدُنْيَا مَلْعُونَةٌ» «۱». ۷- ونقرأ فى حـديث آخر عن الإمام على بن أبى طالب قوله «ارْفُضِ الدُّنْيَا فَانَّ حُبَّ الدُّنْيَا يُعمِى وَيُصِمُّ وَيُبْكِمُ وَيُذِلُّ الرِّقَابَ» «۲». ومن الطبيعى انه عندما يتجذر العشق لشـىء من الأشياء فى وجود الإنسان فانه يجعله غافلًا عن أوضح الأشياء، فتراه يتمتع بعين ولكنه لا يرى الوقائع، وله اذن ولكنه لا يسمع، وله لسان ولكنه لا يتحرّك إلّابما يهيم فى قلبه من العشق لذلك الشىء، فتراه ومن أجل الوصول

إلى محبوبه أى الدنيا فانه مستعد لأنّ يخضع إلى كلّ ذلة ومهانة. ٨- وأيضاً نقرأ فى الحديث الشريف بالنسبة إلى بيان الموارد السلبية لحبّ الدنيا قول أميرالمؤمنين عليه السلام فى الحكمة من هذا الحكم الإلهى «حُبُّ الدُّنْيَا يُفْسِدُ الْعَقْلَ، وَيُصِمُّ الْقَلْبَ عَنْ سَمَاعِ الْحِكْمَةِ وَيُوجِبُ الِيمَ الْعِقَابِ» «٣». ٩- ونقرأ فى حديث آخر فى بيان الآثار الضارة والمفاسد الكثيرة لحبّ الدنيا ما ورد عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله أنّه قال: «انَّ الـدُّنْيَا مُشْـغِلَةٌ لِلْقُلُوبِ وَالْابْدَانِ» «۴». ١٠- ونختم هذه البحث بحديث شريف آخر عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله وهو: «انَّهُ مَا سَكَنَ حُبُّ الدُّنْيَا قَلْبَ عَبْدٍ الّا الْتَاطَ بِثَلَاثٍ: شُغْلٍ لَايُنْفَدُ عَنَاؤُهُ، وَفَقْرٌ لَايُدْرَكُ غِنَاهُ، وَأَمَلٍ لَايَنَالُ مُنْتَهَاهُ» «۵».

الدنيا المطلوبة والدنيا المذمومة:

قلنا كراراً أن المقصود من حبّ الـدنيا فى هـذا البحث هو ما يساوى العشق للـدنيا لا الاسـتفادة المعقولة من المواهب المادية والطبيعية للتوصل بها إلى الكمال المعنوى فإنّ ذلك ليس من حبّ الـدنيا قطعاً بل من حبّ الآخرة، وبعبارة اخرى أنّ الكثير من البرامج المعنوية للسير فى خطّ التكامل الإنسانى لا تتسنّى بدون الامكانات المادية، وفى الواقع أنّ هذه الامكانات المادية من قبيل مقدمة الواجب الّتى إذا أتى بها الإنسان بنيّة مقدمة الواجب، فمضافاً إلى أنّها لا تكون عيباً فإنّها تكون مشـمولة بالثواب الإلهى أيضاً. ولهذا السبب نجد فى الآيات القرآنيـة الكثيرة تعبيرات ايجابيـة عن مواهب الـدنيا، ومن ذلك: ما ورد فى آيـة الوصـية من التعبير عن مال الـدنيا به «خير» أى الخير المطلق حيث تقول الآيـة: «كُتِبَ عَلَيْكُمْ اذَا حَضَـرَ احَـدَكُمُ الْمَوْتُ انْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِـيَّةُ لِلْوَالِـدَيْنِ وَالْاقْرِبِينَ بِالْمَعْرُوفِ» «١». ٢- ويقول فى مكان آخر «بركات السـماء والأرض» عن مواهب الطبيعة الّتى فتحها اللّه تعالى للمؤمنين وذلك فى قوله تعالى: «وَلَوْ انَّ اهْلَ الْقُرى آمَنُوا وَاتَّقَوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْارْضِ ...» «٢». ٣- ونقرأ فى مكان آخر التعبير عن المال والثروة بأنّها «فضل اللّه» كمـا ورد فى سورة الجمعـة: «فَـاذَا قُضِـيَتِ الصَّلَوةُ فَانْتَشِـرُوا فِى الْارْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللّهِ ...» «٣». ۴- وفى آيـة اخرى ورد أنّ كثرة الأمـوال والثروات بأنّهـا ثواب من اللّه تعـالى للتـائبين كمـا ورد فى قصـة نوح: «يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِـدْرَاراً* وَيُمْـدِدْكُمْ بِامْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَـلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ انْهَاراً» «۴». الاخلاق فى القرآن، ج٢، ص: ١٠٠ وفى مكـان آخر يقرر أنّ الأموال هى وسـيلة للحياة ومحور للنشاطات الدنيويـة للأقوام البشـرية وتؤكـد الآيات على عدم وضـعها بيد السـفهاء وتقول: «وَلَاتُؤْتُوا السُّفَهَاءَ امْوَالَكُمْ الَّتِى جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ قِيَاماً» «١». ۵- وفى مورد آخر يتحـدّث القرآن الكريم عن وعـد اللّه تعالى للمجاهـدين فى سبيله بالغنائم الكثيرة ويعـدها من أنواع الثواب الإلهى لهم ويقول: «وَعَـدَكُمُ اللّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ ...» «٢». ۶- وفى موضع آخر من الآيات القرآنية الكريمـة يتحـدّث القرآن عن النعم الماديـة الدنيوية ويعبّر عنها ب (الطيبات) كما نقرأ فى سورة الأعراف الآية ٣٢ قوله تعالى: «قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَـةَ اللّهِ الَّتِى اخْرَجَ لِعِبَـادِهِ وَالطَّيِّبَـاتِ مِنَ الرِّزْقِ ...». وفى مورد آخر يقول: «وَاذْكُرُوا اذْ انْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْـعَفُونَ فِى الْارْضِ تَخَافُونَ انْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَـآوَاكُمْ وَايَّدَكُمْ بِنَصْـرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَـاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْـكُرُونَ» «٣». هـذه التعبيرات العميقـة وأمثالها من تعبيرات القرآن الكريم يُستفاد منها جيـداً أنّ المواهب الماديـة والدنيوية فى ظلّ ظروف خاصّة وأجواء متناسـبة ليست فقط غير مطلوبة بل هى طيبة وطاهرة وباعثة على طيب البشر وطهارتهم. ٧- ونقرأ فى آيات اخرى عبارات تقرر أنّ الامكانات المادية مضافاً إلى انها من فضل اللّه على الإنسان يمكنها أن تكون سـبباً للصعود بالإنسان إلى مرتبة الصالحين كما ورد فى الآية ٧۵ من سورة التوبة: «وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْـلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ». هذه الآية الشريفة وبالنظر إلى شأن نزولها كما ورد فى التفاسير انها نزلت فى أحـد الأنصار يُـدعى «ثعلبـة بن حاطب» الّـذى طلب من النبى صـلى الله عليه و آله أن يـدعو له بكثرة المال لينفق الاخلاق فى القرآن، ج٢، ص: ١٠١ منه فى سبيـل اللّه وليكون من الصـالحين ففى البدايـة لم يسـتجب النبى لطلبه لما يعرف من مزاجه وروحيته ولكن بعد إصـراره دعا له النبى بـذلك وكانت النتيجـة معروفـة، فهـذه الآيـة توضح على أنّ الامكانات المادية يمكنها أن تكون وسـيلة للصـعود بالإنسـان فى مـدارج الكمال المعنوى ونيل السـعادة الحقيقيـة والوصول إلى مرتبـة الصالحين والمقربين. ومن مجموع العناوين السـبعة الواردة بالآيات أعلاه يتضـح جيـداً أنّ النعم الماديـة والمواهب الدنيوية ليست مذمومة وقبيحة بالذات بل هى تابعة لكيفية اسـتخدامها

واستعمالها والطريقة الّتى يسلك بها الإنسان فى الاستفادة منها، فلو انه استفاد منها بصورة صحيحة لأضحت مطلوبة وجميلة ونقيّة وطاهرة، وفى غير هذه الصورة فهى ذميمة وسلبية ومضرّة. والشاهد على هذا الكلام ما ورد فى الروايات الكثيرة فى كتاب وسائل الشيعة فى باب (اسْتِحْبَابُ الاسِتعَانَةِ بِالدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ) «۱». وقد أورد المرحوم الشيخ الحر العاملى فى هذا الباب إحدى عشر رواية كلّها شاهدة على انه يمكن الاستفادة من المواهب المادية والدنيوية فى سبيل تحقيق السعادة الأُخروية ومن جملة ما أورده العاملى حديثاً عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أنّه قال: «نِعْمَ الْعَوْنُ عَلَى تَقْوَى اللَّهِ الْغِنَى» «۲». وفى حديث آخر فى هذا الباب عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «غِناً يَحْجُزُكَ عَنِ الظُّلْمِ خَيْرٌ مِنْ فَقْرٍ يَحْمِلُكَ عَلَى الْاثْمِ» وورد فى حديث آخر عن أحد أصحاب الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال للإمام: واللَّه إنا لنطلب الدنيا ونحب أن نؤتاها، فقال عليه السلام: «تحبّ أن تصنع بها ماذا؟» قال: أعود بها على نفسى وعيالى، وأصل بها وأتصدق بها وأحجّ وأعتمر، فقال أبو عبداللَّه عليه السلام: «ليس هذا طلب الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۰۲ الدنيا، هذا طلب الآخرة» «۱». ونختم هذا البحث بكلام لأميرالمؤمنين فى الخطبة ۲۰۹ من نهج البلاغة حيث يقول عندما دخل مع جماعة لعيادة «العلاء بن زياد الحارثى» وهو من الشخصيات المعروفة فى البصره ومن أصحاب الإمام حيث كان قد اشترى داراً وسيعة فقال له الإمام «مَا كُنْتَ تَصْنَعُ بِسِعَةِ هَذِهِ الدَّارِ فِى الدُّنْيَا وَانْتَ الَيْهَا فِى الْآخِرَةِ كُنْتَ احْوَجُ». ثمّ إنّ الإمام أكمل كلامه بهذه العبارة «وَبَلَى انْ شِئْتَ بَلَغْتَ بِهَا الْآخِرَةَ تُقْرِىَ فِيهَا الضَّيْفَ، وَتَصِلُ فِيهَا الرَّحِمَ، وَتُطْلِعُ مِنْهَا الْحُقُوقَ مَطَالِعَهَا، فَإِذَا أَنْتَ قَدْ بَلَغْتَ بِهَا الْآخِرَةَ» «۲» النتيجة: هى أنّ المواهب المادية والدنيوية متى ما أصبحت وسيلة للوصول إلى الكمال المعنوى وبناء الآخرة ومساعدة الضعفاء وحماية المحرومين وترويج وتقوية دعائم الحقّ والعدالة فليس هناك أفضل منها، وإذا سلك بها الإنسان فى مسير الذنوب والحرص والتكاثر بدون ملاحظة الحلال والحرام فليس هناك شىء أسوء منها، أجل فمثل هؤلاء الناس من أتباع الدنيا الّذين يتحركون فى استخدام هذه النعم والمواهب فى طريق اشباع الغرائز المادية فإنّهم يجمعون فى واقعهم النفسانى مجموعة من الصفات الرذيلة والرغبات القبيحة والدنيئة. ويروى أحد أصحاب الإمام على بن موسى الرضا ويُدعى محمّد بن إسماعيل بن بزيغ حيث يقول: سمعت من الإمام الرضا أنّه قال: «لَا يَجْتَمِعُ الْمَالُ الّا بِخِصَالٍ خَمْسٍ بِبُخْلٍ شَدِيدٍ وَامَلٍ طَوِيلٍ وَحِرْصٍ غالبٍ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ وَايثَارِ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ» «۳».

الحسد

تنويه:

إن أحد الرذائل الأخلاقية الاخرى الّتى اقترنت مع نتائج سلبية كبيرة فى حياة الفرد والمجتمع هى صفة (الحسد) ويعنى كما ذكر علماء الأخلاق (الحزن على رؤية النعمة لدى الآخرين وتمنى زوالها بل السعى فى طريق رفعها عن الطرف الآخر). إن الحسد يملأ أجواء الروح الإنسانية بالظلمة ويشوّه معالم النفس ويثير فى المجتمع البشرى عدم الأمن والقلق والتوتر الناشىء من حالات الصراع النفسى بسبب دوافع الحسد. إنّ الحسود ليس له راحة فى الدنيا ولا يتنعم فى الآخرة، وبما أنّ سعيه فى حركة الحياة هو إزالة آثار النعمة عن الطرف المحسود فسوف يتلوث بأنواع الجرائم النفسية والعملية ومن بين ذلك: الكذب، الغيبة، ارتكاب أنواع الظلم والعدوان بل قد يؤدى به الأمر فى حالات الحسد الشديدة إلى القتل وسفك الدماء أيضاً. وفى الحقيقة يمكن القول إن الحسد هو أحد الجذور الأصلية لجميع أنواع الفساد والسيّئات ومن أشنع فخاخ الشيطان وأخطر شراكه وهو المصيدة الّتى وقع فيها الإنسان الأوّل المتمثل بابن آدم (قابيل) حيث تلوثت يده بدم أخيه (هابيل) بدافع من الحسد، ولهذا الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۰۴ السبب نجد فى الروايات الإسلامية والمفاهيم الدينية أنّ الحسد يُعد أحد الاصول الثلاثة للكفر أى (التكبر، الحرص، الحسد). إنّ الشخص الحسود فى الواقع يعترض على حكمة اللَّه تعالى، ولهذا السبب فالحسد نوع من الكفر والشرك الخفى. والنقطة المقابلة للحسد هو (حب الخير)

للآخرين، أى أن يحب الإنسان أن يرى نعمة اللَّه تصيب الآخرين من أفراد المجتمع ويلتذ بذلك ويسعى لحفظها ويرى أنّ سعادته مقرونة بسعادة الآخرين ومصالحه فى خط واحد مع مصالح الآخرين ومنافعهم. وبهذه الإشارة نعود إلى آيات القرآن الكريم لنقرأ فى أجوائها معطيات هذه المسألة: ١- «وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَىْ آدَمَ بِالْحَقّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْأَخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ ا لْمُتَّقِينَ* لَئِن بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَ نَا بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنّى أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ ا لْعلَمينَ* إِنّى أُرِيدُ أَن تَبُوأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَا لِكَ جَزَا ؤُاْ ا لظلِمِينَ* فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ ا لْخَاسِرِينَ» «١». ٢- «إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا ابَتِ إِنّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سجِدِينَ* قَالَ يَابُنَىَّ لَاتَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ». «٢» ٣- «أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَآ ءَاتَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَآ آلَ إِبْرَاهِيمَ ا لْكِتَابَ وَا لْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيما» .۴- «وَدَّ كَثِيرٌ مّنْ أَهْلِ ا لْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مّن بَعْدِ مَاتَبَيَّنَ لَهُمُ ا لْحَقُّ فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتَّى يَأْتِىَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلّ شَىْءٍ قَدِيرٌ» «۴». الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۰۵ ۵- «وَمِن شَرّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ» «۱» ۶- «وَالَّذِينَ جَآءُو مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَا نِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ» «۲» ۷- «وَنَزَعْنَا مَافِى صُدُورِهِم مّنْ غِلّ إِخْوَا نًا عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ» «۳».

تفسير واستنتاج:

نار الحسد المحرقة

«الطائفة الاولى من الآيات محل البحث تتحدّث عن قصة ابنى آدم وأنّ أحدهما قد ملكه الحسد على الآخر بحيث أدّى به إلى أن يقتل أخاه، وبذلك وقعت أوّل جريمة قتل على الأرض وكانت فى الحقيقة بداية للجرائم البشرية الاخرى. تقول الآية الكريمة «وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَىْ آدَمَ بِالْحَقّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْأَخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ ا لْمُتَّقِينَ» «۴». أى اننى لم أقصد أن اسىء إليك لتصمّم على قتلى فإنّ مشكلتك هى من باطنك لأنّ عملك غير خالص ولم يقترب بالتقوى، ولذلك لم يتقبل اللَّه منك لأن اللَّه تعالى لا يتقبل إلّا ما كان طاهراً نقياً. ثمّ تقول الآية «لَئِن بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَ نَا بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنّى أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ ا لْعلَمِينَ» «۵». ثمّ إن قابيل وبسبب نار الحقد والحسد المتأججة فى قلبه صمّم على قتل أخيه هابيل وتمزيق أواصر الاخوّة بينهما بحيث إنّ الحقد والحسد حجبا عن عينه كلّ القيم الأخلاقية الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۰۶ والمثل الإنسانية وارتكب تلك الجناية الشنيعة كما تقول الآية «فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ ا لْخَاسِرِينَ» «۱». أجل لقد أصبح من الخاسرين فى الدنيا والآخرة، فقد خسر اخوه وخسر نعمة الأمن والاستقرار النفسى والهدوء الروحى، لأن القاتل لو بقيت له ذرة من الوجدان فسوف يعيش عذاب الوجدان باستمرار ولا يجد طعم الهدوء والراحة فى الدنيا، وكذلك حاله فى الآخرة حيث يستقر فى جهنم وبئس المصير. وقد ورد فى الروايات انه قتل أخاه وهو نائم «۲»، وتُعد هذه جناية مضاعفة تدلّ على أنّ الحسد إذا ما استعر فى قلب الإنسان فسوف يحول كلّ نعيم إلى رماد تذروه الرياح. ولكنّ قابيل ندم بسرعة على فعلته الشنيعة وملكهُ الحزن العميق، وكلّما نظر إلى جسد أخيه الدامى سرت فى نفسه قشعريرة وتملكه الخوف والقلق، فما كان منه إلّاأن حمل جسد أخيه ولم يعلم ما يصنع به واين يذهب به بحيث يغطى على آثار جنايته؟ مضافاً إلى أنّ هذا المنظر الموحش يقلقه ويزعجه فلم يكن يدرى ما يصنع فى هذه اللحظة، وعلى رغم جنايته العظيمة وذنبه الكبير فإنّ لطف اللَّه قد شمله كما تقول الآية «فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَا رِى سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَاوَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هذَا ا لْغُرَابِ فَأُوَا رِىَ سَوْءَةَ أَخِى فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ» «۳». وقد جاء فى بعض الروايات أنّ قابيل رأى أمام عينه غرابين يتقاتلان فقتل أحدهما الآخر ثمّ حفر له حفرة فى الأرض ودفن فيها جسد الغراب المقتول. وقال بعض إن غراباً جاء بجسد غراب ميت ودفنه، وقيل أيضاً أنّ قابيل رأى غراباً يدفن بعض المواد الغذائية ليحفظها كما هو ديدن الغربان فتعلم من ذلك دفن الموتى «۴». الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۰۷ وعلى أيّة حال فقد ندم قابيل بشدة ولكن ندمه لم يكن

مستقراً ومن موقع التوبة والانابة إلى اللَّه تعالى حتّى يكون من شأنه تطهيره من الذنوب. وهنا يطرح سؤالان، الأوّل: ما المقصود من «القربان» فى قوله تعالى «إذ قرّبا قرباناً»؟ والآخر: هو انه من اين عَلِما أنّ اللَّه تعالى تقبل قربان هابيل ولم يتقبل قربان قابيل؟ ولم يرد فى القرآن الكريم ما يشير إلى جواب عن هذين السؤالين، واما الروايات فهى مختلفة على مستوى السند أو المتن والدلالة، ولكن ما يتطابق مع المنطق والعقل ويتلائم مع القرائن الموجودة هو ما ورد فى الرواية عن سليمان بن خالد قال: قلت لأبى عبداللَّه عليه السلام جعلت فداك إن الناس يزعمون أنّ آدم زوج ابنته من ابنه؟ فقال أبو عبداللَّه عليه السلام: «قد قال الناس فى ذلك ولكن يا سليمان أما علمت أنّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قال: لو علمت أنّ آدم زوج ابنته من ابنه لزوجت زينب من القاسم، وما كنت لارغب عن دين آدم. فقلت جعلت فداك إنهم يزعمون أنّ قابيل إنما قتل هابيل لأنهما تغايرا على اختهما، فقال له: يا سليمان تقول هذا! أما تستحيى أنّ تروى هذا على نبى اللَّه آدم؟ فقلت: جعلت فداك فبم قتل قابيل هابيل؟ فقال: فى الوصية ثم قال لى: يا سليمان أنّ اللَّه تبارك وتعالى أوحى إلى آدم أن يدفع الوصية واسم اللَّه الأعظم إلى هابيل، وكان قابيل أكبر منه، فبلغ ذلك قابيل، فغضب فقال: أنا أولى بالكرامة والوصية. فأمرهما أن يقربا قرباناً بوحى من اللَّه إليه، ففعلا فقبل اللَّه قربان هابيل فحسده قابيل فقتله» «۱». وعلى أيّة حال فإنّ قابيل وجد نفسه فى مفترق طريقين لإنهاء حالة القلق والإضطراب الّتى يعيش فيها: أحدهما التوبة إلى اللَّه تعالى والسعى لجبران ما صدر منه من الاثم بالعمل الصالح والخالص والتحرك فى خط التقوى والاستقامة والانفتاح على اللَّه (وهو العمل الّذى يسمّيه علماء الأخلاق ب «الغبطة» وهى حالة ممدوحة وبناءة) ولكن قابيل اختار الطريق الآخر، أى السعى لإزالة النعمة من أخيه، وبذلك أوقع نفسه فى أسوء طريق وانتخب أشنع وسيلة بذلك وتلوثت يده بدم أخيه البرىء ليطفىء نار الحسد فى قلبه. الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۰۸ إذا تسبب «تكبر» إبليس لأن يقع طريد رحمة اللَّه إلى الأبد، وتسبب «الحرص» فى أن يحرم آدم من الجنّة، فإنّ «الحسد» قد جعل قابيل ملعوناً ومطروداً من رحمة اللَّه إلى الأبد بسبب قتله لأخيه، وكلّ قتل يقع فى الدنيا فإنّ قابيل له سهم من تلك الجناية باعتباره المؤسس لها. فالتاريخ البشرى ملىء بالجنايات والفجائع المختلفة الّتى تنطلق بدافع من (الحسد). «الطائفة الثانية» من الآيات الكريمة التى تحدثت عن جانب آخر من هذه الصفة الذميمة فى حالات الإنسان وهى «الحسد» وآثارها المدمرة فى حياة الفرد والمجتمع، وتستعرض فى ذلك قصة النبى يوسف واخوته. «النبى يوسف» لم يكن صاحب الجمال فى وجهه وملامحه البدنية فحسب بل كان يتمتع بمنتهى الجمال فى أخلاقه وسيرته الحميدة، وهذا الأمر هو الّذى اخبر عن مستقبله العظيم كما توقع له أبوه يعقوب وأحبه ذلك الحبّ الشديد، وكان هو السبب فى غرس عامل (الحسد) فى قلوب أخوته الّذين كانوا أكبر منه سناً. وهذا الموضوع تجلّى بوضوح عندما حكى يوسف لأبيه حلماً كان قد رآه حيث تقول الآية: «إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا ابَتِ إِنّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سجِدِينَ» «۱». وكان النبى يعقوب يعلم أنّ مثل هذه الرؤيا ليست رؤيا عادية ومن افرازات الخيال للأطفال بل هى علامة على مستقبل مشرق ينتظر ابنه يوسف فقال له كما تتحدث الآية: «قَالَ يَابُنَىَّ لَاتَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ» «۲». ولكن هل أنّ اخوة يوسف علموا بمضمون رؤيا يوسف العجيبة الّتى تتحدّث عن الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۰۹ مستقبله الزاهر أم لا؟ لا نعلم بذلك على وجه الدقة، ولو أنّهم كانوا قد علموا بذلك لكانت هذه بمثابة البذرة الثانية لحالة (الحسد) الّتى اعتمرت قلوبهم، ولكن على أيّة حال فإنّ الأب كان يعلم انه إذا علم الاخوة بمضمون هذه الرؤيا العجيبة فانهم سوف يتحركون ضد أخيهم يوسف من موقع العداوة والخصومة، ولهذا أصرّ عليه بكتمان هذا الخبر عنهم. وجاء فى بعض الروايات أنّ يعقوب ومن فرط فرحه وسروره بهذه الرؤيا قد أخبر زوجته بذلك على أساس انها تكتم الخبر، ولكن بما أنّ السر إذا تجاوز الاثنين فشا، فإنّ هذه الحكاية انتشرت وعلم بها اخوة يوسف، وجاء فى رواية اخرى أنّ يوسف لم يستطع كتمان خبر هذه الرؤيا، (فتصوّر أن نهى أبيه هو نهى ارشادى لا نهى تحريمى) فعندما علم اخوته بخبر الرؤيا قالوا أنّ يوسف يطمح أن يكون ملكاً «۱». ولكن إذا لم يعلم الاخوة بخبر الرؤيا فانهم على الأقل كانوا يرون تعامل أبيهم مع يوسف وسلوكه الّذى ينبىء عن عظيم حبّه له وخاصة انه كان بقية امّه راحيل الّتى ماتت وهو فى طفولته. القرآن الكريم يقول فى هذا الصدد «إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ

عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ» «۲». وبهذه الصورة اصدروا حكمهم بضلالة أبيهم، وبعد ذلك صمّموا على رفع هذا المانع الكبير، أى يوسف، من طريقهم ليبقى لهم حبّ أبيهم ومودّته، وضمن البحث فى (جلسة شيطانية) قرروا ما يلى «اقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ» «۳». وكما نعلم انه لم يتم لهم قتل أخيهم يوسف بل قد توسّط أحد الاخوة فى ذلك وتم القرار الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۱۰ بإبعاده إلى أرض بعيدة ومنطقة نائية، وبالرغم من أنّ هذا النفى والتبعيد ليوسف قد سبّب الحزن الشديد لأبيه يعقوب بحيث ابيضّت عيناه من الحزن وصار بصيراً من كثرة البكاء، ولكن هذا العمل وعلى خلاف توقع الاخوة اصبح مقدمة لينال يوسف مقام القدرة والسلطنة على بلاد مصر الّتى كانت تعتبر من أعظم البلدان فى ذلك الزمان وكذلك لم يحظوا بحبّ أبيهم أيضاً. أجل فإنّ الامواج الخطيرة للحسد قوية وعظيمة إلى درجة أنّها دفعت الاخوة إلى قتل أخيهم وتسبّبت فى أن يحملوا أوزاراً كبيرة اخرى منها الكذب وكتمان الجريمة ونسبت أبيهم إلى الضلالة واهانة نبى من الأنبياء وأمثال ذلك. «الآية الثالثة» تشير إلى قصة اليهود وتتحدث عن سلوكياتهم الذميمة، ونعلم أنّ طائفة عظيمة من بنى إسرائيل قد قرأوا علامات النبى فى آخر الزمان ومنطقة ظهوره، فرحلوا من (الشامات) إلى (المدينة) ليحظوا بصحبة ذلك النبى ويؤمنوا به، ولذلك كانوا ينتظرونه دائماً. ولكن بعد ظهور هذا النبى فإنّ الكثير منهم لم يبقوا على تعهدهم والتزامهم المسبق بحمايته ونصرته والإيمان به، بل أصبحوا فى صف المخالفين له والمحاربين لدعوته، والسبب الأهم فى ذلك هو عنصر «الحسد» والآخر هو ماتوهموا من وقوع منافعهم ومصالحهم فى الخطر. القرآن الكريم يتحدّث لنا عن هذه الحالة لليهود فيقول «أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَآءَاتَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَآ آلَ إِبْرَاهِيمَ ا لْكِتَابَ وَا لْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا» «۱». أجل فإنّ المشيئة الإلهية قد تعلقت فى أن يملك آل إبراهيم والّذين كان اليهود من ذريتهم وأن تكون لهم النبوة والعلم، ولكن المشيئة الإلهية قررت فى زمان لاحق أن تتعلق النبوة والعلم بمحمّد وآله الكرام وكلّ ذلك وفقاً للمصالح الّتى تتعلق بها المشيئة الإلهية، فهل أنّ اليهود كانوا يقبلون أن يحسدهم الناس على ما آتاهم اللَّه من فضله فى الزمان السالف؟ الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۱۱ إذن فلماذا استعرت فى قلوبهم نيران الحسد عندما يرون أنّ نعمة اللَّه قد صارت من نصيب آخرين وبذلك تحركوا فى خط الباطل. «الآية الرابعة» تتحدّث عن طائفة من أهل الكتاب الّذين يتعاملون مع المسلمين من موقع الحسد، والظاهر انها ناظرة إلى اليهود وتقول «وَدَّ كَثِيرٌ مّنْ أَهْلِ ا لْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مّن بَعْدِ مَاتَبَيَّنَ لَهُمُ ا لْحَقُّ فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتَّى يَأْتِىَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلّ شَىْءٍ قَدِيرٌ» «۱». إن الحسد قد يصل بالإنسان إلى درجة أن لا ينحصر تأثيره فى الامور المادية مورد التنازع بين الناس عادة فحسب بل قد يتجاوز ذلك إلى الامور المعنوية الّتى لا تتزاحم بطبعها فى تواجدها بين أفراد البشر كافة بخلاف حال الامور المادية الّتى تتزاحم بالذات بين الأفراد، وهؤلاء يحسدون المؤمنين من موقع العناد والاصرار ويسحقون على سعادتهم ويديرون ظهورهم للحقّ بسبب امور موهومة، ونفس هذا الحسد يتسبّب أن يضعف فى الآخرين أيضاً الدافع لسلوك طريق السعادة والتحرّك فى خط الإيمان والتقوى، وهذا من عجائب الحسد. وقد ذكر الكثير من المفسّرين أنّ جملة «حَسَداً مِنْ عِنْدِ انْفُسِهِمْ» إشارة إلى أنّ العامل لهذه الحالة فى نفوسهم هو عنصر الحسد المتجذر فى باطنهم والّذى يتفرع من جهلهم وعدم اطلاعهم على حقائق الامور بل حتّى بعد اطلاعهم على الحقيقة يسلكون هذا المسلك المنحرف كما تقول الآية بعد ذلك «مّن بَعْدِ مَاتَبَيَّنَ لَهُمُ ا لْحَقُّ». ولكنّ القرآن الكريم يخاطب المسلمين من موقع الأمر إلى أن يتركوا هؤلاء الحسّاد لحالهم (لأن نار الحسد المستعرة فى قلوبهم هى أفضل جزاء لهم) ولكن لا يتصوروا أنّ هذا العفو والصفح من قِبل المسلمين يستمر إلى ما لا نهاية وأنّهم أحرار فى سلوك أىّ عدوان واضرار بالآخرين، كلّا. الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۱۲ إنّ الزمان سوف يُثبت على انّ العذاب الإلهى سوف يُحيط بهؤلاء المنحرفين والظالمين إما فى الدنيا بواسطة جيش الحقّ فيعذبهم اللَّه ويريهم جزاء مؤامراتهم الخبيثة وممارساتهم المنحرفة تجاه أصحاب الحقّ، أو يذيقهم العذاب فى الآخرة. وعلى أيّة حال فهذه الآية تشير إلى أنّ المسلمين الّذين اعتنقوا الإسلام حديثاً عليهم أن لا يستسلموا لوساوس اليهود وغيرهم من المنحرفين وقوى الضلال لأنهم ينطلقون فى تعاملهم مع المسلمين من موقع الحسد ولا يريدون سعادتهم بل يتألمون لما يروا من سعادة المسلمين فى ظلّ التقوى

والإيمان. «الآية الخامسة» وهى الآية الخامسة من سورة الفلق تشير إلى شرّ الحاسدين وتخاطب النبى بأن يتعوذ باللّه تعالى من شرّ كلّ حاسد وتقول «وَمِن شَرّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ» «۱». وفى بداية هذه السورة تخاطب النبى بالقول «قُلْ أَعُوذُ بِرَبّ ا لْفَلَقِ* مِن شَرّ مَا خَلَقَ». ثمّ تقسم المخلوقات الشريرة إلى ثلاثة أقسام وتقرر أنّ أساس الشرّ والعامل الأصلى له فى العالم هى هذه الامور الثلاثة: الأوّل: المخلوقات الشريرة الّتى تستغل ظلمة الليل وتهجم على الإنسان فى حال نومه ويقظته، والتعبير بكلمة (غاسق) (ويعنى الموجود الشرير الّذى يهجم فى الليل) وذلك لأن الحيوانات الوحشية والحشرات المؤذية تخرج ليلًا من آجامها وجحورها بل إنّ الأشخاص من أهل الشرّ والخبث والدنائة يستغلّون ظلمة الليل غالباً للوصول إلى مقاصدهم الشريرة. ولكن الظلام هنا يمكن أن يكون له معنىً واسع بحيث يشمل كلّ أنواع الجهل والغفلة والمؤامرات الخبيثة وأمثال ذلك لأن قطّاع طريق الحقّ يستغلون جهل الناس عادة ويهجمون على المؤمنين واصفياء القلوب من موقع التآمر عليهم. الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۱۳ ثمّ تشير السورة إلى الأشرار الّذين ينفخون فى العقد، وهو تعبير يشير إلى النساء اللواتى يسلكن طريق الإنحراف كما هو حال الساحرات الّذين يقرأن بعض الأوراد والتماتم فى حال عملية السحر ثمّ ينفخن فى العُقد ويقرأن على البسطاء والسذّج من الناس مطالب وكلمات غير مفهومة، وبهذه الوساوس يسعين إلى ايجاد عنصر الخذلان فى إرادتهم ويجرّونهم إلى حال الترديد والتشكيك، فعندما تضعف الإرادة فى الإنسان يتسنّى حينئذٍ لجيش الشيطان أن يهجم ويتسلط عليه. ثمّ تشير الآيات إلى الطائفة الثالثة والأخيرة من طوائف الشرّ وتقول «وَمِن شَرّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ». وهنا يتضح أنّ أحد عوامل التخريب والفساد فى العالم هو عامل الحسد والتخريب الّذى ينشأ من فعل الحسّاد، وعليه فالآية فى حديثها عن المنابع الثلاثة للشرّ والفساد (وهى: المهاجمون فى ظلمة الليل، والموسوسون الّذين يتحركون من خلال الإعلام لهدف تضعيف عقائد الناس وايمانهم وايجاد الخلل فى العلاقات الاجتماعية، والحاسدون الّذين يتحركون بين الناس من موقع التخريب) فهذه الآيات شاهد ناطق على المراد أى الأضرار الوخيمة للحسد. أمّا ما ورد فى الآية من هذه السورة من الصفة الإلهية (بِرَبِّ الْفَلَقِ) يمكن أن يكون إشارة إلى هذه الحقيقة، وهى أنّ هذه الطوائف الشريرة الثلاثة تستغل دائماً الظلمة والجهل والاختلاف والكفر، فلو أنّ هذه الظلمات تبدّلت إلى نور العلم والاتحاد والايمان فإنّ قوى الانحراف هذه سوف لا تستطيع أن تعمل شيئاً. «الآية السادسة» من الآيات مورد البحث بعد أن مدحت الأنصار مدحاً بليغاً (وهم الّذين دعوا نبى الإسلام إلى يثرب ونصروه واستقبلوه أحسن استقبال وجعلوا جميع ما لديهم من امكانات تحت اختياره) تحدّثت عن (التابعين) وهم الّذين جاءوا بعد المهاجرين والأنصار والتزموا خطّ الايمان واعتنقوا الإسلام واستمروا فى خط الايمان، تقول الآية «وَالَّذِينَ الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۱۴ جَآءُو مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَا نِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ» «۱». وعلى هذا الأساس يقول هؤلاء بعد طلبهم المغفرة لهم ولمن تقدّمهم فى الإيمان (المهاجرين والأنصار) حيث يطلبون من اللّه تعالى أن يُزيل أى شكل من أشكال (الغِل والحقد والحسد) فى قلوبهم بالنسبة إلى المؤمنين، لأنهم يعلمون انّه مادامت هذه الامور تعيش فى قلب الإنسان فإنّ روابط المحبّة والاخوّة والإتحاد لا يمكن أن تؤثر أثراً وبالتالى لا ينال الفرد التوفيق فى حركته الدينية والاجتماعية. كلمة (غِل) المأخوذة من مادّة (غلل) وكما يقول الراغب فى كتابه (المفردات) هى فى الأصل بمعنى الشىء الخفى الّذى ينفذ تدريجياً وبخفاء، ولهذا يُقال للماء الجارى (غلل) لأنّه ينفذ إلى الأشجار تدريجياً. ثمّ استُعمل الغلول فى (الخيانة) لأنها تنفذ بخفاء وتدرّج، وكذلك استُعملت فى (الحقد والحسد) حيث ينفذان إلى القلب بشكل خفى وتدريجى. وجاء فى (لسان العرب) أنّ الحسد نوع من (الغلّ) كما أنّ من مصاديقه هو الحقد والعداوة أيضاً. والكثير من المفسّرين يرون فى تفسير الغِل بمعنى الحسد كالفخر الرازى فى (التفسير الكبير) والمراغى فى تفسيره والقرطبى فى (الجامع لأحكام القرآن) فى ذيل هذه الآية محل البحث. «الآية السابعة» والأخيرة من الآيات مورد البحث تتحدّث عن صفات أهل الجنّة وتقول بعد تصريحها باستقبال الملائكة لهم فى القيامة ودعائهم لهم بالسلامة والأمن «وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مّنْ غِلّ إِخْوَا نًا عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ» «۲». الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۱۵ أجل فإنّ أهل الجنّة طاهرون من كلّ أشكال الحسد والحقد والعداوة الّتى يتصف بها أهل النار، وإذا رأينا أنّهم يعيشون حالة الأخوة والسلامة والأمن فى الجنّة فإنما هو

بسبب زوال هذه الامور السلبيّة من وجودهم وقلوبهم (وذلك بلطف اللّه وببركة أعمالهم الصالحة فى الدنيا). ولا شكّ أنّ الناس فى الدنيا لو عاشوا بحياة خالية من الحقد والعداوة والحسد فى تفاعلهم الاجتماعى فيما بينهم لأضحت حياتهم الدنيوية كحياة أهل الجنّة حيث يعيشون الأمن والأمان والاخوة والصفاء أيضاً.

النتيجة:

ومن مجموع ما تقدّم من الآيات المذكورة آنفاً تتضح الآثار السلبيّة الوخيمة لحالة الحسد فى حركة الحياة الفردية والاجتماعية، ويتضح كذلك موقف القرآن السلبى والشديد من هذه الصفة الأخلاقية الذميمة، فالحسد هو الّذى تسبب فى أن يقتل الإنسان أخاه وأن يُغمض عينه عن رؤية الحقّ ويُسدل على عقله حجاباً كثيفاً يمنعه عن رؤية الحقيقة ويُثير فى أجواء المجتمع الظلمة، ويقطع أواصر المحبّة والود بين الأفراد، ويحوّل المجتمع البشرى إلى جهنم محرقة تحرق المتلوثين بهذه الصفة الذميمة.

الحسد فى الروايات الإسلامية:

ونقرأ فى الروايات الإسلامية الذمّ الشديد لحالة الحسد بحيث قلّما نجد صفة من الصفات الرذيلة قد ورد ذمّها بهذه الشدّة فى النصوص الدينية، وعلى سبيل المثال وكنماذج وعيّنات من ذلك نكتفى بإستعراض عدّة روايات تتحدّث حول هذا الموضوع: الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۱۶ ۱- ورد فى الحديث الشريف عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله أنّه قال: «الْحَسَدُ يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ» «۱». والتعبير أعلاه يشير إشارة واضحة إلى انّ نار الحسد يمكنها أن تأتى على جميع عناصر السعادة لدى الإنسان وتحرق حسناته وأتعابه طيله عمره وتهدر ثمرات اتعابه بحيث يخرج من الدنيا صفر اليدين. ۲- وهذا المعنى ورد بصورة أشد فى الحديث الشريف عن الإمام الباقر والصادق عليهما السلام حيث قالا: «انَّ الْحَسَدَ يَأْكُلُ الْايمانَ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ» «۲». أجل فإنّ الصفة الرذيلة للحسد لا تحرق الحسنات فقط بل تحرق الإيمان أيضاً وتبدّله إلى رماد، وسيأتى تفصيل الكلام فى شرح هذا الحديث الشريف. ۳- وفى حديث آخر عن الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: «الْحَسَدُ شَرُّ الْامْرَاضِ» «۳». وطبقاً لهذا الحديث فإنه ليس هناك من الأمراض الأخلاقية أسوء وأشر من الحسد. ۴- وقد ورد عن أميرالمؤمنين عليه السلام أيضاً قوله: «رَأْسُ الرَّذَائِلِ الْحَسَدُ» «۴». ۵- وكذلك ورد عن هذا الإمام فى تعبيره الكنائى عن الحسد «للّهِ دَرُّ الْحَسَدِ مَا اعْدَلَهُ بَدَءَ بِصَاحِبِهِ فَقَتَلَهُ» «۵». ۶- وأيضاً ورد عن هذا الإمام قوله: «ثَمَرَةُ الْحَسَدِ شَقَاءُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ» «۶». ۷- وفى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «آفَةُ الدِّينِ الْحَسَدُ وَالْعُجْبُ وَالْفَخْرُ» «۷». الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۱۷ ۸- وعن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً أنّه قال: عندما كان موسى بن عمران يناجى اللّه عزّوجلّ إذ نظر إلى رجل فى ظلّ العرش، فقال: «يَا رَبِّ مَنْ هَذَا الّذى قَدْ اظَلَّهُ عَرْشُكَ» «۱» فقال: «يَا مُوسَى هَذَا مِمَّنْ لَمْ يَحْسُدُ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِنْ فَضْلِهِ». ۹- وفى حديث آخر عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله أنّه قال: «سِتَّةٌ يَدْخُلُونَ النَّارَ قَبْلَ الْحِسَابِ بِسِتَّةٍ». «قِيلَ يَا رَسُولَ اللّهِ مَنْ هُمْ؟» «قَالَ: الْامَرَاءُ بِالْجَوْرِ، وَالْعَرَبُ بِالْعَصَبِيَّةِ، وَالدَّهَاقِينُ بِالتَّكَبُّرِ، وَالتُّجَّارُ بِالْخِيَانَةِ، وَأَهْلُ الرُّسْتَاقِ بِالْجَهَالَةِ، وَالْعُلَمَاءُ بِالْحَسَدِ» «۲». وعليه فإنّ الحسد يمثل بلاء العلماء بالدرجة الاولى. ۱۰- ونختم هذا البحث بحديث آخر عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله (رغم وجود أحاديث كثيرة فى هذا الباب) أنّه قال: «انَّهُ سَيُصِيبُ امَّتِى دَاءُ الْامَمِ! قَالُوا: وَمَاذَا دَاءُ الْامَمِ؟! قَالَ: الْاشَرُ وَالْبَطَرُ وَالتَّكَاثُرُ وَالتَّنَافُسُ فِى الدُّنْيَا، والتَّبَاغُدُ والتَّحَاسُدُ حَتَّى يَكُونَ الْبَغْىُ، ثُمَّ يَكُونُ الْهَرْجُ!» «۳».

امور مهمة:

اشارة

بعد أن اتضح موقف القرآن الكريم والروايات الإسلامية من هذه الرذيلة الأخلاقية (الحسد) وعمق الفاجعة المترتبة عليه فى حياة الإنسان والمجتمع البشرى بقيت عدّة نقاط مهمّة فى هذا البحث لابدّ من استعراضها لتتضح الأبعاد المختلفة لموضوع الحسد وهى عبارة عن: ١- معنى ومفهوم الحسد. الاخلاق فى القرآن، ج٢، ص: ١١٨ ٢- دوافع الحسد. ٣- علامات وآثار الحسد. ۴- المعطيات الفردية والاجتماعية للحسد. ۵- طرق الوقاية من الحسد وعلاجه.

١- مفهوم الحسد والغبطة

ذكر علماء الأخلاق فى تعريف الحسد انه: تمنى زوال النعمة عن الآخرين سواءاً وصلت هذه النعمة إلى الحاسد أم لا. وعليه فإنّ عمل الحسود هو التخريب أو تمنّى التخريب وزوال آثار النعم والمواهب الإلهية عن الآخرين سواءاً انتقلت إليه تلك النعمة أم لا. وعلى هذا الأساس فإنّ أشد أنواع الحسد هو أن يتمنّى الإنسان زوال النعمة عن الآخر ويتحرّك فى هذا المسير أيضاً سواءً عن طريق ايجاد سوء الظن بالنسبة إلى المحسود، أو عن طريق ايجاد الموانع لعمله فى حركة الحياة والمعيشة، وهذا النوع من الحسد يحكى عن خبث الباطن الشديد للحسود. والمرتبة الأدنى منها هى أن يكون هدف الحاسد هو تحصيل تلك النعمة عن طريق سلبها من الآخرين، وبالرغم من انّ هذه الحالة هى من الرذائل الأخلاقية ولكنها ليست فى الشدّة كما رأينا فى المرتبة الاولى منها. وهناك مرتبة أدنى من ذلك أيضاً حيث يتمنّى فيها الحاسد زوال النعمة عن الآخر بدون أن يتحرّك فى هذا السبيل على مستوى الكلام أو الخطوات العملية الاخرى. وهذه الحالة الذميمة إذا حصلت للإنسان بدون اختيار منه كما قد يحصل لدى الكثير، فلا يترتب عليها إثم، ولكن إذا كانت بمحض ارادته بحيث حصلت له بسبب بعض المقدمات الاختيارية وبإمكانه إزالة هذه المقدّمات، فبلاشك تُعتبر هذه من الرذائل الأخلاقية أيضاً ولكن هل يترتب على ذلك إثم أم لا؟ الاخلاق فى القرآن، ج٢، ص: ١١٩ وهنا تأمّل فى هذا الموضوع ناشىء من هذه الحقيقة، وهى هل أنّ الصفات الباطنية حتّى لو كانت اختيارية هى محرمة حتّى لو لم تظهر فى عمل الإنسان وفعله، أو تُعتبر صفة أخلاقية تكشف عن انحطاط أخلاقى لذلك الشخص بدون أن تستتبعها حرمة فى البين؟ وعلى أيّة حال فإنّ النقطة المقابلة للحسد هى (الغِبطة) وهى أن يتمنّى الإنسان أن تكون له نعمة مثلما للآخرين أو أكثر منها بدون أن يتمنّى زوال تلك النعمة عن الآخر. ولكن البعض يرى انّ (الغبطة) نوع من الحسد أيضاً ويستشهد لذلك بحديث شريف عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله أيضاً» .ولكن من الواضح أنّ هذا المعنى ينسجم مع تفسيرنا للحسد بمفهومه الواسع بحيث يشمل كلّ مقارنة لما لدى الفرد من النعم مع ما لدى الآخرين منها، وهو فى الواقع نزاع لفظى، والمعروف هو ما تقدّم آنفاً من تعريف الحسد. وعلى أيّة حال فالحسد صفة ذميمة وقبيحة فى دائرة الأخلاق، فى حين انّ (الغِبطة) ليس فقط غير مذمومة، بل محمودة ومطلوبة أيضاً، وتعتبر سبباً لترقى المجتمع والصعود به فى مدارج الكمال كما ذكر ذلك الطريحى فى (مجمع البحرين) فى مادّة (حَسَدَ). ونقرأ فى حديث عن الإمام الصادق عليه السلام قوله «انَّ الْمُؤْمِنَ يَغْبِطُ وَلَا يَحْسُدُ، وَالْمُنَافِقُ يَحْسُدُ وَلَا يَغْبِطُ» «٢».

٢- دوافع الحسد

من المعلوم أنّ الكثير من الصفات الرذيلة تتناغم مع بعضها وبينها تأثير متقابل، والحسد أيضاً من هذه الصفات حيث ينشأ من صفات قبيحة اخرى، وهو بنفسه يُعد منبعاً ومصدراً لرذائل كثيرة أيضاً. ويذكر علماء الأخلاق للحسد منابع كثيرة منها: العداوة والحقد بالنسبة إلى الآخرين الاخلاق فى القرآن، ج٢، ص: ١٢٠ حيث يتسبّب فى أن يتمنّى الإنسان زوال النعمة عن الطرف الآخر الّذى يحمل له العداء ويبطن له الحقد. والآخر هو الكِبر والغرور، ولهذا إذا رأى المتكبر غيره يتمتّع بنعم أكثر منه فإنه يتمنّى زوالها بل يسعى فى إزالتها أيضاً لكى يُحرز تفوّقه على الآخرين. الثالث: حبّ الرئاسة حيث يتسبّب فى أن يتمنّى الإنسان زوال نعمة الآخرين لكى يستطيع

بـذلك من تحكيم سيطرته وحكومته عليهم، لأنّه إذا لم تكن قدرته وثروته وامكاناته الاخرى أكثر من الآخرين فإنه قد لا يستطيع أن يثبّت أركان حكومته عليهم. الرابع من أسباب الحسـد: الخوف من عـدم الوصول إلى المقاصد الدنيوية، لأن الإنسان يتصور أحياناً أنّ النعم الإلهيـة محـدودة فلو أنّ الآـخرين حصـلوا عليها فيمكن أن يُحرم منها أو لا يصل إليه منها إلّاالقليل. الخامس: الاحساس بالحقارة والدونيـة، فالأشـخاص الّذين لا يجدون فى أنفسـهم اللياقة للوصول إلى المقامات العليا وحيازة المراتب السامية فإنّ ذلك يتسبب فى ابتلائهم بعقدة الحقارة الّتى تدفعهم إلى تمنى زوال النعمة من الآخرين وأن لا ينال الآخرون مكانة اجتماعية مهمة ليكونوا معهم سواء. السـادس: من أسـباب الحسـد هو البخـل وخبث البـاطن لأن البخيل ليس فقط غير مسـتعد لأن يبـذل ما فى يـده إلى الآخرين، بل يتألم عنـدما يرى نِعم اللّه تعالى تصل إلى غيره، أجل فإنّ ضـيق الافق ودنائـة الطبع وخساسـة النفس تقود الإنسان إلى أن يعيش الحسـد فى واقع النفس، وأحياناً تتوفر جميع هـذه الأسـباب والـدوافع السـتة للحسـد لـدى الفرد، وأحياناً اخرى اثنان أو ثلاثـة منها، فتشـتد خطورة الحسـد بنفس النسـبة. ولكن الأهم من ذلك فإنّ الحسـد يمكن أن يمتـد بجـذوره إلى عنصـر العقيدة ومكامن الدين، فمن كان يؤمن باللّه تعالى وقـدرته ولطفه ورحمته وعدالته وحكمته، كيف يمكنه أن يجد فى نفسه حالة الحسد للآخرين؟ إن الشـخص الحسود يكاد يعترض على اللّه تعـالى بلسـان حـاله وأنّه لمـاذا رزقت فلانـاً الاخلاـق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۲۱ تلك النعمـة؟ وأين العدالـة؟ وأين الحكمة؟ ولماذا لا تعطينى مثله؟ بل قد يتصور نسـبة العجز إلى اللّه تعالى عندما يعطى غيره ولا يعطيه هو ولهذا يفضل أن تسلب تلك النعمـة من ذلـك الشـخص وتصـل إليه. وعلى هـذا الأسـاس فالحاسـد فى الحقيقـة يعيش فى حالـة من اهتزاز دعائم الإيمان والتوحيد الأفعالى فى واقعه الروحى، لأن الإنسان المؤمن بأصل التوحيـد الأفعالى يعلم جيداً أن تقسـيم النعم الإلهية على العباد لا يكون اعتباطياً، بل وفق ما تقتضـيه الحكمـة الإلهيـة، ويعلم كـذلك أنّ اللّه تعالى يملك القـدرة فى أن يرزقه أكثر وافضل من ذلك الشـخص فيما لو كان يتمتع باللياقـة لمثل هـذه النعم والمواهب، إذن عليه أن يسـعى لتحصـيل القابليـة واللياقـة لذلك. ولهذا نقرأ فى الحديث القدسـى حيث يخاطب اللّه تعالى نبيه زكريا: «الْحَاسِدُ عَدُوٌّ لِنِعْمَتِى، مُتَسَخِّطٌ لِقَضَائِى، غَيْرُ رَاضٍ لِقِسْمَتِىَ الَّتِى قَسَمْتُ بَيْنَ عِبَادى» «۱». وقد ورد شبيه هذا المضـمون عن رسول اللّه صـلى الله عليه و آله حيث قال: «إنّ اللّه تعالى أوحى إلى موسـى بن عمران: «لَا تَحْسُدَنَّ النَّاسُ عَلَى مَا آتَيْتُهُمْ مِنْ فَضْـلِى، وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ الَى ذَلِكَ، وَلَا تَتَّبِعُهُ نَفْسَكَ، فَانَّ الْحَاسِدَ سَاخِطٌ لِنِعَمِى، ضَادٌّ لِقَسْـمِىَ الّذى قَسَمْتُ بَيْنَ عِبَادى وَمَنْ يَـكُ كَـذَلِكَ فَلَسْتُ مِنْهُ وَلَيْسَ مِنّى!» «۲». والخلاصـة أنّ الحسود لا يتمتع فى الحقيقـة بدعائم إيمانية وعقائدية راسـخة وإلّا فإنه يعلم أنّ حسـده مـا هو إلّانوع من أنواع الإنحراف عن خـط التوحيـد وعن الحقّ. ويقول الشـاعر فى هـذا المجـال: الا قل لمن كان لى حاسداً اتدرى على من اسأت الأدب؟! اسأت على اللّه فى فعله إذا أنت لم ترض لى ما وهب! «۳»

۳- علامات الحسد

إنّ هـذه الصـفة الرذيلة كسائر الصـفات الأخلاقية الذميمة الاخرى تارة تكون صـريحة واخرى خفية، ولهذا لابدّ من تتبع كلمات علماء الأخلاق وعلماء النفس فى استعراضـهم لحالات الحسـد وعلاماته أو ما استفدناه بالتجربة، فلابدّ من معرفة الحسد ووجوده فى مراحله الأوّليـة قبل أن يتجذّر فى باطن الإنسان وتستحكم دعائمه ويصـعب علاجه حينئذٍ. ومن جملة العلائم الّتى ذُكرت للحسد امور: ۱- أنّ الحاسد يحزن ويتألم عندما يسـمع بنعمة تصـيب الآخر حتّى لو لم تظهر آثار الحزن على محياه. ۲- أحياناً يتجاوز هذه المرحلة وينطلق لسـانه بالتعرض للطرف الآخر بـذكر معايبه وانتقاده من موقع التنقيص والتسـقيط. ۳- وأحياناً يتجاوز هـذه المرحلـة أيضاً ويتحرّك فى تعـامله مع الآخر من موقع الخصومـة والعـداوة. ۴- وأحيانـاً يكتفى هـذا الشـخص بإظهـار عـدم اهتمـامه للطرف الآخر أو يقطع رابطته وعلاقته معه ويسـعى إلى اجتنابه وعدم رؤيته وأن لا يسمع شيئاً عنه، فلو اتفق وأن دار الحديث عنه سعى لتغيير موضوع الحديث وقطع على القائل مقولته، وإذا اجبر يوماً على التحدّث عنه بأمر من الامور فإنه يسـعى لإخفاء صـفاته البارزة ونقاط قوّته أو اكتفى بالسكوت. وكـلّ واحـدة من هـذه الامـور تـدلّ على وجود حالـة الحسـد الخبيثـة. وفى الأحاديث الشـريفة الواردة، من مصادر أهل بيت العصـمة

والطهارة اشارات واضحة على هذا المعنى، ومن ذلك ما ورد فى كلام أميرالمؤمنين عليه السلام قوله «يَكْفِيكَ مِنَ الْحَاسِدِ انَّهُ يَغْتَمُّ فِي وَقْتِ سُرُورِكَ» «۱». الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۲۳ وبعكس ذلك عندما يواجه الطرف الآخر ضرراً أو يقع فى مشكلة فإنّ الشخص الحسود سيفرح لذلك كما ورد فى الآية ۵۰ من سورة التوبة «انْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَانْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ اخَذْنَا امْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَهُمْ فَرِحُونَ». وهناك آيات متعددة اخرى تشير إلى هذا التصرّف السلبى والسلوك الذميم من قِبل الكفّار الّذين يواجهون ما أنعم اللَّه تعالى على المؤمنين من موقع الحسد والكراهية. وقد وردت فى الأحاديث الشريفة اشارات مكررة إلى هذه المسألة وأنّ الحاسد يفرح من زوال النعمة على المحسود ويغتم لما يصيبه من النعم، ومن ذلك ما ورد فى الحديث الشريف عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: «الْحَاسِدُ يَفْرَحُ بِالشُّرُورِ وَيَغْتَمُّ بِالسُّرُورِ» «۱».

۴- النتائج السلبية للحسد

إن الحسد يتميز بنتائج سلبية كثيرة على المستوى الفردى والاجتماعى والمادى والمعنوى فى حركة حياة الإنسان، بحيث يقلّ نظيره من الصفات الأخلاقية السلبية الّتى تترتب عليها مثل هذه النتائج السلبية والأضرار الكثيرة، وأهمها: الأوّل: إن الحسود يعيش الغم والهم دائماً، وهذا الأمر يتسبب فى أن يبتلى بالأمراض الجسمية والنفسية. فكلّما ينال الطرف الآخر من التوفيق والنعمة أكثر فإنّ الحاسد يتألم لذلك أكثر حتّى قد يناله الأرق الشديد ويسلبه ذلك هدوئه واستقراره وبالتالى تضعف بنيته ويغدو نحيفاً مريضاً، فى حين انه يتمتع بامكانات مادية جيّدة ولو انه أبعد هذه الصفة الرذيلة عن نفسه لأمكنه أن يعيش عيشة طيّبة ومرفّهة. وقد ورد فى الأحاديث الشريفة إشارة إلى هذه النكتة بالذات حيث حذّر الأئمّة المعصومين من هذه الحالة، ومن ذلك ما ورد فى الحديث الشريف عن أميرالمؤمنين عليه السلام قوله «اسْوَءُ النَّاسِ عَيْشاً الْحَسُود» «۲». الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۲۴ ونفس هذا المعنى ورد فى حديث آخر عن هذا الإمام عليه السلام حيث قال: «لَا رَاحَةَ لِحَسُودٍ» «۱». ونجد هذا التعبير أيضاً فى حديث آخر عنه عليه السلام «الْحَسَدُ شَرُّ الْامْرَاض» «۲». وجاء فى تعبير آخر: «الْعَجَبُ لِغفلَةِ الْحُسَّادِ عَنْ سَلَامَةِ الْاجْسَادِ» «۳». ونختم هذا الكلام بحديث آخر عن هذا الإمام رغم وجود أحاديث كثيرة فى هذا الباب حيث قال «الْحَسَدُ لَايَجْلِبُ الّا مَضَرَّةً وَغَيْظاً، يُوهِنُ قَلْبَكَ، وَيَمْرُضُ جِسْمَكَ» «۴». والآخر: أنّ الأضرار المعنوية للحسد أكثر بمراتب من الأضرار المادية والبدنية للإنسان، لأن الحسد يأكل دعائم الإيمان ويمزق علاقة الإنسان مع ربّه بحيث يجعل الإنسان يُسيء الظنّ باللَّه تعالى وحكمته، لأن الحسود فى أعماق قلبه يعترض على اللَّه تعالى على ما وهب للآخرين من نعمه ورزقهم من فضله. ونقرأ فى الحديث المعروف عن أميرالمؤمنين عليه السلام قوله: «لَا تُحَاسِدُوا فَإِنَّ الْحَسَدَ يَأْكُلُ الْايمانَ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ» «۵». ونفس هذا المعنى ورد عن نبى الإسلام صلى الله عليه و آله أيضاً وعن حفيده الإمام الباقر عليه السلام كذلك. وقد أورد المرحوم الكلينى فى الكافى حديثاً آخر عن الإمام الصادق عليه السلام حيث يقول: «آفَةُ الدِّينِ الْحَسَدُ وَالْعُجْبُ وَالْفَخْرُ» «۶». وورد عن هذا الإمام أيضاً قوله «انَّ الْمُؤْمِنَ يَغْبِطُ وَلَا يَحْسُدُ، وَالْمُنَافِقُ يَحْسُدُ وَلَا يَغْبِطُ» «۷» . ويُستفاد جيداً من هذا الحديث أنّ الحسد يتقاطع مع روح الإيمان ويتناغم مع الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۲۵ النفاق فى واقع الإنسان. وقد سبق وإن ذكرنا فى الأبحاث الماضية الحديث القدسى الشريف حيث خاطب اللَّه تعالى نبيه زكريا وقال: «الحاسد عدوّ لنعمتى، متسخّط لقضائى، غير راضٍ لقسمتى الّتى قسمت بين عبادى». الثالث: من الآثار السلبيّة والنتائج المضرة للحسد هو انه يسدلّ على عقل الإنسان وبصيرته حجاباً سميكاً يمنعه من إدراك حقائق الامور ومعرفة الواقعيات، لأن الحسود لا يستطيع أن يرى نقاط القوّة فى المحسود حتّى لو كان استاذاً كبيراً ومصلحاً اجتماعياً جليلًا بل انه يبحث دائماً عن نقاط ضعفه وعيوبه، وأحياناً يرى نقاط قوّته بمنظار نقاط ضعفه ويشاهد ايجابياته من موقع النظر السلبى، ولهذا السبب قال أميرالمؤمنين عليه السلام «الْحَسَدُ حَبْسُ الرُّوحِ» «۱» فإنّ الإنسان يحبس روحه فى حالة الحسد عن إدراك حقائق الامور. الرابع: من أضرار الحسد هو انه يسلب الإنسان اصدقائه ورفاقه، لأن كلّ فرد من الأفراد يتمتع بنعمه أو نعم خاصّة قد لا تكون لدى الآخرين، فلو عاش الإنسان هذه الحالة الرذيلة وهى الحسد بالنسبة إلى ما يراه

من نعمة على الآخرين فانه سيحسد جميع الناس، وهذا الأمر يتسبّب فی أن يبتعد الناس عنه ويعمل على تمزيق روابط المحبة والمودة معهم. والشاهد على هذا الكلام ما ورد عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: «الْحَسُودُ لَاخُلَّةَ لَهُ» «۲». الخامس: من الآثار السيئة للحسد هی انّ الحسد يمنع الإنسان من الوصول إلى المقامات العالية والمراتب السامية فی حركة التكامل الأخلاقی والمعنوی والاجتماعی، بحيث إنّ الشخص الحسود لا يستطيع أبداً أن يحصل على منصب خطير من المناصب والمقامات الاجتماعية، لأنّه بحسده هذا سيعمل على تفريق الآخرين وإبعادهم من حوله، والشخص الّذی تقوی فيه القوّة الدافعة لا ينال مرتبة عالية فی الدائرة الاجتماعية. الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۱۲۶ والشاهد على ذلك هو قول أميرالمؤمنين عليه السلام «الْحَسُودُ لَايَسُودُ» «۱». السادس: هو أنّ الحسد يؤدی إلى تلوث صاحبه بأنواع الذنوب الاخرى، لأن الحسود ولغرض الوصول إلى مقصده وهدفه أی إزالة النعمة عن الآخرين يستخدم كلّ الوسائل ويرتكب أنواع الظلم والعدوان من الغيبة والتهمة والكذب والنميمة وغيرها لتسقيط الطرف الآخر، وبذلك يفتح الحسد له أبواب السلوكيات الخاطئة والتحرّك فی خط الظلم والباطل. وهنا يوجد شاهد آخر على هذا الكلام وهو ما ورد عن أميرالمؤمنين عليه السلام «الْحَسُودُ كَثِيرُ الحَسَرَاتِ، وَمُتَضَاعَفُ السَيِّئَاتِ» «۲». السابع: إن من شقاء الحسود انه يضر بنفسه أكثر ممّا يضر الطرف الآخر لأنّه يعيش حالة من العذاب النفسی والروحی فی حياته الدنيا بغض النظر عمّا يترتب على ذلك من العذاب الأخروی يوم القيامة. وقد أشارت الأحاديث الإسلامية إلى هذه الحقيقة، فعن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «الْحَاسِدُ مُضِرٌّ بِنَفْسِهِ قَبْلَ انْ يَضُرَّ بِالْمَحْسُودِ، كَابْلِيسِ اورِثَ بِحَسَدِهِ بِنَفْسِهِ اللَّعْنَةُ، وَلِآدَمَ الْاجْتِبَاءُ وَالْهُدَی» «۳».

۵- مراتب الحسد:

لقد ذكر علماء الأخلاق للحسد مراتب ومراحل مختلفة، ومن ذلك أنّ الحسد يمرّ بمرحلتين متميّزتين تماماً: ۱- وجود الحسد فی أعماق النفس بحيث يسيطر عليه الإنسان فلا يظهر فی كلماته وأفعاله وسلوكياته. ۲- وجود الحسد فی أعماق النفس بحيث يخرج عن سيطرة الإنسان ويظهر فی أقواله الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۱۲۷ وأفعاله من موقع السعی للانتقام من المحسود وإزالة النعمة الّتی عليه. ويستفاد من بعض الروايات أنّ جميع الناس (أو غالبيتهم) يعيشون الحسد فی نفوسهم، ولكن ما لم يظهر على أقوالهم وأفعالهم فإنه لا يترتب على ذلك إثم ومعصية. ومن ذلك ما ورد عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله قوله: «ثَلَاثٌ لَايَنْجُو مِنْهُنَّ احَدٌ: الظَّنُّ، وَالطِّيَرَةُ، وَالْحَسَدُ، وَسَأُحَدِّثُكُمْ بِالْمَخْرَجِ مِنْ ذَلِكَ، اذَا ظَنَنْتَ فَلَا تُحَقِّق، وَاذَا تَطَيَّرْتَ فَامْضِ، وَاذَا حَسَدْتَ فَلَا تَبْغِ» «۱». وورد فی حديث آخر قوله: «قَلّ مَنْ يَنْجُو مِنْهُنَّ» «۲». ويستفاد من هذا التعبير أنّ هذا الحكم ليس عاماً ولا يشمل الأنبياء والأولياء، لأنهم ما لم يطهر ظاهرهم وباطنهم من الحسد فإنّهم لا يصلوا إلى المقامات السامية ولا يصعدون فی معارج الكمالات المعنوية، ولذلك ورد فی تفسير الحديث الشريف الّذی يقول (إنّ الحسد لا يخلو منه أیّ إنسان حتّی الأنبياء) فقد فُسّر بعنوان (محسود) أیّ انّ الحسّاد يحسدون كلّ شخص حتّی الأنبياء الإلهيين فيحسدونهم على مقامهم العالی ومرتبتهم المعنوية السامية لدی اللّه تعالى. وعلى أيّة حال فلا شكّ فی أنّ صفة الحسد هی من الرذائل الأخلاقية سواءً وصلت إلى مرحلة الظهور والبروز أم لا، والكلام هنا فی انه هل يترتب على الحسد إثم وعقوبة فيما لو لم يصل إلى مرحلة الظهور والبروز أم لا؟ والظاهر انه لا دليل على كون هذه الحالة من الإثم والذنب رغم انها من الصفات الذميمة. ولكن المرحوم النراقی فی (معراج السعادة) يقول: (إذا دفع الحسد صاحبه لأن يرتكب بعض الأفعال والأقوال الذميمة من قبيل الغيبة والشتم للطرف الآخر فإنه يرتكب بذلك إثماً، وكذلك إذا امتنع من إظهار مثل هذه السلوكيات وتجنّب الأفعال الّتی تدلّ على الحسد ولكنه كان طالباً فی باطنه زوال نعمة المحسود وراغباً فی ذلك ولم يشعر بالامتعاظ من الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۱۲۸ وجود هذه الحالة فی نفسه ولم يغضب عليها فإنه مذنبٌ أيضاً) «۱». ولكن الظاهر انه لا دليل على حرمة القسم الثانی من حالات الحسد هذه. وعليه فإنّ مرحلة عدم الظهور والبروز بدورها لها حالتين: الاولى الحالة الّتی لا يشعر الشخص فيها بالتأثر والانزعاج من وجود هذه الحالة فی نفسه ولا يسعى لرفعها بل ينسجم معها أيضاً، والثانية: أن لا يكون كذلك. ولا يبعدُ أن يأثم

الشخص فی الحالة الاولی رغم عدم وجود الدلیل القاطع علی ذلک.

۶- علاج الحسد:

رأینا فی الأبحاث السابقة أنّ (الحسد) عبارة عن مرض أخلاقی خطیر بحیث انه لو لم یتحرّک الإنسان لعلاجه فإنه سیتلف ویدمّر دینه ودنیاه. وعلاج هذا المرض الأخلاقی کسائر علاج الصفات الرذیلة الاخری یقوم علی دعامتین: ۱- الطریق العلمی. ۲- الطریق العملی. امّا بالنسبة إلی الطریق (العلمی) فینبغی للشخص الحسود أن یتأمل جیداً فی أمرین: أحدهما النتائج السلبیّة والعواقب الضارة للحسد علی المستوی الروحی والبدنی، والآخر یتأمل فی جذور ودوافع حصول هذه الحالة فی النفس. إن علی الحاسد أن یری نفسه کالشخص المعتاد علی المخدرات والمدمن علی الهیروئین، فعلیه أن یتدبر فی أمر هؤلاء المدمنین وکیف أنّهم فقدوا سلامتهم البدنیة والنفسیة وفقدوا حیثیّتهم الاجتماعیة واسرتهم وابناءهم، وکیف أنّهم یعیشون فی أسوء الحالات النفسیة ویموتون فی سن الشباب ولا یحزن علیهم أیّ شخص لموتهم بل إنّ موتهم یتسبب فی سعادة أسرتهم واصدقائهم، فکذلک یجب علی الحسود أن یعلم انّ هذا الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۱۲۹ المرض الأخلاقی سوف یعمل علی إهلاکه، فیأکل معنویاته ویُحرق نقاط قوته وصفاته الایجابیة ویسلب منه راحته ونومه ویهیمن بسحابة من الحزن علی قلبه وروحه، بل سیؤدی به إلی ما هو اشنع من ذلک حیث یکون طرید رحمة اللَّه ویکون مصیره مصیر إبلیس وقابیل، وبالتالی مع کلّ ذلک فسوف لن یصل إلی هدفه ومقصوده وهو زوال النعمة عن المحسود. ولاشکّ أنّ التفکّر بهذه الآثار والعواقب السلبیّة ومشاهدة الحوادث ذات العبرة وقراءة الأحادیث الشریفة فی هذا الباب، والّتی مرّت الإشارة إلیها آنفاً، سیکون له تأثیر ایجابی کبیر فی علاج هذا المرض الأخلاقی. إن (الحسود) یجب أن یعلم أنّه إذا کانت المواد المخدرة کالهیروئین تهدد سلامة الروح والجسم للشخص وتُسرع فی أجله، فهو أیضاً یمرّ فی هذه الحالة الذمیمة ویورثه الحسد الأمراض الجسمیة والنفسیة ویخسر بذلک دنیاه وآخرته، لانه یعترض عملًا علی حکمة اللَّه تعالی، وبذلک یسقط فی وادی الشرک والکفر، هذا من جهة. ومن جهة اخری علیه أن یتفکر فی بواعث الحسد وجذوره ویسعی إلی قطعها وإزالتها، فلو کان من ذلک اختلاطه ومجالسته مع رفاق السوء وتأثّره بوساوسهم، فعلیه أن یقطع الإرتباط معهم، وإذا کان الباعث لذلک حالة البخل وضیق النظر فعلیه أن یسعی لعلاج هذه الحالة فی نفسه، وإذا کان السبب هو ضعف الإیمان باللَّه وعدم معرفته بالتوحید الأفعالی فعلیه أن یتحرّک من موقع تقویة مبانی الإیمان وتعمیق أُسس التوحید فی قلبه، وإذا کان الباعث لذلک انه یعیش الجهل بطاقاته وامکاناته الذاتیة وبالتالی فإنه یعیش عقدة الحقارة والدونیّة الّتی من شأنها أن تفضی به إلی الحسد فعلیه أن یسعی لعلاج ذلک فی ظلّ التوکل علی اللَّه تعالی والاعتماد علی النفس والقضاء علی عقدة الحقارة هذه، وبذلک سیتحرّک بعیداً عن حالة الحسد تجاه الآخرین. والأفضل أن یسجّل الحسود خلاصة هذه الامور علی صفحة أو صفحات ویحاول قراءتها کلّ یوم مرّة واحدة، بل یقرأها بصوت عالٍ عبارةً عبارة ویتفکّر فی کلّ عبارة منها الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۱۳۰ ویمعن النظر خاصّة فی الروایات الشریفة الواردة عن المعصومین علیهم السلام فی هذا الباب والّتی سبقت الإشارة إلی جملة منها، ولا شکّ أنّ کلّ إنسان یعیش حالة الحسد فی نفسه إذا تابع هذا السلوک والبرنامج بشکل جدّی فإنه سیری آثاره الإیجابیة فی مدّة قصیرة، وستتخلص روحه وجسمه من شر الحسد تدریجیاً، وتنفتح أمامه افق السلامة والسعادة فی حرکة الحیاة والواقع. وینبغی علی الحسود خاصّة التفکیر فی هذه النقطة بالذات، وهی أنّه لو صرف وقته وطاقاته الّتی یهدرها بالحسد فی ترمیم شخصیته وتقویة بُنیته النفسیة والاهتمام بموفقّیته وتکامله فإنه من المحتمل جدّاً أن یتساوی أو یتفوق علی المحسود وینال بذلک الراحة والرضا. وبتعبیر آخر: یجب علیه أن یستبدل دوافع الحسد بدوافع الغبطة ویعمل علی تبدیل القوی المخربة إلی قوی بنّاءة فی حرکة الذات والشخصیة. وقد ورد هذا المضمون فی الحدیث الشریف عن أمیرالمؤمنین علیه السلام حیث قال: «احْتَرِسُوا مِنْ سُورَةِ البُخْلِ وَالْحِقْدِ وَالْغَضَبِ وَالْحَسَدِ وَاعِدُّوا لِکُلِّ شَیْءٍ مِنْ ذَلِکَ عِدَّةً تُجَاهِدُونَ بِهَا مِنَ الْفِکْرِ فِی الْعَاقِبَةِ وَمَنْعِ الرَّذِیلَةِ وَطَلَبِ الْفَضِیلَةِ» «۱». أمّا من الناحیة (العملیة) فتعلم أنّ تکرار العمل المعیّن یؤدی تدریجیاً إلی صیرورته عادة فی

النفس، والاستمرار على العادة يبدّلها إلى ملكة وصفة باطنية، فلو أنّ الحسود وبدلًا من سعيه إلى تسقيط اعتبار وشخصية الغير تحرّك على مستوى تقوية شخصيته هو، وبدلًا من التحدّث بالغيبة وذم الطرف الآخر يسعى إلى ذكر صفاته الإيجابية ومدحه أمام الآخرين، وبدلًا من السعي في تخريب حياة الطرف الآخر المادية يسعى إلى بذل المعونة والمساعدة له ويذكره بالخير ما أمكنه ذلك، أو يتحرّك من موقع المحبة والمودة تجاه ذلك الشخص ويريد له الخير والسعادة ويدعو له بالموفقية ويوصي الآخرين بذلك أيضاً، فمن المعلوم أنّ تكرار مثل هذه الأعمال والسلوكيات بإمكانه إزالة آثار الحسد من واقع النفس الاخلاق في القرآن، ج۲، ص: ۱۳۱ والروح وتثبيت النقطه المقابلة لها وهي حالة (حبّ الخير للآخرين) فيعيش الإنسان في أجواء النور والصفاء والمعنويات الإنسانية. علماء الأخلاق يوصون الشخص الجبان بأن يتحرّك لإزالة هذه الرذيلة الأخلاقية من نفسه من موقع التواجد في ميدان الخطر ليكتسب بذلك حالة الشجاعة ويحمّل نفسه هذه الصفه الإيجابية حتّى ترتفع من نفسه حالة الخوف والجُبن وتكون الشجاعة بصفة عادة وحالة في نفسه وبالتالي تكون ملكة. فكذلك الحسود يجب عليه الاستفادة لعلاج هذه الحالة من ضدّها، فكلّ حالة معينة تُعالَج بضدّها. وقد ورد في الحديث الشريف عن النبي الأكرم صلى الله عليه و آله قوله «اذَا حَسَدْتَ فَلَا تَبْغِ» «۱». وفي حديث آخر عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: «انَّ الْمُؤْمِنَ لَايَسْتَعْمِلُ حَسَدَهُ» «۲». ومن جملة الامور المؤثرة كثيراً في علاج الحسد هو أن يرضى العبد برضى اللّه تعالى ويسلّم لمشيئته ويقنع من حياته بما أنعم اللّه عليه، فقد ورد في الحديث الشريف عن أميرالمؤمنين عليه السلام قوله «مَنْ رَضِيَ بِحَالِهِ لَمْ يَعْتَوِرَهُ الْحَسَد» «۳».

۷- النُصح وحبّ الخير للآخرين

النقطة المقابلة للحسد هي (النصح وحبّ الخير للآخرين) بمعنى أنّ الإنسان ليس فقط لا يحبّ زوال النعمة من الآخر بل يطلب بقائها وزيادته عليه وعلى جميع الناس الأخيار والصالحين، أو بتعبير آخر: إنّ ما يحبّه لنفسه ويطلبه لذاته من السعادة والخير المعنوي والمادي يريده ويحبّه للآخرين، وهذه الصفة والحالة النفسية تعد من الفضائل الأخلاقية الاخلاق في القرآن، ج۲، ص: ۱۳۲ المعروفة والّتي وردت الإشارة إليها في الآيات القرآنية والروايات الإسلامية. إنّ الأنبياء كانوا ناصحين مشفقين على أقوامهم وكانوا يحبّون الخير لهم، وهذه الحالة تعتبر من صفاتهم البارزة كما يقول القرآن الكريم على لسان (نوح) شيخ الأنبياء: «ابَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَانْصَحُ لَكُمْ وَاعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَاتَعْلَمُونَ» «۱». فهنا نرى انه بعد مسألة إبلاغ الرسالة تتحدّث الآية الكريمة عن النُصح وحبّ الخير للُامّة وهي النقطة المقابلة للحسد والبخل والخيانة. ونفس هذا المعنى مع تفاوت يسير ورد عن النبي هود عليه السلام حيث يقول: «أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ» «۲». وهذا المعنى ورد أيضاً عن النبي صالح (الأعراف الآية ۷۹) والنبي شعيب (الأعراف الآية ۹۳). ومن البديهي أنّ حبّ الخير للآخرين لا ينحصر بهؤلاء الأنبياء الأربعة، بل يشمل جميع الأنبياء الإلهيين والأولياء المعصومين الّذين كانوا يتّصفون بهذه الصفة الإيجابية، وكذلك يجب على أتباعهم أيضاً أن يكونوا من محبي الخير للآخرين ويطهرون أنفسهم من الحسد والبخل. وفي حديث شريف عميق المضمون ورد عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله أنّه قال عن رجل من الأنصار انه من أهل الجنّة، وعندما تحقّقوا في سيرته وعمله فلم يروا انه كان كثير العبادة مثلًا، بل كان حينما يأخذ مضجعه في منامه يذكر اللّه تعالى ثمّ ينام حتّى صلاة الصبح، فأثار فيهم حاله هذا التساؤل والاستغراب، فسألوا منه عن السبب في أنّه صار من أهل الجنّة فقال «مَاهُوَ الّا مَا تَرَوْنَ غَيْرَ انِّي لَااجِدُ عَلَى أَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي نَفْسِي غِشّاً وَلَا حَسَداً عَلَى خَيْرٍ اعْطَاهُ اللَّهُ ايَّاهُ» «۳». الاخلاق في القرآن، ج۲، ص: ۱۳۳ وفي حديث آخر عن النبي الأكرم صلى الله عليه و آله أنّه قال: «انَّ اعْظَمَ النَّاسِ مَنْزِلَةً عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ امْشَاهُمْ فِي ارْضِهِ بِالنَّصِيحَةِ لِخَلْقِهِ» «۱». وفي رواية اخرى وردت عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله أيضاً ذكر فيها المعيار لحبّ الخير للناس وأنّه أن يرى منافع الآخرين كمنافع نفسه ويدافع عنها كما يدافع عن منافعه حيث قال «لَيَنْصَحُ الرَّجُلُ مِنْكُمْ اخَاهُ كَنَصِيحَتِهِ لِنَفْسِهِ» «۲». ويقول الراغب في كتابه (مفردات القرآن): النصح، تحرّي فعل أو قول فيه صلاح صاحبه، وهو من قولهم نصحت له الودّ، أي أخلصته، وناصح العسل أي

خالصه أو من قولهم: نصحت الجلد خطته، والناصح يقال للخياط. (لأنّه يصلح القماش ويخيطه) وبما أنّ الشخص الخيّر يسعى إلى اصلاح عمل الآخرين من موقع الاخلاص والخلوص استعملت فی حقّه هذه المفردة، وأساساً فإنّ كلّ شیء خالص من الشوائب سواءاً فی الامور المادية أو المعنوية، فی الكلام أو العمل، يقال له: ناصح. وعلى هذا الأساس فعندما يرد بحث النصيحة فی أجواء البحوث الأخلاقية فإنّ المقصود منه ترك أیّ شكل من أشكال الحسد والحقد والبخل والخيانة. الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۱۳۴

الغرور والعُجُب

تنويه:

إن أحد الرذائل الأخلاقية المشهورة ليس عند علماء الأخلاق فحسب بل عند سائر أفراد الناس هی (الغرور)، وهذه الصفة الرذيلة تتسبّب فی انفصام الشخصية والجهل بالنسبة إلى الذات والآخرين والغفلة عن مكانته الفردية والإجتماعية والتخبّط فی دوّامة الجهل والعجب وعدم الإطلاع على حقائق الامور. إنّ الغرور يفضی بالإنسان أن يبتعد عن اللّه تعالى ويسير فی خطّ الشيطان، ويقلب الواقعيات فی نظره، وهذا الأمر يتسبب فی اضرار كثيرة على المستوى المادی والمعنوی للإنسان. الشخص المغرور يعيش فی المجتمع مكروهاً من الآخرين حيث يتعامل معهم من موقع التوقعات الكثيرة الّتی تُفضی به إلى الإنزواء والعزلة الإجتماعية. والغرور يُعتبر من الدوافع والمصادر لصفات رذيلة اخرى من قبيل التكبّر والانانية والعُجب والحقد والحسد بالنسبة إلى الآخرين والتعامل معهم من موقع التحقير والإزدراء. ونعلم أنّ أحد العوامل الأصلية لطرد الشيطان الرجيم من مرتبة القرب الإلهی هو (الغرور) الّذی كان يعيشه الشيطان، وأحد الأسباب فی عدم انقياد الكثير من الأقوام السالفة الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۱۳۶ لدعوات الأنبياء السماوية وجود هذه الصفة الذميمة فی واقعهم وأنفسهم. إن الفراعنة والنماردة ابتعدوا عن اللّه تعالى بسبب غرورهم وبالتالی أصبح مصيرهم الأسود عِبرة للبشرية. (الغرور) أحياناً يتجلّى فی فرد معين، واخرى فی قوم ومجتمع أو عِرقٍ بشری، ولا شكّ أنّ القِسم الثانی اخطر على واقع الإنسان والمجتمع لأنّه قد يدمّر بلد كامل أو يُحرق العالم بناره، كما حصل فی الحرب العالمية الاولى والثانية حيث كان الغرور والتعصّب العِرقی للألمان على الأقل أحد العوامل المهمّة لنشوب هذين الحربين وبهذه الإشارة نستعرض أوّلًا تفسير مفردة (الغرور) ومفهومها فی منابع اللغة وكتب علماء الأخلاق، ثمّ نعود إلى الآيات والروايات الشريفة لإستجلاء أسباب الغرور وآثاره وافرازاته وطرق علاجه والوقاية منه.

۱- مفهوم الغرور

إن هذه المفردة وردت بشكل واسع فی كلمات العرب ولاسيّما فی الآيات القرآنية الكريمة والروايات الإسلامية. يقول الراغب فی مفرداته عن هذه الكلمة: فالغرور (بفتح الغين ليتضمن معنىً وصفياً) كلّ ما يغرّ الإنسان من مال وجاه وشهوة وشيطان، وقد فسّر بالشيطان إذ هو أخبث الغارّين. وفی (صحاح اللغة) عن كلمة (غُرور) انها بمعنى الامور الّتی تجعل الإنسان غافلًا (سواءاً المال والثروة أو الجاه والمقام أو العلم والمعرفة). ويقول بعض أرباب اللغة كما يذكر الطريحی فی (مجمع البحرين): إن الغُرور هو ما كان جذاباً وجميلًا فی ظاهره ولكنه مظلم ومجهول فی باطنه. وجاء فی كتاب (التحقيق فی كلمات القرآن الكريم) بعد نقل كلمات أرباب اللغة: أنّ الجذر الأصلی لهذه المفردة هی بمعنى اصول الغفلة بسبب التأثر بشیء آخر لدى الإنسان ومن لوازمها وآثارها الجهل والغفلة والنقصان والإنخداع و ... الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۱۳۷ وجاء فی (المحجّة البيضاء فی تهذيب الأحياء) الّذی يُعتبر من أفضل كتب الأخلاق وعبارة عن تهذيب لكتاب (إحياء العلوم) للغزالی: «فالغرور هو سكون النفس إلى ما يوافق الهوى ويميل إليه الطبع عن شبهة فاسدة فهو مغرور، وأكثر الناس يظنون بأنفسهم الخير وهم مخطئون فيه، فأكثر الناس إذاً مغرورون وإن اختلفت أصناف غرورهم

واختلفت درجاتهم» «۱». وجاء فى (التفسير الأمثل) فى معنى هذه المفردة أنّ (غَرور) على وزن (جسور)، صيغة مبالغة بمعنى الموجود الشديد الخُداع والحيلة والمكر ولذلك سُمّى الشيطان ب (غَرور) حيث يوسوس للإنسان ويخدعه ويستغفله، وفى الحقيقة هو من قبيل بيان المصداق الواضح، وإلّا فإنّ كلّ إنسان أو كتاب يمكن أن يقع فى مقام الوسوسة وكلّ موجود إذا عمل على إضلال الإنسان فإنه يدخل فى مصاديق كلمة (غَرور).

الغَرور فى القرآن الكريم:

لقد وردت هذه المفردة فى القرآن الكريم مرّات عديدة، وكذلك ورد مضمونها فى آيات اخرى أيضاً: ۱- «قَالَ أَنَا خَيْرٌ مّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ» «۲». ۲- «فَقَالَ ا لْمَلَأُ ا لَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ مَانَرِيكَ إِلَّا بَشَرًا مّثْلَنَا وَمَا نَرِيكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ الرَّأْىِ وَمَانَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ .... قَالُواْ يَانُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَا لَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِنْ كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ» «۳». ۳- «قَالُواْ يَاشُعَيْبُ مَانَفْقَهُ كَثِيرًا مّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَلكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۳۸ لَرَجَمْنَاكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ» «۱». ۴- «وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِ قَالَ يَاقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَـذِهِ ا لْأَنْهَارُ تَجْرِى مِن تَحْتِى أَفَلَا تُبْصِرُونَ* أَمْ أَنَاْ خَيْرٌ مِنْ هَـذَا الَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ» «۲». ۵- «ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّاكَانُواْ يَفْتَرُونَ» «۳». ۶- «فَعَقَرُواْ النَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبّهِمْ وَقَالُواْ يَاصَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِنْ كُنتَ مِنَ ا لْمُرْسَلِينَ» «۴». ۷- «يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُواْ بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ا لْأَمَانِىُّ حَتَّى جَآءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ ا لْغَرُورُ» «۵». ۸- «هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَاتُنفِقُواْ عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنفَضُّواْ وَلِلَّهِ خَزَآئنُ السَّمَاوَا تِ وَا لْأَرْضِ وَلَكِنَّ ا لْمُنَافِقِينَ لَايَفْقَهُونَ* يَقُولُونَ لَئن رَّجَعْنَآ إِلَى ا لْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ا لْأَعَزُّ مِنْهَا ا لْأَذَلَّ وَلِلَّهِ ا لْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ ا لْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ» «۶». ۹- «فَأَمَّا ا لْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَيهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبّى أَكْرَمَنِ» «۷». ۱۰- «أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ* سَيُهْزَمُ ا لْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ». «۸» ۱۱- «وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ا لْحَيَاةُ الدُّنْيَا ...» «۹». الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۳۹ ۱۲- «يأَيُّهَا النَّاسُ .... إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ» «۱».

تفسير واستنتاج:

إن أوّل شرارة للغرور كما أشرنا إلى ذلك سابقاً كانت فى بداية خلق الإنسان وتجلّت فى إبليس كما تتحدّث عن هذه الواقعة «الآية الاولى» من الآيات مورد البحث عندما سَأل اللّه تعالى إبليس عن السبب فى امتناعه عن السجود لآدم «قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ اذْ امَرْتُكَ ...» «۲». قال الشيطان الّذى تملّكه الغرور والعُجب «قَالَ أَنَا خَيْرٌ مّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ» «۳». أجل فإنّ حجاب الغرور والعجب قد أسدل على عين بصيرته حجاباً سميكاً إلى درجة أنّه لم يسوّغ له سلوك طريق السعادة وامتثال الأمر الإلهى الصريح، فسقط فى هُوَّة العصيان والتمرد وأصبح مطروداً وملعوناً إلى الأبد، وعلى هذا يمكن القول انه كما أنّ قائد المستكبرين فى العالم هو إبليس، فكذلك قائد المغرورين فى العالم إبليس أيضاً، وهذان المفهومان أىّ الغرور والإستكبار بمثابة اللازم والملزوم. إن إبليس وبسبب الغرور والإستكبار لم يستطع أن يرى حقيقة كرامة التراب على النار وأفضلية التوبة على العناد والإصرار على الذنب، فكان من ذلك أن سلك فى خط الضلال والتيه وبقى كذلك إلى الأبد. «الآية الثانية» تتحدّث عن قصة نوح أىْ أوّل أنبياء اولو العزم وتوضح جيداً أنّ أحد العوامل المهمّة فى عناد قومه ووقوفهم ضد دعوته وارشاداته المخلصة من موقع الغرور هو الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۴۰ هذه الصفة الرذيلة (الغرور) حيث تقول الآية «فَقَالَ ا لْمَلَأُ ا لَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ مَانَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ الرَّأْىِ وَمَانَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ» «۱». وبعد عدّة آيات يستعرض القرآن الكريم حالة الغرور والعُجب أكثر لدى هؤلاء الضالين حيث قالوا لنوح بصراحة «قَالُواْ يَانُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَا لَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِنْ كُنتَ مِنَ

الصَّادِقِينَ» «۲». عادّة يتخذ الإنسان طريقاً يُبعده عن الأضرار المحتملة بحكم العقل ويتجنب عن سلوك الطريق الّذى يُحتمل أن يواجه الخطر فيه، ولكن هؤلاء القوم المغرورين وبالرغم من مشاهدتهم لآثار حقّانية دعوة هذا النبى الكريم من خلال معجزاته ووجود احتمال نزول العذاب الإلهى فإنّهم لم يكتفوا بعدم الإهتمام والإعتناء بدعوته بل تحرّكوا مع دعوة نوح من موقع طلبهم لنزول العذاب الإلهى. أجل فإنّ ذلك الغرور الّذى صار حجاباً على بصيرة الشيطان قد أصبح حجاباً لقوم نوح عن رؤية الحقيقة، وبالتالى ذاقوا العذاب الإلهى الشديد وهلكوا عن آخرهم، وهذا هو مصير المغرورين على طول التاريخ. وتأتى «الآية الثالثة» لتتحدّث عن قوم شعيب الّذين جاءوا بعد قوم نوح وتورطوا فى الغرور والعُجب أيضاً فكان مصيرهم هو نفس ذلك المصير المؤلم حيث تقول الآية «قَالُواْ يَاشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ» «۳». هؤلاء فى الحقيقة لن يجدوا جواباً منطقياً أمام البراهين العقلية والدعوة السماوية الحكيمة والمعجزات الإلهية الّتى جاء بها شعيب، ولكنّ غرورهم وأنفتهم لم تبح لهم الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۴۱ الإستسلام أمام دعوة الحقّ وبالتالى غشيهم العذاب الإلهى وأصابتهم الصاعقة السماوية والصيحة المهولة، فدمّرت كلّ ما لديهم فى طرفة عين، ولم تبق لهم سوى أجساد متمزقة وآثار خاوية. «الآية الرابعة» ناظرة إلى قصة فرعون وتستعرض بُعداً آخر من أبعاد هذه الصفة الرذيلة، وتشير إلى أنّ الغرور والعُجب قد يمتد إلى باطن الإنسان ويستولى على عقله وروحه بحيث انه ليس فقط لا يهتم بالأدلة الواضحة على نبوة موسى عليه السلام بل يواجهها بكلمات طفولية تنطلق من موقع العناد والغرور حيث تقول الآية «وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِ قَالَ يَاقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَـذِهِ ا لْأَنْهَارُ تَجْرِى مِن تَحْتِى أَفَلَا تُبْصِرُونَ* أَمْ أَنَاْ خَيْرٌ مِنْ هَـذَا الَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ» «۱». ثمّ تمادى فرعون فى مواجهته لموسى وتمسّك بكلمات واهية وغير منطقية من قبيل أنّ موسى إذا كان صادقاً فلماذا لا يلبس الأسورة من الذهب؟ ولماذا لم تنزل الملائكة معه؟ وهكذا نجد أنّ الأشخاص المغرورين كالفراعنة والنمرودیین وبسبب إهمالهم لدعوة الحقّ وغرورهم لا يدركون جيداً ماذا يقولون ولا يهتمون لذلك حيث نجد كثيراً أنّ مثل هؤلاء يتكلمون بكلمات سخيفة بحيث يسخر منها حتّى المقربون منهم فى أنفسهم، ومن المعلوم أنّ هذه الحالة تتسبّب فى غلق جميع نوافذ المعرفة الإلهية أمام الإنسان، وايصاد جميع الطرق لسلوك سبيل الكمال المعنوى والتعالى الأخلاقى. واللطيف أنّ موسى الّذى كان يشكو من لُكنة فى لسانه تتعلق بمرحلة الطفولة ولكنه عندما بُعث إلى النبوة وطلب من اللّه تعالى أن يحلُل عقدةً من لسانه فإنّ اللّه تعالى استجاب له ذلك ولكنّ فرعون لم يهتم لهذه الظاهرة العجيبة وبقى مصراً على وضعه السابق حيث أشار فى كلامه إلى تلك اللكنة الّتى كانت لدى موسى فى الصِغر. «الآية الخامسة» تشير إلى اليهود الّذين كانوا يرون فى أنفسهم حالة من التشخّص الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۴۲ والغرور والعُجب بتصورهم مميزات مختصة بهم تجعلهم يتفوقون ويمتازون على غيرهم من أفراد البشر، وهذا التفكير الخاطىء هو السبب فى ضلالهم وطغيانهم حيث تقول الآية «ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَا تٍ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ» «۱». أى أنّ اللّه إذا أراد أن يعذبنا فإنّ عذابه سيكون خفيفاً ولأيّام معدودة وذلك بسبب اننا قوم ممتازون. إن تاريخ بنى إسرائيل يشير إلى انّ هؤلاء القوم كانوا أكثر الأقوام والشعوب طغياناً وذنوباً، وأحد العوامل والأسباب المهمة فى سلوكهم الخاطىء هذا هو الغرور والعُجب لديهم. ومع الأسف إننا نجد أنّ طائفة منهم باسم (الصهاينة) يرتكبون كلّ يوم جرائم بشعة ضدّ الشعوب البشرية بسبب ما دخلهم من الغرور الكبير بعرقهم وامتيازاتهم الزائفة، وفى ذلك شوّهوا تاريخهم السيّء أكثر من السابق. هؤلاء يريدون كلّ شىء لهم ولا يرون للآخرين الحقّ فى أىّ شىء، فهم يرون أنّهم قوم متميزون على سائر البشر وينظرون إلى الآخرين نظر الاحتقار والدونية. «الآية السادسة» ناظرة إلى قوم صالح، الّذين قد أسكرهم الغرور إلى درجة أنّهم طلبوا من نبيّهم نزول العذاب الإلهى عليهم، بالرغم من رؤيتهم المعجزات الإلهية على يد نبيّهم صالح فتقول الآية «فَعَقَرُواْ النَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَاصَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِنْ كُنتَ مِنَ ا لْمُرْسَلِينَ» «۲». ويتابع القرآن الكريم ما حدث لهؤلاء القوم الظالمين ويتحدّث عن مصيرهم المأساوى ويقول: «فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين» وهكذا كانت عاقبة القوم المغرورين. الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۴۳ «الآية السابعة» تتحدّث عن أهل النار الّذين يعيشون العذاب والظلمة الشديدة يوم القيامة فى حين يعيش المؤمنون بنور الإيمان

ويردون عرصات المحشر مسرعين، فيناديهم هؤلاء المنافقون وأهل النار: «يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُواْ بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ا لْأَمَانِيُّ حَتَّى جَآءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ ا لْغَرُورُ» «۱». ثمّ تقول الآية الّتى بعدها بصراحة انه يُقال لهم «فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الّذين كفروا مأواكم النار هى مولاكم وبئس المصير». وهنا يتجلّى بصورة واضحة أنّ أحد الصفات البارزة لهؤلاء المنافقين من أهل النار هى الغرور والإبتلاء بحبال الأمانى الطويلة والتوهمات الزائفة فى حركة الحياة الدنيوية. وكما ذكرنا فى بداية البحث أنّ كلمة (غَرور) تتضمن معنى الخداع والمكر، ولكن أحياناً يخدع الإنسان نفسه أيضاً ويكون مغروراً بذلك، وأحياناً اخرى ينخدع بوساوس الشيطان أو الأفراد الّذين يعيشون حالة الشيطنة والمكر. «الآية الثامنة» تتحدّث عن المنافقين المغرورين فى هذه الدنيا وكيف أنّهم ينظرون إلى فقراء المؤمنين الحقيقيين من موقع الحقارة والإزدراء ويتظاهرون أمامهم بالثروة والمال حيث تقول الآية متحدّثة عنهم وعن حالة الغرور المسيطرة عليهم «هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنفَضُّواْ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ السَّمَاوَا تِ وَا لْأَرْضِ وَلَكِنَّ ا لْمُنَافِقِينَ لَايَفْقَهُونَ» «۲». ثمّ يصل بهم الغرور إلى ذروته بحيث يصرّحون بأنه إذا رجعنا من ميدان الحرب إلى المدينة فسوف نُثبت لهؤلاء الفقراء والمعدمين مَن نحنُ «يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ا لْمَدِينَةِ الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۴۴ لَيُخْرِجَنَّ ا لْأَعَزُّ مِنْهَا ا لْأَذَلَّ وَلِلَّهِ ا لْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ ا لْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ» «۱». إذا لم يكن المنافقون يعيشون حالة (الغرور) فلا داعى لأن يتبجّحوا بثروتهم وأموالهم أمام المؤمنين وينظروا إليهم نظر الاحتقار والإزدراء وبالتالى ينزلقون فى وادى الكفر والنفاق والضلال. «الآية التاسعة» تتحدّث عن طبيعة الإنسان، أو بعبارة اخرى: طبيعة الإنسان الّذى لم يتكامل فى مدارج الكمال الأخلاقى بل بقى فى حالة عدم النُضج النفسى والروحى، فمثل هذا الإنسان عندما يجد اللّه قد أنعم عليه نعمة فإنه يتملكه الغرور والطغيان بسبب ضيق افقه وتفكيره فتقول الآية «فَأَمَّا ا لْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَيهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبّى أَكْرَمَنِ» «۲». إذا كان هذا الكلام صادراً من موقع الشكر والثناء للّه‌تعالى فإنه يدلّ على التواضع قطعاً ويدفع الإنسان بالتالى إلى مساعدة الأيتام والمساكين، ولكن كما هو الظاهر من جوّ الآيات أنّ هذا الإنسان بعد ذلك يتحدّث من موقع الغرور والعجب، وبهذا فإنّ هذا الكلام ليس فقط لا يترتب عليه أثراً إيجابياً ومطلوباً بل سيكون مصدراً لطغيانه وتكبره على الحقّ. «الآية العاشرة» تتحدّث عن المشركين الأنانيين والمغرورين فى مكّة وتقول «أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ» «۳». ولكن اللّه تعالى بعد ذلك يحذر هؤلاء المغرورين وينذرهم بالعذاب القريب ويقول «سَيُهْزَمُ ا لْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ» «۴». وفى جميع هذه الموارد نلاحظ جيداً أنّ الغرور يمثل عاملًا مهماً فى تورط الإنسان فى الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۴۵ دوّامة الذنوب والشقاء والتعاسة، والقرآن الكريم يُخبرنا بخبر إعجازى عن إنهزام هؤلاء المغرورين وسرعان ما تلحق بهم الهزيمة والدمار ويكونون عبرة للآخرين. «الآية الحادى عشر» تتحدّث عن المشركين الّذين اتخذوا الدين السماوى لعباً ولهواً بسبب الغرور الّذى أصابهم والّذى ادّى بهم إلى الكفر والعناد مع الحقّ فتقول الآية «وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ا لْحَيَاةُ الدُّنْيَا ...» «۱». ولعلّ هذا التعبير يشير إلى أنّ هؤلاء لا يقبلون الهداية وغير جديرين بها، لأن الغرور قد اسكرهم إلى درجة أنّهم خُدعوا بزخارف الدنيا وبريقها المادى، فهم لا يجدون فى أنفسهم استعداداً للتسليم والإذعان للحقّ ولا يواجهون الحقّ إلّاعلى مستوى السخرية والاستهزاء، وهذا يعنى عمق الفاجعة الّتى تورطوا فيها بسبب غرورهم وعُجبهم. وعبارة (دينهم) هى إشارة إلى فطرية الدين الإلهى حيث يشترك فيه جميع أفراد البشر حتّى المشركين، أو هو إشارة إلى الأشخاص الّذين اتخذوا دينهم الوثنى سخرية بسبب الغرور، فلا يجدون فى أنفسهم إلتزاماً بأحكام الوثنية ولا يتحركون مع الأوثان من موقع الانضباط والإلتزام، أو إشارة إلى الدين الإسلامى الّذى أنزله اللّه تعالى من أجلهم ولمصلحتهم. «الآية الثانية عشر» تتحرّك من موقع التحذير لجميع الناس بأن لا ينخدعوا بالحياة الدنيا وبزخارفها ولا يغتروا بجمالها المادى ولا يقعوا فى مصائد الشيطان وتقول «يأَيُّهَا النَّاسُ .... إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ» «۲». واللطيف أنّ هذه الآية ذكرت من أسباب الغرور سببين: أحدهما زخارف الدنيا، والثانى الشيطان، وهذا التعبير يدلّ على أنّ الإنسان أحياناً يغتر بالأوهام وبالتصورات الواهية بدون الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۴۶ أن يحظى بشىء من الحياة المادية المرفهة ويتصور لنفسه مقاماً ومنزلة غير واقعية، وبذلك يطغى أمام الحقّ ويواجه اللّه والدين من موقع الطغيان والتكبر

ویقع فی شراک الشیطان، وصحیح أنّ زخارف الدنیا وجمالها وبریقها هو أحد مصائد الشیطان، ولکن أحیاناً یکون الخیال والتصوّرات الذهنیة نافذة یعبر منها الشیطان ویستقر فی فکره ویوسوس له ما یغتر به.

النتیجة النهائیة:

اشارة

ومن مجموع ما تقدّم من الآیات الکریمة وتفسیرها تتبیّن لنا هذه الحقیقة، وهی أنّ مسألة الغرور والعُجب والأنفة کانت من العوامل الأصلیة للفساد والإنحراف والکفر والنفاق منذ أن وضع آدم قدمه علی هذه الکرة الأرضیه وحتّی فی جمیع أدوار التاریخ البشری وعصور الأنبیاء والأقوام السالفة وإلی هذا الیوم، وقراءة هذه الشواهد ومطالعة هذه الآیات یشیر إلی أیّة درجة کانت هذه الصفة الرذیلة مصدر شقاء طائفه عظیمة من الشعوب والمجتمعات البشریة، ولو لم یکن دلیلًا علی قبح هذه الرذیلة الأخلاقیة سوی هذه الآیات لکفی ذلک.

۱- الغرور فی الروایات الإسلامیة

إنّ الموقف السلبی والشدید من الغرور فی الروایات الإسلامیة ینعکس فی أبواب کثیرة وطوائف متعددة من الروایات: ۱- ففی حدیث عن الإمام أمیرالمؤمنین علیه السلام یقول: «سُکْرُ الْغَفْلَةِ وَالْغُرُورِ ابْعَدُ افَاقَةً مِنْ سُکْرِ الْخَمُورِ» «۱». ۲- وفی حدیث آخر عن هذا الإمام أنّه قال: «جِمَاعُ الشَّرِّ فِی الْاغرَارِ بِالْمَهَلِ وَالْاتِّکَالِ الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۱۴۷ عَلَی الْعَمَلِ» «۱». فالإنسان المغرور هو الّذی یأتی بعمل بسیط ویتصور بذلک انه من أهل النجاة یوم القیامة ویتحرّک فی حیاته الدنیا بکامل الحریة بسبب هذا الغرور، أو انه یکون قد ارتکب بعض الذنوب والمعاصی ولکنه یجد فی امهال اللّه تعالی له امتیازاً لنفسه وبذلک یغتر بهذا الإمهال. ۳- ونقرأ فی حدیث آخر عن هذا الإمام أنّ الغرور یتقاطع مع العقل حیث یقول «لَا یُلْقَی الْعَاقِلُ مَغْرُوراً» «۲». ۴- ونقرأ فی حدیث آخر عن هذا الإمام أیضاً أنّ الغرور یوقع الإنسان فی دوّامة من الخیالات والتصورات الزائفة ویقطع عنه أسباب النجاة حیث یقول: «مَنْ غَرَّهُ السَّرَابُ تَقْطَعَتْ بِهِ الْاسْبَابُ» «۳». ۵- ویقول الإمام أمیرالمؤمنین علیه السلام أیضاً فی تعبیر جمیل حول طائفة من المنحرفین: «زَرَعُوا الْفُجُورَ وَسَقَوْهُ الْغُرُورَ وَحَصَدُوا الثُّبُورَ» «۴». ۶- وفی حدیث آخر عن هذا الإمام أنّه یعدّ الغرور والعُجب أحد الموانع لقبول الإنسان للموعظة والنصیحة ویقول: «بَیْنَکُمْ وَبَیْنَ الْمَوْعِظَةِ حِجَابٌ مِنَ الْغِرَّةِ» «۵». ۷- وورد فی الحدیث الشریف عن هذا الإمام أیضاً فی جملة قصیرة وعمیقة المحتوی «طُوبَی لِمَنْ لَمْ تَقْتُلْهُ قَاتِلَاتِ الْغَرُورِ» «۶». إن ما ورد أعلاه من الروایات الشریفة لا یُعدّ إلّانماذج قلیلة ممّا ورد من النصوص الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۱۴۸ الکثیرة حول بیان أخطار الغرور والعُجب، ولکن مطالعة هذه النماذج القلیلة من الروایات فی هذا الباب یکفی لبیان الأضرار الوخیمة والآفاق السلبیة للغرور.

۲- أسباب الغرور

ذکر بعض علماء الأخلاق أنّ الغرور من الصفات القبیحة الّتی یبتلی بها کلّ طائفة من الناس بشکل من الأشکال رغم تعدّد أسبابه ومراتبه ودرجاته. فقد ذکروا أنّ أسباب الغرور والعجب کثیرة جدّاً، وقسّموا المغرورین إلی طوائف مختلفة: طائفة المغرورین بالعلم والمعرفة وهم الأشخاص الّذین یتملکهم الغرور عندما یصلوا إلی مرتبة معیّنة من العلم، فیتصورون أنّهم ملکوا الحقیقة فلا یرون سوی أفکارهم وعلومهم ولا یهتمون بأفکار الآخرین ولایعتبرون لها قیمة، وأحیاناً یرون أنفسهم من المقربین عند اللّه تعالی ومن أهل النجاة

قطعاً، ولو انّ البعض واجههم بقليل من النقد فإنّهم سوف يجدون الألم يعتصر قلوبهم لأنهم يتوقعون من الجميع احترامهم وقبول كلامهم. وأحياناً يصيب الغرور بعض الأشخاص الضيقى الافق الّذين تعلّموا عدّة كلمات وقرأوا عدّة كتب وتصوّروا أنّهم فتحوا بلاد الصين وحلّوا المشكلات العويصة فى العلم لمجرّد أنّهم قرأوا الكتاب الفلانى، وهذا من أسوأ أنواع الغرور الّذى يجر العالم إلى منزلقات السقوط والإنحطاط العلمى والإجتماعى. ونقرأ فى حديث شريف عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله يقول لابن مسعود: «يَابْنَ مَسْعُود! لَاتَغْتَرَّنَّ بِاللَّهِ وَلَا تَغْتَرَّنَّ بِصَلَاحِكَ وَعِلْمِكَ وَعَمَلِكَ وَبِرِّكَ وَعِبَادَتِكَ» «۱». فنرى فى هذا الحديث الشريف إشارة لعوامل وأسباب اخرى للغرور منها: الأعمال الصالحة، الإنفاق فى سبيل اللّه، العبادات، والّتى يمثل كلّ واحدٍ منها عاملًا من عوامل الغرور. وقد نرى بعض الأشخاص الصالحين الّذين عندما يُوفّقون لأداء بعض العبادات أو الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۴۹ الأعمال الصالحة يتملكهم الشعور بالغرور بسبب ضيق افقهم وصغر نفوسهم فيتصوّرون أنّهم من أهل النجاة والسعاده ويرون سائر الناس بمنظار الإستهانة والتصغير، وهذا قد يؤدى بهم إلى الهلاك والسقوط فى وادى الضلالة والإنحراف. وأحد العوامل الاخرى للغرور هو أن يغتر الإنسان بلطف اللّه وكرمه ومغفرته، حيث نجد بعض الأشخاص يرتكبون الذنوب بجرأة وبدون أىّ تردّد، وعندما يُسأل منهم عن سبب ارتكابهم لهذه الأعمال القبيحة، يقولون: اللّه كريم وغفور ورحيم، فنحن نعرف أنّ اللّه أكبر وأسمى من أن يؤاخذ بهذه الذنوب ويعاقبنا بسبب هذه التصرفات، وأساساً فنحن لو لم نُذنب فلا معنى لعفو اللّه ومغفرته. إنّ مثل هذه الأفكار المنحرفة والكلمات غير المنطقية تزيد من جرأتهم على ارتكاب الذنوب وبالتالى تؤدى بهم إلى السقوط والهلاك. ولهذا نجد أنّ القرآن الكريم والروايات الإسلامية قد ذمّت هذا النوع من الغرور بشدّة ونهت عنه نهياً مؤكداً كما نقرأ فى الآية السادسة من سورة الإنفطار قوله تعالى «يَا اَيُّهَا الْاِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيم». ويقول أميرالمؤمنين عليه السلام فى تفسير هذه الآية الكريمة «يَا اَيُّهَا الْاِنْسَانُ مَا جَرَّأَكَ عَلَى ذَنْبِكَ؟ وَمَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ؟ وَمَا انَّسَكَ بِهَلَكَةِ نَفْسِكَ؟!» «۱» وفرق بين الشخص الّذى يرتكب الذنب ولكنه مع ذلك يعيش الجرأة ولا يجد فى نفسه غضاضة لذلك وكأنه يطلب اللّه شيئاً، وبين الشخص الّذى يرتكب الذنب ولكنه يعيش الخجل والندم ويأمل أن يشمله اللّه تعالى برحمته وعطفه، فالأوّل قد ركب مَطِيّة الغرور، والثانى هو المتّصل بحبلٍ من اللّه ولطفه والأمل برحمته الواسعة. ومن العوامل والأسباب الاخرى للغرور هو الجهل وعدم الإطلاع والمعرفة، كما أنّ العلم والمعرفة أحياناً يكون سبباً للغرور، فكذلك عدم المعرفة أيضاً قد يسبب الغرور فى الكثير من الأشخاص الجهّال، ولذلك ورد عن أميرالمؤمنين عليه السلام الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۵۰ قوله «مَنْ جَهِلَ اغَرَّ بِنَفْسِهِ وَكَانَ يَوْمُهُ شَرّاً مِنْ امْسِهِ» «۱». والآخر من أسباب الغرور والّذى يبتلى به الكثير من الناس هو الإغترار بزخارف الدنيا وبريقها من المال والمقام والشباب والجمال والقدرة وأمثال ذلك. إنّ بعض الأشخاص الّذين يعيشون ضيق الافق وصِغَر النفس إذا وجدوا أحياناً أنّهم على شىءٍ من الثروة والمال أو المقام، فسوف ينسون أنّ هذه عارية بأيديهم وأنّها فى معرض الزوال والفناء، وهذا النسيان يتسبّب لهم فى العُجب والوقوع فى دوّامة الغرور، وهذا الغرور يتسبّب لهم فى الابتعاد عن اللّه تعالى والاقتراب من الشيطان والتلوث بكثير من الذنوب. ونقرأ فى الحديث الشريف عن أميرالمؤمنين عليه السلام قوله «الدُّنْيَا حُلُمٌ وَالْاغْتِرَارُ بِهَا نَدَمٌ» «۲». وفى حديث آخر عن هذا الإمام عليه السلام أنّه قال: «لَاتَغُرَّنَّكَ الْعَاجِلَةُ بِزُورِ الْمَلَاهِى، فَاِنَّ اللَّهْوَ يَنْقَطِعُ، وَيُلْزِمُكَ مَا اكْتَسَبْتَ مِنَ الْمَآثِمِ» «۳». ومن العجائب أنّ جميع الناس يرون بامّ أعينهم ظاهرة الزوال السريع للنعم المادية والدنيوية وتلاشى الأموال والثروات وسقوط الحكومات والقدرات الدنيوية كلّ يوم، ولكن عندما تصل النوبة إليهم يتملكهم الغرور الشديد بحيث يتصوّرون انّ ما يتعلق بهم مخلّد وسيبقى إلى الأبد ولا يزول عنهم إطلاقاً. أجل فإنّ أسباب الغرور متنوعة بشكل كبير، والخلاص من هذه المصيدة صعبٌ جداً ولا يتسنّى للإنسان إلّافى إطار التقوى والتوكل على اللّه والإلتفات إلى انّ جميع هذه الامور سريعة الزوال وفانية.

۳- علائم الغرور

إن علامات الغرور تارة تكون واضحة جداً بحيث إنّ الإنسان يدركها فوراً وفى أوّل الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۵۱ بادرة

ویدرک أنّ الشخص الفلانی مصاب بداء الغرور والعُجب، من قبیل عدم اهتمامه بالآخرین، عدم اهتمامه بالحلال والحرام والأحکام الشرعیة، عدم مراعاة الأدب مع الکبار وترک المودّة والمحبّة مع الأصدقاء والأقرباء، التعامل مع الأقل منه شأناً من موقع القساوة والخشونة، التحدّث بکلام مرتبک وبعید عن الأدب، الضحک العالی والقهقهة، قطع کلام الآخرین، النظر إلی الصالحین والأخیار والعلماء بعین الحقارة والإزدراء، وکذلک المشی بصورة غیر متعارفة، ضرب الأقدام علی الأرض عند المشی، تحریک الکتفین، النظرات غیر المتعارفة إلی الأرض والسماء، وحتّی أحیاناً یصدر منه بعض سلوکیات المجانین والسفهاء من الناس، وکلّ ذلک من علائم الغرور والفخر. ولکن أحیاناً اخری تکون علائم الغرور خفیة ومستورة، فلا یمکن إدراکها بسهولة بل تحتاج إلی دقّة وتأمل للعثور علی هذه الصفة فی واقع النفس أو لدی الآخرین، من قبیل أنّ بعض الأشخاص وبعد مدّة قصیرة من الدرس یترکون استاذهم ویرون أنّهم مستغنون عن الدرس والاستاذ، أو من قبیل الشخص الّذی یجد فی نفسه علاقة شدیدة للإنزواء والعزلة عن الناس، ویمکن أن یبرّر ذلک بعدم حضور مجالس الغیبة والتلوث بالذنوب وأمثال ذلک، فی حین أنّه مع قلیل من الدقة نجد أنّ السبب الحقیقی لذلک هو الغرور والفخر والعجب حیث یری نفسه طاهراً ومؤمناً ویری الآخرین أقلّ من ذلک شأناً لتلوّثهم وجهلهم. أجل لیس فقط صفة الغرور هی الّتی تختفی أحیاناً فی زوایا النفس، بل هناک الکثیر من الصفات الرذیلة تعیش فی واقع الإنسان فی حالة کمون وخفاء ولا یعلمُ بها الشخص بل قد تظهر هذه الصفات الرذیلة بمظهر حسن وتلبس لباس الفضیلة بحیث یعتقد صاحبها بأنّها فضائل ولا یستطیع تشخیص ذلک إلّاللأساتذة والأساطین من علماء الأخلاق وأصحاب السلوک وأرباب المعرفة.

۴- المعطیات الفردیة والإجتماعیة للغرور

قلّما نجد لسائر الصفات الرذیلة من الآثار السیئة والنتائج السلبیة والمضرة مثلما نجده الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۱۵۲ فی الغرور والفخر. إن افرازات الغرور السلبیة تکاد تستوعب جمیع حیاة الإنسان الدنیویة والآخرویة علی مستوی الضرر والفساد، ومن بین الأضرار المترتبة علی الغرور ما یلی: ۱- إن الغرور یسدلّ علی عقل الإنسان وبصیرته حجاباً سمیکاً یمنعه من إدراک حقائق الامور ولا یسمح له برؤیة نفسه والآخرین کما هو الواقع ولا یسمح له أن یقیّم الحوادث الإجتماعیة تقییماً سلیماً ویتخذ منها موقفاً صحیحاً. وقد سبق أن ذکرنا الحدیث الشریف الوارد عن أمیرالمؤمنین علیه السلام أنّه قال: «سُکْرُ الغَفلةِ والغُرور أبْعدُ إفاقةً مِن سُکْرِ الخُمور». ۲- إن الغرور یُعد عاملًا مهماً للفشل والتخلّف الفکری والجفاء النفسی فی حرکة الحیاة. فالجیش المغرور من السهل أن یقع فی حبائل الهزیمة والفشل الذریع، والسیاسی المغرور من الیسیر أن یسقط فی حرکته السیاسیة ویخسر نفوذه الإجتماعی ومقامه السیاسی، والطالب المغرور یفشل فی الامتحان، والریاضی المغرور سوف یخسر اللعبة مع الطرف المقابل، وأخیراً فالمسلم المغرور سیکون مورد الغضب الإلهی، والتعبیر بقوله (قاتلات الغرور) فی الروایات الإسلامیة یمکن أن یکون إشارة إلی هذا المعنی. ۳- إنّ الغرور یعمل علی توقف حرکة الإنسان التکامليّة بل قد یؤدی به إلی الإنحطاط والتخلّف، لأن الإنسان عندما یُصاب بالغرور فإنه لا یری نقائصه ومعایبه، وبالتالی فالشخص الّذی لا یشعر بالنقصان فسوف لا یتحرّک باتّجاه الکمال وإصلاح الخلل. وهذا ما نقرأه فی الحدیث الشریف عن أمیرالمؤمنین علیه السلام حیث قال: «مَنْ جَهِلَ أغرّ بنفسهِ وکان یَومه شرّاً من أمْسِهِ». ۴- إن الغرور یتسبّب فی حبط الأعمال وفساد الطاعات، لأنّه لا یسمح للإنسان بأعمال الدقة فی عمله وبالتالی یتسبّب فی خراب العمل، فالطبیب المغرور یمکن أن یبعث بمریضه إلی الموت أو یؤدی به إلی تلف أحد الأعضاء، والسائق المغرور سیبتلی بالحوادث الخطرة، وهکذا المؤمن المغرور قد یبتلی بالریاء والعُجب وسائر الامور الّتی تفسد العمل وتحبط الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۱۵۳ الحسنات کما ورد فی الحدیث عن أمیرالمؤمنین علیه السلام أنّه قال «غَرُورُ الْامَلِ یُفْسِدُ الْعَمَلَ» «۱». ۵- إن الغرور یمنع من التفکّر فی عواقب الامور کما ورد عن أمیرالمؤمنین علیه السلام قوله «لَمْ یُفَکِّرْ فِی عَوَاقِبِ الْامُورِ مَنْ وَثِقَ بِزُورِ الْغُرُورِ» «۲». ۶- انّ الغرور غالباً ما یتسبّب فی الندم وذلک لأن الإنسان المغرور لا یستطیع التقییم الصحیح للحوادث بالنسبة له وللآخرین وسیقع فی محاسباته الفردیة والإجتماعیة فی الخطأ والاشتباه، وهذا الأمر

يُفضى به إلى الندم، وفى هذا المجال يقول أميرالمؤمنين عليه السلام: «الدنيا حلم والأغترار بها ندمٌ» «۳». ۷- ويمكن القول فى جملة واحدة: إن الأشخاص الّذين يعيشون حالة الغرور هُم فى الواقع فقراء ومساكين فى الدنيا والآخرة كما ورد فى الحديث الشريف عن الإمام الصادق عليه السلام «الْمَغْرُورُ فِي الدُّنْيَا مِسْكِينٌ وفِي الْآخِرَةِ، مَغْبُونٌ لِانَّهُ بَاعَ الْافْضلَ بِالْادْنَى» «۴».

۵- طرق علاج الغرور

بما أنّ الغرور ينشأ غالباً من الجهل وعدم المعرفة بالنفس وعدم تقييم الذات بشكل صحيح فإنّ أوّل خطوة لعلاج هذا المرض الأخلاقى هو معرفة النفس ومعرفة اللّه تعالى وكذلك معرفة الاستعدادات والقابليات لدى الأشخاص الآخرين. إذا رجع الإنسان فى ذكرياته إلى مرحلة الطفولة وجد نفسه عاجزاً عن كلّ شىء، وإذا تفكّر الإنسان فى المراحل المتقدّمة من عمره وجد نفسه عاجزاً أيضاً عن عمل أىّ شىء، وإذا تفكّر فيما لديه من القدرة والمال والثروة والشباب والجمال، لوجد انّ جميع هذه الامور الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۵۴ تتعرض للتلف والزوال وتصيبها الآفات المختلفة. وكذلك إذا عاد لينظر فى تاريخ الأقوام السالفة والمجتمعات البشريه الماضية وسرعة زوال قدراتها وتلف أموالها وثرواتها وإندثار ما تبقى من امكاناتها وحضارتها وشموخها، لما أصابه الغرور. كيف يغتر الإنسان بعلمه والحال انه من المحتمل أن يُصاب بضربة على رأسه فينسى جميع علومه بل ينسى حتّى اسمه؟ وكيف يغتر الإنسان بأمواله فى حين أنّ تغييراً بسيطاً فى السوق أو وقوع حادثة مهمة اجتماعية أو سياسية أو عسكرية بامكانها أن تُبيد جميع أمواله بل قد يغرق فى الدين والقرض أيضاً. وعلى أيّة حال فإنّ ممّا يزيل عن الإنسان حالة الغرور والفخر والسكر بزخارف الدنيا وبريقها هو معرفة النفس وأوضاع العالم الدنيوى المتحركة وعدم ثباتها وكثرة تغيرها وتبدلّها. والقرآن الكريم يخاطب هؤلاء المغرورين من موقع التحذير والإنذار ويقول: «أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى الْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُواْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ» «۱». وشبيه هذا المعنى ورد فى سورة غافر الآية ۲۱ و ۸۲ أيضاً إذا تفكر الإنسان جيداً فى معالم وأعضاء جسمه وكوامن روحه ونفسه لوجد الضعف مهيمناً على أجواء كيانه وكيف أنّ الحوادث الجزئية والتوافة بإمكانها أن تهدم حياته وتشل حركته فسوف لا يصاب بسكر الغرور أبداً كما يقول أميرالمؤمنين عليه السلام «مِسْكِينُ بْنُ آدَمَ مَكْتُومُ الْاجَلِ، مَكْنُونُ الْعِلَلِ مَحْفُوظُ الْعَمَلِ، تُؤْلِمُهُ الْبَقَّةُ وَتَقْتُلُهُ الشَّرْقَةُ وتُنْتِنُهُ الْعَرْقَةُ» «۲». الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۵۵ ونقرأ فى حالات (عيّاض) الوزير المعروف والمقتدر للسلطان محمود الغزنوى حيث ورد انه كان يدخل كلّ يوم فى غرفة خاصّة ويغلق الباب من ورائه وبعد لحظات يخرج منها، فلفت هذا السلوك نظر البعض وتعجّبوا من هذا السلوك وتصوروا أن سرّاً خطيراً كامناً فى هذه الغرفة، وبعد التحقيق اتّضح لهم انه اخفى ملابسه الّتى كان يلبسها أيّام كان راعياً للغنم فى هذه الغرفة، وكلّ يوم يدخل إلى هذه الغرفة لينظر إلى تلك الملابس الرثّة ويقول لنفسه: لقد كنتَ يا عياض راعياً للغنم والآن سلّمك اللّه مقام الوزارة، فلا تغتر بذلك وعليك أن تخشى غداً عندما تفقد هذا المقام وعليك دينٌ ولا تستطيع الوفاء به. ولو أنّ جميع أرباب القدرة والسلطة سلكوا هذا المسلك فى تربية نفوسهم فإنّ الغرور لا يجد طريقاً للنفوذ إلى قلوبهم، ولكن مع الأسف فإنّ كلّ إنسان لا يكون مثل عيّاض.

طول الأمل

تنويه:

إن (طول الأمل) يُعد من أهم الرذائل الأخلاقية الّتى تجر الإنسان إلى ارتكاب أنواع الذنوب والخطايا وتبعده عن اللّه تعالى وتسلك به فى خط الشيطان وبالتالى يترتب على ذلك الكثير من العواقب الوخيمة. وبالطبع فإنّ أصل (الأمل) ليس فقط غير مذموم بل له دور

مهم فی إدامة حرکة الحیاة والتطور البشری فی الأبعاد المادیة والمعنویة. إذا سُلب الأمل من قلب (الامّ) فإنّها لا تجد دافعاً لإرضاع طفلها وتحمل أنواع المشقة والألم بتربیته وتنشئته کما ورد هذا المعنی فی الحدیث النبوی الشریف «الْاَمَلُ رَحْمَةٌ لِاُمَّتِی وَلَوْلَا الْاَمَلُ مَارَضِعَتْ وَالِدَةٌ وَلَدَهَا وَلَا غَرَسَ غَارِسٌ شَجَرَهَا» «۱». إن من یعلم مثلًا بأن هذا الیوم هو آخر یوم من حیاته أو أنّه سیموت بعد أیّام قلیلة ویغادر الدنیا فإنه سیترک جمیع ما فی یده من أعمال ونشاطات فی دائرة المعیشة والعلاقات الإجتماعیة، وفی الحقیقة فإنّ ذلک یعنی انطفاء شعلة الحیاة ولعلّ أحد الأسباب لخفاء الأجل هو أن یبقی الإنسان فی حالة الأمل والرجاء ویعیش الحرکة الطبیعیة فی امور المعیشة. الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۱۵۸ کما نقرأ هذا المعنی فی ما ورد عن المسیح علیه السلام (انه کان جالساً یوماً فی مکان وشاهد شیخاً کبیراً یحرث الأرض بمسحاته ویعمل علی سقی الأرض وزراعتها، فطلب المسیح علیه السلام من اللّه تعالی أن یسلب منه الأمل فی الحیاة: اللهم انزع منه الأمل فوضع الشیخ المسحاة واضطجع فلبث ساعة فقال عیسی اللّهم أردد إلیه الأمل فقام وجعل یعمل فسأله عیسی عن ذلک فقال بینما أنا أعمل إذ قالت لی نفسی إلی متی تعمل وأنت شیخ کبیر فألقیت المسحاة واضطجعت ثمّ قالت لی نفسی واللّه لابدّ لک من عیشٍ ما بقیت فقمت إلی مسحاتی «۱». ولهذا السبب فإنّ الأمل ضروریٌ فی ایجاد التحرّک أکثر لدی أفراد المجتمع من موقع النظر إلی المستقبل فی حرکة الحیاة. ولکنّ نفس هذا الأمل الّذی یُعدّ رمز حرکة الإنسان وسعیه فی حیاته الدنیویة والماء الّذی یسقی أرض حیاته المیّتة ویُنعش احساساته وعواطفه بغدٍ أفضل، نفس هذا الأمل إذا تجاوز عن حدّه المرسوم أصبح علی شکل سیل مدمّر یأتی علی الأخضر والیابس ویُغرق الإنسان فی وحل حبّ الدنیا والظلم والجریمة والإثم. ولهذا نجد أنّ النبی الأکرم صلی الله علیه و آله یری فی (طول الأمل) أحد العدوّین الشرسین للإنسان ویقول: «إنّ أشد ما أخاف علیکم خِصْلَتَانِ اتِّبَاعُ الْهَوی وَطُولُ الْاَمَلِ، فَامَّا اتِّبَاعُ الْهَوی فَانَّهُ یَعْدِلُ عَنِ الْحَقِّ، امَّا طُولُ الْاَمَلِ فَانَّهُ یُحب الدُّنْیَا» «۲». وشبیه هذا المعنی بتفاوت یسیر ورد أیضاً عن أمیرالمؤمنین علیه السلام فی نهج البلاغة. وبهذه الإشارة نعود إلی آیات القرآن الکریم لنستوحی منها نتیجة طول الأمل وأثره فی مصیر الأقوام السالفة والمجتمعات البشریه بشکل عام: ۱- «وَاذْکُرُواْ إِذْ جَعَلَکُمْ خُلَفَآءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَکُمْ فِی الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۱۵۹ قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُیُوتًا فَاذْکُرُواْ ءَالَاءَ اللَّهِ وَلَاتَعْثَوْاْ فِی الْأَرْضِ مُفْسِدِینَ» «۱». ۲- «أَتَبْنُونَ بِکُلِّ رِیعٍ ءَایَةً تَعْبَثُونَ* وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّکُمْ تَخْلُدُونَ» «۲». ۳- «یُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَکُن مَّعَکُمْ قَالُواْ بَلَی وَلَکِنَّکُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَکُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْکُمُ الْأَمَانِیُّ حَتَّی جَآءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّکُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ» «۳». ۴- «أَلَمْ یَأْنِ لِلَّذِینَ ءَامَنُواْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِکْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا یَکُونُواْ کَالَّذِینَ أُوتُواْ الْکِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَیْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَکَثِیرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ» «۴» ۵- «ذَرْهُمْ یَأْکُلُواْ وَیَتَمَتَّعُواْ وَیُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ یَعْلَمُونَ» «۵». ۶- «أَمْ لِلْإِنسَانِ مَا تَمَنَّی فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَی «۶». ۷- «وَیْلٌ لِکُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ* الَّذِی جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ* یَحْسَبُ انَّ مَالَهُ اخْلَدَه» «۷». ۸- «إِنَّ الَّذِینَ ارْتَدُّواْ عَلَی أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَیَّنَ لَهُمُ الْهُدَی الشَّیْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَی لَهُمْ» «۸».

تفسیر واستنتاج:

منابع طول الأمل

«الآیة الاولی والثانیة» تتحدّثان عن قوم عادٍ وثمود حیث بعث اللّه لهم (هود) و (صالح) وکانوا یعیشون الوضع الاقتصادی المزدهر فی زراعتهم وصناعتهم وبالتالی تسبب ذلک فی الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۱۶۰ تعلّقهم الشدید بالدنیا وعاشوا طول الأمل فیها ممّا أورثهم ذلک الغرور والکبر والفخر إلی درجة أنّهم لیس فقط لم یهتمّوا لدعوة أنبیائهم هود وصالح، بل إنّهم تصدوا لهم بالمخالفة والعدوان. القرآن الکریم یذکر فی الآیات الاولی علی لسان النبی صالح علیه السلام مخاطباً لقومه «وَاذْکُرُواْ إِذْ جَعَلَکُمْ خُلَفَآءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَکُمْ فِی الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُیُوتًا فَاذْکُرُواْ ءَالَاءَ اللَّهِ وَلَاتَعْثَوْاْ فِی الْأَرْضِ مُفْسِدِینَ» «۱». وفی «الآیة الثانیة» یستعرض القرآن حالة قوم (عاد) والّذی سبقت الإشارة إلیها فی الآیة السابقة فی الحدیث عن قوم ثمود. وتتحدث الآیة

الكريمة على لسان النبى هود عليه السلام مخاطباً قومه «أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ* وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ» «۲». وهنا أراد هو بهذا الكلام أن يُفهم قومه أنّ أحد العلل المهمّة لإنحرافهم عن جادة الصواب وسلوكهم فى خطّ الباطل هو اتباعهم للأهواء واعتمادهم على الآمال العريضة والطويلة والّتى أدّت بهم إلى الغفلة عن اللّه تعالى والفرق فى زخارف الدنيا والإبتلاء بزبارجها. (مصانع) جمع مصنع، بمعنى البناء العظيم والقصر الشامخ والمستحكم، والأصل لهذه المفردة هى مادّة (صَنَعَ) والّتى تأتى بمعنى أداء العمل الحسن، وعليه فإنّ (صنع) لا يقال لكلّ عمل، بل يُطلق على الأعمال الّتى لها امتياز خاص. إن قوم عاد وثمود تصوّروا بأنّهم وبسبب هذه الأبنية القوية والمجلّلة والقصور الفخمة الّتى أوجدوها فى قلب الجبال أنّهم بإمكانهم أن يصونوا أنفسهم من الآفات والحوادث الطبيعية ويخلدوا فيها لسنوات متمادية بعيداً عن كلّ اشكال الشقاء والبؤس. الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۶۱ ونفس هذا المعنى ورد عن قوم ثمود فى آيات اخرى أيضاً حيث نقرأ على لسان صالح عليه السلام قوله «أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ* فِى جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ* وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ* وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ» «۱». ولاشكّ أنّ الغرور والغفلة الّتى حصلت لهم من طول الأمل لا تنحصر بقوم عاد وثمود، ولكن القرآن الكريم يذكر هذه الصفة والحالة النفسية لهؤلاء القوم كصفة بارزة من صفاتهم الأخلاقية. «الآية الثالثة» تتحدّث عن جدال المؤمنين والمنافقين يوم القيامة حيث يجد المنافقون أنفسهم يعيشون فى ظلمة المحشر فى حين أنّ المؤمنين يتحركون نحو الجنّة بنور الإيمان، وهنا يطلب المنافقون من المؤمنين أن يستفيدوا من نورهم وينتفعوا من ضياءهم، ولكنه يُقام حاجز بينهما يحجب كلّ طائفة عن الاخرى. وهنا يصرخ المنافقون «... اَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ ...» «۲» إذن فلماذا أنفصلتم عنّا؟ فيجيب المؤمنون «... قَالُواْ بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ا لْأَمَانِىُّ حَتَّى جَآءَ أَمْرُ اللَّهِ ...» «۳». وعليه فالآية أعلاه تبين أربع عوامل لشقاء المنافقين، والرابع منها طول الأمل والإغترار بالأمانى الطويلة والعريضة. (امانى) جمع (أمنية)، وهى من مادّة (مَنى على وزن (مَغز) وهى فى الأصل بمعنى المقياس والميزان، لأن الإنسان فى عالم الخيال وأحلام اليقظة يقيس الامور لنفسه وما يترتب عليها من معطيات، ولهذا السبب يُقال للخيالات الباطلة والكلام الزائف والآمال العريضة (امنية) وجمعها (أمانى). الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۶۲ وورد فى تفسير منهج الصادقين وتفسير القرطبى فى ذيل هذه الآية حديثاً عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله وأنّ رسول اللّه كان أحد الأيّام يعظ أصحابه فرسم لهم خطوط متوازية على الأرض ثمّ خطّ لهم خطاً عمودياً ثمّ قال: اتعلمون ما معنى هذه الخطوط؟ فقالوا: لا يا رسول اللّه! فقال: هذه الخطوط هى من قبيل الآمال والتمنيات للناس (والّتى لا حدّ لها ولا حصر) وامّا ذلك الخط العمودى فهو الموت ونهاية الحياة الدنيا الّذى خُطّ على بنى آدم جميعاً والّذى سوف يُبطل جميع هذه الآمال والتمنيات. ونفس هذا المعنى مع تفاوت يسير نقله (ابن مسعود) عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله حيث قال: «خطّ لنا رسول اللّه صلى الله عليه و آله خطاً مربعاً، وخطّ وسطه خطاً وجعله خارجاً منه، وخطّ عن يمينه ويساره خطوطاً صغاراً، فقال: هذا ابن آدم وهذا أجله محيط به وهذا أمله قد جاوز أجله، وهذه الخطوط الصغار الأعراض، فإنّ اخطأه هذا نهشه هذا، وإن أخطأه هذا نهشه هذا» «۱». «الآية الرابعة» تخاطب المؤمنين بصورة غير مباشرة وتحذرهم بأن يكونوا على وعيٍ كامل بوضعهم وحالهم لكى لا تأخذهم الآمال والتمنيات وتُفضى بهم إلى المصير المؤلم للأقوام السالفة وتقول «أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ا لْحَقّ وَلَا يَكُونُواْ كَالَّذِينَ أُوتُواْ ا لْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ا لْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ» «۲». والمفهوم من هذه الآية انّ ما يبعث على لين قلب الإنسان وانعطافه وتوجهه إلى الحقّ وتحرّكه فى خطّ الإيمان والانفتاح على اللّه هو ذكر اللّه تعالى، أجل فإنّ ذكر اللّه من شأنه أن يُزيل جميع الآمال الطويلة والعريضة ويجعل الإنسان ملتفتاً إلى مسؤولياته وواقعه ويُجلى قلب الإنسان ويضيئه، ويتسبّب فى أن يتحرّك الإنسان فى تصوراته وتفكيره من رؤية الواقع وحقيقة الحياة الدنيا فيرى عدم ثباتها وعدم استقرارها جلياً أمام ناظريه. الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۶۳ «الآية الخامسة» تخاطب النبى الأكرم صلى الله عليه و آله مشيرةً إلى الكفّار والمشركين وتقول «ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ» «۱». أجل أنّ هؤلاء مثلهم كمثل الدواب والأنعام لا يفهمون من الحياة الدنيا سوى المأكل والمشرب والتمتع بإشباع الشهوات البدنية، وعليه فهم أضل من الأنعام واسوأ حالًا بسبب أنّهم يعيشون طول الأمل فى حياتهم وأفكارهم بحيث

إن طول الأمل هذا يمنعهم من التفكير بمستقبلهم وما ينتظرهم فى الغد حتى ينشب الموت مخالبه فى أرواحهم. وهنا نجد أنّ الآية توضح الأثر السلبى للآمال الطويلة على حياة الإنسان وتبين إلى أيّة درجة تجعل هذه الآمال الإنسان مشغولًا بنفسه ودنياه وغافلًا عن اللّه تعالى. وجملة (ذرهم) تبين بوضوح انه لا أمل فى هداية هؤلاء وإلّا فإنّ النبى الأكرم صلى الله عليه و آله فى الأصل مأمورٌ بهداية جميع الناس فلا معنى لأن يتركهم مع احتمال الهداية فيهم. وكيف يصحّ توقّع الهداية من طائفة من الناس فى حين أنّ هدفها النهائى فى حركة الحياة هو الأكل والشرب والنوم والحياة فى الدنيا كما تعيش الحيوانات، لأن هذه الآمال الطويلة لا تدعهم يفكرون لحظة فى نهاية هذه الحياة وخالقها والواهب لكلّ هذه المواهب فى عالم الوجود وما هى الغاية من هذا الخلق العظيم؟ «الآية السادسة» من الآيات مورد البحث والتى تشير إلى هذه الحقيقة، وهى انّ الآمال الطويلة الّتى لا يحصل عليها الإنسان غالباً تحيط بالإنسان وتؤسر جميع امكاناته وقابلياته وتحجزه عن سلوك طريق السعادة وبالتالى ستمنعه من سلوك طريق الكمال المعنوى والإنسانى وتقول: «أَمْ لِلْإِنسَـٰنِ مَا تَمَنَّى «۲». وهذا الاستفهام فى الحقيقة هو نوع من الاستفهام الإنكارى، فكيف يمكن أن يعيش الإنسان كلّ هذه الآمال والتمنيات وينالها ويصل إلى مقاصده فى حين أنّ طول هذه الآمال الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۶۴ يستغرق أحياناً عشرات أو مئات الأضعاف من عمر الإنسان الطبيعى، وأحياناً تقع هذه التمنيات فى خطّ اللانهاية بحيث كلّما وصل الإنسان فى حركة الحياة إلى مقدار معيّن منها تجلّت له آمال اخرى تدعوه إلى مواصلة الحركة. ويجب الانتباه إلى أنّ هذه الآية وردت بعد آيات تشير إلى اصنام المشركين الّذين كانوا يعيشون الأمل بشفاعتها والقرب من اللّه تعالى بواسطتها، فالقرآن يقول: إنّ هذا الأمل لا يتحقّق إطلاقاً، ولكن مع ذلك فإنّ مفهوم الآية عام، وكما فى الإصطلاح أنّ المورد لا يخصّص الوارد. «الآية السابعة» تتحدّث عن أهل الدنيا الّذين يعيشون الآمال الطويلة والتمنيات العريضة وتقول: «وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ* الّذى جَمَعَ مَالًا وَعدَّدَهُ «۱»* يَحْسَبُ انَّ مَالَهُ اخْلَدَه» «۲». وفى الواقع أنّ هذه الآيات الثلاثة بمثابة العلّة والمعلول، لأن الإنسان الأنانى والإنتهازى سوف يتحرّك فى تعامله مع الآخرين من موقع الإستهزاء بسبب الثروة الكبيرة والمال الكثير عنده والّذى جَمَعه بطرق غير مشروعة، لأنه جَمَع مثل هذه الثروة بدافع من تصوّره أنّ هذه الثروة من شأنها أن تكتب له الخلود فى هذه الحياة، فهذا التصوّر المصحوب ب (طول الأمل) وكثرة التمنيات الدنيوية تسبب لهذا الشخص الغرور والإستعلاء والعجب، وهذا بدوره يتسبب فى أن يتحرّك مع الآخرين من موقع الإستهزاء والسخرية «۳». ويُستفاد جيداً من هذه الآية أنّ الآمال والتمنيات الطويلة والعريضة تارةً تصل إلى حدّ ينسى الإنسان معها الموت تماماً ويتصوّر انه مخلّد أبد الدهر، وهذا الأمر يؤدى به إلى الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۶۵ الطغيان ويقوّى فيه حالة الإستكبار والفوقية وبالتالى تورثه هذه الحالة الوقوع فى الكثير من الذنوب الاخرى. «الآية الثامنة» والأخيرة من الآيات مورد البحث: تتحدّث عن طائفة من الأشخاص الّذين عرفوا الحقّ من موقع الوعى ولكنهم أداروا ظهورهم له وأعرضوا عنه بعد ذلك وتقول: «إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّواْ عَلَى أَدْبَارِهِم مّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَـٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ» «۱». (أَمْلَى لهم) من مادّة إملاء، بمعنى ظهور الآمال البعيدة والطويلة الّتى تشغل الإنسان بنفسه. وهذه الآية فى الحقيقة ناظرة إلى هذا المعنى وهو انه كيف يمكن أن يكون الإنسان عارفاً للحقّ ومصدّقاً به فى البداية ثمّ يتجاهل هذه العقيدة ويعرض عنها ويوصد أبواب النجاة أمامه ويسلك فى خطّ الإنحراف والزيغ. هل يمكن للإنسان العاقل أن يسلك هذا المسلك؟ أجل فعندما تحيط الوساوس الشيطانية بالإنسان وتصوّر له القبائح حسنات وتوقعه فى منزلقات الآمال والتمنيات الطويلة فلا يبعد أن ينسى ما كان عليه من الحقّ ويعرض عنه بسبب ذلك. ومن هنا يمكن إدراك البلاء العظيم الّذى تنزله الآمال الطويلة على الإنسان وكيف أنّ الإنسان العاقل يفقد عقله معها تماماً ويصبح غريباً عن ذاته ويترك عقله لمجموعة من الأوهام والخيالات الّتى تقوده فى خط الباطل وتبتعد به عن اللّه تعالى. ومن مجموع الآيات المذكورة آنفاً والّتى تحدّثت عن مصير بعض الأقوام الماضين وبعض المعاصرين لعصر النبى الأكرم صلى الله عليه و آله، وبعض الآيات تحدّثت بشكل قانون عام الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۶۶ يمكن استخلاص هذه النتيجة، وهى انّ طول الأمل وكثرة التمنيات تُعدّ من أخطر أعداء الإنسان فى صياغة حياته السعيدة، وبإمكانها أن توقع أفراد البشر بل المجتمعات البشرية فى هوّة السقوط والإندثار والشقاء.

طول الأمل فی الروایات الإسلامیة:

بما أنّ طول الأمل له تأثیر مخرب جداً علی حیاة الإنسان المعنویة والأخلاقیة وحتّی الدنیویة والمادیة أیضاً، فإنّ الروایات الإسـلامیة قد ذمت هذه الخصـلة بتعبیرات مختلفة، وأشارت إلی أسباب منطقیة لذلک، وعلی سبیل المثال نشیر إلی نماذج من هذه الروایات: ۱- ما ورد فی الحـدیث الشـریف عن النـبی الأـکرم صـلی الله علیه و آله قـوله: «ارْبَعَـةٌ مِنَ الشَّقَـاءِ جُمُـودُ الْعَیْنِ وَقَسَـاوَةُ الْقَلْبِ وَطُـولُ الْـامَلِ وَالْحِرْصِ عَلَی الـدُّنْیا» «۱». ۲- ونقرأ فی حـدیث آخر عن أمیرالمؤمنین علیه السـلام قوله: «مَنْ اطَـالَ امَلَهُ سَـاءَ عَمَلُهُ» «۲». وهذا المعنی ورد بصورة أوضـح فی حـدیث آخر عن هذا الإمام علیه السـلام أنّه قال «اطْوَلَ النَّاسِ امَلًا اسْوَئُهُمْ عَمَلًا» «۳». ۳- وورد فی نهج البلاغة فی الخطبة ۱۴۷ تعبیراً عمیقاً فی هذا المجال قال: «انَّمَا هَلَکَ مَنْ کَانَ قَبْلَکُمْ بِطُولِ آمَالِهِمْ وَتَغَیُّبِ آجَالِهِمْ حَتَّی نَزَلَ بِهِمْ الْمَوْعُودُ الَّذی تُرَدُّ عَنْهُ الْمَعْذِرَةُ وَتُرْفَعُ عَنْهُ التَّوْبَةُ». ۴- وفی حدیث آخر عن فاطمة بنت الحسین علیهما السلام عن أبیها الإمام الحسین علیه السلام عن جـدّه رسول اللَّه صـلی الله علیه و آله قـال: «انَّ صَـلَاحَ اوَّلِ هَـذِهِ الْـامَّةِ بِالزُّهْـدِ وَالْیَقِینِ وَهَلَـاکَ آخِرِهَـا بِـالشُّحِّ (بِـالشَّکِّ) وَالْامَـلِ» «۴». الاخلاـق فی القرآن، ج۲، ص: ۱۶۷ وبـدیهی أنّ من العوامل المهمة لانتصار المسـلمین فی صدر الإسـلام هو الإیمان والیقین الراسـخ بالإضافة إلی عـدم اهتمـامهم بزخـارف الـدنیا وبریقهـا، حیث تسـبب ذلـک فی أن یرد المسـلمون الأوائـل إلی میـدان القتال والجهاد بشـجاعة فائقة وشوق بالغ فلم یکونوا یرون إلّا اللَّه تعالی ولا یتحرکون إلّافی خط الطاعة والتقوی ولا یدیرون ظهورهم إلی الأعداء من موقع الهزیمـة والتخـاذل. ولکن عنـدما امتـدت إلیهم الآمـال الطویلـة وملکتهم العلاـئق الدنیویـة وخـدعتهم ظواهر الـدنیا حـلّ الشـک والتردید محلّ الیقین، والشغف بأُمور الدنیا محلّ الزهد، وبدأوا یتراجعون أمام أعدائهم ویسلکون سبیل التخلف والإنحطاط الحضاری والثقافی، فلا سبیل لهم الیوم لتجدید عظمتهم الاولی سوی احیاء تیْنَک الأصلین الرئیسیّین. ۵- وفی حدیث آخر عن أمیرالمؤمنین علیه السـلام أنّه قال: «الْامَلُ سُلْطَانُ الشَّیَاطِینِ عَلَی قُلُوبِ الْغَافِلِینَ» «۱». ۶- وجاء فی حـدیث آخر عن هـذا الإمام أیضاً انه وصف مثل هؤلاء الأشـخاص بعنوان شـرّ الناس وقال: «شَرُّ النَّاسِ الطَّوِیلُ الْامَلِ، السَّیِّیءُ الْعَمَلِ» «۲». وکـذلک ورد فی حدیث آخر عن هذا الإمام أیضـاً قوله: «انَّ الْمَرْءَ یُشْـرِفُ عَلَی امَلِهِ فَیَقْطَعُهُ حُضُورُ اجَلِهِ، فَسُبْحَانَ اللَّهِ لَاامَـلٌ یُـدْرَکُ وَلَـا مُؤَمَّلٌ یُتْرَکُ» «۳». ۷- وفی حدیث شـریف عن أمیرالمؤمنین علیه السلام أنّه قال: «اشْرَفُ الْغِنَی تَرْکُ الْمُنَی» «۴». لأن التمنیات الطویلة والعریضة تتسبّب فی أن یعیش الإنسان الحاجة والفقر فی نفسه دائماً ویمدّ یده فی سبیل إشـباع هذه الحاجة إلی أیّ شخص وبذلک یحقق شخصیته ویسحق حیثیّته الإنسانیة من أجل هـدف لن یصل إلیه أبداً. الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۱۶۸ ۸- ونقرأ فی حـدیث آخر عن هذا الإمام قوله: «کَذَّبَ مَنِ ادَّعَی الْایمَانَ وَهُوَ مَشْغُوفٌ مِنَ الدُّنْیَا بِخِدَعِ الْامَانِیِّ وَزُورِ الْمَلَاهِیِّ» «۱». ومن الواضح أنّ المتعلق بالدنیا والمشغوف بزخارفها وملذاتها فإنه ومن أجل الوصول إلی کلّ شیء منها لابدّ له أن ینسی کلّ شیء یشدّه إلی الحقیقة والواقع ومن ذلک سوف یُصاب الإیمان بالإهتزاز والضعف. ۹- وکذلک ورد عن هذا الإمام فی حدیث قصیر وملیء بالمعنی أنّه قال: «الْامَانِیُّ تُعْمَی عُیُونَ الْبَصَائِرِ» «۲». ۱۰- وورد فی حدیث عن النبی الأکرم صلی الله علیه و آله أنّه قال یوماً لأصحابه «اکُلُّکُمْ یُحِبُّ انْ یَدْخُلَ الْجَنَّةَ؟». «قَالُوا نَعَمْ یَا رَسُولَ اللَّهِ» قال: «قَصِّرُوا مِنَ الْامَلِ وَاجْعَلُوا آجَالَکُمْ بَیْنَ ابْصَارِکُمْ وَاسْتَحْیُوا مِنَ اللَّهِ حَقَّ الْحَیَاءِ» «۳». ۱۱- وأیضاً نقرأ فی حدیث آخر عن الإمام أمیرالمؤمنین علیه السلام أنّه قال: «انَّ الْامَلَ یُذْهِبُ الْعَقْلَ، وَیُکَذِّبُ الْوَعْـدَ، وَیَحِثُّ عَلَی الْغَفْلَةِ وَیُورِثُ الْحَسْـرَةَ» «۴». ۱۲- ونختم هـذا البحث بروایة اخری عن رسول اللَّه بعنوان (مسک الختام)، فقـد ورد فی هـذا الحـدیث أنّ النبی الأکرم صـلی الله علیه و آله أخـذ ثلاثـة أعواد فغرس عوداً بین یـدیه والآخر إلی جانبه وأما الثالث فأبعـده وقال: هلا تـدرون ما هـذا؟ قالوا: اللَّه ورسوله أعلم، قال: «هَـذَا الْانْسَانُ! وَهَـذَا الْاجَلُ! وَهَـذَا الْامَـلُ یَتَعَاطَـاهُ ابْنُ آدَمَ وَیَخْتَلِجَهُ الْاجَلُ دُونَ الْامَلُ!» «۵». الأحـادیث الشـریفة أعلاه والّتی هی غیض من فیض الروایات المـذکورة فی المصادر الإسـلامیة فی باب طول الأمل تبین بوضوح سعة دائرة الخطر وعمق الفاجعة المترتبة علی الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۱۶۹ هـذه الرذیلة الأخلاقیة، وتؤکد علی أنّ الآمال الطویلة والتمنیات العریضة تُعد من أشد أعداء سـعادة الإنسان والمانع القوی أمام حرکته

فى خط القرب الإلهى والإيمان والانفتاح على اللّه.

الآثار السلبية لطول الأمل:

اشارة

إن للآمال والتمنيات الواسعة آثار مخربة كثيرة فى حياة الإنسان المعنوية والمادية والّتى اشارت إليها الروايات المذكورة آنفاً، وكذلك ما ورد فى الآيات القرآنية المذكورة فى صدر البحث، وبشكل عام يمكن القول: أنّ طول الأمل يترتب عليه آثار مخرّبة ونتائج مدمّرة كالتالى:

۱- طول الأمل مصدر الكثير من الذنوب

إن أحد أسوأ الآثار السلبية لطول الأمل والتمنيات العريضة هى أنّها تدعو الإنسان للتورط بأنواع الذنوب لأن الحصول على متعلقات هذه الآمال والتمنيات لا تتسنّى عادة إلّا بطرق غير مشروعة، وعليه فإنّ من يعيش هذه الرذيلة الأخلاقية يجد نفسه مضطراً إلى الغض عن الكثير من مسائل الحلال والحرام فى سبيل تحقيق أمنياته وأن لا يُراعى فى ذلك حقوق الآخرين ولا ممنوعات الشريعة المقدسة، فيتحرك من موقع غصب حقوق الناس، أكل أموال اليتامى التطفيف فى الميزان، أكل الربا، الرشوة وأمثال ذلك. ولهذا السبب فقد ورد فى الحديث المعروف فى (غرر الحكم) «مَنْ طَالَ امَلُهُ سَاءَ عَمَلُهُ» «۱». وورد أيضاً «اطْوَلَ النَّاسِ امَلًا اسْوَئُهُمْ عَمَلًا» «۲». الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۷۰ وجاء فى النقطة المقابلة لذلك: «مَنْ قَصَّرَ امَلُهُ حَسُنَ عَمَلُهُ» «۱». وكلّ من هذه الأحاديث الثلاثة وردت عن مولانا أميرالمؤمنين الّذى نفديه بأنفسنا ونفدى كلامه النورانى البنّاء.

۲- طول الأمل وقساوة القلب

وكما رأينا فى الآيات القرآنية المذكورة فى بداية البحث انها تتحدّث عن أحد الأقوام الماضية وتقول: «فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم». والسبب فى ذلك واضح، لأن طول الأمل يورث الإنسان الغفلة عن اللّه تعالى ويقوى فيه عنصر الحرص ويُبعده عن الآخرة، وكلّ هذه من الأسباب المهمة لقساوة القلب. ولهذا السبب ورد فى الحديث الشريف أنّ اللّه تعالى خاطب موسى وقال: «يَا مُوسَى لَا تُطَوِّلْ فِى الدُّنْيَا امَلَكَ فَيَقْسُوا قَلْبَكَ، وَالْقَاسِىَ الْقَلْبِ مِنِّى بَعِيدٌ» «۲». ونفس هذا المعنى ورد فى حديث آخر عن الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام حيث قال: «مَنْ يَأْمُلُ انْ يَعِيشَ ابَداً يَقْسُو قَلْبُهُ وَيَرْغَبُ فِى الدُّنْيَا» «۳».

۳- طول الأمل ونسيان الأجل

وهذا الأثر السلبى لا يحتاج إلى مزيد شرح وبسط، ويمكن فهمه بوضوح على مستوى الأشخاص الّذين يعيشون هذه الرذيلة الأخلاقية حيث لا تجدهم يذكرون الموت أبداً ويفكرون بالآخرة بل يعيشون الغفلة التامّة عن هذه الامور المصيرية. وقد جاء فى الحديث المعروف عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله وكذلك عن أميرالمؤمنين عليه السلام القول: «طُولُ الْامَلِ يُنْسِى الْاخِرَةِ» «۴». «اكْثَرُ النَّاسِ امَلًا اقَلُّهُمْ لِلْمَوْتِ ذِكْراً» «۵».

۴- طول الأمل والعُسر فى الحياة

ومن البـديهى انه كلّمـا امتـدت آمـال الإنسـان وقويت جـذورها فى واقع النفس فإنّهـا تتطلّب موارد ومقـدّمات أكثر، وكـذلك تـدعو صاحبهـا للإقتصـاد أكثر فى الأموال والثروات لغرض التوصل إلى تحقيق تلك الآمال والتمنيات، ونتيجـة هـذين الأمرين هى أن يعيش الإنسان فى ضـنكٍ من العيش وتعب من زحمة العمل وصعوبة المشكلات الّتى يواجهها هو وعائلته حيث يجد نفسه مضطراً إلى العمل ليـل نهار وبـدون توقف. وفى ذلك وردت أحاديث عن أميرالمؤمنين تقول: «مَنْ كَثُرَ مُنَاهُ كَثُرَ عَنَائُهُ». وقال أيضاً: «مَنِ اسْـتَعَانَ بِالْامَانِىِّ افْلَسَ». (حتّى لو عاش حياة الأغنياء فى كثرة المال والثروة). وقال أيضاً: «الرَّغْبَةُ مِفْتَاحُ النَّصَبِ» «۱».

۵- طول الأمل والذلّة فى الحياة

إنّ الأشـخاص الّـذين يعيشون الآمال الطويلـة مضافاً إلى كـدحهم وتعبهم الدائم فإنّهم يعيشون فى شخصـيّتهم الإنسانية الشـعور بالذلّة والحقارة حيث يضـطرون إلى سحق حيثيّتهم لغرض التوصل إلى هدفهم الموهوم والخيالى ويذعنون ويخضعون أمام كلّ أحد ويمدّوا أيديهم لأىّ شخص كما ورد فى الحديث الشريف عن أميرالمؤمنين عليه السلام: «ذُلُّ الرِّجَالِ فِى خَيْبَةِ الْامَالِ» «۲».

۶- الحرمان من النعم والمواهب

وكما تقدّمت الإشارة إليه فى الأشـخاص المتورطون فى دوّامة الأمل ومسـتنقع التمنيات فإنّهم يجدون أنفسـهم مضطرون إلى الاقتصاد والتقتير على أنفسـهم فى الحياة وعدم الإستفادة من المواهب الكثيرة والنعم الوفيرة الّتى لديهم كلّ ذلك من أجل تحقيق تلك الآمال البعيدة، ولهذا السبب فإنّهم يقترون ويقتصدون فى كلّ شـىء حتّى على أنفسـهم الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۷۲ وعائلتهم، وهذا هو البخـل أو الشـح الّـذى يحرم الإنسـان من النعم والمواهب الإلهيـة فى عين تملكه للإمكانات والثروات الوفيرة فيعيش عيشـة الفقراء وهو غنى. وقد نرى فى زماننا هذا بعض الأشـخاص الّذين يبتلون بطول الأمل ويتحركون فى سبيل تأمين حياتهم وأبناءهم تحت عنوان (التأمين على الحياة) ويُحرموا بذلك أنفسهم وأبناءهم من المواهب والنعم الإلهية الكثيرة!!

۷- طول الأمل وعدم إدراك الحقائق

إنّ الآمال والتمنيات البعيدة حالها حال السراب الّذى يخدع الضمآن فى الصحراء المحرقة ويجرّه إليه ليعيش الضمأ والعطش أكثر دون أن يصل إلى مقصوده، فهذه الآمال والتمنيات تُظهر الامور الواقعية بأقنعة مزيّفة ولذلك لا يُدرك الإنسان أين يذهب وإلى أين يتجّه؟ ومـا هى وظيفته فى قِبـال الامـور المصـيرية؟ ومن ذلـك ورد فى الحـديث الشـريف الّـذى سـبقت الإشارة إليه، عن أميرالمؤمنين عليه السلام قوله «الْامَانِىُّ تُعْمِى عُيُونَ الْبَصَائِرِ» «۱». وخلاصة الكلام انّ الشـخص الّذى يمكنه إدراك وجه الحقيقة الجميل كما هو عليه هو الشخص الّذى لا يغطى عقله بحجاب الآمال والتمنيات ولا يعيش وسط السُحُب المظلمة والمظلّلة لطول الأمل.

۸- طول الأمل وكفران النعمة

ومن البـديهى أنّ طول الأمل يقود الإنسان لأن يتعلق قلبه بما لا يحصل عليه أبـداً ولهذا فإنه يرى نعمة اللّه عليه قليلة ومواهبه حقيرة فلا يتعامل مع ما لـديه من هـذه المواهب العظيمـة من موقع الإهتمام والعنايـة وهذا هو عين كفران النعمة ممّا يترتب عليه عواقب سـيّئة فى الـدنيا والآخرة. وقـد ورد فى الحـديث الشـريف عن الإمام أميرالمؤمنين عليه السـلام أنّه قال: «تَجَنَّبُوا الْمُنَى فَانَّهَا تُذْهِبُ بَبَهْجَةِ نِعَمِ اللَّهِ عِنْدَكُمْ، وَتُلْزِمُ اسْتِصْغَارَهَا لَدَيْكُمْ، وَعَلَى قِلَّةِ الشُّكْرِ مِنْكُمْ» «۲».

دوافع طول الأمل وأسبابه:

إن العمدة فى دوافع طول الأمل هو الجهل وعدم الإطلاع على حال الدنيا وما فيها من التغيرات والإبتلاءات وعناصر التضاد فى حركة الحياة، وكذلك الجهل بقدرة اللّه ولطفه وثوابه العظيم فى الآخرة، فمجموع هذه الجهالات تدفع الإنسان إلى منزلقات طول الأمل والتمنيات العريضة. وتوضيح ذلك: إن الإنسان وبسبب جهله بنفسه وعدم الإلتفات إلى هذه الحقيقة وهى أنّه قد يحين أجله فى كلّ لحظة ويرحل عن هذه الدنيا، فقد تعترض جلطة من الدم فى شرايين قلبه أو دماغه فيُصاب بالسكتة القلبية أو الدماغية أو يُصاب بزلزلة أو حريق أو حادثة سيارة وأمثال ذلك ممّا يُنهى حياته الدنيوية، نعم وبسبب جهله بهذه الامور فإنه يتورط فى شراك الآمال والتمنيات البعيدة ويحسب أنّ عمره طويلٌ جداً ثمّ يحيط نفسه بطائفه من التصورات الواهية والآمال البعيدة الّتى لا تسمح له أن يفكر بالواقع وبالحقائق المحيطة حوله فى واقع الحياة. وهكذا بالنسبة إلى جهله بحال الدنيا وعدم وفائها لا بالصغير ولا بالكبير، ولا بالشاب ولا بالشيخ، فنرى أحياناً أنّ مئات الصبيان يموتون قبل أن يموت شيخ واحد، واخرى قبل أن يموت المريض بالسرطان يموت عشرات الأشخاص السالمين. وأحياناً تجر السلاطين إلى أن يعيشوا الذلّة والمهانة ويستبدلوا عروشهم وقصورهم بزنزانات السجن، وقد يصبح الثرى الغارق فى النعمة بين عشية وضحاها فقيراً معدِماً لا يجد عشاء يومه، أجل فالجهل بهذه الامور من شأنه أن يوقع الإنسان فى دوامة طول الأمل. وهنا يقول سلمان الفارسى التلميذ الكبير لمدرسة الوحى: «ثَلَاثٌ اعْجَبَتْنِى حَتَّى اضْحَكَتْنِى: مُؤَمِّلُ الدُّنْيَا وَالْمَوْتُ يَطْلُبُهُ، وَغَافِلٌ لَيْسَ بَمَغْفُولٍ عَنْهُ، وَضَاحِكٌ بملء فِيهِ لَا يَدْرِى اسَاخِطٌ رَبُّ الْعَالَمِينَ عَلَيْهِ امْ رَاضٍ عَنْهُ» «۱». وفى الروايات الإسلامية اشارات واضحة على هذا المعنى حيث يقول الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۷۴ أميرالمؤمنين عليه السلام: «مَنْ ايْقَنَ انَّهُ يُفَارِقُ الْاحْبَابَ وَيَسْكُنُ التُّرَابَ وَيُوَاجِهُ الْحِسَابَ وَيَسْتَغْنِى عَمَّا خَلَّفَ، ويَفْتَقِرُ الَى مَا قَدَّمَ كَانَ حَرِيّاً بِقَصْرِ الْامَلِ وَطُولِ الْعَمَلِ» «۱». وجاء فى حديث آخر عن هذا الإمام أيضاً: «اتَّقُوا خِدَاعَ الْآمَالِ، فَكَمْ مِنْ مُؤَمِّلٍ يَوْمٍ لَمْ يُدْرِكْهُ، وَبَانِى بَنَاءٍ لَمْ يَسْكُنْهُ، وَجَامِعِ مَالٍ لَمْ يَأْكُلْهُ» «۲». وأحياناً يكون الجهل بالآخرة والثواب العظيم الخالد الّذى أعدّه اللّه للمؤمنين سبباً فى أن يتصور الإنسان الخلود لهذه الحياة الدنيا ويغرق فى الأوهام والتمنيات والآمال الدنيوية وأحياناً يتسبب جهله بالسعادة الكامنة فى الزهد والتحرر من أسر الشهوات والنوازع الدنيوية إلى أن يُحرق نفسه بنار طول الأمل. وقد ورد فى الحديث عن الإمام الباقر عليه السلام قوله: «اسْتَجْلِبْ حَلَاوَةَ الزَّهَادَةِ بِقَصْرِ الْامَلِ» «۳». وأحياناً يغفل الإنسان عن قدرة اللّه تعالى وينسى هذه الحقيقة الحاسمة فى واقع الحياة أو يكون جاهلًا بها ولا يعلم أنّ اللّه تعالى ومنذ انعقاد نطفته فى رحم امّه فإنه بعين اللّه ومحطُّ عنايته ورعايته فى كلّ اموره فى حين انه كان يعيش الضعف بمنتهاه ولا تصل إليه يد أحد من الناس لتُعينه وتوصل إليه رزقه فى ظلمات الرحم، وتستمر عناية اللّه به إلى آخر حياته، وكذلك حال أولاده إذا كانوا يسيرون فى خط الإيمان والصلاح فإنّ اللّه تعالى لا يتركهم لوحدهم، وإن كانوا من أعداء اللّه فلا مسوّغ لأن يتعب الإنسان نفسه فى سبيلهم وخدمتهم. أجل فإنّ الجهل بهذه الامور يؤدى بالإنسان إلى أن يُسجّل اسمه فى دائرة (التأمين على الحياة له ولأبناءه) وهكذا يتورط بمصيدة طول الأمل. إن جميع حالات الجهل هذه (جهل الإنسان بنفسه، جهله بالدنيا، جهله بقدرة اللّه الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۷۵ تعالى، جهله بالآخرة ونعيمها الخالد) يتسبب فى أن يعيش الإنسان الحيرة والضياع فى صحراء الحياة المحرقة أسير الآمال والتمنيات العريضة.

علاج طول الأمل:

لابدّ فى علاج الأمراض من التوجّه إلى الجذور وقلعها من الأساس ليتسنّى للإنسان التخلص من المرض بشكل حاسم، كما لم يقطع جذور المرض فإنّ العلاج السطحى والظاهرى سوف لا ينفعه على المدى الطويل، وبعبارة اخرى: انه حالة من حالات التسكين للمرض لا علاجه. وبالنظر إلى هذا الأصل الأساس ومع الإلتفات إلى جذور الآمال والتمنيات فى واقع الإنسان يمكن أن نصل إلى هذه النتيجة، وهى أنّه لابدّ من التفكّر والتأمل بجدّية فى جذور هذا المرض الأخلاقى. فمن جهة يجب على الإنسان أن يعلم بأنه كائن مُعرّض

للتلف والموت وأنّ الفاصلة بينه وبين الموت قليلة جدّاً، فهذا اليوم يعيش السلامة والصحّة والنشاط ولكن قد نجده غداً وهو متورط بأنواع الأمراض الصعبة أو المصائب المحزنة، واليوم هو قوى وغنى ومتمكن، وغداً يمكن أن يبدو ضعيفاً ومن أفقر الناس، والنماذج على ذلك كثيرة فى صفحات تاريخ البشرية. ومن جهة اخرى يجب أن يتفكر فى إهتزاز الدنيا وتغيّرها الدائم وعدم اعتبارها. أجل فإنّها لا تثبت لأحدٍ من الناس إطلاقاً. ومن جهة ثالثة عليه أن يتدبّر ويتأمل بهذه الحقيقة، وهى اننا نعتقد بالمعاد واليوم الآخر والحساب الإلهى فى عرصات المحشر والثواب والعقاب على الأعمال والأفعال فى الدنيا وأنّ هذا العالم ما هو إلّاقنطرة وجسر يعبر عليه الإنسان إلى تلك الحياة الخالدة فعليه أن يتزوّد من هذه الحياة ولا يتصور أنّها حياة خالدة وانها هى الأصل والهدف من الخلقة. وكذلك يتفكّر فى أنّ الحرص على جمع الأموال والثروات واكتنازها لغرض تحقيق تلك الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۷۶ الآمال والتمنيات الواسعة فى الحياة الدنيا لا يجلب له السعادة أبداً، بل سيزيده شقاءاً ومحنةً أيضاً، ويتفكّر أيضاً فى أنّ أهم حالات الهدوء والطمأنينة هى هدوء الروح وسعادة الوجدان الّتى لم يحصل عليها الإنسان، إلّاإذا سار فى خطّ التقوى والتوكل على اللّه من موقع الإيمان به ومعرفة حال الدنيا لا من موقع الحرص والولع فى تحصيل نعيمها الفانى وإمكاناتها المادية. وأنّ أفضل الطرق للوصول لهذا الهدف هو ما ورد فى الحديث النبوى المعروف: «خُذْ مِنْ دُنْيَاكَ لِاخِرَتِكَ وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ، وَمِنْ صِحَّتِكَ لِسُقْمِكَ، فَانّكَ لَاتَدْرِى مَا اسْمُكَ غَداً» «۱». أى ماذا يحصل لك فى الغد وهل أنت من الأموات أم الأحياء، من المرضى أم الأصحّاء؟ والعامل الآخر الّذى يُربّى الآمال والتمنيات ويقوى جذورها فى نفس الإنسان هو الأهواء النفسية والعشق للدنيا والتعلق بها، فكلّما سعى المرء فى التقليل من تعلّقاته الدنيوية فإنّ أمله فى الحياة سيكون أقصر، وعلى العكس من ذلك كلّما تعلّق الإنسان بالدنيا أكثر كلّما ازدادت آماله وكثرت تمنياته. ولغرض تحصيل هذا الهدف أى تقصير الأمل فى الدنيا فإنّ من أقوى العوامل المؤثرة فى ذلك هو ذكر الموت الّذى يُزيل عن بصيرة الإنسان حجُب الغفلة فيرى حقائق الامور كما هى ويُشاهد الواقعيات الكامنة خلف المظاهر البراقة والظواهر الزائفة. ولهذا ورد عن أميرالمؤمنين عليه السلام فى الخطبة ۹۹ فى نهج البلاغة قوله: «الَا فَاذْكُرُوا هَادِمَ اللَّذَّاتِ، وَمُنَغِّصَ الشَّهَوَاتِ، وَقَاطِعَ الْامْنِيَّاتِ». ونقرأ فى حديث آخر عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله ضمن خطبة له: «عُدَّ نَفْسَكَ فِى اصْحَابِ الْقُبُورِ» «۲» . وذلك لكى لا تبتلى بطول الأمل. ونقرأ فى النقطة المقابلة لذلك ما ورد عن أميرالمؤمنين أنّه قال: «اكْثَرُ النَّاسِ امَلًا اقَلُّهُمْ الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۷۷ لِلْمَوْتِ ذِكْراً» «۱». والطريق الآخر للتصدى لطول الأمل وتضعيفه فى واقع النفس هو مطالعة الآثار السلبية المترتبة عليه. أجل فالإلتفات إلى هذه الحقيقة، وهى أنّ طول الأمل يُعد مصدراً للكثير من الذنوب والرذائل الأخلاقية، ومن الأسباب المهمة لقساوة القلب ونسيان الآخرة، وأن يعيش الإنسان حياة التعب والذلّة والحرمان من النعم والمواهب الإلهية، وتسدل على بصيرته وعقله حجاباً سميكاً لا يدعه يرى الحقيقة من موقع الوضوح فى الرؤية، كلّ ذلك يتسبب فى أن يتحرّك الإنسان على مستوى التفكير الجدى فى علاج هذه الحالة السلبية قبل أن يدمّر سيل الأمل بيت سعادته وبذلك يقوم بتحديد آماله وتهذيب تمنياته ليعود إلى صف العقلاء والسعداء الّذين يعيشون الأمل بشكل معقول ومنطقى. ويقول أميرالمؤمنين عليه السلام فى ذلك: «حَاصِلُ الْمُنَى الْاسَفُ وَثَمَرَتُهُ التَّلَفُ» «۲». أى تلف إمكانات الإنسان وعمره الثمين. ويقول عليه السلام فى حديث آخر: «احْذَرُوا الْامَانِىَّ فَانَّهَا مَنَايَا مُحَقَّقَةٌ» «۳».

وهنا نقطتان:

الاولى: إن الطلب المادى يتحرّك فى اسلوبه العلاجى للأمراض الجسمية والنفسية من موقع ايجاد البديل، أى انه يستبدل رغبات الإنسان الّتى تقوده إلى المرض برغبات اخرى أقوى منها تجره إلى ساحل السلامة والصحّة، مثلًا الشخص الّذى يعيش الرغبة الشديدة فى تناول الأطعمة الدسمة والسكريات بحيث تسبب له أمراض مختلفة، فيوصى بتناول مقدار كبير من الفاكهة والخضروات، أو الأشخاص المدمنين على المواد المخدّرة فإنّ الأطباء يوصونهم باستبدال هذه العادة بعادات اخرى سليمة. الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۷۸ وهذه النقطة صادقة أيضاً فى الأمراض الأخلاقية، وذلك بأن يقوم معلم الأخلاق باستبدال الآمال الطويلة فى الامور المادية

بالآمال الطويلة المعنوية فى دائرة الثواب الإلهى فى الآخرة أو الرغبة الشديدة إلى العلم والمعرفة والتقرب إلى اللّه تعالى بدلًا من العشق للمال والجاه و .... وأمثال ذلك. النقطة الاخرى أنّ للآمال بدورها مراتب، فأحياناً يتمنّى الإنسان أن يكون له عمراً طويلًا أو مخلّداً، كما يتحدّث القرآن الكريم عن طائفة من اليهود ويقول: «... يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ ...» «۱». وهذا الطلب لعدد ألف سنة إذا كان المراد به هو هذا المقدار بالذات فيدلّ على طلبهم للعمر الطويل جدّاً، ولو كان المراد منه بيان الكثرة فيدلّ على طلبهم للعمر اللامتناهى واللامحدود. بعض الناس يعيشون التمنيات والآمال فى مراحل أدنى من ذلك، كأن يتمنّى أن يعيش مائة سنة، أو خمسين سنة، أو عشر سنوات أو أقل، ويُستفاد من الروايات انّ كلّ هذه تُعدّ من الآمال الطويلة (وطبعاً إذا كان الهدف من ذلك هو نيل المتع المادية وتحصيل الامكانات الدنيوية فحسب لا الأبعاد المعنوية والإلهية والتحرّك فى خطّ تقدّم البشرية وخدمة الناس). ومن جهة اخرى فإنّ الآمال والتمنيات لها أنواع مختلفة، فأحياناً يكون الهدف منها هو الجهة المادية، واخرى المقام، وثالثة الشهوات، ورابعة جميع ذلك. وجميع هذه الأقسام للآمال والتمنيات الطويلة والعريضة مذمومة فى الدائرة الأخلاقية رغم أن بعضها أقبح من البعض الآخر.

الآمال والتمنيات الإيجابية والبنّاءة:

وآخر ما يمكن أن يُقال فى بحث طول الأمل هو أنّ الآمال والتمنيات ليست بأجمعها الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۷۹ سلبية وعلامة انحطاط الشخصية والسقوط الأخلاقى، لأن هذه الآمال والتمنيات إذا كانت متجهة نحو القيم الأخلاقية والمُثل الإنسانية الرفيعة، أو تصب فى دائرة الخدمة الإجتماعية وتتحرّك فى خطّ تكامل المجتمع وتطوره الحضارى فى مراتب الكمال وتقود الإنسان إلى السعى وبذل الجهد أكثر فى هذه المسائل، فلا شكّ فى أنّ مثل هذه الآمال والتمنيات حتّى لو كانت طويلة وعريضة فإنّها ليست فقط غير مذمومة بل من علامات الكمال الإنسانى للفرد. وأساساً كما تقدّم فى بداية البحث أنّ الأمل بالمستقبل يمثل القوّة المحركة للإنسان لبذل الجهد والسعى فى حركة الحياة الفردية والاجتماعية فإذا انطفأ نور الأمل والرجاء فى قلب الإنسان فإنه يصبح كالدُمية بلا روح ويتلاشى عنه عنصر النشاط والحركة ويتحول الإنسان إلى كائن جاف وبارد ومن دون هدف معيّن. وفى الواقع فإنّ الآمال على قسمين: أحدها (الآمال الكاذبة) والّتى هى كالسراب فى صحراء الحياة حيث تدعو العطاشى إليها وتجرّهم نحوها دون أن ينالون شيئاً بل يزدادون عطشاً إلى أن تهلكهم. والآخر (الآمال الصادقة) والإيجابية والبنّاءة والّتى هى كالماء الّذى يسقى كلّ حى ويقوّى فى الإنسان روح الحياة والسعى والنشاط، وكلّما ازداد نشاطاً وحركة ازدادت معنويّته وصعد فى معراج الكمال. وهذا هو ما أشار إليه القرآن الكريم بقوله: «ا لْمَالُ وَا لْبَنُونَ زِينَةُ ا لْحَيَا ةِ الدُّنْيَا وَا لْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا» «۱». وقد اشارت هذه الآية إلى كلا القسمين من الآمال: الإيجابية والسلبية. وهناك اشارات دقيقة فى الروايات الإسلامية إلى الآمال الإيجابية والبنّاءة ومن ذلك ما ورد فى الحديث الشريف عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «انَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ الْفَقِيرَ لَيَقُولُ يَا رَبِّ ارْزُقْنِى حَتَّى افْعَلَ كَذَا وَكَذَا مِنَ الْبِرِّ وَوُجُوهُ الْخَيْرِ، فَاذَا عَلِمَ اللَّهُ ذَلِكَ مِنْهُ بِصِدْقِ نِيَّتِهِ الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۸۰ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ مِنَ الْاجْرِ مِثْلَ مَا يَكْتُبُ لَهُ لَوْ عَمِلَهُ، انَّ اللَّهَ وَاسِعٌ كَرِيمٌ» «۱». وأساساً فإنّ عزم الإنسان وهمّته بمقدار آماله الإيجابية، فكلّما اتسعت دائرة هذه الآمال فإنّ عزمه وهمّته ستزداد أيضاً، واللطيف انه يُستفاد من الروايات الإسلامية جيداً أنّ اللّه تعالى يُعطى الثواب للأشخاص المؤمنين بمقدار ما لديهم من الأمل والرجاء، لأن ذلك من علامات قابلية الروح والجسم لأداء الأعمال الصالحة أكثر، وحتّى انه يُستفاد من الروايات أنّ الإنسان إذا كان يرجو ويأمل أملًا جميلًا وايجابياً لغرض تحصيل رضا اللّه تعالى فإنه لا يرحل من هذه الدنيا إلّاويوفّق لنيل هذا الأمل وتحقيقه كما ورد فى الحديث الشريف عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله أنّه قال: «مَنْ تَمَنَّى شَيْئاً وَهُوَ للَّهِ عَزَّوَجَلَّ رِضاً، لَمْ يَخْرُجْ مِنَ الدُّنْيَا حَتَّى يُعْطَاهُ» «۲». وطبعاً يمكن أن تكون هناك بعض الموارد الّتى تستوجب المصلحة أن لا يصل الإنسان إلى ذلك الأمل ولا يناله، لأنّه إذا حصل عليه فسوف تترتب على ذلك بعض الآثار السلبية من قبيل الغرور والغفلة والعشق للدنيا وأمثال ذلك ولذلك فإنّ اللّه

تعالی بألطافه الخفیة لا یوفقه للوصول إلی هذه الآمال والتمنیات. ونختم هذا البحث بالإشارة إلی نکتة اخری وهی أنّ التمنیات الإیجابیة تدعو الإنسان إلی بناء شخصیته وتتسبب فی تکامله المعنوی والروحی، لأنّه یعلم أنّ الشخصیات الکبیرة لن تبلغ هذا المبلغ من الکمال إلّامن خلال تهیئة أسباب الکمال هذا وکما یقول الشاعر: اعَلِّلُ النّفس بالآمال ادرکُهَا مَا اضْیَقَ الْعَیْشَ لَولَافُسحَةُ الْامَلِ

التعصّب والعناد

تنویه

لاشکّ أنّ أساس العبودیة والطاعة للّه‌تعالی یکمن فی عنصر التسلیم والتواضع والخضوع مقابل الحقّ، وعلی العکس من ذلک فإنّ کلّ اشکال (التعصب واللجاجة) تورث الإنسان البعد عن الحقّ والحرمان من السعادة. (التعصب) بمعنی الإرتباط غیر المنطقی بشیء معیّن إلی درجة أنّ الإنسان یضحی بالحقّ من أجل ذلک، أمّا (العناد) فیعنی الإصرار علی شیء معیّن بحیث یسحق تعلیمات العقل والمنطق تحت قدمه من أجل ذلک، والثمرة لهاتین الشجرتین الخبیثتین هو (التقلید الأعمی) الّذی یُعد من أقوی الموانع والسدود أمام تکامل الإنسان وحرکته فی خطّ المعنویات والإیمان والکمال الأخلاقی. عندما نراجع سیرة الأنبیاء العظام وأسباب انحراف الأقوام السالفه عن سلوک طریق الحقّ والدعوة الإلهیة یتضّح لنا جیداً أنّ هذه الامور الثلاثة (التعصب والعناد والتقلید الأعمی لها دورٌ أساس فی عملیة الانحراف هذه، وفی القرآن الکریم اشارات کثیرة إلی هذه المسألة بالذات حیث ینبغی دراستها والتدبّر فیها: ونبدأ من قوم نوح علیه السلام حیث یقول القرآن الکریم: الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۱۸۲ ۱- «وَإِنّی کُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُواْ أَصَابِعَهُمْ فِی ءَاذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْاْ ثِیَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَاسْتَکْبَرُواْ اسْتِکْبَارًا» «۱». ۲- «وَقَالُواْ لَاتَذَرُنَّ ءَالِهَتَکُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا یَغُوثَ وَیَعُوقَ وَنَسْرًا» «۲». ثمّ یورد القرآن الکریم قصة هود ویقول: ۳- «قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَاکَانَ یَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِنْ کُنتَ مِنَ الصَّادِقِینَ» «۳». ثمّ تصل النوبة إلی قصة إبراهیم علیه السلام حیث یقول القرآن الکریم: ۴- «إِذْ قَالَ لِأَبِیهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِیلُ الَّتِی أَنتُمْ لَهَا عَاکِفُونَ* قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَآ عَابِدِینَ» «۴». ۵- «قَالَ هَلْ یَسْمَعُونَکُمْ إِذْ تَدْعُونَ* أَوْ یَنفَعُونَکُمْ أَوْ یَضُرُّونَ* قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا کَذَلِکَ یَفْعَلُونَ» «۵». ثمّ تصل النوبة إلی قوم موسی وفرعون فیقول: ۶- «قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَیْهِ ءَابَآءَنَا وَتَکُونَ لَکُمَا الْکِبْرِیَآءُ فِی الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَکُمَا بِمُؤْمِنِینَ» «۶». ثمّ یصل إلی عصر النبی الأکرم صلی الله علیه و آله حیث نری نفس الأعمال والسلوکیات تصدر من أعدائه حیث یقول عنهم القرآن الکریم: ۷- «وَإِذَا قِیلَ لَهُمُ اتَّبِعُواْ مَآأَنزَلَ اللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآأَلْفَیْنَا عَلَیْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ کَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَایَعْقِلُونَ شَیْئًا وَلَا یَهْتَدُونَ» «۷». الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۱۸۳ ۸- «إِذْ جَعَلَ الَّذِینَ کَفَرُواْ فِی قُلُوبِهِمُ ا لْحَمِیَّةَ حَمِیَّةَ ا لْجَاهِلِیَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَکِینَتَهُ عَلَی رَسُولِهِ وَعَلَی ا لْمُؤْمِنِینَ وَأَلْزَمَهُمْ کَلِمَةَ التَّقْوَی وَکَانُواْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَآ وَکَانَ اللَّهُ بِکُلّ شَیْءٍ عَلِیمًا» «۱». ۹- وکذلک یقول: «وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَی بَعْضِ الْأَعْجَمِینَ* فَقَرَأَهُ عَلَیْهِم مَّا کَانُواْ بِهِ مُؤْمِنِینَ» «۲». وأحیاناً یذکر تعصب الأقوام السالفة بعضها ضد البعض الآخر ویقول: ۱۰- «وَقَالَتِ ا لْیَهُودُ لَیْسَتِ النَّصَارَی عَلَی شَیْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَی لَیْسَتِ ا لْیَهُودُ عَلَی شَیْءٍ وَهُمْ یَتْلُونَ ا لْکِتَابَ کَذَلِکَ قَالَ الَّذِینَ لَایَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ یَحْکُمُ بَیْنَهُمْ یَوْمَ ا لْقِیَامَةِ فِیمَا کَانُواْ فِیهِ یَخْتَلِفُونَ» «۳». وفی مکان آخر یستعرض مسألة التقلید الأعمی والتعصب واللجاجة بعنوانها برنامج عام لجمیع الأقوام الذین یتحرکون فی خط الضلالة والباطل ویقول: ۱۱- «وَکَذَلِکَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِکَ فِی قَرْیَةٍ مّن نَّذِیرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَی أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَی ءَاثَارِهِم مُّقْتَدُونَ» «۴». ۱۲- «وَیَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِکُواْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ» «۵».

تفسیر واستنتاج:

المنهج العام للأقوام المنحرفین

كما تقدم فإنّ هذه الرذائل الأخلاقية الثلاث، (أىْ التعصب والعناد والتقليد الأعمى تُعد الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۸۴ منهجاً عاماً فى سلوك جميع الأقوام الّذين يتحركون فى خطّ الإنحراف والضلال والزيغ، فهؤلاء وبسبب تعصبهم الشديد للأفكار الخرافية والتقاليد الزائفة، وعنادهم وإصرارهم على اعتناقها وعدم التخلى عنها، وبالتالى اتباعهم لآبائهم وأسلافهم إتباعاً أعمى وبذلك انتقلت الخرافات والعقائد الزائفة جيلًا بعد جيل حيث ضاعت دعوة رجال الحقّ والأنبياء الإلهيين الّذين جاءوا لهدايتهم فى زَحمة النعرات الجاهلية لهؤلاء الأقوام المنحرفين. ونبدأ قبل كلّ شىء بقصة نوح مع قومه لنرى أنّ هؤلاء الّذين كانوا يعبدون الأوثان كانوا إلى درجة من التعصب والعناد فى مقابل دعوة نبى عظيم من اولى العزم حتّى أنّهم كانوا يستوحشون من سماع صوته ودعوته إلى اللَّه كما تتحدّث «الآية الاولى من الآيات مورد البحث على لسان نوح فتقول: «وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُواْ أَصَابِعَهُمْ فِى ءَاذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَاسْتَكْبَرُواْ اسْتِكْبَارًا» «۱». أجل فإنّ تعصّبهم وعنادهم كان من الشدّة والقوّة إلى درجة أنّهم لن يسمحوا لآذانهم أن تسمع صوت نوح الحامل للنداء الإلهى، وكذلك لم يسمحوا لعيونهم أن ترى وجهه وسيماءه، وبهذه الطريقة العجيبة كانوا يتهربون من الحقيقة، فما أخطر هذه الحالة الّتى يعيشها الإنسان الجاهل والمتعصب!! وتأتى «الآية الثانية» لتكشف عن بُعدٍ آخر من هذه الرذائل الأخلاقية المتجذّرة فى قوم نوح وتقول: «وَقَالُواْ لَاتَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا» «۲». أما لماذا لم يكونوا على استعداد لترك هذه الاصنام التى صنعوها بأيديهم، بل كانوا يرون أنّها حاكمة على مصيرهم ومصير العالم؟ لا دليل لذلك سوى التعصب والتقليد الأعمى للتقاليد الزائفة والعقائد البالية. الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۸۵ وفى «الآية الثالثة» يتحدّث القرآن الكريم عن قوم عاد وجدالهم مع نبيّهم هود ويقول: «قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَاكَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِنْ كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ» «۱». فهؤلاء كانوا إلى درجة من العناد والجهل والتعصّب بحيث أنّهم لم يطيقوا دعوة هذا النبى إلى التوحيد الخالص واعترضوا عليه فى دعوته لترك ما كانوا يعبدونه من الأوثان حتّى أنّهم كانوا مستعدين لاستقبال امواج البلاء بدلًا من التنازل عن عقائدهم المنحرفة. وعلى هذا الأساس وبسبب التعصب والاصرار والتقليد الأعمى فإنّ التوحيد الخالص الّذى هو روح عالم الوجود كان فى نظرهم أمراً موحشاً وغريباً، وبالعكس فإنّ عبادة الأوثان الّتى لا عقل لها ولا شعور كان أمراً معتبراً ومعقولًا لديهم، بل حتّى أنّهم سلكوا على خلاف مقتضى قانون دفع الضرر المحتمل الّذى يحكم به العقل حيث لم يهتموا أدنى اهتمام باحتمال نزول العذاب الإلهى عليهم وكانوا يصرّون على نبيّهم أن يدعو ربه بتعجيل نزول العذاب عليهم، وهذه الحماقة من هؤلاء ليست سوى حصيلة للتعصب والعناد. أجل فهؤلاء ولأجل الفرار من الحقّ والإستمرار على سلوكهم الجاهلى فى تقليدهم الأعمى للآباء كانوا يسرعون نحو هلاكهم والعقاب الإلهى عليهم وبالتالى تحقّق ما كانوا يطلبونه من نبيّهم واحترقوا بأجمعهم فى عذاب اللَّه، وهذه هى نتيجة العناد والتعصب الجاف والتقليد الخاطىء. وتتعرض «الآية الرابعة» إلى إحدى الإفرازات المشؤومة لهذه الرذائل الأخلاقية على الإنسان، وتتحدّث عن (نمرود) وقومه وتقول عن النبى إبراهيم: «إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِى أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ» «۲». ولكنه لم يسمع جواباً منهم على كلامه إلّاأنّهم قالوا: «قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَابِدِينَ» «۳». الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۸۶ وعندما قال لهم إبراهيم بصراحة حاسمة: إنكم أنتم وآبائكم فى ضلال مبين، لم يستيقظوا من غفلتهم، فلم يكن من إبراهيم إلّاأن بين لهم تفاهة هذه التماثيل والأصنام من موقع العمل والممارسة، فحطّم هذه الأصنام لكى يثوبوا إلى عقولهم، ولكنهم بدلًا من الانتباه من سكرتهم وجهالتهم وبدلًا من أن يمزّقوا حجب الجهل والتعصب واللجاجة فقد هدّدوا إبراهيم بالحرق بالنار، وألبسوا تهديدهم لباس الفعل وترجموه على أرض الواقع، وقذفوا بإبراهيم وسطأمواج النيران الملتهبة، وعندما رأوا أنّ هذه النار تحوّلت إلى نعيم وجنّة وكانت برداً وسلاماً على إبراهيم، وشاهدوا أكبر معجزة إلهية بامّ أعينهم استمروا مع ذلك فى سلوكهم الأحمق بتأثير قيود الجهل والتعصب والاصرار، وادّعوا أنّ ذلك كان من قبيل السحر. كلّ ذلك يدلّ على أنّ هذه الرذائل الأخلاقية إلى أيّة درجة هى خطرة على الإنسان ومانعة من التحرّر فى الفكر والوصول إلى الحقّ، وأنّ الأشخاص الّذين يقعون أسرى فى براثن هذه الرذائل فإنّهم يعيشون الذلّة والحقارة إلى غايتها وبذلك يحطّمون عزّتهم الإنسانية ويهبطون من مقام الإنسانية الشامخ ويقبلون بكلّ ذلك بدلًا من التسليم

والإذعان إلى الحقّ. وتشير «الآية الخامسة» أيضاً إلى عبادة الأوثان لدى قوم (نمرود) عندما واجههم إبراهيم بالأدلة الساطعة والبراهين القاطعة على سخافة هذه العقيدة من خلال الحوار العقلى والمنطقى حيث تقول الآية: «قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ* أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ» «۱». ولكن هؤلاء لم يكن لديهم أىّ جواب منطقى فى مقابل هذه التساؤلات الحاسمة إلّا أنّهم لاذوا بكهف التقليد الأعمى كما تقول الآية: «قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ» «۲». الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۸۷ فى حين أنّ الإنسان إذا أراد أن يسلك فى خطّ التقليد فعلى الأقل يجب أن يقلد ويتبع العالم والخبير بالوقائع ليشير عليه ما ينفعه فى هذا السبيل لا أن يقلد الجاهل والأحمق، ولكنّ حجاب التعصب واللجاجة كان سميكاً إلى درجة انه لن يسمح لأقل شعاع من نور شمس الهداية والمنطق والدليل العقلى فى النفوذ إلى أعماقهم ووجدانهم ليضىء باطنهم بنور الحقّ. «الآية السادسة» تتحدّث عن لجاجة الفراعنة وعنادهم فى مقابل المعجزات الواضحة والآيات البيّنة لموسى حيث فضّلوا البقاء على عقائدهم الوثنية الّتى ورثوها من أسلافهم بدافع من اللجاجة والإصرار والعناد حيث تقول الآية: «قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَآءُ فِى الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ» «۱». هؤلاء لم يسألوا من أنفسهم عن دين موسى هل هو حقّ أم باطل، وماذا يمتاز على دين الأسلاف؟ بل كان كلامهم يدور فقط فى اننا يجب أن نحفظ دين الآباء والأجداد سواءاً كان حقّاً أم باطلًا، فالقيمة الواقعية لنا تكمن فى هذا المنهج فقط، ثمّ قالوا مع كثير من سوء الظن أنّ ما جاء به موسى من الدين الإلهى هو فى الواقع مقدّمة لتحصيل مقاصده السياسية وبسط سيطرته وحكومته على الناس، فلا إله فى البين ولا الوحى الإلهى، وهكذا كانوا يتحركون من موقع سوء الظن هذا وبسبب ذلك التعصب والعناد فى طريق الابتعاد عن الحقّ والإعتذار بتبريرات واهية فى سبيل تحكيم موقعيّتهم مقابل دعوة موسى ولعلّهم كانوا يخافون من أنّه إذا تجلّى نور الهداية الإلهية لشعب مصر عن طريق شريعة موسى فإنّهم سيفقدون بذلك دينهم الخرافى الّذى ورثوه من الآباء وكذلك يفقدون حكومتهم المبنية على هذا الأساس، ولهذا فإنّهم تصدّوا لموسى ودعوته بكلّ ما اوتوا من قوة وتحركوا من موقع تشجيع الناس وتعميق حالة التعصب والعناد فيهم، وبما أنّ الملأ من الفراعنة كانوا يريدون كلّ شىء فى سبيل تعزيز حكومتهم وسيطرتهم على الناس فتصوّروا الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۸۸ أنّ موسى وهارون كذلك يريدون الدين كوسيلة واداة للتوصل إلى الحكومة والسيطرة. وهذا المرض الأخلاقى يستمر مع البشر على طول التاريخ إلى أن نصل إلى زمن الإسلام وعصر رسول اللّه صلى الله عليه و آله. وفى «الآية السابعة» نرى أيضاً أنّ العامل الأساس فى انحراف المشركين العرب هو التقليد الأعمى والتعصب لتراث الآباء والأجداد والّذى يوصد أبواب المعرفة من كلّ جانب على أصحاب هذه الصفة الرذيلة فتقول الآية: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ اللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ...» «۱». ولكن القرآن الكريم يجيبهم على هذا التصور الباطل بجواب حاسم وقاطع ويقول: «... أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَايَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ» «۲». ويتضح من سياق هذه الآية أنّ هؤلاء المشركين لم يُنكروا على النبى صلى الله عليه و آله دعوته السماوية وأنّه يتحدّث من قِبل اللّه تعالى (مَآ أَنزَلَ اللَّهُ)، ولكنهم كانوا غارقين فى مستنقع التعصب والعناد والجهل إلى درجة أنّهم يفضلون دينهم الّذى ورثوه عن الآباء والأجداد على دين اللّه وهم يعلمون بأن أسلافهم كانوا يعيشون الجهل والضلالة. وبهذا نجد أنّ الجهل والتعصب يتسبب فى أنّ الإنسان يترك بسهولة (مَآ أَنزَلَ اللَّهُ) ويدير له ظهره ويتجه نحو الباطل رغم انه يميز بين الحقّ والباطل من موقع الوضوح فى الرؤية. وتستعرض «الآية الثامنة» قصة الحُديبية حيث يذكر اللّه تعالى المسلمين بما جرى من حوادث مهمة وأنّ الكفّار رغم رؤيتهم لعلائم حقانيّة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله إلّاأنّهم وبسبب التعصّبات الجاهلية لم يتحرّكوا فى خطّ الإيمان، وكانت هذه الرذيلة الأخلاقية قد منعتهم من سلوك طريق السعادة العظمى فتقول الآية: «إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ا لْحَمِيَّةَ الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۸۹ حَمِيَّةَ ا لْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى ا لْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُواْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلّ شَىْءٍ عَلِيمًا» «۱». (الحميّة) من مادّة (حَمى (على وزن حَمَدَ) بمعنى الحرارة الّتى يشعر بها الإنسان فى بدنه بسبب العوامل الخارجية أو الأشياء الاخرى، ولهذا السبب اطلقت على الحُمّى أيضاً وهى حرارة المرض. ثمّ اطلقت هذه المفردة على الحالات الروحية والأخلاقية من قبيل: الغضب والتكبر والتعصب وأمثال ذلك وأنّها بمثابة حالات يعيشها الإنسان فى حرارة باطنية

كالنار المستعرة فى قلب الإنسان. والملفت للنظر أنّ هذه الآية أضافت الحميّة إلى الجاهلية، وذلك للإشارة إلى التعصبات المنطلقة من موقع الجهل وعدم العلم، وفى نفس الوقت اضافت السكينة الّتى تقع فى النقطة المقابلة لها إلى اللّه تعالى، وهى الحالة من الهدوء والراحة النفسية الّتى يعيشها الإنسان من موقع الإيمان والوضوح والإنسياق مع الحقيقة. وسيأتى فى البحوث اللاحقة الكلام حول التعصّب الإيجابى والسلبى وحول إضافة الحمية إلى الجاهلية. «الآية التاسعة» تشير إلى نكتة اخرى فى هذا المجال، وتكشف النقاب عن جانب آخر من التعصب الشديد للعرب فى عصر الجاهلية وتقول: «وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ* فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُواْ بِهِ مُؤْمِنِينَ» «۲». يعنى انّ التعصب القومى والعِرقى لهؤلاء العرب كان إلى درجة من الشدّة بحيث إنّ القرآن مع جميع المعارف السامية والفصاحة والبلاغة والمضامين العظيمة لو كان قد نزل على غير العرب فإنّ تعصبّهم العِرقى يمنعهم من الإيمان به ويسدل عليهم حجاباً يُبعدهم الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۹۰ عن إدراك الحقيقة والوصول إلى المقصود. ورغم أنّ بعض المفسّرين قد ذكر لهذه الآية تفسيرات اخرى، ولكن أوضح التفاسير وأنسبها لسياق هذه الآية هو ما ذُكر آنفاً. وعلى هذا الأساس ورد فى بعض الروايات الإسلامية عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله أنّ الأشخاص الّذين يعيشون التعصّب والعناد هم شركاء لأعراب الجاهلية حيث يقول: «مَنْ كَانَ فِى قَلْبِهِ حَبَّةً مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ عَصَبِيَّةٍ بَعَثَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ اعْرَابِ الْجَاهِلِيَّةِ» «۱» . وحبّةٍ من خردل يُضرب بها المثل بالصغر لدى العرب. وتأتى «الآية العاشرة» لتكشف النقاب عن هذه الرذيلة الأخلاقية فى أقوام بشرية اخرى وأنّ كلّ قوم وطائفة يرون أنفسهم أنّهم الأفضل بدافع التعصب واللجاجة ويتحركوا فى تعاملهم مع الآخرين من موقع الإبعاد والنفى ويحسبون أنفسهم أنّهم عباد اللّه المتميزون على سائر الأقوام والشعوب البشرية، وهذا الأمر هو الّذى تسبب فى نزاعات مستمرة وصراعات دائمة بين الأقوام البشرية حيث تقول الآية: «وَقَالَتِ ا لْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَىْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ ا لْيَهُودُ عَلَى شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ا لْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ا لْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ» «۲». ويُستفاد من سياق هذه الآية أنّ هذا اللون من التعصّبات وأشكال الغرور ينبع من الجهل وعدم المعرفة وأنّ كلّ فئة من الناس تعيش الجهل وعدم المعرفة سوف يتورطون فى هذه الرذيلة الأخلاقية. وعبارة (الّذِينَ لَايَعْلَمُونَ) لها مفهوم واسع وأحد مصاديقها هم المشركون العرب، ولذلك فسّرها بعض المفسّرين بأنّهم قوم نوح، أو ذكروا فى تفسيرها أنّ المراد منها جميع الامم البشرية الّتى عاشت التعصب والعناد بسبب الجهل وعدم المعرفة. الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۹۱ «الآية الحادية عشر» تتحدّث عن أصل كلّى وعام وتبيّن أنّ حالة التعصب والاصرار على طول التاريخ البشرى كان لها الدور المهم فى استمرار الأقوام البشرية فى سلوكهم فى خطّ الكفر ومحاربة التوحيد وتقول: «وَكَذَلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى ءَاثَارِهِم مُّقْتَدُونَ» «۱». وسياق الآية يوحى إلى أنّ أهم مانع فى مقابل الإيمان واتباع الأنبياء الإلهيين هو التعصب والتقليد الأعمى الناشىء من حالة الجهل الّتى يعيشها الإنسان. وهنا تتضح الأبعاد الخطيرة لهذه الرذيلة الأخلاقية. ونقرأ فى «الآية الثانية عشر» والأخيرة أنّ الجاهليين وبسبب حالة التعصب واللجاجة كانوا يتهمون أكبر الأنبياء الإلهيين بالجنون ويجعلون ذلك ذريعة لمخالفتهم للدعوات السماوية وتقول: «وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُواْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ» «۲». والعجيب أنّ هؤلاء كانوا غارقين فى دوّامة الجهل والتعصّب الأعمى إلى درجة أنّهم لم يكونوا يُدركون أنّ كلامهم هذا متناقض، فإنّ كونه (شاعراً) يدلّ على الذوق السليم والقريحة والتأمّل والتفكر والإطلاع الوافى على دقائق الكلام (والملاحظ أنّ كلمة الشاعر من مادّة الشعور) وهذا ما يتقاطع مع كونه مجنوناً كما هو واضح. وأحياناً يتهمون الأنبياء بالسحر والجنون كلاهما فى حين أنّ السحر يحتاج إلى الإطلاع الواسع على بعض العلوم والمعارف ويستبطن ذكاءاً خاصاً، وكلّ هذا يتقاطع مع الجنون، وهذا يوضّح أنّ كلام هؤلاء المتناقض لم يكن بوحيٍ من العقل والتفكر الهادىء والمنسجم بل بدافع من الجهل والتعصب والعقدة.

النتيجة النهائية:

وبمرور إجمالى على الآيات الكريمة المذكورة آنفاً والّتى هى نموذج من كثير من الآيات القرآنية فى هذا المجال تتضح هذه الحقيقة

وهى انّ أهم موانع المعرفة والوصول إلى الحقيقة هو حالة التقليد الأعمى الناشىء من التعصب واللجاجة والتحرّك من موقع الرغبات النفسية وبدافع من الأهواء والنوازع الباطنية الّتى تحبس الإنسان فى سجن مظلم من الجهل المطبق. إن الأضرار والخسائر الكثيرة المترتبة على هذه الرذيلة الأخلاقية قد سوّدت صفحات التاريخ البشرى وواجه الأنبياء الإلهيين بسببها مشاكل كثيرة فى طريق هداية الناس إلى اللّه والحقّ وسُفكت بسببها الكثير من الدماء، وهذا يكفى فى إدراك شناعة هذه الحالة الذميمة فى السلوك الإنسانى. لولم تكن هذه الرذيلة الأخلاقية موجودة فى باطن الإنسان فإنّ تاريخ البشرية سيلبس ثوباً آخر ويسطع بوجهٍ جديد فى حركة التكامل الحضارى والتقدّم العلمى ولفُتحت الأبواب أمام البشرية للصعود إلى مدارج عالية من الكمال المعنوى وبدلًا من أن تتحوّل طاقاته وامكانياته الكبيرة إلى سيلٍ مخرب بسبب الجهل والتعصب فإنّ من شأنها أن تتحول إلى منظومة واسعة من المعارف الإلهية والسلوكيات الأخلاقية الحميدة والمُثل الإنسانية الّتى تقود الإنسان فى كلّ بُعدٍ من أبعاد حياته الدنيوية إلى العمران والتكامل المادى والمعنوى.

التعصب والعناد فى الأحاديث الإسلامية:

اشارة

وقبل أن نستعرض فى بحثنا هذا مفهوم التعصب ودوافعه ونتائجه الوخيمة على حياة الإنسان نرى من اللازم أوّلًا استعراض الأحاديث الإسلامية فى هذا الباب لأنها تتضمن الكثير من الامور المتعلقة بهذا الموضوع بصوره إجمالية. الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۹۳ والأحاديث الشريفة فى هذا الموضوع كثيرة ونشير إلى نماذج منها: ۱- ما ورد فى الحديث الشريف عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله: مَنْ كَانَ فِى قَلْبِهِ حَبَّةٌ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ عَصَبِيَّةٍ بَعَثَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ اعْرَابِ الْجَاهِلِيَّةِ «۱». وهذا التعبير يشير إلى أنّ هذه الرذيلة الأخلاقية إلى درجة من الخطورة بحيث إنّ أدنى درجة منها تتقاطع مع الإيمان الخالص. ۲- وورد فى حديث عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: «انَّ اللَّهَ يُعَذِّبُ السِّتَّةَ بِالسِّتَّةِ، الْعَرَبَ بِالْعَصَبِيَّةِ، وَالدَّهَاقِينَ بِالْكِبْرِ، وَالْامَرَاءَ بِالْجَوْرِ، وَالْفُقَهَاءَ بِالْحَسَدِ، وَالتُّجَّارَ بِالْخِيَانَةِ، وَاهْلَ الرَّسَاتِيقِ بِالْجَهْلِ» «۲». والملفت للنظر أنّ هذا الحديث الشريف يذكر التعصب على رأس هذه الامور الستة فى حين أنّها جميعاً من الذنوب الكبيرة. ۳- ونقرأ فى حديث آخر عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله قوله: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ دَعَا الَى عَصَبِيَّةٍ، وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ قَاتَلَ عَلَى عَصَبِيَّةٍ، وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ مَاتَ عَلَى عَصَبِيَّةٍ» «۳». ۴- وجاء فى الخطبة المعروفة بالقاصعة عن أميرالمؤمنين عليه السلام فى نفى التكبّر والتعصّب وأنّ هذه الحالات هى السبب الأساس فى إنحراف إبليس وشقائه وأنّ اللّه تعالى عندما أمر الملائكة بالسجود لآدم فسجدوا إلّاإبليس فإنه يقول: «اعْتَرَضَتْهُ الْحَمِيَّةُ فَافْتَخَرَ عَلَى آدَمَ بِخَلْقِهِ وَتَعَصَّبَ عَلَيْهِ لِاصْلِهِ. فَعَدُوُّ اللَّهِ امَامُ الْمُتَعَصِّبِينَ، وَسَلَفُ الْمُسْتَكْبِرِينَ، الَّذى وَضَعَ اسَاسَ الْعَصَبِيَّةِ» «۴». ۵- وفى حديث آخر عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله أنّه قال: «مَنْ تَعَصَّبَ أَوْ تُعُصِّبَ لَهُ فَقَدْ خَلَعَ رِبَقَ الْايمَانِ مِنْ عُنُقِهِ» «۵». الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۹۴ ونعلم أنّ التعصّب والعناد هُما لازم وملزوم، ولهذا السبب أوردناهما تحت عنوان واحد، وأما بالنسبة إلى حالة العناد والاصرار فى السلوك البشرى وآثارها السلبية فلدينا الكثير من الروايات فى هذا الباب، منها: ۱- ما ورد فى الحديث الشريف عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله أنّه قال: «ايَّاكَ وَاللِّجَاجَةَ، فَانَّ اوَّلَهَا جَهْلٌ وَآخِرَهَا نَدَامَةٌ» «۱». ۲- وجاء فى حديث آخر عن أميرالمؤمنين عليه السلام قوله: «اللِّجَاجُ اكْثَرُ الْاشْيَاءِ مَضَرَّةً فِى الْعَاجِلِ وَالْآجِلِ» «۲». ۳- وفى حديث آخر عن هذا الإمام أنّه قال: «اللِّجَاجُ بَذْرُ الشَّرِّ» «۳». ۴- وجاء فى نهج البلاغة قوله: «اللِّجَاجَةُ تَسِلُّ الرَّأْىَ» «۴». ۵- وأيضاً ورد عن هذا الإمام قوله: «لَيْسَ لِلَجُوجٍ تَدْبِيرٌ» «۵». ومع ملاحظة هذه الروايات الشريفة يتضح التأثير المخرب لهاتين الرذيلتين الأخلاقيتين (التعصّب واللجاجة) فى الحياة الفردية والإجتماعية للناس بحيث إنهما يدفعان الإنسان بعيداً عن الإيمان والإسلام ويجعلانه غريباً عن الأجواء الروحية المنفتحة على اللّه تعالى ويقودانه إلى الكفر والشرك والإقتداء بالشيطان وترك حبل الإيمان، وسوف يأتى لاحقاً

الدوافع الكامنة فى هذه الحالة الأخلاقية.

۱- مفهوم التعصّب ودوافعه

(التعصّب) من مادّة (عَصَبَ) وهى فى الأصل بمعنى الخيوط العصبية والعضلية الّتى تربط بين مفاصل العظام والعضلات، ثمّ استُعملت هذه الكلمة ليُراد بها كلّ نوع من الارتباط الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۹۵ الشديد الفكرى والعملى والّذى يستبطن غالباً معنىً ومفهوماً سلبياً رغم وجود بعض العلائق الإيجابية أيضاً فى مفهومها حيث سيأتى تفصيل ذلك فى الأبحاث اللاحقة إن شاء اللّه. وبديهى أنّ التعلّقات غير المنطقية بالنسبة إلى شخص ما أو عقيدة معيّنة أو شىء من الأشياء فإنه يقود الإنسان إلى اللجاجة والتقليد الأعمى بالنسبة إلى ذلك الشىء أو الشخص، وبالتالى سيكون العامل المهم فى بروز أنواع النزاعات والحروب والاختلافات المستمرة بين البشر. وكلّما تحرك الإنسان على مستوى إزالة هذه التعصبات من ساحة الحياة البشرية والمجتمع الإنسانى فإنّ الناس سوف يتعاملون فى ما بينهم من موقع العقل والمنطق والحوار الهادىء والهادف، وبذلك تزول الكثير من الاختلافات وأسباب النزاع ويعود الهدوء ليُخيّم على المجتمع الإنسانى ويعيش الإنسان فى حركته الإجتماعية بكلّ أشكال الطمأنينة والمحبّة والاخوة. إن مثل هذا التعصب الّذى يتولد مباشرة من حالة اللجاجة والتقليد الأعمى ينبع من الامور التالية: ۱- حُبّ الذات والتعلّق الشديد بالأسلاف إن الإفراط فى حبّ الذات يتسبب فى أن يتعلّق الإنسان بالامور المنسوبة إليه بشدّة ويعتبرها جزءاً من شخصيته وكيانه ومن ذلك الرابطة مع الآباء والأجداد والتقاليد المرسومة فى مجتمعه. إنّ هذا التعلّق الشديد يؤدى إلى نقل الكثير من الخرافات والقبائح إلى الأجيال الاخرى بذريعة حفظ الآداب والسنن والرسوم الإجتماعية وبالتالى فسيخلق حجاباً يصدّ الإنسان عن أيّة معرفة جديدة وارتباط بالحقائق والواقعيات. إن الدفاع الشديد عن القبيلة والعشيرة أحياناً يصل إلى درجة أن أسوأ أفراد القبيلة وأشنع الأعراف والسنن السائدة فى هذه القبيلة تتحول فى نظر الأشخاص المتعصبين إلى الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۹۶ إيجابيات كبيرة وامتيازات مهمة لهذه القبيلة، فى حين أنّ أفضل أفراد القبيلة الاخرى وأسمى الآداب والسنن فى تلك القبيلة تكون هى الأسوأ والأقبح فى نظر هذا الإنسان. ۲- انخفاض المستوى الثقافى والفكرى وكلّما انخفض المستوى الثقافى للناس وعاش أفراد المجتمع فى اهتزاز على مستوى الفكر والثقافة فإنّ التعصبات الجاهلية وأشكال العناد والتقليد الأعمى ستكون حاكمة على هؤلاء الأشخاص، بخلاف إذا ارتفع المستوى الثقافى فى المجتمع وعاش الناس فى علاقاتهم المنطق والعقل والإلتزام الفكرى، فإنّ ذلك من شأنه أن ينفى التعصّب واللجاجة وتستبد حالة التقليد الأعمى بالتحقيق والدراسة والحوار الفكرى النافع للوصول إلى الحقيقة. ۳- ضعف الشخصية والعامل الآخر للتعصّب والتقليد الأعمى هو أنّ الإنسان يعيش أحياناً ضعف الشخصية بالنسبة إلى بعض الشخصيات الّذين يوحون إليه بالقداسة فى أفعالهم وأقوالهم وبذلك يصعدون عن مستوى دائرة النقد حتّى لو كان النقد علمياً وأخلاقياً، وهذا الأمر يتسبب فى أن يتبعهم بعض العوام بعيون مُغمضة وآذان صمّاء ويضحون بأنفسهم وأموالهم فى سبيل الدفاع عن هؤلاء الّذين يرتدون لباس القداسة الزائفة بدون أن يتفكر الإنسان فى مضمون كلامهم وبباطن أفعالهم وسلوكياتهم وآثارها على المدى البعيد. ۴- الإنزواء الإجتماعى والفكرى: والعامل الآخر من عوامل التعصّب هو أنّ الإنسان عندما ينفرد بأفكاره أو بمحيطه الإجتماعى الخاصّ وينفصل عن الجماعات الاخرى والأفكار المخالفة والمتنوعة ويعيش الجهل بالنسبة إلى سائر التيارات الفكرية والثقافية فى المجتمعات البشرية الاخرى، فإنّ ذلك من شأنه أن يُفعّل حالة التعصّب والإلتزام الشديد بما لديه من أفكار وعقائد، فى حين انه لو انفتح على الآخرين وتلاقح فكره مع أفكارهم وقارن بين هذه الأفكار من موضع استكشاف نقاط الضعف والقوّة واستجلاء العناصر الإيجابية والسلبية الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۱۹۷ فى كلٍّ منها، فإنّ ذلك يقوده إلى انتخاب الأفضل منها من موقع الوضوح والإختيار الحرّ.

۲- الآثار السلبية للتعصّب والعناد

إن الآثار السلبية والنتائج المخربة للتعصّب والاصرار فى حركة حياة الإنسان المتعصّب تتجلّى فى الكثير من الموارد: ١- إن التعصّب يعنى الإرتباط غير المنطقى بشخص معيّن أو عقيدة أو عادة أو عرف خاصّ كما سبقت الإشارة إليه، وهذا من شأنه أن يُسدل حجاباً سميكاً على عقل الإنسان وبصيرته يمنعه عن إدراك الحقائق وجوانب الخير والشرّ والمصلحة والمفسدة فى الامور وبالتالى يُحرمه من العثور على طريق للحل والنجاة. ولهذا رأينا فى الأحاديث السابقة أنّ اللجوج لا يتمتع بمديرية سليمة، ورأينا أيضاً فى حالات الشيطان انه لم يتمكن من إدراك البديهيات واوضح الحقائق بسبب تعصبه وعناده، ولذلك قطع عن رقبته طوق العبودية للّه‌تعالى فطرد من ساحة القرب الإلهى إلى الأبد. ٢- إن العصبية والعناد بمثابة النار المحرقة الّتى من شأنها تمزيق العلائق الإجتماعية فى المجتمع وتسلب منه روح الوحدة والالفة وتنثر فيه بذور النفاق والفرقة وتقود الطاقات والقوى البنّاءة الّتى يجب أن تُصرف فى سبيل إعمار المجتمع فى حركته الحضارية باتجاه التضاد والصراع الذاتى فيما بينها، كما نقرأ هذا المعنى فى الحديث الشريف عن أميرالمؤمنين عليه السلام حيث يقول: «اللِّجَاجُ يُنْتِجُ الْحُرُوبَ وَيُوغِرُ الْقُلُوبَ» «١». ٣- إن التعصّب والعناد يتسبّبان فى ابتعاد الأحبّة والأصدقاء عن الإنسان وتبديل الصداقة إلى عداوة وتضاد. ۴- إن التعصّب والعناد من الأسباب والعوامل المهمّة للكفر، وانطلاقاً من هذه الحالة نجد أن أكثر الشعوب والامم السالفة وبسبب التعصّب والعناد كانت تسير فى خطّ الباطل والكفر برسالات السماء والإمتناع عن قبول الحقّ بدافع من المحافظة على السنن البالية والتقاليد الزائفة. الاخلاق فى القرآن، ج٢، ص: ١٩٨ (وقد تقدّمت الإشارة إلى هذا المعنى فى تفسير الآيات السابقة). ۵- إنهما يورثان صاحبهما الألم والتعب والوقوع فى زحمة المشاكل الكثيرة، لأنهما يتسببان بالإنسان أن يعيش مدّة طويلة ولسنوات عديدة أحياناً فى حالة من الحيرة والضلال، وعندما يصل إلى طريق مسدود فإنه عند ذاك يشعر بالتعب واليأس من هذا الطريق الموحش. ومن هذا الموقع نقرأ فى الحديث الوارد عن أميرالمؤمنين عليه السلام قوله: «ثَمَرَةُ اللِّجَاجِ الْعَطَبَ» «١». ولهذا السبب فإننا نجد أنّ التعصّب غالباً ما يورث الندم كما تقدّمت الإشارة إليه فى الأحاديث السابقة. ۶- انهما يُفقدان الشخص توازنه فى اختيار الامور ويجرانه إلى مواقع لن يرغب الولوج فيها، ولهذا ورد فى بعض الأحاديث الإسلامية عن أميرالمؤمنين عليه السلام قوله: «لَا مَرْكَبَ اجْمَحَ مِنَ اللِّجَاجِ» «٢». ٧- وأخيراً فإنّ التعصّب واللجاجة يحوّلان حياة الإنسان فى دنياه وآخرته إلى دمار وخراب، لأنهما يورثانه فى حياته الدنيا العداوة والفرقة والاخطاء الكثيرة وفقدان الراحة والهدوء والإستقرار، وفى الآخرة يتسببان فى ابتعاده عن رحمة اللّه، وهذا هو ما ورد فى الرواية عن أميرالمؤمنين عليه السلام: «اللِّجَاجُ اكْثَرُ الْاشْيَاءِ مَضَرَّةً فِى الْعَاجِلِ وَالْآجِلِ» ومرّة اخرى نرى من الضرورى الإشارة إلى هذه الحقيقة، وهى أنّ هذه الرذائل الأخلاقية الثلاث (التعصّب واللجاجة والتقليد الأعمى رغم أنّها تختلف فى دائرة المفهوم والمحتوى إلّاأنّها تتحد فى دائرة المصداق وترتبط برابطة وثيقة، وفى الإصطلاح: بينهما علاقة اللازم والملزوم، ولذلك أوردناها جميعاً فى بحث واحد. الاخلاق فى القرآن، ج٢، ص: ١٩٩ أمّا الدوافع على التعصّب واللجاجة فواضحة أيضاً، لأن أشكال التعصّب الأعمى والمخرّب ينطلق قبل كلّ شىء من الجهل بالامور، ولهذا السبب فإنّ كلّ طائفة تعيش الجهل أكثر فإنّها تعيش حالة التعصّب والتقليد الأعمى أكثر إلى درجة أنّ الإنسان على هذا المستوى غير مستعد لإيجاد التحول والتغيير نحو الأفضل فى وضعه وحالته النفسية والإجتماعية، ولذلك كانت العصبية دائماً سبباً للتخلف الحضارى والإجتماعى. وقد قرأنا فى الأخبار السابقة أيضاً ما ورد عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله أنّه قال: «إياك واللجاجة، فإنّ أولها جهل وآخرها ندامة». والعامل الآخر الّذى يدفع الإنسان باتجاه التعصّب واللجاج هو الأنانية وحبّ الذات، لأن الشخص الأنانى يحبّ كلّما لديه من العلائق والامور الّتى تُنسب إليه وترتبط به حتّى على المستوى الاصول والتقاليد الخاطئة والعقائد الزائفة، ولذلك قد يظهر عصبية شديدة لما عليه قومه وقبيلته من التقاليد والعقائد ويقبل ما ورثه من آبائه من السنن والمعارف من دون أىّ تحرّك فكرى واستقلال عقلى. وأحياناً يكون التقاعس وحبّ الراحة من الدوافع الاخرى الّتى تقود الإنسان للتعصّب واللجاجة، لأن الانتقال من حالة إلى اخرى يحتاج فى كثير من الأحيان إلى بذل الجهد والسعى ومواجهة الموانع والتحديات الّتى يفرضها الواقع، وأنّى للكسول والمتقاعس أن يتحرك فى هذا السبيل، ولهذا السبب نجده يتمسك دائماً بما لديه من الأفكار والعقائد والأوهام المختلفة.

۳- التعصّب الإيجابى والسلبى

هناك ثلاث مفاهيم متقاربة فى المعنى وهى: التعصّب، الحميّة، التقليد، وكلّ واحدٍ من هذه الامور تنقسم إلى: إيجابى وسلبى. أو: ممدوح ومذموم، الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۰۰ رغم أنّ مفردة (التعصّب) ترد غالباً فى المعنى المذموم والسلبى. وبشكل عام فإنّ الإنسان إذا ارتبط بالامور غير المنطقية وتحرّك فى سلوكه من موقع قبولها والدفاع عنها فهو من التعصّب المذموم، وهذا هو ما ورد فى القرآن الكريم بعنوان (العصبية الجاهلية) ولكن إذا خضعت علاقة الإنسان مع هذه الامور للمنطق والعقل وكانت النتائج المترتبة عليها مفيدة وبنّاءة وتعصّب لها الإنسان فهو من التعصّب الممدوح والإيجابى. ونقرأ فى نهج البلاغة فى الخطبة (القاصعة) لأميرالمؤمنين عليه السلام إشارة إلى هذا المعنى حيث يقول: «فَاطْفِئُوا مَا كَمَنَ فِى قُلُوبِكُمْ مِنْ نِيرَانِ الْعَصَبِيَّةِ، وَاحْقَادِ الْجَاهِلِيَّةِ، فَانَّمَا تِلْكَ الْحَمِيَّةُ تَكُونُ فِى الْمُسْلِمِ مِنْ خَطَرَاتِ الشَّيْطَانِ وَنَخَوَاتِهِ وَنَزَغَاتِهِ وَنَفَثَاتِهِ» «۱». فنجد فى هذه الخطبة انها تقوم على أساس من ذمّ الكِبر والغرور والتعصّب واللجاجة، ويقول الإمام فى مكان آخر أيضاً: «فَانْ كَانَ لَابُدَّ مِنَ الْعَصَبِيَّةِ فَلْيَكُنْ تَعَصُّبُكُمْ لِمَكَارِمِ الْخِصَالِ، وَمَحَامِدِ الْافْعَالِ، وَمَحَاسِنِ الْامُورِ الَّتِى تَفَاضَلَتْ فِيهَا الْمُجَدَاءُ وَالنُّجَدَاءُ مِنْ بُيُوتَاتِ الْعَرَبِ ... فَتَعَصَّبُوا لِخِلَالِ الْحَمْدِ، مِنَ الْحِفْظِ لِلْجِوَارِ، وَالْوَفَاءِ بِالذِّمَامِ، وَالطَّاعَةِ لِلْبِرِّ، وَ الْمَعْصِيَةِ لِلْكِبْرِ، وَالْاخْذِ بِالْفَضْلِ، وَالْكَفِّ عَنِ الْبَغْيِ» «۲». فعليه فالإمام أميرالمؤمنين عليه السلام يشير فى هذه الخطبة إلى (التعصّب) بكلا قسميه، وعندما سُأل الإمام زين العابدين عليه السلام عن معنى العصبية ذكر كلا القسمين أيضاً وقال: «الْعَصَبِيَّةُ الَّتِى يَأْثَمُ عَلَيْهَا صَاحِبُهَا انْ يَرَى الرَّجُلُ شِرَارَ قَوْمِهِ خَيْراً مِنْ خِيَارِ قَوْمٍ آخَرِين! وَلَيْسَ مِنَ الْعَصَبِيَّةِ انْ يُحِبَّ الرَّجُلُ قَوْمَهُ وَلَكِنْ مِنَ الْعَصَبِيَّةِ أنْ يُعِينَ قَوْمَهُ عَلَى الظُّلْمِ» «۳». وطبقاً لهذا الحديث فإنّ العصبية الّتى يعيشها أفراد القوم أو القبيلة مادامت تسير فى خطّ الخير والصلاح فهى إيجابية وممدوحة، لأن هذه العصبية والارتباط الشديد لا يدفع الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۰۱ الإنسان إلى ارتكاب الممنوعات ولا يقوده نحو الخطيئات بل يُعمق فيه أواصر المحبّة ويؤكد وشائج المودّة بين الأفراد، امّا التعصّب المذموم فهو أن يسحق العدالة والحقّ تحت قدمه من أجل قومه ويضحى بالقيم الأخلاقية والشرعية للحفاظ على القيم الخرافية والتقاليد الزائفة. وورد فى حديث آخر عن هذا الإمام أيضاً قوله «لَمْ يَدْخُلِ الْجَنَّةَ حَمِيَّةٌ غَيْرُ حَمِيَّةِ حَمْزَةَ ابْنِ عَبْدِالْمُطَّلِبِ، وَذَلِكَ حِينَ اسْلَمَ غَضَباً لِلنَّبِيِّ فِى حَدِيثِ السَّلَا الَّذى الْقِىَ عَلَى النَّبِىّ صلى الله عليه و آله» «۱». وبديهى أن تعصّب حمزة فى الدفاع عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله فى مقابل المشركين الّذين يعيشون العصبية الحمقاء والجاهلية الزائفة لم يكن تعصّباً خارجاً عن حدود العقل والمنطق والعدالة، ولذلك فهو من التعصّب الممدوح، ولو أنّ حمزة قد سلك فى تعصبه هذا فى خط الباطل وارتكب ما يخالف الحقّ والعدالة فإنّ ذلك يقع فى دائرة التعصّب المذموم والسلبى أيضاً.

۴- التقليد البنّاء والأعمى

إن (التقليد) ينقسم كالتعصّب إلى قسمين: ايجابى وسلبى. وبعبارة أدّق، يمكن تقسيم التقليد إلى أربعة أنحاء وأشكال، ثلاثه منها سلبية وواحد ايجابى. الأوّل: (تقليد الجاهل للجاهل) وهو أن يتحرك بعض الجهلاء والسذّج من الناس فى أفكارهم وسلوكياتهم بدافع من تقليد طائفة اخرى من الجهال ويستوحون منهم اعتقاداتهم وسننهم وتقاليدهم، فمثل هذا التقليد هو الّذى ورد الذمّ والتوبيخ عليه بشدّة فى القرآن الكريم حيث يُعد من أسباب الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۰۲ التعصّب واللجاجة وأحياناً من نتائجهما المترتبة عليهما، وهذا هو العامل المهم فى انتقال الخرافات من قوم إلى قوم آخرين، وهذا هو ما تصدّى له الأنبياء والدعاة إلى الحقّ من موقع إبطاله ودحوه. الثانى: (تقليد العالِم للجاهل) وهو أشنع أنواع التقليد، وهو أن يتحرك الإنسان بالرغم من علمه ومعرفته فى السير فى خط الباطل ويتبع الجهلاء فى ذلك بسبب ما علق على قلبه من حالات التعصّب الذميم. إن مسألة (الاستعوام) واستسلام العلماء أمام

أفكار الجهال والعامّة من الناس هو نوع من تقليد العالم للجاهل. الثالث: (تقليد العالِم للعالم) ويكون بصورة أن يتقاعس العالم عن البحث والتحقيق فی أمر من الامور ويستسلم للنتائج الّتی توصل إليها عالم آخر من دون دراسة ونظر فاحص، ومن الواضح أنّ هذا النوع من التقليد مذموم أيضاً رغم انه ليس بشناعة القسم الأوّل والثانی، لأنّه ينبغی على العلماء وأهل المعرفة فی كلّ قوم وامّة أن يبذلوا ما لديهم من الجهود فی دائرة التحقيق والبحث العلمی فی كلّ مسألة لإستخلاص النتائج الّذی يفرضها البحث العلمی، ومع توفر الاستعداد والقابلية للتحقيق والبحث فإنّ الاستسلام الأعمى إلى الآخرين ليس من شأن العالم، ولهذا ورد فی الفقه الإسلامی أنّ التقليد حرام على المجتهد. وقد ورد فی التعبيرات المعروفة فی اجازات الاجتهاد هذه العبارة (يُحرم عليه التقليد)، إلّاأن يكونا متخصصين فی مجال التخصص العلمی (كالطبيب المتخصّص فی أمراض القلب مثلًا يراجع الطبيب المتخصّص بأمراض العين فی هذا المورد بالذات) أو يرجع المتخصّص لاستاذه، فهو فی الواقع من قبيل القسم الرابع الّذی ستأتی الإشارة إليه. الرابع: (تقليد الجاهل للعالم) بما يتعلق بعلمه، وبعبارة اخرى: أن يراجع غير المتخصص إلى المتخصص فی كلّ فن، وبعبارة ثالثة أيضاً: إن ما لا يحيط به الإنسان عِلماً عليه أن يرجع فی ذلك لأهل العلم الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۲۰۳ والخِبرة ليقتبس منهم (كما فی رجوع المرضى إلى الأطباء فی الأمراض المختلفة) وهذه المسألة تُعد من الاسس والدعائم للحياة الفردية والإجتماعية للإنسان. وتوضيح ذلك: أنّ العلوم والفنون والمعارف البشرية إلى درجة من السعة والكثرة بحيث إنّ كلّ واحد من البشر لا يمكنه الإحاطة بها جميعاً، وقد كان هذا الحال من قديم الأيّام وقد تجلّى هذا المعنى أكثر فی عصرنا الحاضر حيث تشعّبت العلوم والمعارف وتطوّرت بشكل كبير جدّاً بحيث إنّ كلّ إنسان لا يستطيع حتّى فی الإحاطة بجميع فروع علم واحد من العلوم كالطب مثلًا أو الهندسة فكيف الحال بالعلوم الاخرى ومع هذا الحال فلا مفر أمام الناس إلّاأن يرجع الجاهل منهم إلى العالم، وهذا أصل مسلّم فی حركة الحياة وقد بنيت عليه سيرة العقلاء فی جميع العالم، والسير بخلاف هذا المنهج يؤدی قطعاً إلى تخلخل مفاصل المجتمع واهتزاز أركانه وبالتالی انحطاطه الحضاری والثقافی. وهكذا الحال فی المسائل المعنوية والأخلاقية والعلوم الدينية، فلا يمكن أن يتوقع من جميع الناس أن يكونوا أصحاب فكر واجتهاد فی جميع العلوم والمعارف الإسلامية، فبعض هذه الفروع العلمية إلى درجة من السعة بحيث تحتاج لدراستها والإحاطة بها إلى خمسين سنة من البحث والتحقيق (من قبيل علم الفقه). فمن الطبيعی أن يرجع الأشخاص المنشغلين عن هذه العلوم والجاهلين بها إلى العالم والخبير بها، ولكن بالنسبة إلى اصول الدين والعقائد المذهبية الّتی تشكّل دعائم المنظومة فی الفكر الدينی فإنّ على كلّ إنسان أن يحيط بها بمقدار ما يمكنه ذلك منها ولا يقبل من العقائد إلّاما كان مستنداً إلى دليل وبرهان، فالتقليد فی مثل هذه الامور غير جائز، بل لابدّ من التحقيق والفحص وعدم قبول المعتقدات الدينية الأساسية إلّاعن دليل وبرهان. وعلى أيّة حال فإنّ مثل هذا التقليد لا يُعد من القسم المذموم ولا يدخل فی دائرة التقليد السلبی بل هو مصداق قوله تعالى: «... فَاسْئَلُوا اهْلَ الذِّكْرِ انْ كُنْتُمْ لَاتَعْلَمُونَ» «۱». وليس من الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۲۰۴ قبيل قوله تعالى «... انَّا وَجَدْنَا آبَائَنَا عَلَى امَّةٍ وَانَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ» «۱». وهذا لا يرتبط بمسألة التعصّب المذموم الّذی هو الدافع للإنسان إلى سلوك طريق اللجاجة والتقليد الأعمى

۵- طرق العلاج

إن الطريق لعلاج هذه الرذيلة الأخلاقية هو كسائر علاج الرذائل الأخلاقية الاخرى فإنه يتطلب فی المرتبة الاولى الإلتفات إلى الدوافع والجذور والسعی لإزالتها من واقع الإنسان وباطنه، ومع العلم بأنّ جذور التعصّب هو ما تقدّم من الانانية والافراط فی حبّ الذات، انخفاض المستوى الثقافی، ضعف الشخصية، العزلة الاجتماعية والفكرية، وأمثال ذلك. ولابدّ لإزالة هذه الصفة الرذيلة وتطهير النفس منها من الصعود بالمستوى العلمی والثقافی للأفراد والسعی للتعرف على الأقوام والشعوب الاخرى والاطلاع على أفكارهم وعقائدهم، وكذلك تعديل حبّ الذات فی شخصية الإنسان وقلع الميول والاتجاهات المضرة فی نفسه والّتی تورثه التعصّب واللجاجة والتقليد الأعمى وكذلك يجب الالتفات إلى الآثار السلبية لهذه الحالات الذميمة من أجل إصلاح النفس وتهذيبها وتطهير القلب من هذه

الشوائب والأدران المحيطة بها. وعندما يدرك الإنسان أنّ التعصّب واللجاجة تسدل على فكره وعقله حجاباً وستاراً مضمراً يمنعه من إدراك الحقائق وفهم الواقعيات وكذلك من شأنه أن يمزق العلائق الإجتماعية بين أفراد المجتمع ويبذر بذور النفاق والاختلاف والفرقة بينهم، ويُفضى إلى الشقاء والتعاسة ويورث الإنسان التعب والدرك وحتّى انه قد يؤدى به إلى الإنزلاق فى دوّامة من المشاكل لم يكن يتوقعها أبداً. فمطالعة هذه الامور من شأنها أن تقلّل من شدّة العصبية والعناد وتساعد الإنسان فى النزول عن مركب الغرور والتعصّب والتقليد الأعمى الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۰۵ وأن يسلك بالتالى فى خطّ السعادة والإنصاف ويسلك المنهج العقلانى فى التفكير والمعتقد. وأحد الامور الاخرى فى طريق علاج هذه الرذائل الأخلاقية هو تغيير شكلها ومحتواها، بمعنى أنّ الإنسان يقوم بعملية استبدال الدوافع السلبية بدوافع اخرى ايجابية. مثلًا: الشخص الّذى يعيش التعصّب الشديد بالنسبة إلى الامور غير المنطقية أو الخرافية، فبدلًا من أن يسعى إلى قتل الدافع لهذا التعصب فى نفسه يقوم بتحويله إلى الجهة الإيجابية فيتعصب للُامور الحقّة. وهذا هو ما قرأناه فى الخطبة القاصعة للإمام أميرالمؤمنين عليه السلام حيث يقول: «فإنّ كان لابدّ من العصبية فليكن تعصبكم لمكارم الخصال ومحامد الأفعال ومحاسن الامور» «۱». وإذا كان المفروض على الإنسان أن يتعصب لشىء فى علاقاته وتفاعله مع الآخرين فالأفضل أن يكون تعصبه للقيم الأخلاقية والمثل الإنسانية.

۶- التسليم مقابل الحق

النقطة المقابلة للتعصّب واللجاجة والتقليد الأعمى هو التسليم مقابل الحقّ الّذى يُعد من الفضائل المهمة الأخلاقية، أىّ أنّ الإنسان يقبل بالحقّ من أىّ شخص كان حتّى لو رآه أبعد الناس وأصغرهم فيسلّم له. وهذه الفضيلة الأخلاقية هى السبب فى التقدّم العلمى والتطور الحضارى للبشرية وتورث الإنسان الحصانة من الوقوع فى الضلالة وسلوك طريق الباطل. ولايتحلّى بهذه الصفة الأخلاقية الحميدة إلّاأهل الإيمان والصالحون من الناس والّذين يبتعدون عن الافراط فى حبّ الذات والتعلقات القومية الذميمة ويجتنبون الميول الذاتية فى دائرة الفضيلة والمعتقد. إن التسليم مقابل الحقّ هو من علامات الإيمان، وسلامة الفكر والروح، وارتفاع الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۰۶ المستوى الثقافى لدى الإنسان، والقرآن الكريم يشير إلى هذه الخصلة الحميدة مخاطباً النبى الأكرم صلى الله عليه و آله: «فَلَا وَرَبِّكَ لَايُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَايَجِدُوا فِى انْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً» «۱». ويقول فى مكان آخر: «وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ اذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ امْراً انْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ امْرِهِمْ» «۲». وطبعاً فإنّ التسليم (بعنوان فضيلة أخلاقية) يُستعمل على معنيين: أحدهما: التسليم مقابل الحقّ والّذى يقع فى النقطة المقابلة للتعصّب واللجاجة والتقليد الأعمى والآخر: هو التسليم مقابل القضاء والقدر الإلهيين فيعيش الإنسان فى حالة الشكر والرضا بما قسم اللَّه ولا يعيش السخط والكفران. وموضع البحث فى هذا الفصل هو ما يتعلق بالمعنى الأوّل، امّا المعنى الثانى فسوف يأتى الكلام عنه فى بحث (الرضا والتسليم). ۱۰ و ۱۱

الجُبن والشجاعة

تنويه:

ومن الرذائل الأخلاقية الاخرى فى منظومة القيم هى صفة (الجُبن) والخوف غير المنطقى والّذى يورث الإنسان الذلّة والمهانة والسقوط ويحطّ من قدر صاحبه ويتلف طاقاته ما كان منها بالفعل أو بالقوة ويفضى به إلى أن يتسلط عدوه عليه. والنقطة المقابلة لهذه الصفة الذميمة هى (الشجاعة) والشهامة والجرأة والّتى تُعد مفتاحاً للنصر والفلاح فى حركة الإنسان الإجتماعية وعنصر العزّة والعظمة للمجتمع البشرى سواءاً فى ميدان الحرب والجهاد أو فى ميدان السياسة والاجتماع وحتّى فى الميادين العلمية فإنّ الشجاعة تُعتبر مفتاحاً للورود إلى هذه الميادين، ومن هذا المنطلق نجد أنّ علماء الأخلاق أطنبوا فى ذكر هاتين الصفتين (الجبن والشجاعة) وبيّنوا أسبابها

ونتائجها وآثارها على حياة الفرد والمجتمع. وورد في كتب القدماء من علماء الأخلاق أنّ الشجاعة هي أحد الأركان للفضائل الأربعة، وبالمقابل ذكروا الجبن باعتباره أحد الرذائل الأربع أيضاً. وورد في سيرة الأنبياء العظام واتباعهم الحقيقيين ما يجسد هذه الصفة وأنّ هؤلاء العظماء كانوا مظهراً من مظاهر الشجاعة واسطورة للمقاومة والتصدى للباطل وقوى الاخلاق في القرآن، ج۲، ص: ۲۰۸ الانحراف وخير قدوة لجميع الناس في هذا الطريق. وبهذه الإشارة نعود إلى القرآن الكريم لنستوحي دروساً في هذه الفضيلة الأخلاقية وما يترتب من الآثار السلبية على صفة الجبن أيضاً. ۱- نقرأ في قصة إبراهيم عليه السلام قوله تعالى: «وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَا هِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ* إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَـٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِى أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ* قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَابِدِينَ* قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلالٍ مُّبِينٍ* قَالُواْ أَجِئْتَنَا بِالْحَقّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللّاعِبِينَ* قَالَ بَل رَّبُّكُم رَبُّ السَّمَاوَا تِ وَالْأَرْضِ الَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَاْ عَلَى ذَلِكُم مّنَ الشَّاهِدِينَ* وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ* فجعلهم جُذاذًا إلّاكبيرًا لَّهُمْ لَعلَّهُم إِلَيهِ يَرْجِعُونَ» «۱». ۲- وبالنسبة إلى موسى بن عمران عليه السلام نقرأ قوله تعالى: «يَامُوسَى لَاتَخَفْ إِنّى لَايَخَافُ لَدَىَّ الْمُرْسَلُونَ» «۲». ۳- ونقرأ عن طالوت وجنوده الشجعان: «... فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُ قَالُواْ لَاطَاقَةَ لَنَا ا لْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُواْ اللَّهِ كَم مّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ* وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى ا لْقَوْمِ ا لْكَافِرِينَ» «۳». ۴- وبالنسبة إلى أصحاب الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله والفئة الشجاعة من المؤمنين معه وكذلك من يدّعى الايمان نقرأ قوله تعالى: «وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَامُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُواْ وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مّنْهُمُ النَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا* ... وَلَمَّا رَأَى ا لْمُؤْمِنُونَ الاخلاق في القرآن، ج۲، ص: ۲۰۹ ا لْأَحْزَابَ قَالُواْ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَآ زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا» «۱». ۵- ونقرأ في مكان آخر قوله تعالى: «قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مّنْ عِندِهِ أَو بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُواْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبّصُونَ» «۲». ۶- وحول جماعة من انصار النبى الأكرم صلى الله عليه و آله يقول تعالى: «الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ ا لْوَكِيلُ* ... إِنَّمَا ذَا لِكُمُ الشَّيْطَنُ يُخَوّفُ أَوْلِيَآءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ» «۳». ۷- «الَّذِينَ يُبَلّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا» «۴».

تفسير واستنتاج:

الأنبياء والشجاعة

تتحدّث «الطائفة الاولى من الآيات محل البحث عن شجاعة النبى إبراهيم عليه السلام بطل التوحيد مقابل عبدة الأصنام من قومه الّذين كانوا يعيشون التعصّب واللجاجة والخشونة، وتشير الآيات إلى هذا النبى العظيم وكيف انه تصدّى لأقوى سلطة في تلك الفترة لوحده ومن دون أن يكون له ناصر من قومه، في مقابل كثرة الأعداء الغاضبين والذين كانوا يمثلون خطراً عليه حيث كانوا يتمتعون بدعم الحكومة والسلطة في ذلك الزمان. الاخلاق في القرآن، ج۲، ص: ۲۱۰ وقد عبّرت الآيات الكريمة عن ذلك بقولها: «وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَا هِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ» «۱». وفي الواقع فإنّ اللَّه تعالى قد وهب لإبراهيم مؤهّلات كثيرة تمنحه القدرة على تحمّل تلك المسؤولية العظيمة والاستفادة من هذه المواهب والقابليات في خطّ تقوية دعائم الإيمان والتوحيد والتصدّى للعامل الأساس في شقاء البشرية، أى عبادة الأصنام والأوثان، وكما سيأتى في سياق هذه الآيات الشريفة أنّ إبراهيم ابتدأ أوّلًا بدعوة عمّه آزر للإيمان بصراحة اللهجة وتمام القوّة وقال له: «مَا هَـٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِى أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ». وعندما أجابه آزر بالقول: «قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَابِدِينَ». فأجابه إبراهيم عليه السلام: «قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلالٍ مُّبِينٍ». إنّ آزر لم يكن يصدّق لحدّ الآن أنّ إبراهيم سوف يتصدى بهذه الصراحة والجدّية لمقاومة هذه الأصنام الّتى يعبدها الجميع ولذلك سأله: «قَالُواْ أَجِئْتَنَا بِالْحَقّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللّاعِبِينَ». ولكن إبراهيم عليه السلام أجابه أنّه جادٌّ في كلامه هذا وقال: «قَالَ بَل رَّبُّكُم رَبُّ السَّمَاوَا تِ وَالْأَرْضِ الَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَاْ عَلَى ذَلِكُم مّنَ الشَّاهِدِينَ».

ثمّ أضاف: «وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ» «۲». وهكذا ترجم إبراهيم عليه السلام قوله فى ميدان العمل بعد أن استغلّ الفرصة المناسبة لذلك، فكسّر الأصنام جميعها إلّاالصنم الأكبر لعلّهم يثوبون إلى رُشدهم أو يرجعون الى الصنم الاكبر المسبب لهذه الحادثة ليسألوه كما تقول الآية: «فجعلهم جُذاذًا إلّاكبيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُم إِلَيهِ يَرْجِعُونَ» «۳». وهناك اختلاف بين المفسّرين فى مرجع الضمير فى قوله (إليه) فى ذيل الآية، وقد أورد الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۱۱ المفسّرون احتمالات عديدة، فذهب البعض إلى أنّه يعود إلى (كبيرهم) أىّ يرجعون إلى الصنم الكبير ويسألونه عن سبب تحطّم وانهدام هذه الأصنام والسبب فى نجاته هو من بينهم، وطبيعى أنّ هذا الصنم سيعجز عن الجواب، ومن هنا يتضّح لهم خواء معتقدهم. والاحتمال الآخر هو أنّ الضمير يعود إلى (إبراهيم) يعنى أنّ الوثنيين يرجعون إلى إبراهيم ويسألونه عن الدافع الّذى حمله على هذا التصرّف، فيوضّح لهم الحقائق (وطبعاً فى هذه الآية تكون جملة (إلّا كبيراً لهم) عديمة التأثير فى مفهوم الآية بخلاف الاحتمال السابق). الاحتمال الثالث: أن يعود الضمير إلى اللَّه تعالى، أى أنّ مشاهدة ضعف هذه الأصنام وذلتها فى مقابل إنسان واحد سيؤدى إلى أن يثوب الوثنيون إلى رشدهم ويتركوا عبادة الأصنام ويتجهوا إلى اللَّه تعالى ويسلكوا خطّ العبادة والتوحيد. (وهذا التفسير أيضاً يرد عليه الإشكال السابق). ولكن الأنسب من الجميع لسياق الآيات هو التفسير الأوّل. وعلى أيّة حال فإنّ هذه الآيات تشير إلى أنّ أحد الفضائل الأخلاقية للأنبياء اولى العزم هو شجاعتهم المنقطعة النظير، وأنّهم لم يكونوا يشعرون بالخوف إلّافى دائرة الإيمان باللَّه تعالى وفى مقابل الذات المقدسة، وفى هذا الطريق لم يكونوا يعيشون التردّد والخوف والضعف بأى شكل من الأشكال، وبالتالى فهم منزّهون ومطهَّرون عن حالة الجُبن والخوف الّذى يُعد رذيلة أخلاقية كبيرة، ولهذا نجد إبراهيم عليه السلام وهو يتصدّى لجماعات الوثنيين وقوى الانحراف والأعداء الشرسين لوحده وينتصر عليهم أخيراً، ولاشكّ أنّ الأنبياء العظام لو كانوا يعيشون حالة الخوف والجُبن فى حركة الحياة فإنّهم لم يكونوا قادرين على أداء مهمّتهم الرسالية والإنتصار على الأعداء. وتتحرك «الآية الثانية» من موقع توجيه الخطاب للنبى موسى بن عمران، وذلك لمّا نزل عليه الوحى لأول مرّة وقد صدر له الأمر بأن يُلقى عصاه الّتى تحوّلت بإعجاز إلهى إلى الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۱۲ ثعبان عظيم، فخاف موسى من هذه الظاهرة العجيبة وقرّر الفرار، إلّاأنّ الخطاب الإلهى جاءه ليعلّمه أوّل درس أخلاقى تجاه الحوادث وقال: «يَامُوسَى لَاتَخَفْ إِنّى لَايَخَافُ لَدَىَّ الْمُرْسَلُونَ» «۱». ونظراً إلى أنّ جميع أنحاء العالم هى فى محضر اللَّه تعالى وإن كلّ زاوية من زوايا الكون هى محلّ حضور ذاته المقدسة وعلمه وقدرته، ولذلك على المؤمنين أن لا يخافوا بأيّة حال وفى كلّ الظروف بل عليهم أن يعيشوا حالة التوكل على اللَّه تعالى ويواجهوا تحديات الواقع بشجاعة وشهامة، ويسيروا بهذه الروح المعنوية فى خطّ الرسالة وتحقيق الأهداف المقدسة. وطبقاً لما ورد فى سورة القصص فى الآية (۳۱) أنّه قيل لموسى «يَا مُوسَى اقْبِلْ وَلَا تَخَفْ انَّكَ مِنَ الْآمِنِين». فشعر موسى بهذا الخطاب الإلهى بالطمأنينة والسكينة تدغدغ أعماق قلبه واستعاد قوته ورباطة جأشه، وهنا جاءه النداء الإلهى يحمل دستوراً أكبر وأهم، وهو أنّ لا- يكتفى بعدم الخوف من هذا الثعبان العظيم بل يجب أن يتجه إليه ويأخذه بيده حتّى يعود إلى حالته الاولى! «قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْاولَى» «۲». ومن المعلوم أنّ هذا العمل كان يمثل لموسى الصعوبة البالغة، ولكنه نجح أخيراً فى الإمتثال والإذعان لهذا الأمر الإلهى. أجل فإنّ على موسى أن يستوعب التجربة الكبيرة فى محضر الذات المقدّسة ليقف أمام ثعبان أكبر وأخطر من هذا، أى فرعون والملأ- من قومه وحكومته الجبارة الّتى يجب أن يأخذها موسى منهم كما يأخذ عصاه. الكثير من المفسّرين ذهبوا فى تفسير كلمة (جان) فى الآية أعلاه تعنى صغار الحيّات الّتى تهجم على الشخص بسرعة، فى حين أنّه فى مكان آخر تتحدّث الآيات عن عصى الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۱۳ موسى الّتى ألقاها أمام الفراعنة بكلمة (ثعبان) بمعنى الحيّة العظيمة، ولهذا السبب فقد احتمل البعض أنّ العصى فى بداية أمرها تبدّلت إلى حيّة صغيرة وتدريجياً تحوّلت إلى ثعبان عظيم. وذهب آخرون إلى أنّ (العصا) تبدلت إلى حيّة عظيمة، ولكنها من جهة سرعة الحركة فهى كالحية الصغيرة السريعة. والملفت للنظر أنّ جملة (لا تخف) وردت فى القرآن الكريم تسع مرّات، وفى خمسة موارد كان المخاطب فيها موسى بن عمران، ولعلّ ذلك بسبب أنّ موسى كان يعيش بين أعداء كثرة وشديدى الخطورة كفرعون وهامان والملأ، ويجب أن يعد العدّة بمثل هذا الخطاب الإلهى لمواجهة هؤلاء

الأعداء. وتستعرض «الطائفة الثالثة» من الآيات الكريمة قصة (طالوت) وقومه من بنى إسرائيل والّذى انتخبه نبيّهم فى ذلك الوقت (إشموئيل) بعنوان قائد جيش بنى إسرائيل لمواجهة (جالوت) وجيشه الظالم. وعندما أراد طالوت مواجهة جالوت وقتاله قام بعملية اختبارية لجيشه ليطهره من الشوائب وضعفاء النفوس والجبناء، الّذين قد يُفضى وجودهم فى جيشه إلى سريان الجبن والضعف فى سائر مفاصل جيش بنى إسرائيل. أجل فعندما كان جيش طالوت يشعر بالعطش الشديد وصلوا إلى نهر، فأراد طالوت أن يختبر جنوده العطاشى هناك وقال: كلّ من يشرب من هذا الماء فليس منّا، وامّا من قاوم العطش ولم يشرب إلّارشفات فهو منّا، ولكن أغلب أفراد الجيش الّذين كانوا من الجبناء وضعفاء النفوس لم ينجحوا فى هذا الامتحان والاختبار وشربوا من الماء إلّاعدة قليلة بقوا أوفياء لطالوت، فهؤلاء كانوا يعيشون روح الشجاعة والقوّة والبسالة حيث قالوا فى دعائهم: «... رَبَّنَا افْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ اقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ» «۱». الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۱۴ وهكذا أنزل اللّه تعالى نصره وعنايته ورحمته على هذه الفئة القليلة من المؤمنين ونصرهم على جيش جالوت العظيم ببركة شجاعتهم وثباتهم فى مواجهة التحدّيات والاختبارات الصعبة. ونقرأ فى «الآيات التالية» أنّ القرآن الكريم يتحدّث عن جبن طائفة من المنافقين وضعفاء الإيمان فى عصر النبى الأكرم صلى الله عليه و آله وفى حرب الأحزاب، ويتحدّث كذلك عن شجاعة بعض المؤمنين الحقيقيين وثبات قدمهم فى مواجهة الأعداء الشرسين حيث تقول الآية: «وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَامُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُواْ وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا» «۱». وطبعاً فإنّ ميدان القتال فى معركة الأحزاب كان يغص بجيوش الأعداء وكثرة عددهم وعُدتهم بحيث يستوحش من هذا المنظر الرهيب كلّ الأشخاص الّذين يعيشون الاهتزاز فى شخصيتهم والخوف والرعب فى واقعهم. ولكن كما تقول الآية (۲۲) من هذه السورة أنّ المؤمنين الحقيقيين الذين كانوا يعيشون الطمأنينة والثقة بوعد اللّه إزدادوا إيماناً: «وَلَمَّا رَأَى ا لْمُؤْمِنُونَ ا لْأَحْزَابَ قَالُواْ هذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَآ زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا» «۲». واللطيف انه يُستفاد من بعض الروايات أنّ النبى الأكرم صلى الله عليه و آله أجاز للمنافقين وضعفاء الإيمان والجبناء بأن يعودوا إلى المدينة، لأن بقائهم فى تلك الظروف العصيبة مع جيش الإسلام لا ينفع شيئاً سوى بث الرعب والضعف والتخاذل فى قلوب الآخرين. ولهذا السبب نقرأ فى الآية (۴۷) من سورة التوبة فى حديثها عن جماعة من هذه الطائفة: «لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا». ومعلوم أنّ كلمة (خَبَل) و (خبال) تعنى الإضطراب والترديد الناشىء من ضعف العقل الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۱۵ وعدم القدرة على اتخاذ الموقف والعزم على شىء، وكلّ ذلك ناشىء من الخوف والجُبن الّذى يقود الإنسان إلى ارتباك الفكر وعدم التوازن فى اتخاذ الموقف. وفى «الآية الخامسة» نواجه منظراً جديداً من شجاعة أصحاب النبى الأكرم صلى الله عليه و آله، الشجاعة الّتى تنطلق من موقع الإيمان باللّه تعالى، حيث أنّ هؤلاء المؤمنين يرون أنفسهم فى ميدان الحرب على مفترق طريقين وكليهما يؤدّيان بهما إلى الجنّة ورضا اللّه تعالى: طريق يؤدى إلى الشهادة وبالتالى السعادة العظمى فى الحياة الآخرة، والآخر يقودهم إلى النصر على العدو، وهو أيضاً مبعث الفخر والاعتزاز لهم فى الدنيا والآخرة، فى حين أنّ العدو محكوم بالهزيمة والخسران بأيّة حال، فإما الموت الذليل والمهين فى هذه الدنيا، أو عذاب اللّه فى الآخرة. وبديهى أنّ الشخص الّذى يعيش هذه الرؤية فإنه سوف لا يدع أىّ خوف وضعف يتسرّب إلى قلبه، وبذلك يتخلّص الإنسان من هذه الرذيلة الأخلاقية الكبيرة، وفى ذلك تقول الآية: «قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَو بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُواْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ» «۱». وقد ذهب بعض العلماء إلى أنّ العامل الأساس لانتصار المسلمين فى حروبهم الحاسمة فى ذلك العصر هو الشجاعة المنطلقة من الإيمان باللّه والمنطق الرصين: «قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ». وتأتى «الآية السادسة» لتستعرض وجهاً آخر من شجاعة هؤلاء المؤمنين فى معركة احد، ونعلم أنّ المسلمين فى معركة احد قد أصابتهم الهزيمة النكراء بسبب غفلة طائفة من المسلمين الطامعين بحطام الدنيا الّذين تركوا مواقعهم الحسّاسة واشتغلوا بجمع الغنائم، وهكذا اصيب المسلمون فى هذه المعركة بخسائر كبيرة، وطبقاً لما ورد فى التواريخ أنّ الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۱۶ الأعداء المنتصرين فى أثناء عودتهم من ميدان القتال إلى مكّة ندموا على رجوعهم هذا واتفقوا مرّة اخرى أن يعودوا إلى المدينة ليستفيدوا

من هذه الفرصة الثمينة ويُجهزوا على الإسلام والمسلمين ويتخلّصوا منهم إلى الأبد. فعندما سمع نبى الإسلام بذلك اتخذ موقفاً مهماً جداً، حيث أمر جيش الإسلام بالخروج لمواجهة جيوش الأعداء ولم يستثن أحداً من المسلمين حتّى من به جراحة بسبب المعركة الداميةِ الّتى جرت قبل قليل. هذا الأمر النبوى اثّر أثره بشكل كبير وأحلّ الرعب والخوف والاضطراب فى صفوف الأعداء بحيث إنهم رجّحوا الاكتفاء بالانتصار النسبى والعودة إلى مكّة على الهجوم الثانى على المسلمين، وهكذا تخلّص المسلمون من شرّهم. والآية محل البحث تشير إلى هذا المعنى وتثنى على شجاعة المسلمين وتقول: «الَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ا لْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَاتَّقَوْاْ أَجْرٌ عَظِيمٌ» «۱». ثمّ تتحدث عن إيمانهم وشجاعتهم واصفة حالتهم المتماسكة فى مقابل الارهاب الاعلامى للأعداء الّذى يتحرك من موقع التهويل والتخويف وتقول: «الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ ا لْوَكِيلُ» «۲». وهذه هى الحادثة الاولى من نوعها فى تاريخ الحروب البشرية حيث لم يشاهد فى تاريخ البشرية أنّ المجروحين يعودون فوراً إلى ميادين القتال ليساهموا فى دفع خطر الأعداء، أجل إن هذه الشجاعة والشهامة الفريدة هى التى اجهضت مؤامرة العدو، وهذا الحضور القوى والسريع إلى الميدان هو الّذى زرع اليأس فى قلبه. وعلى أية حال فإنّ واقعة «حمراء الأسد» كانت ظاهرة عجيبة بدّلت حلاوة النصر لدى الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۱۷ قريش إلى مرارة، وبيّنت لهم أنّ المسلمين بالرغم من هزيمتهم بسبب زيغ جماعة منهم، إلّا أنّهم مازالوا ثابتين فى الميدان وأنّ على العدو أن يتوقع ضربات المسلمين فى المستقبل. وبهذا أثرت هذه الواقعة ليس فقط فى التصدى إلى هجوم الأعداء ودفع الخطر، بل فى وضع الأساس لانتصارات لاحقة، وتطهير ما علق فى النفوس من آثار سلبية للانتكاسة فى احد، ومنح المسلمين الأمل فى حياتهم الجديدة بالتوكل على اللَّه تعالى. ويستفاد من الآية الشريفة أعلاه أنّ عملية الارهاب الاعلامى الّذى قام به بعض الشياطين لبث الرعب والخوف فى قلوب المسلمين من جيوش قريش، ليس فقط لم يؤثر فى زعزعة إيمانهم وثقتهم باللَّه تعالى وبالإسلام، بل إزداد إيمانهم واشتدت ثقتهم باللَّه وتوكلهم عليه، كلّ ذلك كان بسبب أنّهم كانوا يعيشون الثقة بوعد اللَّه وصدق النبى الأكرم وأنّهم لو عملوا بارشادات النبى فى واقعة احد فإنّ النصر سيكون حليفهم لا محالة. ومن عجائب هذه الواقعة هو أنّ النبى صلى الله عليه و آله أمر المسلمين الّذين اشتركوا فى احد فقط بالحضور إلى حمراء الأسد دون غيرهم، لكى يفهم العدو أنّ جيش المسلمين فى احد مازال قوياً رغم وجود الكثير من الجرحى فى صفوفه، وما زال مستعداً للقتال دون ضعف وفتور رغم استشهاد العديد من ابطاله وأفراده، وهذا هو الّذى أخاف الأعداء وزرع الخوف والقلق فى قلوبهم. ونقرأ فى الآيات اللاحقة وفى الآية ۱۷۵ من هذه السورة إشارة للتفاوت بين الأفراد الّذين يعيشون الخوف والجبن وبين المؤمنين الّذين يعيشون الشجاعة والتوكل، حيث تقول الآية: «إِنَّمَا ذَا لِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوّفُ أَوْلِيَآءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ». ونستوحى من هذه الآية الشريفة أنّ مثل هذا الخوف يتّسم بصفة شيطانية والغرض منه تضعيف روحية المؤمنين واهتزاز معنوياتهم واتخاذ موقف انفعالى أمام تحديات الظروف وبالتالى التهرب من ضغط المسؤولية والتكليف، والحال أنّ المؤمنين الحقيقيين لا يشعرون بالخوف إلّامن اللَّه تعالى. وطبقاً لهذه العبارات الواردة فى الآية الشريفة فإنّ الجبن يمتد فى جذوره إلى عناصر الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۱۸ الشر فى واقع الإنسان فى حين أنّ الشجاعة تسترفد مقوماتها من عنصر الإيمان وتعدّ من معطياته وثماره، لأن المؤمن وبالتوكل على اللَّه القادر المطلق يرى نفسه منتصراً فى جميع الميادين. أما الأشخاص الّذين يعيشون الاهتزاز فى إيمانهم ويعتمدون على قدراتهم الذاتية فإنّهم منهزمون على أية حال لما يروا من محدودية قدراتهم وهزال امكاناتهم، ولذا يستولى عليهم الخوف والاضطراب أمام تحديات الواقع ومشكلاته المتزايدة. لقد تكاتفت قوى الشر والانحراف فى واقعة «حمراء الأسد» لإظهار قوّة جيش قريش وتفخيمها بأكبر حجم لإخافة المؤمنين والقاء الرعب فى قلوبهم، إلّاأنّ القرآن الكريم يقرر أنّ أولياء الشيطان واتباعه هم الّذين يتأثرون بهذه المظاهر الخدّاعة، بينما يعيش أولياء اللَّه الثبات والاستقامة فى خط الحقّ والرسالة «۱». وتنطلق «الآية السابعة» والأخيرة من الآيات مورد البحث للتذكير بهذه الحقيقة، وهى أنّ إحدى صفات المبلّغين الرساليين هى طهارتهم من رذيلة الجبن والخوف من غير اللَّه تعالى، وتقول: «الَّذِينَ يُبَلّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا» «۲». إن

تبليغ الرسالة الإلهية من أهم وظائف الأنبياء والمرسلين، وهذا لا يتسنى إلّابخلو النفس من أية شائبة من شوائب الخوف والجبن والتردد. هذه الآية الشريفة الناظرة إلى الأنبياء الماضين تحذّر النبى الأكرم صلى الله عليه و آله بالدرجة الاولى، واتباعه المخلصين بالدرجة الثانية من مغبة الشعور بالخوف والتردد حين إبلاغ الرسالات السماوية وأنّ عليهم أن لا يخشون أحداً إلّااللّه تعالى، ومفهوم هذا الخطاب الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۱۹ القرآنى هو أنّ الأشخاص الجبناء والّذين يعيشون الخوف والتخاذل فى الموقف غير لائقين لتولى هذه المهمة وأداء هذه الرسالة. وذهب بعض المفسرين إلى أنّ هذه الآية تدلّ على أنّ الأنبياء الإلهيين لا ينبغى لهم استعمال التقية، ولكن هذا الرأى إنما يكون صحيحاً إذا فسّرنا التقية بمعناها السلبى من الخوف والخشية من المخالفين، والحال أنّ التقية لا تستوحى مقوماتها من الخوف دائماً، بل قد تكون بدافع من الحرص على جذب المخالفين إلى سواء السبيل وإيصال الناس إلى الغايات الإلهيّة بصورة تدريجية، ولعلّ قول إبراهيم عليه السلام «هذا ربى» أمام الوثنيين من قومه كان من هذا القبيل (فتأمل).

النتيجة النهائية:

تبيّن من خلال استعراضنا لجملة من الآيات الكريمة أهمية الشجاعة والشهامة فى حركة الإنسان المؤمن، ودور هذه الفضيلة الأخلاقية فى صياغة مصير الإنسانية على المستوى المادى والمعنوى، وكذلك تبيّن فى الجهة المقابلة الآثار السلبية لرذيلة الجبن وعواقبها السيئة على حياة الإنسان. وصحيح أنّ هذه الآيات الكريمة لم تفصل البحث عن الشجاعة والجبن بصورة مستقلة وبشكل مباشر، إلّاأنّها أشارت إلى دور هذه المفاهيم الأخلاقية فى حياة الإنسان بشكل ضمنى وببيان دقيق وجميل.

الجبن والخوف فى الروايات الإسلامية:

اشارة

ونقرأ انعكاساً واسعاً فى الأحاديث الشريفة لهذه الرذيلة الأخلاقية من موقع الذم والتحذير الشديد من الاتصاف بها، من قبيل: ۱- يقول الإمام الباقر عليه السلام: «لَا يَكُونُ الْمُؤْمِنُ جَبَاناً وَلَا حَرِيصاً وَلَا شَحِيحاً» «۱». الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۲۰ ويستفاد جيداً من هذا التعبير أنّ «الخوف» و «الحرص» و «البخل» لا تنسجم مع روح الإيمان، لأنّ المؤمن يتوكل فى جميع اموره على اللّه تعالى، ومن كان يملك مثل هذا الأساس المتين فى حركة الحياة لا يمكن أن يعيش الخوف ولا البخل ولا الحرص، لأنّه يعيش الأمل برحمة اللّه وفضله فلا يتعلق قلبه بشىء من حطام الدنيا. ۲- وفى حديث آخر عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: «الْجُبْنُ وَالْحِرْصُ وَالْبُخْلُ غَرَائِزُ سُوءٍ يَجْمَعُهَا سُوءُ الظَّنِّ بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ» «۱». وهذا الحديث فى الحقيقة بيان آخر لما ورد فى الحديث السابق حيث يبيّن الجذور الأصلية لهذه الصفات الرذيلة. ۳- وقد نهى الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام اتباعه من استشارة الجبناء لأن خوفهم يؤثر فى صياغة الرأى ويبعده عن جادة الصواب: «لَا تُشْرِكَنَّ فِى رَأْيِكَ جَبَاناً يُضَعِّفُكَ عَنِ الْامْرِ وَيُعَظِّمُ عَلَيْكَ مَا لَيْسَ بِعَظِيمٍ» «۲». ونفس هذا المعنى ورد فى عهد الإمام لمالك الاشتر بشكل آخر حيث نهى الإمام على مالك الاشتر عن مشورة البخلاء والجبناء والحريصين. ۴- وهذا الموضوع إلى درجة من الأهمية بحيث إن رسول اللّه صلى الله عليه و آله أمر بعدم اشتراك الأفراد الجبناء فى أى جهاد ضدّ المشركين لئلّا يُضعفوا معنويات الآخرين، فقال: «مَنْ احَسَّ مِنْ نَفْسِهِ جُبناً فَلَا يَغْزُ». ۵- وفى حديث آخر عن الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام يوضّح الحديث أعلاه ويقول بصراحة: «لَا يَحِلُّ لِلْجَبَانِ انْ يَغْزُو، لِانَّهُ يَنْهَزِمُ سَرِيعاً وَلَكِنْ لِيَنْظُرَ مَا كَانَ يُرِيدُ انْ يَغْزُوَ بِهِ فَلْيُجَهِّز بِهِ غَيْرَهُ» «۳».

۱- الخوف المعقول وغير المعقول

لاشكّ أنّ المراد من الجبن والخوف هنا ليس هو الجبن المعقول والخوف المنطقى بل يقع فى دائرة اللامعقول واللامنطقى، وتوضيح

ذلک: إن الخوف من الامور الّتی تتضمن الخطر واقعاً هی أحد الحالات الروحیة والطبیعیة فی الإنسان وأحد المواهب والنعم الإلهیة الکبیرة، وانه لولا هذه الحالة تجاه الخطر فإنّ الإنسان لایشعر بالخوف إذا واجهه الخطر حیث یفقد حیاته سریعاً، وهذا هو ما ورد فی کلمات علماء الأخلاق باسم (التهوّر) فی مقابل الخطر والّتی هی صفة ذمیمة من قبیل أن یعبر الشخص الشارع المزدحم بالسیارات بدون أن ینظر یمیناً أو یساراً ولا یحاذر من الخطر، فمثل هذا الشخص سیتعرض للحوادث الخطرة الّتی سرعان ما تؤدی بحیاته. مثل هذا النوع من الخوف فی حیاة الإنسان الیومیة، وهکذا فی موارد الخوف من تناول الأطعمة المشکوکة أو الخوف فی دائرة المسائل السیاسیة والاقتصادیة وغیرها، یُعتبر خوفاً منطقیاً، ویتسبب فی نجاة الإنسان من الأخطار الّتی تهدد حیاته فی حرکة الحیاة والواقع. أمّا الخوف المذموم فهو أن یخاف الإنسان من المظاهر والعناصر الّتی لا تستبطن خطراً فی حدّ ذاتها، بل یتصور الخطر الموهوم فیها، فیخاف من کلّ خطر وهمی وکلّ عدوٍ خیالی ویخاف من کلّ شیء حتّی من خیاله، مثل هذا الإنسان یعیش حالة التردّد فی کلّ عمل یرید الاشتراک به مخافة عدم نجاحه فی ذلک العمل وبالتالی یمنعه هذا الخوف من تصعید طاقاته وقابلیاته ویعیش التخلف والکسل والفشل والذلّة والمهانة. إن هذه الحیاة الدنیا فی حقیقتها میدان للصراع مع الموانع والمشکلات والأخطار الموجودة دائماً فی مفاصل وزوایا هذه الحیاة، ومالم یواجه الإنسان هذه الأخطار والموانع من موقع الجرأة ویستعد بجدّیة لمقابلتها فإنه لا یوفَّق فی حیاته. والغالب إننا لا یمکننا تحقیق النجاح والنصر فی کلّ عمل نعمله أو نضمن عدم وجود الخطر فیه، فهذا من الخیال المحال وهو من الأوهام الزائفة، وهنا یتجلّی الدور المهم الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۲۲۲ للشجاعة والشهامة فی واقع الإنسان تجاه التحدّیات الصعبة، وتتجلّی کذلک الآثار السلبیة لرذیلة الخوف والجبن أیضاً. إن کلّ مزارع یحتمل الجفاف والأمراض الزراعیة الّتی تصیب مزرعته، وکلّ تاجر یحتمل تغیّر الأسعار وتحوّل أوضاع السوق، وکلّ مسافر یحتمل وقوع الحوادث الخطرة فی الطریق، وفی کلّ عملیة جراحیة یُحتمل وجود الخطر، فإذا عملت هذه الاحتمالات علی منع الإنسان من القیام بشاطاته الحیاتیة فلابدّ أن یجلس الإنسان جانباً ولا یقدم علی أی عمل من الأعمال بل ینتظر الموت فقط. ومن المعلوم أنّ الإنسان فی مثل هذه الموارد یجب أن یتوقع الأخطار الجدّیة ثمّ یضع لها ما یقابلها من العلاجات والحلول ویتجنّب التهوّر وإلقاء نفسه بالتهلکة، ولکن فی نفس الوقت لا ینبغی للاحتمالات الموهومة واللامعقولة الّتی تکتنف العمل دائماً أن تکون مانعة له من الإقدام علی سلوک هذا الطریق. وهذا هو أفضل تعریف لمسألة الشجاعة بعنوانها صفة من الصفات الأخلاقیة الفاضلة، والخوف بعنوانه من الصفات الأخلاقیة الرذیلة. وقد ورد فی الحدیث الشریف عن الإمام الحسن المجتبی علیه السلام فی تعریف الجبن قوله: «الْجُرْأَةُ عَلَی الصَّدیقِ وَالنُّکُولُ عَنِ الْعَدُوّ» «۱». ونقرأ فی حدیث آخر عن هذا الإمام أنّه قال فی جوابه علی سؤال عن الشجاعة: «مُوَافِقَةُ الْاقْرَانِ وَالصَّبْرُ عِنْدَ الطَّعَانِ» «۲». القرآن الکریم یقول أیضاً فی إحدی آیاته: «وَلَا تُلْقُوا بِایْدِیکُمْ الَی التَّهْلُکَهِ» «۳». ویقول فی مکان آخر فی وصف المؤمنین: «... اشِدَّاءُ عَلَی الْکُفَّارِ ...» «۴» ولا یخالجهم الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۲۲۳ خوف موهوم فی هذا الطریق. إنّما تقدّم آنفاً أنّ الشجاعة هی الفضیلة الّتی تقع فی الحدّ الوسط بین (التهوّر) و (الجبن).

۲- الآثار السلبیة للجُبن فی حرکة الحیاة الفردیة والاجتماعیة

ویترتب علی هذه الصفة الرذیلة آثار سلبیة کثیرة فی حیاة الإنسان والّتی تُعد من الأسباب والعوامل المهمة فی فشله وذلّته. إننا نقرأ الکثیر عن حالات الشعوب والامم علی طول التاریخ البشری، ونقرأ أنّ الکثیر منها رغم امتلاکها لوسائل القوّة والمنعة من العُدة والعدد، إلّاأنّها کانت تعیش الذلّة والمهانة والأسر لسنوات طویلة، ولکن بمجرد أن ینبری من بینها قائد شجاع وشهم یتخطّی بها صفوف التقدّم والنهضة ویُعبّی طاقاتها وأفرادها فی سبیل الکرامة والتقدّم فإنّها سرعان ما تنفض عن نفسها رداء الذلّة والمهانة والتخلف وترتقی إلی أوج العزّة والعظمة. إن شجاعة نبی الإسلام صلی الله علیه و آله فی مختلف موارد سیرته العملیة من هجرته إلی المدینة وموقفه فی بدر واحد والأحزاب وسائر الغزوات الاخری یُعد من أهمّ العوامل لانتصار المسلمین وتقدّمهم السریع، ولهذا ورد

فی الأحادیث الإسلامیة عن الإمام علی قوله: «الشَّجَاعَةُ عِزٌّ حَاضِرٌ وَالْجُبْنُ ذُلٌّ ظَاهِرٌ» «۱». ویقول فی مکان آخر أیضاً: «الشَّجَاعَةُ نَصْرَةٌ حَاضِرَةٌ وَفَضِیلَةٌ ظَاهِرَةٌ» «۲». وأحد الآثار السلبیة الاخری لهذه الرذیلة الأخلاقیة هو أنّها تمنع الإنسان من التصدی لکثیر من الأعمال والنشاطات المهمة، لأن هذه الأعمال الکبیره تقترن عادة مع مشاکل کبیرة أیضاً وتتطّلب رجالًا یقفون أمام هذه المشکلات والموانع من موقع الشجاعة والجرأة، فلا یتسنّی للشخص الجبان أن یخوض فی اطار هذه الأعمال إطلاقاً. الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۲۲۴ وعلیه فإنّ مثل هؤلاء الأشخاص وعلی فرض حصولهم علی بعض الموفقیّة المحدودة والتافهة فی الحیاة فإنّهم یعجزون عن التصدّی للأعمال المهمة علی المستوی الاجتماعی والتغییر الإصلاحی الّذی یحتاجه الناس. وهذه المسألة من الأهمیة إلی درجة أنّ الإسلام نهی عن المشورة مع الجبناء والّذین یعیشون حالة الخوف والرعب الوهمی فی دائرة مدیریة المجتمع والأعمال المهمة فی عملیة التغییر والإصلاح الإجتماعی، لأن هؤلاء من شأنهم أن یقرأوا آیة الیأس فقط وبذلک یُحبطوا عزم المدراء الموفَّقین ویثبطوا من إرادتهم القویة. وکما رأینا أنّ أمیرالمؤمنین علیه السلام یوصی مالک الأشتر فی عهده المعروف ان لا یستشیر أحداً من الجبناء لئلّا یُصاب بالضعف والإحباط ویقول: «لَا تَدْخُلَنَّ فِی مَشْوِرَتِکَ ... جَبَاناً یُضَعِّفُکَ عَنِ الْامُورِ» «۱». ویقول فی مکان آخر أیضاً: «وَیُعَظِّمُ عَلَیْکَ مَا لَیْسَ بِعَظِیمٍ».

۳– دوافع الجُبن

۱– ضعف الإیمان وسوء الظنّ باللَّه، لأن الشخص الّذی یعیش الإیمان باللَّه والثقة به وینطلق فی حیاته من موقع التوکل والأمل برحمة اللَّه ولطفه والتصدیق بوعده، مثل هذا الشخص سوف لا یذوق طعم الذلّة والمهانة والضعف ولا یتردد أو یخاف أمام الحوادث الصعبة ولا یهتز لتحدیات الواقع الثقیلة، وهذا هو ما ورد فی عهد أمیرالمؤمنین علیه السلام لمالک الأشتر حیث یقول: «انَّ الْبُخْلَ وَالْجُبْنَ وَالْحِرْصَ غَرَائِزٌ شَتَّی یَجْمَعُهَا سُوءُ الظَّنِّ بِاللَّهِ». ۲– الشعور بالحقارة وضعف الشخصیة لدی الفرد، ولهذا نجد انه کلّما کانت شخصیة الإنسان نافذة وقویة وشعر الإنسان معها بالکرامة واحترام الذات فإنّ ذلک ممّا یزید فی شجاعته وشهامته، ولذلک یقول أمیرالمؤمنین علیه السلام: «شِدَّةُ الْجُبْنِ مِنْ عَجْزِ النَّفْسِ وَضَعْفِ الْیَقِینِ» «۲». الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۲۲۵ ۳– (الجهل وقلّة المعرفة) حیث تسبب للإنسان غالباً الخوف الموهوم، کما نری فی خوف الإنسان من الأشخاص أو الحیوانات الّتی لا یعرفها علی وجه الدقة ولکن عندما تتضح له الصورة ویتعرف علیها تذوب حالة الخوف فی نفسه تدریجیاً. ۴– (طلب الراحة والعافیة) یُعد أحد الأسباب للخوف المذموم، لأن الشجاعة تتطلب الخوض فی دوّامة المشکلات واللاملائمات لکی یتسنّی للإنسان أن یخرج منها منتصراً، وهذا المعنی لا یتلائم ولا ینسجم مع مزاج من یطلب الراحة والعافیة. ۵– إن دروس الحوادث المُرة والمؤلمة قد یتسبّب غالباً فی أن یعیش بعض الناس حالة الخوف والرعب، لأن هذه الحوادث المرة تترسخ فی أذهانهم وتمتزج بالخوف الّذی قد یستمر بالإنسان إلی آخر حیاته ولا یمکنه التخلّص منه إلّاببعض العلاجات النفسیة. ۶– إن الإفراط فی سلوک طریق الحذر من شأنه أن یورث الخوف أیضاً أو هو عامل من عوامل ایجاد الخوف فی النفس، لأن مثل هذا الإنسان یتوقی کلّ ما یحتمل فیه الخطر، وهذا یؤدی به إلی أن یعیش حالة التردد والخوف من الإقدام. ۷– وممّا لا ینبغی إنکاره أنّ الحالة الروحیة والمزاجیة والبدنیة للأفراد أیضاً مؤثرة فی بروز هذه الحالة السلبیة، فتری بعض الأشخاص وبسبب ابتلائهم بضعف الأعصاب أو ضعف القلب یخافون من کلّ شیء، فی حین یشعرون فی نفس الوقت بالتنفر من هذه الحالة والإمتعاض لوجودها فی واقعهم ولکنهم لا یستطیعون التخلّص منها. هؤلاء یقولون: أنّ الخوف المتسرب فی أعماقنا لیس باختیارنا بل نجده مفروض علینا، ولکن الصحیح أنّ هذه الحالة قابلة للعلاج أیضاً.

۴– طرق العلاج والوقایة

إن أحد الطرق الأصلية لعلاج هذه الرذيلة الأخلاقية، كما فی سائر الرذائل الاخری، أن يتفكر الإنسان من جهة فی آثارها السلبية وعواقبها الوخيمة علی المستوی الفردی والاجتماعی للإنسان، فعندما يطالع الشخص الجبان والّذی يعيش حالة الخوف والرعب الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۲۲۶ من كلّ إقدام مثمر، الآثار السلبية للخوف الموهوم وما يترتب عليه من ذلّة وحقارة وتخلف وحرمان من الكثير من مواهب الحياة فی حياته أو حياة الآخرين، فإنه سيتحرك فی الغالب لتجديد فكرته ونظرته عن هذه الحالة ويسعی لتطهير نفسه منها. ومن الطرق المهمة الاخری فی عملية العلاج هو السعی إلی قطع دوافع وجذور هذه الرذيلة من واقع النفس، فعندما تزول السحب المظلمة لسوء الظنّ باللَّه من سماء القلب، وتشرق شمس التوكل علی اللَّه فی أجواء الروح الإنسانية، فإنّ ظلمات الخوف الموهوم ستزول بسرعة عن النفس البشرية، ولكن قد يحتاج هذا الأمر إلی مطالعة ودقّة أكثر. ومن الطرق الاخری للعلاج هو أن يتورّط الإنسان فی الميادين المثيرة للخوف والوحشة ويعمل علی إقحام نفسه مرات عديدة فی مثل هذه الميادين والأجواء المثيرة، وعلی سبيل المثال فعندما يجد الإنسان نفسه يخاف من تناول الدواء أو زرق الابر فعليه أن يقحم نفسه مرّات عديدة فی مثل هذه الأعمال كيما تزول حالة الخوف. والبعض الآخر يستوحش من السفر فی السفينة أو الطائرة، ولكن تكرار مثل هذه السفرات من شأنه أن يزيل الخوف منه. وبعض الناس يجد حالة التردد والخوف فی نفسه عند حضوره أمام الآخرين أو عند إلقائه لمحاضرة أو كلمة أمام الجمع، ولكن هذا الخوف والتردّد يزول غالباً بتكرار مثل هذه الأعمال. وأحد أهداف التمرينات العسكرية والمناورات الّتی تُجريها الحكومات لجيوشها وقواها العسكرية هو إزالة آثار الخوف من قلوب أفراد الجيش من الحروب. ونجد هذا المعنی بصورة جميلة ورائعة فی الكلمات القصار لأميرالمؤمنين عليه السلام حيث يقول: «اذَا هَبْتَ امْراً فَقَعْ فِيهِ، فَانَّ شِدَّةَ تَوَقِّيهِ اعْظَمُ مِمَّا تَخَافُ مِنْهُ» «۱». ويقول العلّامة المرحوم الخوئی فی شرحه لنهج البلاغة عند شرح هذه العبارة: «كثيراً ما يستوحش الإنسان من بعض الامور بسبب جهله وجبنه فيمنعه ذلك الخوف من نيل الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۲۲۷ الموفقية فی الحياة، وهنا الإمام عليه السلام يحرضه علی خلع حالة الجبن عن نفسه لأن تحمل ضغط هذه الحالة قد يكون فی كثير من الحالات أشد علی الإنسان من التورط فی ذلك الأمر المخوف». ثمّ يضيف: «إن المخترعين والمكتشفين فی العالم نالوا أوسمة الفخر بالعمل بهذه التوصية الحكيمة، حيث توغلوا إلی أعماق الغابات الاستوائية والصحاری الأفريقية وخاضوا لجج البحار ووصلوا إلی الجزر البعيدة وحصلوا علی ثروات طائلة وشهرة عظيمة مضافاً إلی ما قدّموا إلی البشرية من علم ومعرفة لا يستهان بها» «۱». وقد ورد فی المثل المعروف: «امُّ الْمَقْتُولِ تَنَامُ وَامُّ المُهَدَّدِ لَاتَنَامُ». وقيل أيضاً: «كُلُّ امْرٍ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ فَسِمَاعُهُ اعْظَمُ مِنْ عَيَانِهِ» «۲». وأحد الطرق الاخری لعلاج حالة الجبن والخوف هو أن يعيش الإنسان بطُهر ونقاء من شوائب الرذيلة والأعمال الذميمة، لأن الأشخاص الملوّثين يخافون غالباً من نتيجة أعمالهم، وبما أنّ نتيجة هذه الأعمال سوف تتجلّی إلی الملأ يوماً من الأيام فإنّهم يعيشون حالة الخوف فی أنفسهم، ولذلك ورد فی الحديث المعروف عن أميرالمؤمنين عليه السلام قوله: «مَا اشْجَعُ الْبری وَاجْبَنَ الْمُرِيبُ» «۳». ونقرأ فی حديث آخر عن هذا الإمام قوله: «لَوْ تَمَيَّزَتِ الْاشْيَاءُ لَكَانَ الصِّدْقُ مَعَ الشَّجَاعَةِ وَكَانَ الْجُبْنُ مَعَ الْكِذْبِ» «۴».

۵- معطيات الشجاعة فی حياة الإنسان

والنقطة المقابلة لصفة الجبن الرذيلة، هی الشجاعة والشهامة والجرأة علی الخوف فی الأعمال المهمة كما تقدّمت الإشارة إليه ضمن حديثنا عن الجبن والخوف، فكلّ واحد من هاتين الصفتين المتقابلتين تتضح بدراسة ما يقابلها من الحالات الأخلاقية، فمعرفة مفهوم الجبن لا تتسنّی بدون معرفة مفهوم الشجاعة، وكذلك العكس فإنّ من العسير أن ندرك مفهوم الشجاعة بدون أن نُحيط علماً بمفهوم الجبن والخوف. وبهذا نری من اللازم ولغرض تكميل الأبحاث السابقة أن نتحدث أكثر عن صفة الشجاعة وآثارها الايجابية ومعطياتها فی حركة الحياة وخاصة من وجهة نظر الأخبار والأحاديث الإسلامية: ۱- ما ورد فی عهد الامام علی عليه السلام لمالك الأشتر (والّذی يُعدّ أشمل دستور إلهی وسياسی) فی عملية إدارة الحكومة فی موارد متعددة أنّ أميرالمؤمنين عليه السلام أشار إلی هذه

المسألة، فيحذّر فى أحد الموارد مالك الأشتر من المشورة مع الأشخاص الجبناء والّذين يعيشون حالة الخوف والحرص والبخل. ويقول فى مكان آخر بالنسبة إلى قادة الجيش (أو المعاونين والموظفين والمسؤولين): «ثُمَّ الْصَقْ بِذَوِى الْمُرُوآتِ وَالْاحْسَابِ وَاهْلِ الْبُيُوتَاتِ الصَّالِحَةِ وَالسَّوَابِقِ الْحَسَنَةِ ثُمّ اهْلِ النَّجْدَةِ وَالشَّجَاعَةِ وَالسَّخاء وَالسَمَاحَةِ، فَانَّهُمْ جِمَاعٌ مِنَ الْكَرَمِ وَشُعَبٌ مِنَ الْعُرْفِ» «۱». وهنا نجد أنّ الإمام يرى أنّ صفة الشجاعة والشهامة تُعد من الاصول الأساسية والقيم الأخلاقية المهمة للإنسان المدير والمدبّر وخاصة على مستوى قادة الجيش أو المسؤولين الكبار فى الحكومة. ۲- ويقول هذا الإمام فى حديث آخر: «الشَّجَاعَةُ زَيْنٌ، الْجُبْنُ شَيْنٌ» «۲». ۳- وورد عن هذا الإمام الهُمام قوله فى حديث آخر: «السَّخَاءُ وَالشَّجَاعَةُ غَرَائِزٌ شَرِيفَةٌ الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۲۹ يَضَعُهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ فِى مَنْ احَبَّهُ وَامْتَحِنْهُ» «۱». ۴- وورد عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله فى ذكره لفضائل أهل بيته أنّه ذكر سبع صفات وأحدها الشجاعة. وفى حديث آخر ذكر النبى الأكرم صلى الله عليه و آله فضائله وفضائل أهل بيته فى كلمتين، وأحد هاتين الفضيلتين هى الشجاعة. ۵- ونقرأ فى حديث ليلة المبيت (وهى الليلة الّتى بات فيها الإمام على عليه السلام على فراش النبى صلى الله عليه و آله فى ليلة الهجرة إلى المدينة) أنّه عندما حاصر المشركون بيت النبى صلى الله عليه و آله ليلًا، ثم هجموا فى الصباح الباكر إلى داخل الدار رأوا علياً نائم فى فراش النبى، فقال أبو جهل: أما ترون محمداً كيف أبات هذا و نجا بنفسه لتشتغلوا به وينجو محمد، لا تشتغلوا بعلى المخدوع لينجو بهلاكه محمد .... فقال على عليه السلام: «أَلِى تَقُولُ هذا يا أَبا جَهل؟ بَلِ اللَّهُ قَدْ أَعطانِى مِنَ العَقلِ ما لَو قُسِّمَ عَلى جَميعِ حُمَقاء الدُّنيا وَمَجانِينِها لَصارُوا بِهِ عُقلاء، وَمِنَ القُوَّةِ ما لَو قُسِّمَ عَلى جَمِيعِ ضُعَفاءِ الدُّنيا لَصارُوا بِهِ أَقوياء، وَمِنَ الشَّجاعَةِ مَا لَوْ قُسِّمَ عَلَى جَمِيعِ جُبَنَاءِ الدُّنْيا لَصَارُوا بِهِ شَجْعَاناً» «۲». ۶- ونقرأ فى الخطبة المعروفة للإمام زين‌العابدين فى الشام أنّ هذا الإمام ابتدأ خطبته التاريخية بقوله: «ايُّهَا النَّاسُ: اعْطِينَا سِتّاً وَفُضِّلْنَا بِسَبْعٍ اعْطِينَا الْعِلْمَ وَالْحِلْمَ وَالسَّمَاحَةَ وَالْفَصَاحَةَ وَالشَّجَاعَةَ وَالْمَحَبَّةَ فِى قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ» «۳». ۷- ونختم هذا البحث بحديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام (رغم وجود أحاديث كثيرة فى هذا الباب) قال: «الْغِيرَةُ الشَّدِيدَةُ عَلَى حَرَمِكَ، وَالسَّخَاءُ، وَحُسْنُ الْخُلْقِ، وَصِدْقُ اللِّسَانِ وَالشَّجَاعَةُ». الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۳۰ ويتبين من الأحاديث المذكورة آنفاً وكذلك الآيات والروايات الكثيرة فى هذا الباب أهمية هذه الفضيلة الأخلاقية وقيمتها من بين القيم الإنسانية الرفيعة الّتى يراها الإسلام فى مجمل تعاليمه الأخلاقية والإنسانية. وممّا يجدر ذكره هو أنّ (الشجاعة) لها معنىً واسع وتمتد لمساحات شاسعة من السلوكيات الإنسانية، والشجاعة فى ميدان الحرب والقتال هو أحد فروعها ومصاديقها، ومنها الشجاعة فى ميدان السياسة، وفى المسائل العلمية وإبداع النظريات الجديدة المنطقية والاختراعات العلمية، والشجاعة فى مقام القضاء والحكم وأمثال ذلك، فكلّ واحدٍ منها يعد من فروع هذه الشجرة الأخلاقية والصفة الكريمة للإنسان، ولذلك نقرأ فى بعض الروايات «الصَّبْرُ شَجَاعَةٌ» «۱». وورد فى حديث آخر عن الإمام على عليه السلام قوله: «اشْجَعَ النَّاسِ اسْخَاهُمْ» «۲». ونقرأ فى حديث آخر عن هذا الإمام قوله: «لَوْ تَمَيَّزَتِ الْاشْيَاءُ لَكَانَ الصِّدْقُ مَعَ الشَّجَاعَةِ وَكَانَ الْجُبْنُ مَعَ الْكِذْبِ» «۳». فهذه الأحاديث الشريفة تقرر فى كلّ واحد منهما فرعاً من فروع الشجاعة الّتى تندرج تحت المفهوم العام لهذه الكلمة. ۱۲

ضعف النفس والتوكل على اللّه

تنويه:

وردت الإشارة فى كثير من الآيات القرآنية الكريمة والروايات الإسلامية وكذلك سيرة الأنبياء والأولياء والصالحين وفى كتب علماء الأخلاق وأرباب السير والسلوك إلى مسألة «التوكل» بعنوان أنّها من الفضائل الأخلاقية المهمة الّتى لا يتسنّى للإنسان الوصول إلى مقام القرب الإلهى بدونها. والمراد من التوكل هو: تفويض الامور إلى اللّه والاعتماد على لطفه، لأن (التوكل) من مادّة (وكالة) بمعنى اختيار الوكيل والاعتماد عليه فى تسيير الامور، وبديهى انه كلّما كان الوكيل يتمتع بقدرة أكبر واحاطة علمية أكثر فإنّ الشخص

الموکل یشعر فی قرارة نفسه بالهدوء والسکینة أکثر، وبما أنّ اللّه تعالی وقدرته لا- محدودة، فعندما یتوکل الإنسان علیه یشعر بالطمأنینة والسکینة تدغدغ قلبه وتنفذ إلی أعماق روحه، فتمنحه القدرة علی التصدی للمشکلات والحوادث الصعبة، وأن لا یعیش الخوف من الأعداء والأخطار المختلفة، ولا- یری نفسه فی مأزق فی حرکة الحیاة، فیسیر بالتالی بقلب مطمئن وبطریق مفتوح متجهاً صوب أهدافه ومقاصده. الإنسان الّذی یعیش التوکل علی اللّه لا یشعر إطلاقاً بالحقارة والضعف بل یری نفسه الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۲۳۲ وبالإعتماد علی لطف اللّه وعلمه وقدرته المطلقة منتصراً وناجحاً فی حیاته الفردیة والاجتماعیة، وحتّی أنّه لو اصیب بالفشل أحیاناً فإنّ ذلک لا یفرض علیه الیأس والقنوط. وعندما یتجلّی مفهوم التوکل بمعناه الصحیح فی واقع الإنسان وعلی سلوکیاته فإنّ ذلک من شأنه أن یثیر الأمل فی القلب ویبعث علی تقویة الإرادة وتحکیم دعائم المقاومة والشجاعة. إنّ مسألة التوکل لها دورٌ مهم فی حیاة الأنبیاء الإلهیین، فعندما نستعرض الآیات القرآنیة فی هذا الباب نجدها تشیر إلی أنّ هؤلاء الأنبیاء واجهوا سلسلة الحوادث والمشکلات المدمّرة والعظیمة بسلاح التوکل علی اللّه، وکانت أحد الأسباب المهمة لانتصارهم وتغلّبهم علی هذه المشکلات هو کونهم یتمتعون بهذه الفضیلة الأخلاقیة. وبهذه الإشارة نعود إلی القرآن الکریم لنستوحی من آیاته دروساً من سیرة الأنبیاء الإلهیین فی مسألة التوکل ودورها المهم فی حیاتهم العملیة وذلک بالترتیب: (نبدأ من نوح علیه السلام وننتهی إلی نبی الإسلام صلی الله علیه و آله). ۱- «وَاتْلُ عَلَیْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ یَاقَوْمِ إِنْ کَانَ کَبُرَ عَلَیْکُم مَّقَامِی وَتَذْکِیرِی بِآیَاتِ اللَّهِ فَعَلَی اللَّهِ تَوَکَّلْتُ فَأَجْمِعُواْ أَمْرَکُمْ وَشُرَکَآءَکُمْ ثُمَّ لَایَکُنْ أَمْرُکُمْ عَلَیْکُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُواْ إِلَیَّ وَلَا تُنظِرُونِ» «۱». ۲- «إِنِّی تَوَکَّلْتُ عَلَی اللَّهِ رَبِّی وَرَبِّکُم» «۲». ۳- «رَّبَّنَآ إِنِّی أَسْکَنتُ مِن ذُرِّیَّتِی بِوَادٍ غَیْرِ ذِی زَرْعٍ عِندَ بَیْتِکَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِیُقِیمُواْ الصَّلَوةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِی إِلَیْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ یَشْکُرُونَ» «۳». ۴- «إِنْ أُرِیدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَااسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِیقِی إِلَّا بِاللَّهِ عَلَیْهِ تَوَکَّلْتُ وَإِلَیْهِ أُنِیبُ» «۴». الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۲۳۳ ۵- «وَقَالَ یَابَنِیَّ لَاتَدْخُلُواْ مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَآ أُغْنِی عَنکُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَیْءٍ إِنِ الْحُکْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَیْهِ تَوَکَّلْتُ وَعَلَیْهِ فَلْیَتَوَکَّلِ الْمُتَوَکِّلُونَ» «۱». ۶- «وَقَالَ مُوسَی یَاقَوْمِ إِن کُنتُمْ ءَامَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَیْهِ تَوَکَّلُواْ إِنْ کُنتُم مُّسْلِمِینَ* فَقَالُواْ عَلَی اللَّهِ تَوَکَّلْنَا رَبَّنَا لَاتَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِینَ» «۲». ۷- «وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَیْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَی الْقَوْمِ الْکَافِرِینَ» «۳». ۸- «فَإِنْ تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِیَ اللَّهُ لَاإِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَیْهِ تَوَکَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِیمِ» «۴». ۹- «وَمَالَنَآ أَلَّا نَتَوَکَّلَ عَلَی اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَی مَآ ءَاذَیْتُمُونَا وَعَلَی اللَّهِ فَلْیَتَوَکَّلِ الْمُتَوَکِّلُونَ» «۵». ۱۰- «... وَمَن یَتَوَکَّلْ عَلَی اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ...» «۶».

تفسیر واستنتاج:

معطیات التوکل فی حیاة الأنبیاء

عندما نطالع القرآن الکریم فی اطار حدیثه عن سیرة الأنبیاء نلاحظ أنّ القرآن یستعرض من صفات الأنبیاء الإلهیین صفة (التوکل) بعنوان ابرز ظاهرة وصفة تتجلّی فی سیرة الأنبیاء علی طول التاریخ، حیث نجدهم یعیشون روح الاعتماد علی اللّه والتوکل علیه فی مقابل المصاعب والمشاکل الجمّة الّتی یواجهونها فی خطّ الرسالة والدعوة إلی اللّه، الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۲۳۴ وأنّهم کانوا لا یرتبطون بأیّ شیء برابطة الاعتماد والتعلق سوی بالقدرة المطلقة للذات المقدسة. ونبدأ من النبی نوح علیه السلام: «الآیة الاولی من الآیات محل البحث تستعرض حیاة نوح مع قومه المتعصّبین والمعاندین حیث واجههم بکلّ شجاعة ودعاهم بالکلام الهادئ والمتّزن والمنطقی من موقع الاعتماد علی اللّه والتوکل علیه، فتقول الآیة الشریفة مخاطبة نبی الإسلام: «وَاتْلُ عَلَیْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ یَاقَوْمِ إِنْ کَانَ کَبُرَ عَلَیْکُم مَّقَامِی وَتَذْکِیرِی بِآیَاتِ اللَّهِ فَعَلَی اللَّهِ تَوَکَّلْتُ فَأَجْمِعُواْ أَمْرَکُمْ وَشُرَکَآءَکُمْ ثُمَّ لَایَکُنْ أَمْرُکُمْ عَلَیْکُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُواْ إِلَیَّ وَلَا تُنظِرُونِ» «۱». فما هو العامل الّذی دفع بنوح مع قلّة المؤمنین من حوله إلی التصدی لکلّ قوی الانحراف والأعداء المعاندین من قومه بهذه الشهامة والشجاعة والسخریة من قوّتهم وعدم الاهتمام بقدراتهم وبمخططاتهم وبأوثانهم؟ وبالتالی فقد وجّه إلیهم ضربة قاصمة علی المستوی الروحی والنفسی. أجل لم یکن هذا العامل سوی الإیمان باللّه والتوکل علیه، والعجیب أنّ نوح لم یکتف فقط

بمواجهتهم من موقع اللامبالاة وعدم الاهتمام بقدراتهم ومعبوداتهم بل دعاهم إلى مبارزته وشجّعهم على مواجهته، أجل فمثل هذا الإظهار للقوّة واستعراض العضلات لا يتسنّى فى الحقيقة إلّامن المتوكلين. ونظراً إلى أنّ سورة يونس الّتى تستبطن هذه الآية محل البحث، مكيّة، فإنّ اللّه تعالى أراد من المسلمين فى مكّة أن يلتفوا حول نبى الإسلام صلى الله عليه و آله كالفراش الّذى يدور حول المصباح ويُظهروا من أنفسهم القوّة والقدرة أمام الأعداء الشرسين وأن لا يعيشوا الخوف والرعب من هذه القدرات الموهومة مقابل قدرة اللّه ومشيئته. وعبارة (شركائكم) يمكن أن تكون إشارة إلى الأصنام الّتى جعلوها شريكة للّه‌تعالى، الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۳۵ وقد ورد هذا التعبير أيضاً فى موارد اخرى كثيرة من القرآن الكريم. أو يكون المراد منه هو أتباعكم وأصدقائكم وأعوانكم، أى اجمعوا جميع قواكم وقدراتكم لتتحركوا بها فى التصدى لى ولمواجهتى. وتأتى «الآية الثانية» للتحدث على لسان النبى هود الّذى عاش بعد عصر نوح عليه السلام وقد هدّده قومه الوثنيّون بالموت، ولكنه انطلق من موقع القوّة والتوكل على اللّه وقال لهم بصراحة كما تقول الآية: «... قَالَ إِنّى أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُواْ أَنّى بَرِىءٌ مّمَّا تُشْرِكُونَ* مِن دُونِهِ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَاتُنظِرُونِ* انِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُمْ» «۱». واللطيف أنّ هود لم يكتف بعدم الاهتمام والاعتناء بقوى مخالفيه من عبّاد الأوثان وقدراتهم ومؤامراتهم بل انه سعى لتحريكهم وإثارتهم للتصدى له ومواجهته لكى يثبت لهم أنّ قلبه وروحه يرتبطان بقوة أخرى وانه بالتوكل على اللّه تعالى لا يعيش فى نفسه أىّ شعور بالخوف من مؤامراتهم مهما عظمت قوتهم واشتدت قدرتهم، وهذا يدلّ على أنّ التوكل على اللّه يقود الإنسان إلى حيث المواقف الشجاعة والبطولية والسير فى خطّ الاستقامة والحقّ. فما أعجب أن يقف رجل واحد بمفرده أو مع القليل من أصحابه مقابل هذه الكثرة الكاثرة من قوى الانحراف والأعداء الأشداء مثل هذا الموقف البطولى ويتحرك فى مواجهته لهم من موقع الاستهزاء بتهديداتهم والسخرية بمؤامراتهم!! أجل فإنّ هذه من معطيات الإيمان والتوكل على اللّه فى حياة الإنسان. وقد ذكر أحد المفسّرين القدماء وهو (الزجاج) أنّ هذه الآية تعد من أهم الآيات الّتى تتحدّث عن الأنبياء العظام والّتى استعرضت فيها قصة نبى من الأنبياء يقف هذا الموقف البطولى فى مقابل جماعات كثيرة من مخالفيه ويتحدّث معهم مثل هذا الحديث الشجاع، ومثل هذا التعبير ورد فى قصة نوح عليه السلام وكذلك فى الحديث عن سيرة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله أيضاً. الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۳۶ والجدير بالذكر أنّ القرآن الكريم وبعد هذه الآية يتحدّث عن أنّ هود عليه السلام خاطب قومه المعاندين بخطاب من موقع العقل والاستدلال وقال: «مَا مِنْ دَابَّةٍ الّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا» «۱». ثمّ أضاف: إن قدرة اللّه تعالى ليست بالقدرة الّتى توحى لصاحبها بالغرور والإنحراف عن خطّ الحقّ بل «انَّ رَبِّى عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ». وعليه فأنا أعتمد على من قدرته مطلقة وافعاله عين الصواب والعدالة. وتأتى «الآية الثالثة» لتشير إلى جانب من سيرة النبى إبراهيم عليه السلام وتوكّله على اللّه فى أحلك الظروف وأصعب الحالات الّتى يواجهها الإنسان وتقول: «رَّبَّنَآ إِنّى أَسْكَنتُ مِن ذُرّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلواةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مّنَ النَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ» «۲». فلو لم يكن ايمان إبراهيم كالجبل الشاهق، ولم يكن له قلب كالبحر المتلاطم، ولم يكن يعيش التوحيد والتوكل فى أعلى مراتبه، فهل يمكنه كإنسان طبيعى أن يسكن زوجته وابنه الحبيب فى صحراء قاحلة ومحرقة بلا ماءٍ ولا كلاء ليس لشىء إلّاامتثالًا لأمر اللّه تعالى ثمّ يعود من هناك إلى وطنه الأصلى؟ هذه الحادثة العجيبة تذكرنا بحادثة اخرى فى سيرة إبراهيم عليه السلام العظيم، وهى عندما وضعه مخالفوه وأعداؤه المعاندون فى قفص الإتهام بسبب تحطيمه أصنامهم، فكان إبراهيم على وشك أن يُقتل ولكنه مع ذلك لم يترك السخرية من أصنامهم وعقائدهم الزائفة وكان ينطلق فى حواره معهم من موقع المنطق والدلائل القوية فى عملية إبطال منطقهم الخرافى وإثبات زيف مدّعياتهم الواهية. «الآية الرابعة» تشير إلى قصة شعيب عليه السلام الّذى جاء بعد فترة من النبى هود عليه السلام وقُبيل الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۳۷ موسى عليه السلام، حيث وقف مقابل المشركين من قومه وتصدّى لعقائدهم وتهديداتهم ومؤامراتهم من موقع الاستهزاء والسخرية، وكان يقول لهم فى حكايته عن دعوته ورسالته السماوية: «... إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَااسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِى إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ» «۱». أجل فأنا لا أخاف من شىء لاعتمادى على إيمانى باللّه والتوكل على ذاته المقدسة وسأستمر فى خطّ الرسالة والدعوة إلى اللّه والإصلاح ما أمكننى ذلك

وبالاتكال على اللّه. والجدير بالذكر أنّ شعيب ولغرض تنفيذ عملية الإصلاحات الواسعة الّتى كان يتحرّك باتجاهها فى مجتمعه الفاسد كان يعتمد على ثلاث دعائم: الاولى: تهيئة المقدّمات للعمل من قبل اللّه تعالى حيث تشير إلى ذلك كلمة «توفيقى»، ثمّ بالإنطلاق من عزم راسخ وارادة قوية بالشروع بالعمل والإصلاح، وذلك بقوله «عليه توكلت»، ثمّ أن تكون للإنسان المصلح دوافع سليمة وبنّاءة للقيام بعملية الإصلاح، وهو ما أشار إليه بقوله (إليه انيب). وتتحرّك «الآية الخامسة» لتستعرض لنا كلام يعقوب لأولاده، ويعقوب هو الجدّ الأعلى لبنى إسرائيل والّذى كان يعيش فى مضيقة شديدة فى ذلك الزمان، فمن جهة فقد ابنه العزيز يوسف، ومن جهة اخرى كان يعيش القحط الشديد فى كنعان الّذى أصاب الناس فى تلك المناطق، فكانوا يواجهون التحديات والظروف الصعبة بسبب ذلك، وبالتالى وجد نفسه مجبراً على أن يودع ابنه الآخر (بنيامين) بيد ابنائه الآخرين الّذين كانوا يعيشون الجفاف الروحى والعاطفى، وذلك لغرض تحصيل القوت والطعام من أرض مصر ويحصلوا على المساعدة من عزيز مصر، وهنا أوصى يعقوب ابناءه المتجهون إلى مصر بقوله: «وَقَالَ يَابَنِيَّ لَاتَدْخُلُواْ مِن بَابٍ وَا حِدٍ وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَا بٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ...» «۲». ثمّ أضاف: اننى بهذه التوصية لا أستطيع أن أصُدّ عنكم البلاء أو أمنع عنكم ما قدّر اللّه الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۳۸ لكم، «... وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مّنَ اللَّهِ مِن شَىْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ» «۱». وعلى هذا الأساس فإنّ يعقوب أوصى أولاده بوصايا خاصة لمقابلة الحوادث المتوقعة، ولكنه أكد عليهم أنّه بهذه التوصية لا يستطيع أن يقف مقابل الحوادث أو يضع تدبيراً حاسماً لجميع المشكلات والمصاعب الّتى سيواجهونها فى سفرهم هذا، بل انّ عليه أن يضع ما يمكنه من الحلول والتوصيات، وأمّا الباقى فيجب أن يتوكلوا على اللّه تعالى. وبهذا فإنّ يعقوب فى الحقيقة قد أوصاهم بالتوكل على اللّه، وقد ذكر الدليل والسبب فى تأكيده على هذا المعنى، وهو انّ جميع الامور بيد اللّه تعالى: «إنِ الحُكْمُ الّا للّه». إذن فينبغى على الإنسان أن يعيش التوكل والاعتماد على هذه القدرة المطلقة والّتى لا توجد أية قدرة اخرى فى مقابلها فى عالم الوجود. ومن الواضح أنّ المراد بكلمة (الحكم) هنا هو (الحكم التكوينى) للّه‌تعالى فى عالم الخلقة والّتى تعود جميع الأسباب لديه وليست ناظرة إلى الحكم التشريعى. (فتأمل). وتتعرض «الآية السادسة» إلى ما جرى بين موسى عليه السلام وقومه بنى إسرائيل، وذلك عندما أظهر موسى دعوته الإلهية وأبرز معجزاته العظيمة ولكن مع ذلك لم يؤمن به جميع بنى إسرائيل بل آمن به واتبعه جماعة منهم، فى حين انّ بنى إسرائيل كانوا مستضعفين بأجمعهم من قبل الفراعنة وكانوا يعيشون الخوف وشدّة العذاب من قبل فرعون وقومه، فعندما نرى أنّ زوجة فرعون وبسبب اعلانها الإيمان بموسى عليه السلام قد وضعت تحت طائلة العذاب الشديد من قبل زوجها فرعون، فمن الواضح ما كان تعامل فرعون مع سائر بنى إسرائيل، ولهذا السبب فإنّ موسى بن عمران ولغرض ايجاد حالة من الطمأنينة والهدوء النفسى فى قومه وإزالة عنصر الخوف والرعب المسلّط عليهم أمرهم بالتوكل على اللّه، «وَقَالَ مُوسَى الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۳۹ يَاقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِنْ كُنتُم مُّسْلِمِينَ» «۱» وهذا يعنى انكم لا يمكنكم التصدى لمثل هذا الحاكم الجائر ومواجهته من موقع القوّة والخلاص من شرّه إلّابالتوكل على اللّه تعالى. ومن البديهى أنّ موسى عليه السلام نفسه كان فى مرتبة متقدمة من هذا الأمر من حيث تجسيده لمعنى التوكل فى ممارساته العملية، ولو لم يكن يتمتع بمقام التوكل فكيف يستطيع وهو راعٍ للأغنام بدون أن يتمتع بأية قدرة ظاهرية مواجهة أعتى قوّة وحكومة فى ذلك الزمان؟ وهكذا لبّى المؤمنون من بنى إسرائيل نداء موسى عليه السلام «فَقَالُواْ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ...» «۲». ثمّ توجّهوا إلى اللّه تعالى وقالوا: «... رَبَّنَا لَاتَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ» «۳». والمقصود من (فتنة) فى الآية الأخيرة هو ما قد يتعرضون له من التعذيب والتنكيل على يد أزلام فرعون، وقد وردت هذه الكلمة فى سورة (البروج) فى مورد أصحاب الأخدود، وكذلك فى الآية ۸۳ من هذه السورة مورد البحث والّتى أشرنا إليها سابقاً. ويُحتمل أنّ المراد من (الفتنة) فى كلا الموردين هو عملية الإنحراف عن خطّ التقوى والطاعة والإيمان، لأن الفراعنة لو تسلّطوا على المؤمنين لرأوا ذلك دليلًا على حقانيّتهم ولاستمروا فى طريق الإنحراف بأقدام ثابتة وعزم راسخ أكثر من السابق. وتستعرض «الآية السابعة» فى إطار الحديث عن الأزمنة الّتى تلت عصر موسى عليه السلام حيث كان بنو إسرائيل يعيشون العناء والظلم على يد سلطان جبّار يُسمّى (جالوت)، فكان أن اضطروا إلى اللجوء لنبى لهم يُدعى (إشموئيل) وطلبوا منه أنّ يُعيّن لهم قائداً يقود

جيوشـهم نحو مواجهـة جـالوت والتخلّص منه واسـتعادت أراضـيهم وبيوتهم منه، فعيّن إشـموئيل الاخلاـق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۴۰ طالوت ملكاً وقائداً عليهم والّذى كان شاباً قوياً وعارفاً بالامور ولائقاً لهذا المقام من كلّ جهة، ولكن بنى إسرائيل رفضوا الإذعان لهذا التعيين، ثـمّ قبلـوا به أخيراً بعـد أنّ بيّن لهم نـبيّهم الخصوصـيات والمميزات الفريـدة فى طـالوت. أمّـا طـالوت فقـد اختبر جيشه بعـدّة اختبارات ليهيئهم أكثر من الناحية النفسية والروحية لجهاد العدو. والآية مورد البحث تتحدّث عن الفترة اللاحقة لذلك حيث تستعرض منظر الواقعـة بين طالوت وجيشه من جهة، وجالوت وجيشه العظيم من جهة اخرى، وتقول: «وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ» «۱». فصـحيح أنّ جيش طـالوت كـان يعانى القلّة فى أفراده بالنسـبة لجيش جـالوت الجرار ومـا يتمتعـون به من سـلاح وامكانـات حربيـة واسـعة، ولكن الشـىء الّـذى أخـلّ بالموازنـة وأربَـكَ المعادلـة لصـالح المظلومين من بنى إسرائيل وبالتالى كتب لهم النصر والغلبة على عدوهم القوى هو الإيمان باللّه والتوكل عليه ومواجهة العدو من موقع الصبر والاسـتقامة فى طريق نصـرة الحقّ. ولهـذا السـبب فإنّ الآيـة الّتى تليها تُصـرح بهـذه النتيجـة الباهرة وتقول: «فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ». وبديهى أنّ حالة الصبر والاستقامة هى السـبب فى ثبات القدم ورسوخ المواقع، وثبات القدم سببٌ لتحقيق النصر، ولهذا ورد ذكر هذه الامور الثلاثـة بالترتيب فى دعائهم المذكور فى الآية الشـريفة، ومعلوم أنّ روح هذه الامور الثلاثة تكمن فى الإيمان والتوكل على اللّه تعالى. وتأتى «الآية الثامنة» لتتحدّث عن نبى الإسـلام ومقام توكله على اللّه تعالى، فعندما كان يواجه المشكلات والضغوط الصعبة فى حركته التبليغيـة علّمه اللّه تعـالى كيف يتغلب على الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۴۱ هذه المشـكلات الكبيرة وقال: «فَإِنْ تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَاإِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ» «۱». وهـذه الآيـة توضّـح جيداً أنّ الإنسان مهما كان وحيداً فريداً مقابل تحدّيات الظروف الصـعبة فإنه إذا كان يعيش التوكل على اللّه فلا يشـعر بصـعوبة هذه المشاكل، لأن اللّه تعالى هو رب العرش العظيم وذو القـدرة اللامتناهية الّتى لا تعتبر القوى الاخرى شـيئاً بالنسـبة لها ولا تأثير لها فى مقابل قدرة اللّه ومشـيئته، فمن كان العرش والعالم الأـعلى فى قبضـته فكيف يسـمح لعبـاده المتوكلين عليه أن يخوضوا لوحـدهم أمواج المشـكلات أو يتركهم لوحـدهم أمـام أعـدائهم الشرسـين؟ وممّا يجـدر ذكره أنّ البعض يرون أنّ هـذه الآيـة والّتى هى آخر آيـة من سورة التوبة والآية الّتى قبلها هى من آخر الآيات الّتى نزلت على نبى الإسـلام، واللطيف أنّ الآيات الشـريفة الّتى نزلت فى أوّل البعثـة تحوى هـذا المضـمون أيضاً وتـدلّ على أنّ رأس المال الأصـلى والدعامـة الحقيقيـة لرسول اللّه صـلى الله عليه و آله فى ذلك الزمان هى التوكل على اللّه، فنقرأ فى الآيـة ۳۸ من سورة الزمر الّتى نزلت فى تلك الأزمنة من بداية البعثة قوله: «... قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ» وعليه فإنّ النبى الأكرم صلى الله عليه و آله كان يعيش التوكل فى بدايـة البعثة وفى نهايتها وفى جميع الأحوال، وهذا الأمر هو السـبب الأوّل فى حركة النبى الأكرم فى خطّ الاسـتقامة والثبـات والنصـر. «الآيـة التاسـعة» تتعرض للحـديث عن جميع الأنبياء السابقين من زمان نوح عليه السـلام إلى الأنبياء الّذين جاءوا بعده وتقول عندما واجه هؤلاء الأنبياء المخالفة الشديدة لأقوامهم ورأوا أنفسهم لوحدهم وقالوا: «وَمَالَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۴۲ مَآءَاذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ» «۱». ونستوحى من هذه الآية أنّ التمسّك بالتوكل على اللّه مقابل المشـكلات والمصاعب الشديدة الّتى تفرضها الظروف الصعبة كان عمل جميع الأنبياء على طول التاريـخ. وفى الواقع أنّهم كـانوا يقفون أمـام طوائف الأعـداء والمشاكـل الكـبيرة بالاسـتمداد من عنصـر التوكـل وينتصـرون فى نهـاية المطاف، ومن هنا يتبيّن دور التوكل فى حياة البشـر وخاصّة على مستوى القادة والمصـلحين من الناس. وفى الحقيقة إنما يمنح الأنبياء القـدرة والقوّة رغم عـدم وجود العُـدة والعـدد فى مقابـل قـدرة الحكومـات الكبيرة وقوى الإـنحراف المختلفـة ولا يشـعرون مع ذلك بـالتراجع والضـعف والخوف هو حالـة التوكـل على اللّه والّتى تجعـل «مـا سوى اللّه» فى نظرهم صـغيراً وتافهاً. والملفت للنظر أنّ الآية الواردة قبل هـذه الآيـة (الآية ۱۱ من سـورة إبراهيم) تقـول: «وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ». وفى هـذه الآيـة الشـريفة محـل البحث نقرأ «وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ». ومن إدغام هاتين الآيتين يسـتفاد أنّ المؤمن الواقعى هو المتوكل على اللّه، وكـذلك يسـتفاد من هذه الآيـة أنّ التوكل وليـد المعرفة والهداية الإلهية كما أنّ الصبر والاسـتقامة فى مقابل اعتداءات الأعداء وتحرّشاتهم وليد التوكل (فتأمل).

وتتعرض «الآية العاشرة» إلى ذكر نتيجة واضحة للتوكل على اللّه بحيث تعمل على حث الجميع لطلب هذه الحالة فى واقعهم، وتَعِدهم بالنجاة والنصر أيضاً وتقول: «وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلّ شَىْءٍ قَدْرًا» «۲» وفى الواقع فإنّ اللّه تعالى أوعد جميع المتوكلين عليه بحل مشكلاتهم بشكل حتمى، ثمّ الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۴۳ استعرضت الآية الشريفة الدليل على ذلك وقالت: «إِنَّ اللَّهَ بَـالِغُ أَمْرِهِ». وبديهى فإنّ مثل هذه القدرة المطلقة بإمكانها الوفاء بجميع الوعود وحلّ جميع المشكلات مهما كانت ثقيلة وصعبة، فكلّها تحت إرادته ومشيئته. وجملة قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلّ شَىْءٍ قَدْرًا يمكن أن تكون جواباً على سؤال مقدّر، وهو لماذا نعيش أحياناً غاية التوكل على اللّه تعالى ولكن الحلّ والنصرة قد يتأخر؟ القرآن الكريم يجيب على هذا السؤال بأنكم لا تعلمون مصالح الامور، فكلّ شىء يكون بحساب ويتطلب زمان وفرصة مناسبة، وكلّ حالة تكون مطلوبة فى ظرفها الخاصّ، ولهذا وبمقتضى أنّ «الْمُورُ مَرْهُونَةٌ بِاوْقَاتِهَا» فأحياناً تقتضى المصلحة تأخير النتيجة، وعليه فإنّ العجلة والتسرع فى مثل هذه الامور غير صحيح. ويشبه هذا المعنى ما ورد فى الآية (۱۶۰) من سورة آل عمران حيث نجد أنّ القرآن الكريم يقرر بأن النصر والهزيمة كليهما من اللّه‌تعالى وأنّ طريق الوصول إلى النصر يمر من خلال التوكل على اللّه فتقول الآية: «إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِى يَنصُرُكُم مّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ا لْمُؤْمِنُونَ».

النتيجة النهائية:

ونستوحى من الآيات المذكورة آنفاً والّتى استعرضت سيرة أقدم الأنبياء الإلهيين إلى أن وصلت إلى نبى الإسلام أنّ مسألة التوكل فى حياة البشر وجهاد الأنبياء وانتصارهم على المشكلات والتحديات الصعبة الّتى يفرضها الواقع بمثابة الأساس لكلّ هذه التحركات الإيجابية والمثمرة فى سلوك الإنسان على المستوى المادى والمعنوى، وتدلّ على أنّ هذه الفضيلة الأخلاقية بإمكانها أن ترتفع بالإنسان إلى مستويات عالية فى سلّم الكمال المعنوى، والنقطة المقابلة لها، أى عدم الاعتماد والتوكّل على اللّه تعالى يتسبب فى السقوط الحضارى والمعنوى للفرد والمجتمع.

التوكل فى الأحاديث الإسلامية:

اشارة

وتولى الروايات الإسلامية أهمية كبيرة إلى هذه الفضيلة إلى درجة اننا قلما نجد من الآثار الإيجابية والبركات على صفة من الصفات الأخلاقية الفاضلة مثلما ورد فى حقّ هذه الفضيلة، وما سنذكره من الروايات الشريفة عبارة عن نماذج مقتطفة من كثير ممّا ورد فى هذا الباب ممّا لا يسمح لنا المجال لاستيعابها جميعاً. ۱- ما ورد فى الحديث الشريف عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله أنّه قال: «مَنْ سَرَّهُ انْ يَكُونَ اقْوَى النَّاسِ فَلْيَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ» «۱». ۲- ونقرأ فى حديث آخر عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: «فِى التَّوَكُّلِ حَقِيقَةُ الْيقَانِ» «۲». ۳- وفى حديث آخر عميق المعنى ما ورد فى قصة إبراهيم عليه السلام فى تفسير على بن إبراهيم حيث تقول الرواية: أنّه لما وضعوا إبراهيم فى المنجنيق، جاءه عمه آذر وصفعه على وجهه بشدة وقال له: ارجع عما أنت عليه، ولم يبق شىء إلّاطلب إلى ربه، أن ينجى ابراهيم وقالت الأرض يا رب ليس على ظهرى أحد يعبدك غيره فيحرق، وقالت الملائكة مثل ذلك وجاء إليه جبرئيل فى الهواء، وقد وضع فى المنجنيق، فقال يا إبراهيم هل لك إلىّ من حاجة؟ فقال إبراهيم أما إليك فلا، وأما إلى ربّ العالمين فنعم. فدفع إليه خاتماً عليه مكتوب: «لَا الَهَ الَّا اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ، الْجَأْتُ ظَهْرِى الَى اللَّهِ، اسْنَدْتُ امْرِى الَى اللَّهِ، وَفَوَّضْتُ امْرِى الَى اللَّهِ» فأوحى اللّه إلى النار (كونى برداً وسلاماً) فاضطربت اسنان إبراهيم من البرد حتّى قال (سلاماً على إبراهيم) فهبط جبرئيل وجلس معه يحدثه فى النار وفى روضة خضراء، ونظر إليه نمرود فقال: «مَنِ اتَّخَذَ الَهاً فَلْيَتَّخِذْ مِثْلَ الَهِ ابْرَاهِيمَ» «۳». أجل فإنّ التوكل على اللّه تعالى قد

حوّل النار إلى بستان جميل وجنّة خلابة، هذا التوكل الّذى منح إبراهيم القوّة على ضبط النفس والهدوء والسكينة حتّى انه لم يجد حاجة إلى الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۴۵ التوسل بجبرئيل واعتبر ذلك ابتعاداً عن اللّه وخلافاً لمقتضى الإيمان والتوكل وانه لابدّ من تحصيل الماء من العين الصافية نفسها. ۴- ويقول الإمام الصادق عليه السلام فى تعبير آخر: «انَّ الْغِنَى وَالْعِزَّ يَجُولَانِ فَاذَا ظَفَرَا بِمَوْضِعِ التَّوَكُّلِ اوْطَنَاهُ» «۱». وهذا يعنى أنّ القلب الّذى تحوّل إلى مركز للتوكل على اللّه فإنه يشعر بالغنى وعدم الحاجة لما سوى اللّه تعالى، وكذلك فإنّ مثل هذا الإنسان يعيش العزّة والقدرة لأنّه يتحرّك من موقع الاعتماد على القدرة المطلقة الّتى تتعالى على جميع القدرات الاخرى ولا تقبل الضعف والتردد والإهتزاز. ۵- ونقرأ فى حديث آخر بهذا المعنى عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «مَنْ تَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ لَا يُغْلَبُ وَمَنْ اعْتَصَمَ بِاللَّهِ لَايُهْزَمُ» «۲». ۶- وورد فى حديث آخر عن الإمام على بن أبى طالب عليه السلام أنّه قال: «مَنْ تَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ ذَلَّتْ لَهُ الصِّعَابُ وَتَسَهَّلَتْ عَلَيْهِ الْاسْبَابُ» «۳». وكيف لايكون كذلك فى حين أنّ (مسبّب الأسباب) هو اللّه تعالى وكلّ شىء خاضع وخاشع له. ۷- وفى حديث آخر عن هذا الإمام انه أشار فى كلامه إلى هذه الحقيقة، وهى أنّ التوكل ليس فقط يُعدّ من العوامل الخفيّة فى باطن الكون بل من العوامل المؤثرة فى نفس الإنسان وباطنه أيضاً حيث يمنحه القوّة الّتى تنجيه من الوساوس والشبهات فقال: «مَنْ تَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ اضْمَائَتْ لَهُ الشُّبَهَاتُ» «۴». ۸- وأيضاً ورد عن هذا الإمام فى خطابه للناس جميعاً «يَا ايُّهَا النَّاسُ تَوَكَّلُوا عَلَى اللَّهِ الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۴۶ واتَّقُوا بِهِ فَانَّهُ يَكْفِى مِمَّنْ سِوَاهُ» «۱». ۹- وعن جابر بن يزيد الجعفى أنّه قال: خدمت سيّد الأنام أبا جعفر محمّد بن على عليه السلام ثمانية عشرة سنة فلما أردت الخروج ودعته فقلت له: افدنى، فقال: بعد ثمانية عشر سنة يا جابر؟ قلت: «نَعَمْ انَّكُمْ بَحْرٌ لَايُنْزَفُ وَلَا يُبْلَغُ قَعْرُهُ». قال عليه السلام: يا جابر بلغ شيعتى عنى السلام وأعلمهم أنّه لا قرابة بيننا وبين اللّه عزّوجلّ، ولا يتقرب إليه إلّابالطاعة له، يا جابر من أطاع اللّه وأحبنا فهو ولينا، ومن عصى اللّه لم ينفعه حبنا. يَا جَابِرُ مَنْ هَذَا الّذى سَأَلَ اللَّهَ فَلَمْ يُعْطِهِ؟ اوْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ وَلَمْ يَكْفِهِ؟ اوْ وَثَقَ بِهِ فَلَمْ يُنْجِهِ؟» «۲». ونجد فى هذا الحديث الشريف أنّ التوكل على اللّه والثقة بوعده وكرمه، ودعاءه والطلب منه بعنوان ثلاث وسائل للنجاة والفلاح. أجل فإنّ الإنسان إذا توجّه إلى العين الصافية واغترف منها الماء الزلال فلا حاجة له لأن يمدّ يده إلى هذا وذاك. ۱۰- ونختم هذا البحث بحديث آخر عن لقمان الحكيم رغم وجود أحاديث كثيرة تقرر أهمية التوكل وآثاره الإيجابية الكبيرة على حياة الإنسان المادية والمعنوية، وذلك عندما أوصى لقمان ابنه بقوله: «يَا بُنَىَّ! تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ثُمَّ سَلْ فِى النَّاسِ، مَنْ ذَا الّذى تَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ فَلَمْ يَكْفِهِ؟!» «۳». إن عظمة هذه الفضيلة الإنسانية الكبيرة، يعنى التوكل على اللّه فى الأحاديث الإسلامية والنصوص الدينية الشريفة إلى درجة من الوضوح بحيث لا تحتاج إلى توضيح أكثر من الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۴۷ هذا، وبخلاف ما يقابلها من الحالة الذميمة الّتى تربط الإنسان بالقوى الاخرى الزائفة وتهبط به من أوج العزة والافتخار والاستقلال فى أبعاد شخصيّته الإنسانية إلى حيث الضعف والذلّة والمهانة وبالتالى عدم القدرة على التغلب على التحديات الّتى يفرضها الواقع وعدم حلّ المشاكل الّتى تواجه الإنسان فى حركة الحياة. وبعد بيان أهميّة التوكل فى الآيات القرآنية والروايات الإسلامية نصل إلى مسألة تحليل هذه الفضيلة فى أبعادها المختلفة وتوضيح بعض الزوايا المعتمة منها:

۱- حقيقة التوكل

رأينا فى ما تقدّم أنّ (التوكل) من مادّة (وكالة)، بمعنى ايداع الامور إلى اللّه تعالى والاعتماد على لطفه ورحمته، وهذا لا يعنى أن يعيش الإنسان حالة التكاسل وعدم التحرّك فى نشاطات الحياة بل عليه أن يبذل ما امكنه من السعى والجهد فى سلوك طريق الحياة بجدّية ولكنه فى نفس الوقت يعيش حالة التوكل على اللّه بالنسبة إلى ما لا يجد فى نفسه القدرة على تذليل الصعاب ويستمد من ألطافه الجلية والخفية فى ما يمنحه القدرة على الإستمرار فى هذا الطريق. ويقول أحد علماء الأخلاق المعروفين فى تفسير التوكّل: «اعلم أنّ التوكل منزل من منازل الدين ومقام من مقامات الموقنين، بل هو من معانى درجات المقربين، وهو فى نفسه غامض من حيث العلم وشاق، وقال عليه السلام: لا تنظروا إلى طول ركوع الرجل وسجوده، بل انظروا إلى خلقه وعمله. ووجه غموضه من حيث

العلم أنّ ملاحظة الأسباب والاعتماد عليها شرك فى التوحيد، والتباعد عنها بالكلية طعن فى السنّة وقدح فى الشرع، والاعتماد على الأسباب انغماس فى غمرة الجهل. والتحقيق فيه أنّ التوكل المأمور به فى الشرع هو اعتماد القلب على اللّه فى الامور كلّها وانقطاعه عمّا سواه، ولا ينافيه تحصيل الأسباب إذا لم يكن يسكن إليها، وكان سكونه إلى اللّه تعالى دونها مجوزاً أن يؤتيه اللّه مطلوبه من حيث لا يحتسب دون هذه الأسباب الّتى الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۴۸ حصلها، وأن يقطع اللّه هذه الأسباب عن مسبباتها». ثمّ يضيف قائلًا: «وليس معنى التوكل- كما يظنه الحمقى أنّه ترك الكسب بالبدن وترك التدبير بالقلب، والسقوط على الأرض كالخرقة الملقاة واللحم على الوضم، فإنّ ذلك جهل محض، وهو حرام فى الشرع، فإنّ الإنسان مكلف بطلب الرزق بالأسباب الّتى هداه اللّه إليها من زراعة أو تجارة أو صناعة أو غير ذلك ممّا أحلّه اللّه» «۱». ونقرأ فى (المحجّة البيضاء) فى بحث حقيقة التوكّل قوله: «إعلم أنّ التوكّل من أبواب الإيمان وجميع أبواب الايمان لا- تنتظم إلّابعلم وحال وعمل والتوكل كذلك ينتظم من علم هو الأصل، ومن عمل هو الثمرة، وحال هو المراد باسم التوكّل». ثمّ يشرع بذكر بعض التفاصيل عن عنصر العلم الّذى يمثل الأساس للتوكل، وبعد بيان مطول يصل إلى ذكر حقيقة التوكل الّتى هى عبارة عن الأساس الّذى يبتنى التوكل عليه، وحاصله أن ينكشف لك أن لا فاعل إلّااللّه، وأن كلّ موجود من خلق ورزق وعطاء ومنع وحياة وموت وغنى وفقر إلى غير ذلك فالمنفرد بابداعه واختراعه هو اللّه تعالى لا شريك له، وإذا انكشف لك هذا لم تنظر إلى غيره بل كان منه خوفك وإليه رجاؤك وبه ثقتك وعليه اتكالك فإنه الفاعل على الانفراد دون غيره، وما سواه مسخّرون لا استقلال لهم بتحريك ذرّة فى ملكوت السماوات والأرض» «۲». وقد ورد فى الحديث الشريف عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله عندما سُئل: «مَا التَّوَكُّلُ عَلَى اللَّهِ عَزَّوجلَّ؟ فَقَال صلى الله عليه و آله: الْعِلْمُ بِانَّ الْمَخْلُوقَ لَايَضُرُّ وَلَا يَنْفَعُ وَلَا يُعْطِى وَلَا يَمْنَعُ وَاسْتِعْمَالُ الْيَأْسِ مِنَ الْخَلْقِ». ثمّ قال صلى الله عليه و آله: «فَاذَا كَانَ الْعَبْدُ كَذَلِكَ لَمْ يَعْمَلْ لِاحَدٍ سِوَى اللَّهِ وَلَمْ يَرْجُ وَلَمْ يَخَفْ سِوَى اللَّهِ، وَلَمْ يَطْمَعْ فِى احَدٍ سِوَى اللَّهِ، فَهَذَا هُوَ التَّوَكُّلُ» «۳». الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۴۹ ونقرأ فى حديث آخر أنّه سُئل الإمام عليه السلام عن حقيقة التوكل فقال: «لَا تَخَافُ سِوَاهُ» «۱». ويستفاد من هذه العبارات أنّ روح التوكل هى الانقطاع إلى اللّه وهجر التعلق بالمخلوقات والأسباب، وما لم يصل الإنسان إلى هذه المرتبة فهو بعيد عن حقيقة التوكل، وكذلك يستفاد من الروايات الرفض الأكيد للمفهوم السلبى من التوكل، أى ترك الاستفادة من الأسباب المادية، فقد ورد فى حديث معروف أنّ رجلًا اعرابياً ترك ناقته وجاء إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله قائلًا: «تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ» فقال له النبى صلى الله عليه و آله: «اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ» «۲». ولهذا السبب ورد فى الآيات الكريمة والسنّة النبوية نصوص كثيرة توجب على المؤمنين الأخذ بالأسباب الظاهرية وأنّ ذلك لا يتقاطع مع روح التوكل من قبيل قوله تعالى: «وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ...» «۳». ومن جهة اخرى نرى أنّ القرآن الكريم يبيّن للمسلمين كيفية صلاة الخوف ويقول: «... وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَاسْلِحَتَهُمْ ...» «۴». وعلى هذا الأساس نرى أنّ القرآن الكريم يوجب على المسلمين الأخذ بأدوات الحذر والحيطة تجاه العدو حتّى فى حال الصلاة، فكيف الحال فى الموارد الاخرى؟ إن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله نفسه لم يتحرك فى هجرته من مكّة إلى المدينة من موقع اللامبالاة بالخطر وبدون تخطيط مسبق والاكتفاء بقول «تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ»، بل تحرك على مستوى اغفال العدو بأن طلب من الإمام على عليه السلام من جهة أن ينام على فراشه إلى الصباح، ومن جهة اخرى خرج من مكّة ليلًا وعلى أتم السريّة والخفاء، ومن جهة ثالثة لم يتوجه شمالًا صوب المدينة مباشرة، بل توجه نحو الجنوب قليلًا وبقى فى غار ثور لثلاثة أيّام مختفياً عن الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۵۰ الأنظار، وعندما يأست قريش من العثور عليه خرج من الغار متوجهاً إلى المدينة مستديراً حول مكّة وكان يسير ليلًا وأحياناً يسلك الطرق غير السالكة حتّى وصل إلى المدينة. إذن، فروح التوكل الّتى كان يعيشها النبى الأكرم صلى الله عليه و آله بجميع وجوده واحساساته لم تمنعه من الأخذ بالأسباب الظاهرية. وأساساً فإنّ مشيئة اللّه تعالى قائمة على أساس أن يأخذ الناس فى حركتهم لتحقيق مقاصدهم بالأسباب والوسائل الموجودة كما ورد فى الحديث الشريف عن الإمام الصادق عليه السلام حيث قال: «ابَى اللَّهَ انْ يَجْرِىَ الْأَشْيَاءَ الّا بِاسْبَابٍ فَجَعَلَ لِكُلِّ شَىْءٍ سَبَباً» «۱». وعليه فإنّ اهمال عالم الأسباب والمسببات ليس فقط لا يعدّ من التوكل، بل هو فى

الواقع اهمال للسنن الإلهيّة الموجودة فى عالم الخلقة، وهذا ممّا لا ينسجم مع روح التوكل. ونختم هذا الكلام برواية تتعلق بزمان النبى موسى عليه السلام حيث ورد «أنّ موسى عليه السلام اعتلّ بعلّة فدخل عليه بنو إسرائيل فعرفوا علّته فقالوا له: لو تداويت بكذا لبرأت. فقال: لا ـ أتداوى حتّى يعافينى من غير دواء، فطالت علّته فقالوا له: إن دواء هذه العلّة معروف مجرّب وإنّا نتداوى به فنبرأ. فقال: لا أتداوى، فدامت علّته فأوحى اللَّه إليه: «وَعِزَّتِي وَجَلَالِي لَا ابْرَأْتُكَ حَتَّى تَتَدَاوَى بِمَا ذَكَرُوهُ لَكَ»، فقال لهم: داوونى بما ذكرتم، فداووه فبرأ، فأوجس فى نفسه من ذلك، فأوحى اللَّه إليه: «ارَدْتَ انْ تَبْطُلَ حِكْمَتِي بَتَوَكُّلِكَ عَلَيَّ، فَمَنْ اوْدَعَ الْعَقَاقِيرَ مَنَافِعَ الْاشْيَاءَ غَيْرِى» «۲». هذا الحديث الشريف يوضّح لنا حقيقة التوكل. وعندما نرى أنّ إبراهيم الخليل عليه السلام لا يمدّ يده إلى الملائكة فى اللحظات الحرجة ولا يطلب إليهم انقاذه من نار نمرود فإنّ ذلك لا يتعارض مع مسألة الاستفادة من الأسباب الطبيعية الّتى قرأناها فى سيرة النبى موسى عليه السلام، لأن التوسل بالأسباب المادية والطبيعية لم تكن واردة فى قصة إبراهيم عليه السلام بل تحكى عن نوع من الاستمداد وطلب النجاة من الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۵۱ الأسباب الغيبية وغير الطبيعية، ولهذا لم يقبل إبراهيم عليه السلام فى هذه المرحلة بالذات أن يمد يده إلى ما سوى اللَّه تعالى (فتدبّر).

۲- معطيات التوكل وآثاره الإيجابية

بما أنّ المتوكل على اللَّه فى الحقيقة يفوّض أمره وحاله وعمله إلى اللَّه تعالى، ويعلّق أمله بالقدرة اللامتناهية والذات المقدسة العالمة بكلّ شيء، ويعتمد على اللَّه الّذى بإمكانه أن يحلّ له جميع المشكلات ويسهل عليه ما عسر من الصعوبات، فإنّ أوّل أثر إيجابى يخلقه التوكل فى واقع الإنسان هو أن يثير فى نفسه مسألة الاعتماد على الذات ومقاومة المشكلات والوقوف على قدميه أمام سيل الحوادث الكبيرة فى حركة الحياة. ولو أنّ شخصاً وجد نفسه وحيداً فى ميدان القتال مع الأعداء فإنه مهما كان قوياً ومستعداً للقتال فإنه سرعان ما يجد الضعف يدبّ فى نفسه ويفقد اعتماده على نفسه، ولكن إذا أحسّ بأنّ جيشاً قوياً يدعمه من الخلف فإنه سيشعر بالقدرة الفائقة والشجاعة رغم عدم امتلاكه لأدوات القوّة ورغم ضعفه الذاتى. وقد وردت الإشارة إلى هذا المعنى فى الأحاديث الإسلامية أيضاً، ففى الحديث الشريف عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: «كَيْفَ اخَافُ وَانْتَ امَلِي وَكَيْفَ اضَامُ وَانْتَ مُتَّكَلِي» «۱». وفى حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «مَنْ تَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ لَايُغْلَبُ، وَمَنْ اعْتَصَمَ بِاللَّهِ لَايُهْزَمُ» «۲». أجل فكلّ إنسان يتوكل على اللَّه فإنه يعيش الغنى وعدم الحاجة ويشعر بالعزّة والكرامة كما ورد فى الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «انَّ الْغِنَى وَالْعِزَّ يَجُولَانِ فَاذَا ظَفَرَا الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۵۲ بِمَوْضِعِ التَّوَكُّلِ اوْطَنَا» «۱». ومضافاً إلى ذلك فإنّ التوكل يُبعد عن الإنسان كثير من الصفات الرذيلة من قبيل الحرص والحسد وحبّ الدنيا والبخل وغير ذلك، لأنّه عندما يفوض الإنسان أمره إلى اللَّه تعالى ويعلم انه القادر على كلّ شيء والعالم بحاجته وفقره فإنه سوف لا يبقى أثر لهذه الحالات السلبية فى واقعه ونفسه. فعندما يقرأ المؤمن هذه الآية الشريفة: «وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ» «۲» يجد نفسه غارقاً فى أسر التوفيق وغير محتاج إلى أىّ إنسان، كما ورد فى بعض الأدعية قوله: «اللَّهُمَّ اغْنِنِي بِالْيَقِينِ وَاكْفِنِي بِالتَّوَكُّلِ عَلَيْكَ» «۳». ومن جهة رابعة فإنّ التوكل يزرع فى قلب الإنسان نور الأمل الّذى بإمكانه أن يمنح الإنسان القدرة والقوّة فى حركته ويذهب عنه عنصر التعب المسلط عليه، ويشعر بالاستقرار والهدوء النفسى فى كلّ الأحوال، ولذلك يقول أميرالمؤمنين عليه السلام فى كلام مختصر وعميق المعنى «لَيْسَ لِمُتَوَكِّلٍ عَنَاءُ» «۴». ومن جهة خامسة فإنّ التوكل على اللَّه يزيد من ذكاء الإنسان وقدرة الذهن على التفكير الخلّاب، ويفتح آفاقه المعرفية، فيرى الأشياء من موقع الوضوح فى الرؤية، لأنّه ومع غضّ النظر عن البركات المعنوية لهذه الفضيلة الأخلاقية فإنّ التوكل يتسبب فى أنّ الإنسان لا يجد فى نفسه قلقاً واضطراباً مقابل المشكلات الّتى تفرزها الظروف الصعبة فى حركة الواقع، وبذلك تحفظ له قدرته على التصميم الجدّى والهادف الّذى ينطلق من موقع التفكير المتّزن بحيث يجد طريق الحلّ أمامه بسهولة. ومن ذلك نقرأ فى الحديث الشريف عن أميرالمؤمنين عليه السلام قوله: «مَنْ تَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۵۳ اضَائَتْ لَهُ الشُّبُهَاتِ وَكَفَى الْمَؤُونَاتِ وَامِنَ التَّبِعَاتِ» «۱».

۳- أسباب التوكل

إن التوكل كسائر الفضائل الأخلاقية له أسباب ودوافع عديدة، ويمكن القول أنّ أهمّ الأسباب والعوامل الّتى تمثل البنى التحتية لصرح التوكل هو الإيمان واليقين بالذات المقدسة والمعرفة بصفات الجمال والجلال الإلهية. عندما يقف الإنسان على قدرة اللّه وعلمه الواسع من موقع الوضوح والإدراك التام وأنّ جميع المخلوقات فى عالم الوجود ما هى إلّاأدوات مسخرة للقدرة الإلهية المطلقة، ويدرك جيداً مفهوم «لَا مُؤَثِّرَ فِي الْوُجُودِ الَّا اللّه»، فإنه يرى نفسه وقلبه معلّقاً بهذا الواقع الغيبى، ويرى عالم الوجود ميدان واسع للألطاف الإلهية العظيمة، ومن هذا المنطلق يجد فى نفسه حالة التوكل على اللّه تعالى ويفوض أمره إليه ويطرق بابه فى الأزمات والشدائد والمشكلات الّتى تواجهه فى واقع الحياة، ويطلب منه أن يعينه فى حلّها والتغلب عليها (مع اقتران ذلك بسعيه وعمله). وبعبارة اخرى إن التوكل هو ثمرة لشجرة (التوحيد الأفعالى) هذه الشجرة المباركة الّتى أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى اكلها كلّ حين بإذن ربها، ومن أهم ما يتناول الإنسان منها هو ثمرة التوكل. وقد أشارت الآيات القرآنية والأحاديث الإسلامية كراراً إلى هذه العبارة الشريفة، ومن ذلك انها وردت فى سبع آيات من القرآن الكريم وهى: «وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ». أى إن الإنسان الّذى يعيش الإيمان يجب عليه أن يتوكل على اللّه فقط، وهذه العبارة تبين جيداً الرابطة الوثيقة بين الإيمان والتوكل. ويقول الإمام أميرالمؤمنين على عليه السلام «التَّوَكُّلُ مِنْ قُوَّةِ الْيَقِينِ» «۲». الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۵۴ ويقول فى حديث آخر: «اقْوَى النَّاسُ ايمَاناً اكْثَرُهُمْ تَوَكُّلًا عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ» «۱». وقد ورد فى الحديث الشريف عن الأصبغ ابن نباتة عن أميرالمؤمنين على عليه السلام فى ما يقرأه الإنسان فى سجوده يقول: «وَاتَوَكَّلُ عَلَيْكَ تَوَكُّلَ مَنْ يَعْلَمُ انَّكَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٍ» «۲». وممّا يجدر ذكره أنّ الأشخاص الّذين يعيشون الخوف والجبن ليسوا من أهل التوكل، لأن التوكل على اللّه يُزيل من روح الإنسان ونفسه ظلمة الخوف والجبن ويمنحه الشجاعة والشهامة فى التصدى لمعالجة الظروف الصعبة. عندما نتأمل جيداً فى هذه المسألة يتضح لنا دور اليقين والإيمان بصورة أكبر فى منح الإنسان عنصر التوكل وتطهير نفسه من شوائب الخوف والجبن، لأنّه كلّما كان إيمان الفرد أقوى وأشد ابتعد عنه الخوف والجبن مسافات أكبر. ولا ينبغى إهمال هذه الملاحظة، وهى أنّ مطالعة معطيات التوكل والتدبر فى آثاره الإيجابية وقراءة حالات المتوكلين على اللّه وتاريخ حياتهم بإمكانه أن يورث الإنسان روح التوكل على اللّه ويقوى فى وجوده وقلبه هذه الشجرة الطيبة المثمرة.

۴- درجات التوكل

رأينا ممّا تقدّم من البحوث السابقة السبب الّذى يدفع بعض الناس لأن يعيشوا التوكل فى مرتبته الشديدة والبعض الآخر فى مرتبة أدنى حيث تبين لنا أنّ التوكل هو وليد الإيمان، وكلّما اشتد إيمان الفرد باللّه تعالى وصفاته واسمائه الحسنى فإنّ ذلك من شأنه أن يزيد من نسبة توكله بهذا المقدار، فالتوكل الّذى كان يعيشه إبراهيم كان وليد إيمانه الراسخ، وكذلك التوكل العجيب لأميرالمؤمنين عليه السلام الّذى تجلّى فى (ليلة المبيت) (الليلة الّتى نام فيها أميرالمؤمنين عليه السلام فى فراش النبى صلى الله عليه و آله وهاجر فيها النبى إلى المدينة). كذلك وليد إيمانه القوى والراسخ، وهذ الحالات من التوكل نجدها لدى المؤمنين فى مراتب متوسطة أو أقل الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۵۵ من ذلك بنسبة إيمانهم باللّه تعالى. وقد سأل شخص الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام عن مفهوم هذه الآية: «وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ» فقال له الإمام عليه السلام: «لِلتَّوَكُّلِ دَرَجَاتٌ» ثمّ أضاف: «مِنْهَا انْ تَثِقَ بِهِ فِى امْرِكَ كُلِّهِ فِى مَا فَعَلَ بِكَ فَمَا فَعَلَ بِكَ كُنْتَ رَاضِياً وَتَعْلَمَ انَّهُ لَمْ يَأْلُكَ خَيْراً وَنَظَراً، وَتَعْلَمَ انَّ الْحُكْمَ فِى ذَلِكَ لَهُ، فَتَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ بِتَفْوِيضِ ذَلِكَ الَيْهِ» «۱». وقد ذكر بعض علماء الأخلاق للتوكل ثلاث مراتب: الاولى: أن يعيش الإنسان الاعتماد والاطمئنان والثقة باللّه تعالى كما

یطمئن الإنسان ویثق بوکیله عندما یجده لائقاً ومخلصاً فیفوض اموره إلیه (دون أن یفقد اصالته واستقلاله بهذا الاعتماد والثقة) وهذه هی أضعف مراتب التوکل. الثانیة: أن یکون حاله فی اعتماده علی اللّه وثقته بنفسه کحال الطفل بالنسبة لُامّه، فالطفل فی بدایة الأمر لا یری شیئاً سوی امّه ولا یعتمد علی غیرها إطلاقاً، فما أن یراها حتّی یتعلق بها، وعندما یجد نفسه لوحده فإنه بمجرد أن یصیبه شیء أو حادثة فإنه یطلب امّه فوراً ویبکی أیضاً فی طلبها. ولاشکّ أنّ هذه المرتبة من التوکل أعلی من السابقة، لأن الإنسان فی هذه الحالة یجد نفسه غارقاً فی تجلیات الحقّ ولا یری أحداً غیره ولا یطلب من أیّ أحد حلّ مشکلاته إلّا من اللّه تعالی. المرتبة الثالثة: وهی بدورها أعلی من المرتبة الثانیة فی سُلّم الکمال المعنوی، وهی أن یجد الإنسان نفسه عدیم الإرادة والاختیار، فکلّما أراد منه اللّه شیئاً ورضی به کان رضاه بذلک الشیء وتعلّقت إرادته بذلک الشیء أیضاً، وکلّما عَلِم أنّ اللّه لا یرید ذلک الشیء فإنه لا یُریده أیضاً. بعض العلماء یری أن توکل إبراهیم علیه السلام کان یحکی عن هذه المرتبة الثالثة، عندما الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۲۵۶ وضعوه فی المنجنیق وأرادوا قذفه فی النار المهیبة، ولکنه مع ذلک لم یطلب شیئاً من الملائکة علی مستوی انقاذه من الهلکة، وعندما قالت له الملائکة: هل لک حاجة؟ قال: لی حاجة ولکن لیست إلیکم، وعندما قیل له: اطلب حاجتک من اللّه لینقذک من هذه النار المحرقة، فقال: «حَسْبِی مِنْ سُؤَالِی عِلْمُهُ بِحَالِی» «۱». وهذه الدرجة العالیة من التوکل یندر وجودها بین الناس، وهی من خواص مقام الصدیقین الّذین یعیشون الذوبان والعشق للذات المقدسة والغرق فی صفات جماله وجلاله.

۵- طرق تحصیل التوکل

لقد ذکر علماء الأخلاق طرقاً للتوصل إلی حالة التوکل وکلّ منها بمثابة عامل مؤثر لاکتساب هذه الفضیلة الأخلاقیة الکبیرة، ومن ذلک: التوجه إلی حالة (التوحید الأفعالی) وأن یعلم الإنسان یقیناً بأن کلّ شیء فی عالم الوجود متصلًا بذاته المقدسة ومرتبط بها وأنّ اللّه تعالی هو مصدر عالم الوجود والعلّة التامة لوجوده ووجود الکائنات وانه مسبّب الأسباب، فلا مؤثر فی الوجود إلّابأمره وکلّ المخلوقات إنما تقتات من صفات مائدة فضله ورحمته وکرمه. فبعد التأمل والتدبر فی هذه الامور یعود ینظر إلی حالاته الذاتیة لیری کیف أنّ اللّه تعالی اخرجه من صقع العدم والظلمة إلی نور الوجود وألبسه رداء الوجود ومنحه کلّ تلک القوی والمواهب الکثیرة المادیة والمعنویة ورعاه عندما کان فی رحم امّه فی (ظلمات ثلاث) حیث لم تکن تصل إلیه ید إنسان، ومع ذلک فإنه کان یتقلب فی نعمة اللّه وفضله ولم یحتج إلی شیء إلّاوأنعم اللّه به علیه. وبعد أن خرج من عالم الرحم إلی فضاء هذه الدنیا فإنّ اللّه تعالی وهب له کلّما یحتاجه من شرائط الحیاة وما یفتقر إلیه فی بقائه وسلامته، من لبن الامّ إلی محبتها ورعایتها والسهر الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۲۵۷ علیه ودفع الخطر عنه وأمثال ذلک. لقد وهب له اللّه تعالی معرفة کیف یرتضع من صدر امّه وهداه إلی معرفة الطریق إلی تفعیل عواطفها وتسییر محبتها وحنانها تجاهه بحیث جعلها تخدمه لیل نهار فی حین انها لا تجد فی نفسها التعب من ذلک بل تحسّ باللّذة وتشعر بالرضا بهذه الخدمة الشاقة والمتواصلة. وعندما بلغ به العمر سنّ الرشد تواترت علیه نعم اللّه ومواهبه المختلفة من السماء والأرض واغرقته فی ألطافه وعناياته اللامتناهیة. أجل عندما یتفکر الإنسان بکلّ هذه الامور یتبین له جیداً أنّ کلّ شیء فی عالم الوجود خاضع ومطیع للّه‌تعالی، وینبغی علیه أن یفوض جمیع اموره إلی الذات المقدسة ویتوکل علیه کما هو مضمون الآیة الشریفة: «وَإِن یَمْسَسْکَ اللَّهُ بِضُرّ فَلَا کَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ یُرِدْکَ بِخَیْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِ یُصِیبُ بِهِ مَن یَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِیمُ» «۱». إن الإیمان الراسخ بهذه الحقائق بإمکانه أن یوصل الإنسان إلی مرتبة (التوکل) ویصعد به فی هذه الصفة الکمالیة إلی مراتب اخری ویجعله فی زمرة المتوکلین الحقیقیین. الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۲۵۸ ۱۳ و ۱۴

الشهوة والعفاف

تنویه:

«الشهوة» فى اللغة لها مفهوم عام يطلق على جميع اشكال الرغبات النفسانية والميل إلى التمتع واللّذة المادية وأحياناً تطلق كلمة الشهوة على العلاقة الشديدة بأمرٍ من الامور المادية. إن مفهوم الشهوة مضافاً إلى المفهوم العام يطلق أيضاً على خصوص «الشهوة الجنسية»، وأما فى القرآن الكريم فنلاحظ أنّ مفردة «الشهوة» استعملت بالمعنى العام وبالمعنى الخاص، وفى هذا البحث فإنّ مقصودنا من هذه الكلمة هو المعنى الخاص لأن تأثيراتها المخربة والمدمرة أكثر من سائر أشكال الرغبات الجسدية الاخرى. «الشهوة» تقع فى مقابل «العِفة» والعفة أيضاً لها مفهوم عام ومفهوم خاصّ، فاما المفهوم العام هو ضبط النفس فى مقابل الرغبات والميول النفسانية والأفراط فى اتباعها، واما المفهوم الخاصّ فهو ضبط النفس فى مقابل متطلبات الغريزة الجنسية والتحلل الأخلاقى. «العفة» تعتبر من الفضائل الأخلاقية المهمة الّتى تساهم فى ترشيد وتكامل المجتمعات البشرية بعكس الشهوة الّتى تقع فى مقابلها والّتى يوجب اتباعها سقوط الفرد أخلاقياً وانحطاط المجتمع فى حركته الحضارية. الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۶۰ إن التحقيقات التاريخية تشير إلى أنّ المجتمعات الّتى كانت تتمتع بمقدار كافٍ من العفة كانت تتمتع بطاقات وقدرات حضارية وإنسانية وتعيش حالة من التقدّم والتكامل على المستوى الفردى والاجتماعى وتعيش الأمن والهدوء والاستقرار فى مستويات عالية، ولكن وبعكس ذلك الأشخاص أو المجتمعات الّتى كانت غارقة فى مستنقع الشهوات فإنّها فقدت طاقاتها البنّاءة وقواها الحيوية وبالتالى أضحت مستسلمة لتداعيات قوى الإنحراف والسقوط الحضارى. وطبقاً لنظر الحقوقيين فإنّ «الشهوة الجنسية» تعتبر دعامة رئيسية فى التورط فى الجريمة والعدوان إلى درجة أنّه قيل: إنّ فى كلّ جريمة هناك عنصر «الشهوة الجنسية»، ولعلّ هذا التعبير مبالغٌ فيه، ولكن الحقيقة أنّ طغيان «الغريزة الجنسية» وطلب الشهوة يعتبر منشأً ومصدراً للكثير من الجرائم والانحرافات الفردية والاجتماعية، فقد سفكت بسببها الكثير من الدماء واتلفت الكثير من الأموال والثروات، وتم تسريب الكثير من الأسرار المهمة للحكومات والدول بواسطة النساء الجاسوسات من خلال استخدامهن لعنصر الجمال والجاذبية الجنسية، وبالتالى كانت هذه الغريزة هى السبب فى التورط فى الفضائح الأخلاقية على مستوى الشخصيات والدول. ومن خلال الآيات والروايات الشريفة، يمكننا أن نستوحى هذه الحقيقة، وهى أنّ «الشهوة الجنسية» تعتبر إحدى الوسائل والأدوات المهمة للشيطان، ونجد فى القرآن الكريم اشارات متعددة لمفهوم العفة والشهوة فى موارد مختلفة، وفيما يلى بعض الآيات الكريمة الّتى تستنطق هذا المفهوم القرآنى: ۱- «فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ الصَّلَوةَ وَاتَّبَعُواْ الشَّهَوَا ت فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا* إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ ا لْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا» «۱» ۲- «وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَا ت أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا» «۲». الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۶۱ ۳- «وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مّنَ الْعَالَمِينَ* أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُواْ ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ» «۱». ۴- «وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ* وَجَآءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ ياقَوْمِ هَؤُلَا ء بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُواْ اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِى أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ* قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَالَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَانُرِيدُ* قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِى إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ* قَالُواْ يَالُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُواْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مّنَ الَّيْلِ وَلَايَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَآأَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ* فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مّن سِجّيلٍ مَّنضُودٍ* مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَاهِىَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ» «۲». ۵- «كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ* إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ» «۳». ۶- «وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ ا لْفَاحِشَةَ مَاسَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مّنَ ا لْعَالَمِينَ* إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرّجَالَ شَهْوَةً مّن دُونِ النّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ* وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُواْ أَخْرِجُوهُم مّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ* فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ ا لْغَابِرِينَ* وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ا لْمُجْرِمِينَ» «۴».

تفسير واستنتاج:

آثار اتباع الشهوات فى التاريخ البشرى

«الآيـة الاولى بعـد أن تـذكر أسـماء بعض الأنبياء الإلهيين وتسـتعرض صـفاتهم الكريمـة وخصالهم الحميدة تقول: «فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْـفٌ أَضَـاعُواْ الصَّلَـوةَ وَاتَّبَعُـواْ الشَّهَوَا ت فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا» «۱». وهنا تسـتثنى الآيـة المـذكورة فوراً بعض الأشـخاص الّذين يحملون صفات متميزة وتقول: «إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يَـدْخُلُونَ ا لْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَـيْئًا» «۲». والجدير بالذكر أنّ الآيـة محل البحث تتحـدّث عن اتباع «الشـهوات» بعد مسألة إضاعة الصـلاة وتتبعها حالة الضـلال والغى، ويمكن أن نسـتوحى من هذه العبارة انها تشير من جهة إلى أنّ الصـلاة تعد عاملًا مهماً فى الحدّ من طغيان الشـهوات وبالتالى العمل على تقويم سلوك الإنسان فى طريق الحقّ والانفتاح على اللّه بعيداً عن اشكال الإنحراف الأخلاقى وافرازات الأهواء النفسانية، وكما جاء فى الآية ۴۵ من سورة العنكبوت: «... انّ الصَّلَوةَ تَنْهى عَنِ الفَحْشاءِ وَالمُنْكَرِ» ومن جهـة اخرى تشـير الآيـة إلى أنّ عاقبة «اتباع الشـهوة» هى الضـلال والإنحراف، كما نجد ذلك فى الآية ۱۰ من سورة الروم: «ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءوا السُّوأَى أن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ». أجل أنّ عاقبة هؤلاء هى الضـلالة والزيغ ومـا يسـتتبع ذلك من النتائـج الوخيمـة، أى الغضب الإلهى والعقاب الاليم فى الآخرة. ومعلوم أنّ «الشـهوات» فى الآيـة محل البحث لها مفهوم واسع ولا تنحصر فى «الشهوة الجنسية»، بل تستوعب فى مفهومها كلّ أشكال الميول النفسانية والنوازع الدنيوية والأهواء الشيطانية، وطبعاً فإنّ الأشـخاص الّـذين تابوا من بعـد ذلك واسـتدركوا تورطهم فى الـذنوب بالعمل الصالـح وتحركوا على مسـتوى تقويـة إيمانهم القلبى الّذى تعرض للاهتزاز بسـبب الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۶۳ الولوغ فى الخطيئـة فإنّ عاقبتهم أنّهم سيكونون من أهل الجنّـة بعـد تطهير قلوبهم من الآثار السـلبية لاضاعـة الصـلاة واتباع الشـهوات. «الآيـة الثانية» وضـمن بيان التقابل بين «الرجوع إلى اللّه» و «اتباع الشهوات»، والإشارة إلى أنّ هذين المفهومين لا يلتقيان فى الإنسان فى جهة واحدة بل يسيران به فى جهتين مختلفتين تقول: «وَاللَّهُ يُرِيـدُ أن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيـدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَا تِ أن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًـا» «۱». أجل فالأشخاص الّذين غرقوا فى وحول الخطايا والشـهوات يريـدون أن يورطوا الآخرين فى الخطيئـة وممارسة الاثم ليكونوا من أمثالهم ويتلوثوا بالذنوب، فى حين أنّ اللّه تعالى يريد للناس الطهر والنقاء القلبى بتركهم الشـهوات وبعودتهم إلى اللّه، وبالتالى لينالوا المعرفة والصـفاء والتقوى والسـعادة الدائمة، ويقول الأعاظم من المفسّرين أنّ المراد من «الميل العظيم» هو هتك الحدود الإلهية والتلوث بأنواع الذنوب والخطايا، والبعض منهم يرى أنّ المقصود منهـا هو نكاح المحارم وأمثال ذلك الّتى ورد النهى عنها فى الآيـة السابقـة والّتى هى فى الواقع أحـد مصاديق المفهوم أعلاه. والجـدير بالـذكر أنّ اتباع الشـهوات الوارد فى الآية الكريمة يمكن أن يكون له مفهوم عام، وكذلك يمكن أن يكون إشـارة إلى الشـهوة الجنسـية بـالخصوص، لأن هـذه الآيـة وردت بعـد آيـات تحـدثت عن حرمـة نكـاح المحارم والنساء المحصـنات والجوارى والبغايـا من الجوارى، وعلى أى حـال فـإنّ هـذه الآيـة تقرر حقيقـة مهمـة فى هـذا المجال، وهى أن طريق «اتباع الشـهوات» تتقاطع تماماً مع طريق «الانفتاح على اللّه». الآيات الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة من الآيات محل البحث تتحـدّث عن قصـة قوم لوط وتورطهم فى إنحراف أخلاقى فى دائرة الغريزة الجنسـية، فالشهوة هنا امتزجت مع انحرافات جنسية كثيرة على طول التاريخ، وفى كلّ آيـة من هـذه الآيات الكريمـة هناك نكتـة الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۶۴ خاصّة تشير إليها الآية القرآنية حيث نستعرضـها ونشير إلى هـذا المضـمون الكامن فيها: «الآيـة الثالثـة» تتحـدّث عن النبى لوط وتسـتعرض خطابه لقومه فى اطار التوبيخ الشديد حيث تقول: «وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَـةَ مَا سَـبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَـدٍ مّنَ الْعَالَمِينَ» «۱». «الفاحشـة» كلمة تطلق على كلّ عمل قبيح جـداً، رغم أنّ المتعارف فى المفهوم منها هو «الفحشاء الجنسـى»، والآيـة الكريمـة تشـير إلى أنّ هـذه الفاحشـة قد بدأت من قوم لوط وأنّإتيان المـذكر أو ما يعبر عنه باللواط لم يكن قبل ذلك متـداولًا فى المجتمعات البشـرية. ويسـتمر لوط فى التحدث مع قومه بلسان الـذم والتقريع ويقول: «أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ ...» «۲». فى هذه الآية نجد انها تشير إلى أحد العلل والأسـباب لتحريم «اللواط» ألا وهو ظاهرة انقطاع النسل، لأنّه لو تصورنا سـريان هذا السلوك المنحرف إلى جميع أفراد المجتمع فـإنّ هناك خطر انقطاع النسل البشـرى، وسوف تعيش الإنسانيـة حالـة التهديـد بالفناء والانـدثار. بعض المفسّـرين ذهبوا إلى أنّ جملة

«وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ» المذكورة فی الآية أعلاه هی إشارة إلی عمل السرقة وقطع الطريق الّذی كان يمارسه قوم لوط، وبعض ذهب انها إشارة إلی التعرض الجنسی للآخرين وللمارة الّذين كانوا يمرون فی طريقهم. «نادی» من مادّة «ندی» بمعنی المجلس العام أو مجلس التفريح والترفيه حيث يتنادی الناس فيه وينادی بعضهم الآخر فی مثل هذه المجالس. وبالرغم من أنّ القرآن الكريم لم يذكر أنّ قوم لوط فی مجالسهم الترفيهية هذه ماذا كانوا يرتكبون من منكرات اخری، ولكن من الواضح أنّ أعمالهم الاخری كانت متناغمة مع عملهم الشنيع هذا، وقد ورد فی الروايات الشريفة أنّهم كانوا يخلعون ملابسهم أمام الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۲۶۵ الآخرين ويمارسون حالة التعری والتلفظ بالألفاظ الموهنة والركيكة ويتحدّثون بالكلمات القبيحة فی ما بينهم ويقومون بأعمال وقحة وممارسات قبيحة يخجل القلم عن ذكرها. قوم لوط هؤلاء كانوا قد غرقوا فی مستنقع الشهوة إلی درجة أنّهم أخذوا يستهزئون بالقيم الأخلاقية والمثل الإنسانية، ولهذا السبب فعندما سمعوا كلام لوط تعجبوا من ذلك وأنكروا عليه هذا التوبيخ والذنب لأفعالهم وقالوا له كما تقول الآية: «... فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُواْ ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ» «۱». وبهذا فإنّهم استهزؤا بعذاب اللَّه وسخروا من كلام النبی لوط. وفی «الآية الرابعة» من الآيات محل البحث نجد إشارة إلی جانب آخر من قصة قوم لوط حيث تتحرك الآية لبيان حادثة الضيوف الإلهيين الّذين نزلوا بمهمة انزال العذاب فی قوم لوط وجاءوا علی شكل شباب ذی وجوهٍ مليحة وجميلة إلی النبی لوط عليه السلام الّذی لم يكن يعرفهم، ولهذا أبدی خوفه وأنزعاجه لهذه الضيافة لما يعلم من سوء نية قومه اتجاه الغلمان والشبان فتقول الآية «وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ» «۲». وفی هذه الاثناء تسامع قوم لوط بالخبر فأرادوا السوء بهؤلاء الضيوف الكرام: «وَجَآءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ...» «۳». فلمّا رأی لوط ذلك منهم تألم بشدة لهذا الموقف المخزی من قومه تجاه ضيوفه وأراد التخلص منهم بشتی الطرق، ومنها انه عرض علی هؤلاء الأشرار وبايثار عجيب بناته ليتم الحجّة عليهم ويكفوا عن ممارساتهم الشنيعة: «قَالَ ياقَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۲۶۶ فَاتَّقُواْ اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِى أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ» «۱». إن هؤلاء الأشرار أجابوه بمنتهی الوقاحة «قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَالَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَانُرِيدُ» «۲». أی انك تعلم إننا لا نحب مقاربة النساء وتعلم انحرافنا عن هذا المسلك الطبيعی فی إشباع الغريزة. وعندما رأی لوط هذه الوقاحة من قومه وتملكه اليأس من إصلاحهم أو دفعهم عن ضيوفه نادی من صميم قلبه ووجوده: «قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِى إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ» «۳». أی يا ليتنی كنت امتلك القوّة لأُريكم جزاء عملكم الشنيع هذا أو أنّ لی عشيرة واتباع أقوياء يعينونني علی دفعكم عن ضيوفی .. وتتحرك الآيات فی هذا السياق لتبين أنّ هؤلاء الضيوف الكرام اخبروا لوطاً بأنّهم رسل اللَّه لإنزال العذاب علی قومه وأنّهم مانعوه عن إيذاء قومه وعن أی تحرك عدوانی اتجاهه واتجاه ضيوفه، وأخبروه أنّ العذاب نازل علی قومه حتماً غداً صباحاً، وسوف لا يفلت أحد منهم من هذا العذاب الإليم والعقاب المخيف حيث ستنقلب مدينتهم رأساً علی عقب وتمطر السماء عليهم حجارةً من سجيل، وحين ذاك امروا لوطاً بالخروج مع أهلهِ من هذه القرية باستثناء زوجته الّتی كانت مداهنة مع الأشرار ويتركوا مدينتهم إلی حيث ينجوا بأنفسهم من العذاب الإلهی. «الآية الخامسة» من الآيات محل البحث وضمن الإشارة إلی إنزال العذاب الإلهی علی قوم لوط بسبب أعمالهم الشنيعة تقول: «كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ* إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۲۶۷ حَاصِبًا إِلَّا ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ» «۱». وهكذا تم اهلاك هؤلاء القوم الظالمين وإنقاذ آل لوط من هذا العذاب الإلهی المقيم وطبعاً باستثناء زوجته الخائنة الّتی شملها العذاب مع قوم لوط. وبالطبع كما ذكر فی هذه الآية كان يمثل قسماً من العذاب الإلهی علی هؤلاء الأشرار، لأن القرآن الكريم يقول فی آية اخری: «فَلَمَّا جَاءَ امْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا ...» «۲». أی أنّ الزلزلة الّتی أصابتهم لم تدع لهم بناءاً ولا أرضاً إلّاقلبته رأساً علی عقب ثمّ يقول: «وَامْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِن سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ» «۳». هذا المطر من الحجارة يمكن أن يكون قسماً من الشهب المتناثرة فی الفضاء حيث نزلت هذه الشهب والنيازك بأمر من اللَّه علی اطلال هذه المدينة وأجساد أهلها المتناثرة. وهناك احتمال آخر فی معنی هذه الجملة، وهو أنّ كلمة «حاصب» تعنی العاصفة من الرمل حيث تنقل الرياح العاتية فی الصحراء كثبان الرمل من منطقة إلی اخری فتظهر فی منطقة من الصحراء تلال من الرمل لم تكن

موجودة قبل ذلك، بل تتكون فجأة من خلال مطر من الرمال والحجارة الّتى تحملها العاصفة الرملية بحيث تدفن معها قرى كاملة، وأحياناً تدفن تحتها قافلة من القوافل التجارية الّتى تجوب الصحراء. والجدير بالذكر أنّ هذه العواصف الرملية أو أمطار الحجارة قد تحدث بين الفينة والاخرى فى عالم الطبيعة، ولكن هذه المرة حدثت هذه العاصفة الرملية بأمر من اللّه تعالى بوقتٍ مخصوص ومكان معين كما أخبر بذلك ملائكة اللّه الّذين ارسلوا إلى نبى لوط عليه السلام. ويوجد احتمال آخر فى هذا الصدد، وهو انه من الممكن أن تكون الزلزلة الشديدة قد أصابت هذه المدن والقرى ودمرتها عن آخرها ثمّ نزل عليهم مطر الحجارة السماوية، ثمّ الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۶۸ حلت بهم العاصفة الرملية لتمحوا آثارهم وتفنى ما تبقى من وجودهم، وهذا العذاب الإلهى بهذه المراحل الثلاثة الشديدة يبين غضب اللّه تعالى على هؤلاء القوم الظالمين. «الآية السادسة» والأخيرة فى هذه الآيات وضمن الإشارة الموجزة إلى قصة قوم لوط من بدايتها إلى منتهاها تقول: «وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ ا لْفَاحِشَةَ مَاسَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مّنَ ا لْعَالَمِينَ» «۱». أجل، فإنكم تأتون الذكور لاشباع غريزتكم الجنسية دون النساء، ولذلك فأنتم منحرفون عن السبيل القويم لأنكم تركتم القوانين والمقررات الطبيعية والسنن الإلهية لاشباع الغريزة وسلكتم مسلك الإنحراف والزيغ الّذى من شأنه أن يؤدى إلى انقطاع النسل واشاعة أنواع المفاسد الاجتماعية والأمراض التناسلية، ورغم أن مرض «الايدز» الموحش يعتبر أحد الأمراض العصرية الّذى اكتشف مؤخراً، ولكن لا يبعد أن يكون هذا المرض موجوداً من ذلك الزمان أيضاً وقد اصيب به بعض هؤلاء الأشرار من قوم لوط، ولهذا السبب فإنّ اللّه تعالى بحكمته ورحمته قد دفن أجسادهم تحت كثبان الرمل والحجارة ليكون ذلك عبرة للآخرين من جهة، ونعمة للناس من جهة اخرى لمنع انتشار وسراية هذا المرض إلى أنحاء اخرى من المعمورة. وعلى أى حال فإنّ هؤلاء القوم المجرمين كانوا على درجة من الوقاحة وعدم الحياء بحيث أنّهم مضافاً إلى عدم اصغائهم لكلمات لوط عليه السلام، أرادوا إخراجه مع أهله من مدينتهم بتهمة الطهر والنقاء حيث تتحدّث الآية القرآنية فى هذا السياق عن موقفهم المخزى هذا وتقول: «وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُواْ أَخْرِجُوهُم مّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ» «۲». ولكن اللّه تعالى يحكى لنا عاقبة قوم لوط هؤلاء ومصير نبيّهم الكريم حيث يقول: «فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ ا لْغَابِرِينَ* وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۶۹ عَاقِبَةُ ا لْمُجْرِمِينَ» «۱». أجل، إن هؤلاء كانوا قد غرقوا فى وحول الخطيئة وتلوثوا بأدران الإثم إلى درجة أنّهم كانوا يعتبرون أنّ الطهر والنقاء من الإثم والذنب اثماً وخطيئة بحد ذاته، ولهذا كانوا يرون إنزال العقوبة على الأبرياء والطاهرين من الناس بتهمة الطهر وعدم التلوث بالمعاصى ويحكمون عليهم بالنفى إلى مناطق بعيدة ويخرجوهم من بيوتهم ولكن العذاب الإلهى كان لهم بالمرصاد، وقد حلّ بهم قبل أن يطبقوا أحكامهم المزرية على لوط وأهله. إن القسم المهم من هذه الآيات وضمن بيان العاقبة المخزية لاتباع الأهواء والشهوات بالمعنى والمفهوم العام والخاصّ يشير إلى أنّ هذا العمل الشنيع يعد منبعاً للكثير من الذنوب والممارسات الخاطئة الّتى تورث الفرد والمجتمع الانحطاط والسقوط الأخلاقى والاجتماعى وتذُم وتُشنع على من يمارسون هذه الخطيئة.

اتباع الشهوات فى الروايات الإسلامية:

لقد أولت الأحاديث والروايات الإسلامية هذه المسألة اهتماماً كبيراً حيث نجد أنّ الكثير من المصادر الروائية تشير إلى عواقب هذا الفعل الشنيع وتحذر الناس من افرازات مثل هذه الممارسات الخطرة على الصعيد الدنيوى والاخروى بحيث يجد القارىء نفسه متأثراً بشدة من عمق مدلول هذه الروايات الشريفة، فهى تقرر أنّ التلوث بالشهوات سواءً بمفهومها العام أو الخاص يعد من الموانع الأساسية الّتى تصد الإنسان عن سلوك طريق السعادة والكمال، وكذلك من الأسباب المهمة لاشاعة الفحشاء والمنكر فى المجتمعات البشرية، وفيما يلى نستعرض بعض هذه الروايات والأحاديث الشريفة: ۱- ورد عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله أنّه قال: «مَا تَحْتَ ظِلِّ السَّمَاءِ مِن اله يُعبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۷۰ اعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ هَوىً مُتَّبع» «۱». وبهذا يتضح أنّ اتباع الشهوة وهوى النفس يُعَدُّ من أخطر العوامل الّتى تقود الإنسان نحو منزلقات الخطيئة والانحطاط الأخلاقى. ۲- ويقول الإمام على عليه السلام

«الشَّهَوَاتُ سُمُومٌ قَاتِلاتٌ» «۲» (حیث تقتل وتدمر شخصیة الإنسان وایمانه ومروته). ۳- وجاء فی حدیث آخر عن هذا الإمام علیه السلام أنّه قال: «الشَّهَوَاتُ مَصائِدُ الشَّیْطانِ» «۳» (حیث یصطاد الشیطان أفراد البشر بهذه الوسیلة بکلّ زمان ومکان وفی جمیع سنوات العمر). ۴- وورد أیضاً عن هذا الإمام علیه السلام قوله «امْنَعْ نَفْسَکَ مِنَ الشَّهَواتِ تَسْلَمْ مِنَ الآفاتِ» «۴». ۵- وجاء فی حدیث آخر عن الإمام «تَرْکُ الشَّهَوَاتِ افْضَلُ عِبَادَةٍ وَاجْمَلُ عَادَةٍ» «۵». ۶- یقول الإمام الصادق علیه السلام «مَنْ مَلَکَ نَفْسَهُ اذا غَضِبَ وَاذا رَغِبَ وَاذَا رَهِبَ وَاذا اشْتَهی حَرَّمَ اللَّهُ جَسَدَهُ عَلَی النَّارِ» «۶». ۷- یقول الإمام علی علیه السلام فی حدیث آخر «ضَادُّوا الشَّهْوَةَ مُضادَّةَ الضِّدِ ضِدَّهُ وَحَارِبُوهَا مُحَارِبَةَ الْعَدُوِّ العَدُوَ» «۷». وهذا الکلام یقرر بمنتهی الصراحة هذه الحقیقة وهی أن اتباع الشهوة یقع فی الطریق المقابل للسعادة والکمال الإنسانی.

عواقب اتباع الشهوة فی کلمات أمیرالمؤمنین علیه السلام:

اما بالنسبة إلی عواقب اتباع الشهوات والأهواء الشیطانیة فقد وردت تعبیرات عمیقة للأحادیث الإسلامیة ونحن نکتفی فی هذا المجال ببعض ما ورد عن الإمام أمیرالمؤمنین علیه السلام: ۱- یقول أمیرالمؤمنین علی علیه السلام «اهْجُرُوا الشَّهَوَاتِ فَانَّهَا تَقودُکُمْ الی رُکُوبِ الذُّنُوبِ وَالْتَهَجُّم عَلَی السَّیئاتِ» «۱». ۲- وفی حدیث آخر نجد أنّ هذه المسألة تشتد لعاقبة اتباع الشهوات أنّ الإنسان یخرج من الدین والایمان کلیاً فتقول الروایة «طَاعَةُ الشَّهْوَةِ تُفْسِدُ الدِّینَ» «۲». ۳- ویقول علیه السلام أیضاً: «طَاعَةُ الْهَوی تُفْسِدُ الْعَقلَ» «۳». ۴- «الْجَاهِلُ عَبْدُ شَهْوَتِهِ» «۴» یعنی إن الإنسان الجاهل یکون کالعبد الذلیل المطیع لشهواته ونوازعه الرخیصة فلا اختیار له ولا حریة فی مقابلها. ۵- وفی حدیث آخر «عَبْدُ الشَّهْوَةِ اسیرٌ لَایَنْفَکُّ اسْرُهُ» «۵» ۶- ویُقرر الإمام أمیرالمؤمنین علیه السلام عاقبة اتباع الشهوة وانها تمثل الفضیحة والعار علی صاحبها «حَلاوَةُ الشَّهْوَةِ یُنَغِّصُ هَا عارُ الْفَضیحَةِ» «۶». ۷- وفی حدیث آخر یقرر الإمام علیه السلام أنّ الشهوة هی مفتاح جمیع الشرور «سَبَبُ الشَّرِّ غَلَبَةُ الشَّهْوَةِ» «۷». ونظراً إلی أنّ کلمة «الشر» وردت بالألف واللام للجنس وذکرت بشکل مطلق فانها تدلّ الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۲۷۲ علی العموم وأنّ اتباع الشهوة یمثل منبعاً لجمیع الشرور وأنواع الشقاء. ۸- ویشیر الإمام أمیرالمؤمنین علیه السلام فی حدیث آخر إلی هذه الحقیقة وهی أنّ غلبة الأهواء والشهوات علی الإنسان تفضی إلی إیصاد سبیل السعادة والهدی أمام الإنسان ویقول «کَیْفَ یَسْتَطیعُ الهُدی مَنْ یَغلِبُه الهَوی «۱». ۹- یقول هذا الإمام فی حدیث آخر مشیراً إلی أنّ غلبة الشهوات یؤدی إلی ضعف شخصیة الإنسان فیقول «مَنْ زَادَت شَهْوَتُهُ قَلَّتْ مُرُوّتُهُ» «۲». ۱۰- وفی حدیث آخر یبین الإمام علیه السلام هذه الحقیقة وهی أن طریق الجنّة یقع فی الجهة المقابلة لاتباع الشهوة فیقول «مَن اشْتَاقَ الَی الْجَنَّةِ سَلا عَنِ الشَّهَوَاتِ» «۳». ۱۱- وفی روایة اخری یُقرر الإمام أمیرالمؤمنین علیه السلام هذه الحقیقة، وهی أنّ الحکمة تتقاطع دائماً مع الشهوة فی قلب الإنسان ویقول «لا تَسْکُن الْحِکْمَةَ قَلْباً مَعَ شَهْوَةٍ» «۴».

النتائج الوخیمة لاتباع الشهوة:

اشارة

ومن خلال الأبحاث السابقة اتضح بأن «الشهوة» لها مفهوم عام وواسع بحیث یشمل کلّ رغبة ومیل نفسانی یتیح للإنسان اللّذة، وبهذا لا تختص بالشهوة الجنسیة رغم انها أحیاناً وردت بمعنی الشهوه الجنسیة بالخصوص. وقد ورد هذا المفهوم فی القرآن الکریم فی أحد عشر مورداً بالمفهوم العام، ولکن یستفاد المفهوم الخاص فی موردین، وأما فی الروایات الإسلامیة وکلمات علماء الأخلاق فقد وردت هذه الکلمة فی الأغلب بمفهومها العام، وفی مقابل مفردة «العفة» الّتی تعنی الجام النفس وغض الطرف عن اللذائذ والذنوب. الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۲۷۳ وقد ورد هذا المفهوم فی النصوص الدینیة فی الأغلب بمعناه السلبی، ولکن أحیاناً ورد بمعناه

الإیجابی من قبیل قوله تعالی مخاطباً لأهل الجنّة «... وَلَکُمْ فِیهَا مَا تَشْتَهِی أَنفُسُکُمْ ...» «۱» أو یقول فی مکان آخر «... وَفِیهَا مَا تَشْتَهِیهِ ا لْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ا لْأَعْیُنُ ...» «۲». وعلی أی حال فإنّ هذه المفردة وردت فی الأغلب بمعناه السلبی والّذی یدلّ علی الافراط فی اتباع الأهواء والنوازع النفسانیة وغلبة المیول المخربة والمفضیة إلی الوقوع فی الخطیئة والمعصیة. وهکذا نجد أنّ هذه المفردة ومشتقاتها قد وردت فی ثلاثة عشر مورداً فی القرآن الکریم، ستة موارد منها تحمل المفهوم الإیجابی عن هذه المفردة، وسبعة اخری تحمل فی مضمونها المعنی السلبی. وعلی أی حال فإنّ «الشهوة» بأی معنیً کانت إذا قصد منها المفهوم الخاصّ فإنّها تستبطن الأفراط فی اشباع الشهوة وبالتالی یترتب علیها الآثار المخربة والنتائج الوخیمة المترتبة علی هذا السلوک المفرط فی طلب اللّذة، وقد مرّت الإشارة إلی هذه العواقب الوخیمة فی الروایات والأحادیث المذکورة آنفاً، ولابدّ من الاذعان إلی أنّ مسیرة التاریخ مملوءة من هذه النتائج والعواقب الوخیمة للأفراط فی اشباع الشهوات ویمکننا الإشارة إلی هذه العواقب بشکل مختصر فی ما یلی:

۱- التلوث بالذنب

إن طلب اللّذة وعبادة الشهوة یسوق الإنسان باتجاه منزلقات الإثم وارتکاب أنواع الذنوب، وفی الحقیقة انه یعد المصدر الأساس للذنب ومعصیة اللّه تعالی لأن الشهوات إذا تغلبت علی الإنسان فبإمکانها أن تعمی وتصم الإنسان عن رؤیة المخاطر ویکون مصداقاً للحدیث النبوی الشریف حبُّک للشَّیء یُعمی ویُصم» «۳» وبذلک تنقلب المفاهیم والحقائق الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۲۷۴ لدی العقل فیصبح المعروف منکراً والمنکر معروفاً. ولهذا السبب بالذات رأینا فی الروایات السابقة الواردة عن أمیرالمؤمنین علیه السلام (الروایة الثامنة) أنّ الإمام علیه السلام یصرح متسائلًا «کَیْفَ یَسْتَطِیعُ الهُدی مَنْ یَغلِبُه الهَوی «۱». ویشیر الإمام علیه السلام فی الحدیث العاشر أیضاً إلی هذه الحقیقة وهی أنّ اتباع الشهوة یفسد شخصیة الإنسان ویضعف مروئته، وکذلک قرأنا قوله فی الحدیث التاسع أنّ اتباع الشهوات بمثابة عبادة الوثن وبإمکانه أن یحطم إیمان الفرد ویتلف دینه، هذا وقد اورد المفسّرون وأرباب الحدیث فی ذیل الآیات ۱۶ و ۱۷ من سورة الحشر قصة العابد من بنی إسرائیل والذی یدعی «برصیصا» الّذی یُعَدُّ شاهداً حیّاً علی هذا المدعی ولا بأس من استعراض هذه القصة النافعة رغم انها قد وردت فی الکثیر من الکتب المعروفة حیث نقل بعض المفسّرین أنّ رجلًا من بنی إسرائیل یدعی «برصیصا» قد عبد اللّه زماناً من الدهر حتّی کان یؤتی بالمجانین یداویهم ویعوذهم فیبرؤون علی یدیه، وانه أُتی بامرأة قد جُنّت وکان لها أخوة فأتوه بها فکانت عنده، فلم یزل به الشیطان یزیّن له حتّی وقع علیها فحملت، فلما استبان حملها قتلها ودفنها، فلما فعل ذهب الشیطان حتّی لقی أحد اخوتها فأخبره بالّذی فعل الراهب وانه دفنها فی مکان کذا، ثمّ أتی بقیة أخوتها، وهکذا انتشر الخبر فساروا إلیه فاستنزلوه فأقرّ لهم بالّذی فعل، فأمر به فصلب، فلمّا رفع علی خشبة تمثل له الشیطان فقال: أنا الّذی ألقیت فی قلوب أهلها، وأنا الّذی أوقعتک فی هذا، فأطعنی فیما أقول أخلصک ممّا أنت فیه، قال: نعم. قال: اسجد لی سجدة واحدة. فقال: کیف أسجد لک وأنا علی هذه الحالة، فقال: اکتفی منک بالإیماء، فأومی له بالسجود فکفر باللّه وقتل. فهو قوله تعالی: (کمثل الشیطان إذ قال للإنسان اکفر ...». الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۲۷۵ نعم هکذا هو مصیر من ابتلی بوسوسة الشیطان وسار فی خطّه.

۲- فساد العقل

إن اتباع الشهوات والأهواء النفسانیة یُلقی علی عقل الإنسان وفکره حجاباً قائماً یمنعه من التمییز بین الحقّ والباطل، وأکثر من ذلک حیث یقلب الحقّ فی نظره إلی باطل ویجعل الباطل حقّاً، وقد قرأنا فی الروایات السابقة قوله علیه السلام «طَاعَةُ الهَوی تُفْسِدُ الْعَقلَ» «۱» ولهذا السبب فإنّ الکثیر من طلاب الشهوة واتباع الهوی بعدما یرتکبون الممارسات القبیحة وتهدأ فی باطنهم سورة الشهوة وتخمد نار الهوی فإنّهم یعیشون حالة الندم الشدید علی ما صدر منهم وأحیاناً یتعجبون من أنفسهم علی الحماقة الّتی ارتکبوها. وفی هذا الصدد

نقرأ قول أميرالمؤمنين عليه السلام «اذا ابْصَرَتِ الْعَينُ الشَّهْوَةَ عَمِيَ الْقَلْبُ عَنْ العَاقِبَةِ» «۲».

۳- تحقير شخصية الإنسان الاجتماعية

إن طلب الإنسان على اللّذة من شأنه أن يهدم شخصية الإنسان ويحطم كيانه ومكانته الاجتماعية ويسوقه إلى هاوية الذلّة والمسكنة، لأن مثل هذا الإنسان يسعى فى تحقيق رغبته وارضاء شهوته إلى تحطيم الاطر الاجتماعية والثقافية السائدة فى المجتمع ويرتكب الحماقات الّتى تفضى إلى أن يكون مهاناً وحقيراً فى أنظار الناس، ومن البديهى أنّ الإنسان الّذى يعيش احترام الذات والمروءة فإنه يشعر بنفسه على مفترق طرق عند اشتداد النوازع والشهوات، فأما أن يرضخ لمتطلبات الشهوة ويذعن لتحديات الهوى، أو يحتفظ باحترامه لذاته وكيانه الاجتماعى بين الناس، ومن العسير غالباً الجمع بين هذين الاتجاهين. وفى حديث ورد عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: «زِيَادَةُ الشَّهْوَةِ تُزرى بِالْمُرُوَّةِ» «۳».

۴- اسر النفس

وأحد النتائج الوخيمة لاتباع الشهوات والأهواء هو أنّ الإنسان يقع اسيراً لنوازع النفس ومقيداً بقيود الشهوة، فالإنسان الشهوانى نجده يرزح تحت اغلال الشهوات إلى درجة أنّ الابتعاد عنها وكسر هذه القيود يضحى بالنسبة له أمراً قد يصل إلى درجة المحال أحياناً، والمثال الواضح على هذه الحقيقة هو ما نراه من الحياة التعيسة والذليلة للمدمنين على المواد المخدرة، فإنّهم فى ظاهر الحال أحرار، ولكنهم فى الواقع أسرى العادة والادمان الناشىء من أتباعهم لدواعى الشهوه فيعيشون حالة الأسر ويرزحون تحت قيود المواد المخدرة بحيث تمنعهم من أى حركة إيجابية ونافعة لأنفسهم ومجتمعهم وتطوقهم بأطواق حديدية تمنعهم عن أى انفلات ونجاة من هذا السجن المظلم، وخاصة إذا كان الهوى لدى الإنسان بمثابة أنواع من العشق الجنسى والشهوة الرخيصة للجنس الآخر، فحينئذٍ يصل الإنسان فى عبودية الشهوة إلى الحدّ الأقصى يقول أميرالمؤمنين عليه السلام فى هذا الصدد: «عَبْدُ الشَّهْوَةِ اسيرٌ لا يَنَفَّكُ اسْرُهُ» «۱». وفى حديث آخر يقول هذا الإمام عليه السلام: «وَكَمْ مِنْ عَقْل اسيرٌ تَحتَ هَوى أميرٍ» «۲». وأيضاً ورد فى حديث آخر أنّه قال: «الشَّهَوَاتُ تَسترِقُ الْجَهُولُ» «۳».

۵- الفضيحة والعار

الفضيحة الاجتماعية هى أحد نتائج وافرازات الشهوة والرضوخ تحت مطاليبها الرخيصة، وتاريخ البشرية مفعم بنماذج من حياة الشخصيات الممتازة والّتى لها رصيد اجتماعى وافر ولكنهم وقعوا تحت تحديات الشهوة ومطالب الهوى فافضى بهم الحال إلى الفضيحة والعار. وقد ورد فى هذا الصدد الكثير من النصوص الدينية والأدبية فى تراثنا الإسلامى الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۷۷ والشعبى والّتى توضح هذه العلاقة بين اتباع الشهوة وبين الفضيحة والمذلة والمهانة الّتى تصيب هذا الإنسان المنحرف كما نقرأ ذلك فى قصة يوسف وزوجة عزيز مصر وكيف أنّ زوجة العزيز قد أدّى بها الأمر إلى الفضيحة والخزى رغم مقامها الشامخ لدى المجتمع المصرى وكما يقول الشاعر: انَ الْهَوى هُوَ الهَوانِ قُلِبَ اسمُهُ فَاذا هَوَيْتَ فَقَدْ لَقَيْتَ هَوانا «۱»

عوامل وأسباب عبادة الشهوة:

اشارة

سبق وقلنا فی البحوث السابقة، أنّ علاج المفاسد الأخلاقیة یجب أن یبدأ من أسباب العلل والجذور، وتقدّم أنّ علماء الأخلاق یهتمون اهتماماً کبیراً فی مباحث هذا العلم بالبحث عن العلل والدوافع للسلوک الأخلاقی لدی الفرد، ولهذا السبب لابدّ من التطرق إلی العوامل والأسباب المؤدیة إلی أن یسلک الإنسان طریق عبادة الشهوة. إن الرغبات والمیول النفسانیة والّتی یعبر عنها بالشهوات وخاصّة الشهوة الجنسیة أمر طبیعی وموهبة الهیة ومن عوامل حرکة الإنسان نحو الکمال والتقدّم فی حرکة الحیاة والمجتمع، ولهذا لا یمکن إزالتها نهائیاً من واقع الإنسان ولا- یصحّ کبتها والسعی إلی تهمیشها والغائها، والتحرّک فی سبیل ارضاء هذه الشهوات بالمستوی المطلوب وفی حد الإعتدال لیس فقط لا یوجد أیَّ مشکلة فی حرکة الإنسان بل یُعد أحد العوامل الّتی توجب للإنسان التکامل والرقی علی المستوی التربوی والاجتماعی. وامّا المفاسد الأخلاقیة المترتبة علی اشباع هذه الشهوات فتکمن فی طغیان الشهوة وخروجها عن موازین العقل والاعتدال فی ارضائها. والآن لابدّ من النظر فی العوامل الّتی تسبب خروج هذه الرغبات والمیول الباطنیة من سیطرة العقل بحیث تشکل للإنسان قوّة مخربة وتکون من أدوات الانحراف، وهذه العوامل الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۲۷۸ المؤثرة فی ازدیاد ظاهرة الانحراف فی سلوک الإنسان الأخلاقی هی کما یلی:

۱- ضعف الإیمان

إن ضعف الإیمان هو العلّة الأصلیة لتغافل الإنسان عن الأوامر والتشریعات الإلهیة، فلو أنّ الإنسان کان یعیش بوجود اللَّه دائماً فی واقعه وقلبه ویراه حاضراً وناظراً إلی سلوکیاته وأفعاله، ویری محکمة العدل الإلهیة یوم القیامة بعین البصیرة فإنه لا یمکن أن یتجرأ علی کسر طوق الحدود الإلهیة ویتجاوز علی التشریعات الدینیة ویتلوث بالشهوات والمفاسد الأخلاقیة. وهذا المعنی هو البرهان الإلهی الّذی رافق یوسف فی أحلک الظروف وانقذه من التورط فی الإثم والمعصیة الّتی توفرت جمیع متقضیات ارتکابها وارتفعت جمیع الموانع لممارستها مع امرأة العزیز. فمع ضعف الإیمان وضعف التوجه إلی المبدأ والمعاد تتوفر حینئذٍ الأرضیة الکافیة لطغیان الشهوات بحیث یضحی الإنسان کالوحش الّذی خرج لتوّه من القفص، فلا یری أمامه أی رادع ومانع حیث یهجم علی کلّ شخص ویفترس کلّ ما یجده فی طریقه من الأحیاء. وهنا نلقی نظرة فاحصة علی ما ورد فی الحدیث الشریف الّذی قرأناه فیما سبق «مَنِ اشتَاقَ اِلَی الجَنَّةِ سَلا عَنِ الشَّهواتِ» «۱». أحیاناً یتحرک الإنسان لاشباع الشهوة والتحرر من قیود الدین والأخلاق إلی کسر سد الإیمان، وفی هذا یقول القرآن الکریم «بَلْ یُرِیدُ الإنسانُ لِیَفْجُرَ امَامَهُ- یَسْئَلُ ایَّانَ یَوْمُ القیامَةِ» «۲»؛ الإنسان هنا یرید أن یتحرر من القیود المعنویة لیمارس الخطایا بدون خوف من یوم القیامة، ولهذا یسأل سؤال انکار وترديد.

۲- عدم الاهتمام بالکرامة الاجتماعیة والشخصیة الإنسانیة

إن عدم اهتمام البعض بالکرامة الاجتماعیة وعدم اهتمامهم بشخصیتهم الإنسانیة هو أحد العوامل الّتی تسبب للإنسان التلوث بأنواع الخطایا والتورط فی وحل الشهوات، فی حین أنّ احترام الإنسان لنفسه ولشخصیته الإنسانیة وحیثیته الاجتماعیة بإمکانه أن یقف حاجزاً ورادعاً عن ممارسة الخطیئة وطغیان الشهوة حتّی عُدَّ من عدم الإیمان باللَّه والآخرة. ولهذا السبب نجد أنّ الأشخاص الّذین یتمتعون بمکانة اجتماعیة فی المجتمعات غیر الدینیة لا یستسلمون لطغیان الشهوة بسهولة ولا یقعون ضحیة الأهواء والنوازع الرخیصة وخاصةً التحلّل الجنسی أو غریزة الغذاء واشباع البطن، لأن مکانتهم الاجتماعیة وسمعتهم وماء وجههم یقف سداً قویاً أمام طغیان هذه الشهوات، وعلیه فإنّ من یستسلم لنداء الشهوات ویرضخ لتحدیاتها هم فقط الأشخاص الّذین یعیشون الحقارة وضعف الشخصیة والدناءة.

۳- الغفلة والجهل

وأحد العوامل الاخرى للتلوث بهذه الرذيلة الأخلاقية هو الغفلة والجهل عن معطيات اتباع الشهوة وتأثيراتها السلبية فى حركة الإنسان والحياة، لأن أكثر الرذائل الأخلاقية تترتب عليها آثار سلبية فى دائرة السلامة البدنية والصحية، الشخص الّذى يُفرط فى الطعام ويعيش حالة النهم إلى الغذاء واشباع البطن فإنه يبتلى بأنواع الأمراض البدنية، وكذلك الشخص الّذى يفرط فى الغريزة الجنسية فإنه يبتلى بضعف القوى البدنية ويورثه هذا السلوك تدميراً لشبكة الأعصاب ويورثه قصر العمر، وبالتالى يعرض سلامته الروحية والجسمية إلى الارباك والخلل. ولهذا نجد كثيراً من الأشخاص فى المجتمعات غير الدينية يلتزمون فى حياتهم بالموازين الصحية ويقيدون انفسهم برعاية الاعتدال بالأكل والجنس، لأن الأطباء يوصون كثيراً فى رعاية هذه الامور وينبهون الناس إلى نتائج الأفراط فى إشباع هذه الشهوات الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۸۰ وعواقبها الوخيمة، وكذلك فإنّ المشكلات الاجتماعية الناشئة من اتباع الشهوات غير قابلة للانكار، فمن المعلوم أنّ افراط البعض فى طلب التنوع فى الأطعمة والاكثار من الغذاء هو السبب فى أن يعيش البعض الآخر من الناس حالة الجوع وقلّة الغذاء، وهكذا الحال فى التحلل الأخلاقى فى المسائل الجنسية حيث يسبب القلق والاضطراب لدى أفراد الاسرة، وما أكثر ما يتسبب فى سريان التلوث بالخطيئة إلى داخل الاسرة الواحدة. وعلى هذا الأساس فإنّ كلّ إنسان يلتفت جيداً إلى هذه الامور فسوف يحصل لديه العلم اليقينى بضرورة تقييد هذه الشهوات وضبطها من الانفلات والتحلل.

۴- المعاشرة مع رفاق السوء

ومن العوامل الاخرى للانحراف فى اشباع الشهوات هو العشرة مع رفاق السوء والمحيط الملوث وادوات الأعلام الفاسد وأمثال ذلك، فإنّ الغالب على رفاق السوء أنّهم يدفعون من يعاشرهم إلى ارتكاب المحرمات والتلوث بالذنوب من خلال تعليمهم على الطرق المتنوعة لاشباع الشهوات بطرق ممنوعة بحيث يمكن القول أنّ أهم أسباب التلوث بالخطيئة والإنحراف فى اشباع الشهوة هو الاختلاط مع الملوثين والمنحرفين. وهكذا بالنسبة إلى أدوات الأعلام الفاسد والمحيط الاجتماعى الملوث تعتبر من العوامل المهمة للتلوث والإنحراف، وفى هذا المجال تحدّثنا فى الجزء الأوّل عن «الأرضية المساعدة للفساد الأخلاقى) بشكل وافر وذكرنا بشكل مفصل أنّ العشرة والاختلاط مع الملوثين لا تفسد أخلاق الإنسان فحسب، بل قد تصل به إلى حدّ الكفر فى دائرة العقيدة أيضاً، ويتحدّث القرآن الكريم عن بعض أهل النار شارحاً لحالهم «وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَالَيْتَنِى اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا* يَاوَيْلَتَى لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا* لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا» «۱». وهكذا نرى أنّ البيئة الفاسدة وعنصر التربية وما يقوم به الوالدان من أساليب خاطئة فى مجال تربية الطفل بسبب ممارستهم للذنوب وإنحرافهم عن الحقّ تعتبر من العوامل المؤثرة الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۸۱ فى تلوث الإنسان بظاهرة الإنحراف وعبادة الشهوة، ولهذا نرى أنّ أغلب الأشخاص الّذين كانوا يعيشون الأمان والطهر فى حياتهم عندما يلج فى مثل هذه البيئة الفاسدة والمحيط المنحرف سوف يتلوثون بالخطيئة ويفقدون إيمانهم السابق ويغرقون فى بحر الذنوب والمفاسد الأخلاقية. وبما إننا بحثنا هذا المطلب فى الجزء الأوّل فى موضوع «كليات المسائل الأخلاقية» بشكل مفصل، فلذلك نكتفى بهذا المقدار من الإشارة إلى هذا المطلب المهم.

طرق علاج اتباع الشهوات:

اشارة

إن الطرق الكفيلة بعلاج المفاسد الأخلاقية تكاد تكون متشابهه فى الاصول فى جميع الموارد، وتتلخص هذه الطرق بنحوين: علمى وعملى.

ألف) الطريق العلمى

والمراد من الطريق العلمى هو أن الإنسان يفكر ويتدبر بالنتائج والآثار السلبية لطلب اللّذة واشباع الشهوة ويرى كيف إن الإنسان المستسلم لشهواته يعيش الذلّة والأسر وإنهزام الشخصية والشعور بالدونية والحقارة والابتعاد عن اللّه تعالى، وهذا المعنى نجده واضحاً على سلوك اتباع الشهوة وطلاب اللّذة الرخيصة وأنّهم كيف يعيشون الضعف والوهن فى شخصيتهم الإنسانية وكرامتهم الاجتماعية. وعلى هذا الأساس فإنّ التأمل فى هذه الظاهرة النفسية والاجتماعية وكذلك التفكر فى حال وسيرة «اولياء اللّه» واتباعهم المخلصين وكيف أنّهم وصلوا مقامات سامية من التكامل الإنسانى والأخلاقى بسبب محاربتهم للشهوات وامتناعهم عن سلوك طريق الخطيئة وصمودهم أمام تحديات الشهوة، مضافاً إلى ذلك فإنّ تقوية أركان العقل ودعائم الإيمان فى قلب الإنسان يجعله قادراً على كبح جماع شهواته وغرائزه، وفى هذا المجال قال أميرالمؤمنين عليه السلام «مَنْ كَمُلَ عَقْلُهُ استِهَانَ بِالشَّهَوَاتِ» «۱». الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۸۲ وفى حديث له عليه السلام «مَنْ غَلَبَ شَهْوَتَهُ ظَهَرَ عَقْلُهُ» «۱». وكذلك قال عليه السلام «كُلَّمَا قَوِيَتِ الْحِكْمَةُ ضَعُفَتِ الشَّهْوَةُ» «۲». وفى حديث آخر يقول عليه السلام «اذْكُرْ مَعَ كُلِّ لَذَّةٍ زَوَالَهَا وَمَعَ كُلِّ نِعْمَةٍ انْتِقَالَهَا وَمَعَ كُلِّ بَلِيَّةٍ كَشْفَهَا، فَانَّ ذَلِكَ ابْقى لِلنِّعَمِ، وَانْفى لِلشَّهْوَةِ، وَاذْهَبُ لِلبَطَرِ، وَاقرَبُ الَى الْفَرَجِ وَاجْدَرُ بِكَشفِ الغُمَّةِ وَدَرْكِ الْمَأمُولِ» «۳». وعليه فإنّ التفكر فى العاقبة السيئة والآثار المخربة لاتباع الشهوات بإمكانه أنّ يصد الإنسان عن سلوك هذا الطريق، ولذلك نجد أنّ الأنبياء والقادة الإلهيين بذلوا جهوداً كبيرة فى هذا السبيل ليخلصوا الناس من التورط فى الخطايا والذنوب وينقذوهم من أسر الشهوات والأهواء. وفى حديث شريف عن رسول اللّه يقول «خَمْسٌ انْ ادْرَكْتَمُوهُنَّ فَتَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنْهُنَّ: لَمْ تَظْهَرِ الفَاحِشَةُ فِى قَومٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوهَا، الّا ظَهَرَ فِيهِمُ الطَّاعُونُ وَالاوَجَاعُ الَّتى لَمْ تَكُنْ فِى اسْلافِهِم الَّذِينَ مَضَوُا، وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكيالَ وَالْميزانَ الّا أُخِذُوا بِالسِّنينَ وَشِدَّةِ الْمَؤُنَةِ وَجَوْرِ السُّلطانِ، وَلَمْ يَمْنَعُوا الزَّكاةَ الّا مُنِعُوا الْمَطَرَ مِنَ السَّماءِ، وَلَوْلا البَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللَّهِ وَعَهْدَ رَسُولِهِ الّا سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيهِمْ عَدُوَّهُم وَاخَذُوا بِعضَ مَا فِى ايْديهِمْ، وَلَمْ يَحْكُمُوا بِغَيرِ مَا انْزَلَ اللَّهُ الّا جَعَلَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ بِأسَهُمْ بَيْنَهُمْ» «۴». ولا شكّ أنّ التأمل والتدبر فى هذه المعطيات والنتائج الخطيرة لها تأثير مستمر أو مؤقت فى منع الإنسان عن ممارسة الخطيئة لارتكاب الذنب.

ب) الطريق العملى

ومن جهة اخرى فإنّ الطريق العملى لعلاج حالة «عبادة الشهوة» له وجوه وانحاء مختلفة منها: ۱- إن أفضل الطرق العملية للنجاة من مستنقع الشهوة هو الاشباع الصحيح للغرائز البدنية والرغبات الجنسية بالخصوص، لأنّه إذا تم اشباع هذه الرغبات الباطنية والميول البدنية من طرق سليمة وبأدوات صحيحة فإنّ بإمكانها أن تنقذ الإنسان من النتائج السلبية والمخربة المترتبة على اتباع الشهوات، وبعبارة اخرى انه لا ينبغى للإنسان كبت هذه الغرائز والرغبات والتغافل عن ارضائها بل يجب أن يسير بها المسار الصحيح والبنّاء لتكون مفيدة ونافعة فى حركة الحياة، وفى غير هذه الصورة يمكنها أن تتبدل إلى سيل مدمر ومخرب يهلك الحرث والنسل ولا يبقى للإنسان أى أثر من آثار الخير والصلاح. ولهذا السبب نرى أنّ الإسلام لم يهتم بالتسلية والترفية السليم والمعتدل فحسب بل عمل على حث الناس وترغيبهم فى هذا الطريق لارضاء الغرائز، ومن ذلك ماورد فى خطبة معروفة للإمام الجواد الّتى قرأها عند عقد زواجه حيث قال «امّا بَعْدُ فَقَدْ كَانَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَى الْانَامِ انْ اغْناهُم بِالْحَلالِ عَنِ الْحَرامِ» «۱». وفى هذا الحديث المعروف هناك إشارة إلى هذا المعنى أيضاً حيث تقول «لِلْمُؤمِنِ ثَلاثُ سَاعَاتٍ، فَسَاعَةٌ يُنَاجِى فيهَا رَبَّهُ، وَسَاعَةٌ يَرُمَّ مَعَاشَهُ، وَساعَةٌ يُخَلّى بَيْنَ نَفْسِهِ وَبينَ لَذَّتِهَا فيمَا يَحِلُّ وَيَجْمُلُ» «۲». ۲- ومن الطرق الاخرى للنجاة من قيود الشهوات هو أن يضع الإنسان لنفسه برنامجاً دقيقاً لحياته، لأنّه كلما سعى لبرمجة أوقاته فى اليوم والليلة «حتّى لو كان البرنامج يتضمّن جانب الترفية والرياضة البدنية» فإنه لا يكاد يجد برنامج للإنسياق وراء طلب اللّذة وفراغاً كافياً لسلوك طريق الشهوة. ۳- ومن العناصر الاخرى لعلاج هذه الظاهرة أو الوقاية منها هو إزالة عوامل التلوث

الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۸۴ بالخطيئة، لأن إمكانية التلوث بالشهوات فى البيئة الملوثة يكون أكثر، أى لو كانت أسباب المعصية متوفرة وطرق الإنحراف مفتوحة ووجود الحرية النسبية فى ارتكاب الذنوب واتباع الشهوات فإنّ النجاة من التلوث بالخطيئة ولا سيّما للشباب الّذين لا يمتلكون من المعرفة الدينية إلّاالقليل سيكون أمراً عسيراً للغاية. ۴- احياء الشخصية المعنوية والإنسانية لأفراد المجتمع يعد من الطرق المهمة للعلاج أو الوقاية من التلوث بالشهوات، لأنّه عندما يدرك الإنسان قيمة وجوده واعتباره وشخصيته ويعلم بانه يمثل عصارة الخلقة والغاية العليا بعالم الكائنات وخليفة اللّه فى الأرض فلا يبيع نفسه بسهولة ولا يسلمها إلى عناصر الشهوة وقوى الإنحراف. يقول أميرالمؤمنين عليه السلام فى هذا المجال «مَنْ كَرُمَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ هَانَتْ عَلَيْهِ شَهْوَتُهُ» «۱» وفى حديث آخر يقول عليه السلام «مَنْ عَرَفَ شَرَفَ مَعْنَاهُ صَانَهُ عَن دَنَائَةِ شَهْوَتِهِ ...» «۲». وآخر ما يقال فى هذا المجال هو انه لابدّ من الاهتمام بالطريق العملى ليس للتصدّى إلى الشهوات فحسب بل فى جميع موارد مكافحة المفاسد الأخلاقية لدى الفرد والمجتمع، بمعنى انه كلّما سلك الإنسان طريق مكافحة أهوائه الفاسدة وأخلاقه المنحرفة وسار فى الطريق القويم فإنّ هذه القوى والعناصر السلبية ستخف وستندثر فى وجوده ونفسه وسوف ينتقل الإنسان فى هذا السلوك إلى أن يعيش الحالة النفسية السليمة، ومن هذه الحالة ينتقل إلى العادة، ومن العادة ينتقل إلى الملكة حيث تتحول هذه الحالة والعادة إلى ملكة راسخة فى نفسه وتكون بمثابة الطبع الكامل له، وعلى سبيل المثال إذا تحرّك الإنسان البخيل فى علاج هذا المرض الأخلاقى نحو البذل والعطاء فى دائرة الفعل والعمل، فإنّ نار البخل ستضعف وتخبو تدريجياً فى باطنه إلى أن تنطفىء تماماً. فإذا تحرّك اتباع الشهوة أيضاً فى هذا الطريق وسلكوا مسلك التصدى والمقاومة أمام طغيان الشهوات، فإنّ هذه الشهوات والقوى المنحرفة الموجودة فى باطنهم ستضعف وتخبو الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۸۵ تدريجياً ويحل بدلها عنصر العقيدة ويعيش الإنسان حينئذٍ روح الطهارة والنقاء والانفتاح على اللّه والمعنويات السامية. وهذا المعنى نجده واضحاً بكلام أميرالمؤمنين عليه السلام «قَاوِمِ الشَّهْوَةَ بِالْقَمْعِ لَهَا تَظْفُرْ» «۱».

شهوة الأكل والجنس:

لقد أورد الأعاظم من علماء الأخلاق كالفيض الكاشانى فى «المحجّة البيضاء» والمحقّق النراقى فى «معراج السعادة» والعلّامة السيّد شبّر فى كتاب «الأخلاق» كلًا من شهوة البطن وشهوة الجنس بصورة مستقلة وبحثوهما كلًا على انفراد، وفى الحقيقة اتبعوا فى ذلك ما ورد فى الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة فى هذا المجال حيث ورد الاهتمام الكبير بهاتين الغريزتين. الفيض الكاشانى يذكر فى كتابه «المحجّة البيضاء» هاتان الشهوتان ويقول: «أما بعد، فأعظم المهلكات لابن آدم شهوة البطن، فبها أخرج آدم عليه السلام وحواء من دار القرار إلى دار الذلّ والافتقار، إذ نهيا عن أكل الشجرة فغلبتهما شهواتهما حتّى أكلا منها فبدت لهما سوآتهما، والبطن على التحقيق مصدر الشهوات ومنبت الأدواء والآفات. إذ يتبعها شهوة الفرج وشدّة الشبق إلى المنكوحات، ثمّ تتبع شهوة المطعم والمنكح شدّة الرغبة فى المال والجاه اللذين هما الوسيلة إلى التوسع فى المطعومات والمنكوحات، ثمّ يتبع استكثار المال والجاه أنواع الرعونات وضروب المنافسات والمحاسبات، ثمّ يتولد من ذلك آفة الرياء وغائلة التفاخر والتكاثر والكبرياء، ثمّ يتداعى إلى ذلك الحسد والحقد والعداوة والبغضاء، ثمّ يفضى ذلك بصاحبه إلى اقتحام البغى والمنكر والفحشاء. وكلّ ذلك ثمرة إهمال المعدة وما يتولد منها من بطر الشبع والامتلاء، ولو ذلّل العبد نفسه بالجوع وضيّق به مجارى الشيطان لأذعنت لطاعة اللّه ولم تسلك سبيل البطر والطغيان ولم الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۸۶ ينجر به ذلك إلى الانهماك فى الدنيا وايثار العاجلة على العقبى، ولم يتكالب كلّ هذا التكالب على الدنيا. وإذا عظمت آفة شهوة البطن إلى هذا الحدّ وجب شرح غوائلها وآفاتها تحذيراً منها، ووجب ايضاح طريق المجاهدة لها والتنبيه على فضلها ترغيباً فيها» «۱». والأخطر من ذلك أنّ الأشخاص من اتباع شهوة البطن والفرج يفقدون دينهم ويتركون إيمانهم فى هذا السبيل حيث نقرأ فى ذيل الآية القرآنية «وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُواْ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُواْ بِآيَاتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّاىَ فَاتَّقُونِ» «۲». إنّ اللّه تعالى يذم اليهود الّذين كانوا يشترون بآيات اللّه ويبيعونها بثمن بخس، فقد كانت

هناك مجموعة من علماء اليهود وأحبارهم يقومون بتحريف آيات اللّه من أجل اشباع نهم شهواتهم لغرض دعوتهم لمجالس البذخ وموائد الترف الّتى كان يقوم بها اليهود اتجاه علمائهم، وبهذا فهم باعوا عملياً آيات اللّه بثمن بخس «ولهذا انكروا وجود ذكر النبى الّذى يظهر آخر الزمان والّذى كان ينتظره اليهود والمذكور عندهم بالتوراة». وفى الروايات الإسلامية نجد بحوثاً واسعة عن اخبار هاتين الشهوتين حيث تشير إلى بعض هذه الموارد: ۱- قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله «ثَلاثٌ اخَافُهُنَّ بَعدى عَلَى امَّتى الضَّلالَةُ بَعْدَ المَعْرِفَةِ وَمُضِلّاتُ أَلْفِتَنِ وَشَهْوَةُ الْبَطْنِ وَالْفَرْجِ» «۳». المقصود من الضلالة بعد المعرفة هو أن يترك الإنسان الحقّ والطريق المستقيم بسبب وساوس المنحرفين وشبهات المخالفين ويسلك سبيل الانحراف والزيغ والضلالة، وهذا المعنى موجود دائماً وفى كلّ زمان وخاصة فى زماننا هذا. والمقصود من «مضلات الفتن» هو اشكال الامتحان الإلهى والاختبار الربانى لعباده الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۸۷ حيث يقع الإنسان أحياناً بسبب اتباعه للشهوات والأهواء فى الخطيئة ويسقط فى الامتحان، والمراد من «شهوة البطن والفرج» هو الأفراط فى الأكل وطلب اللّذة والأفراط فى طلب اللّذة الجنسية. إن سياق الحديث الشريف يوحى لنا بهذه الحقيقة، وهى أنّ الخطر المتوجه للناس والّذى يهدد وجودهم بسبب هذه الامور الثلاثة هو خطر عميق وجدى. ۲- يقول الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله فى حديث آخر «اكْثَرُ مَا تَلِجُ بِهِ امَّتى النَّارَ الْاجْوَفَانِ الْبَطْنُ وَالْفَرْجُ» «۱». ۳- ويقول الإمام الباقر عليه السلام «اذا شَبَعَ البَطْنُ طَغى «۲». ۴- وأيضاً يقول هذا الإمام فى حديث آخر «مَا مِنْ شَىءٍ ابْغَضُ الَى اللّهِ عَزَّوَجَلَّ مِنْ بَطْنٍ مَمْلُوءٍ» «۳». ۵- وورد عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: «لا يُفْسِدُ التَّقوى الّا بِغَلَبَةِ الشَّهْوَةِ» «۴». ۶- وورد فى حديث آخر عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: «لا تَجْتَمِعُ الحِكْمَةُ وَالشَّهْوَةُ» «۵». ۷- وقال هذا الإمام عليه السلام أيضاً فى حديث آخر «مَا رَفَعَ امَرءاً كَهِمَّتِهِ وَلَا وَضَعَهُ كَشَهْوَتِهِ» «۶».

العفة من أكبر الفضائل الأخلاقية

تنويه:

تقع «العفة» فى النقطة المقابلة ل «شهوة البطن والفرج» وتعتبر من أهم الفضائل الإنسانية والأخلاقية على السواء. ويقول الراغب الاصفهانى فى كتاب «المفردات» فى معنى العفة أنّها حصول حالة للنفس تمتنع بها من غلبة الشهوة، والمتعفف المتعاطى لذلك. ويقول صاحب مقاييس اللغة فى معنى العفة: «العفة فى الأصل تأتى لمعنيين، الأول، الاجتناب عن القبائح، والآخر قلّة الشىء، ولذا يقال للبن المتبقى فى الرضع- عُفّة- على وزن مدّة». ويقول مؤلف كتاب «التحقيق» عن مفهوم العفة: «مادة عفّة فى الأصل بمعنى حفظ النفس من الميول والشهوات النفسانية، كما أنّ التقوى بمعنى حفظ النفس من ارتكاب الذنوب، وعلى هذا فالعفة صفة باطنية، فى حين أن التقوى ناظرة إلى الأعمال الخارجية». وقد ذكر علماء الأخلاق فى تعريف العفة انها الحدّ الوسط بين الشهوة والخمود. وماذكرنا آنفاً من معنى العفة كان فى مفهومهاالعام، لأن البعض قد أورد فى تعريف العفة النقطة المقابلة لها، أى الوقاحة وتمزيق ستار الحياء، ولهذا السبب نجد أنّ أكثر موارد الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۹۰ استعمال مفردة «العفة» تختص للمسائل الجنسية. وعلى أى حال فإنّ المستفاد من آيات القرآن الكريم والروايات الإسلامية أنّ العفة (بكلا المعنيين) تعد من أعظم الفضائل الأخلاقية والإنسانية، ولا يمكن لأىشخص أن يسير نحو الكمال الإلهى ويسلك مسلك الانفتاح على اللّه من دون التحلى بهذه الخصلة الشريفة، ونجد فى حياتنا الدنيوية أنّ كرامة الإنسان وشخصيته وسمعته رهينة بالتحلى بهذه الفضيلة الأخلاقية. بعد هذه الإشارة نعود إلى القرآن الكريم لنستوحى من آياته الكريمة هذا المفهوم السامى: ۱- «لِلْفُقَرَآءِ الَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ لَايَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ا لْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَايَسْئَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ» «۱». ۲- «وَرَاوَدَتْهُ الَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّى أَحْسَنَ مَثْوَاىَ إِنَّهُ لَايُفْلِحُ الظَّالِمُونَ» «۲». ۳- «وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّءَا بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَا لْفَحْشَآءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا ا لْمُخْلَصِينَ» «۳». ۴- «قَالَتْ فَذَلِكُنَّ

الَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَا وَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئن لَّمْ يَفْعَلْ مَآءَامُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مّنَ الصَّاغِرِينَ* قَالَ رَبّ السّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِى إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مّنَ الْجَاهِلِينَ* فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ» «۴». الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۹۱ ۵- «وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ* وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ* إِلَّا عَلَى أَزْوَا جِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ* فَمَنِ ابْتَغَى وَرَآءَ ذَلِكَ فَأُوْلَئكَ هُمُ الْعَادُونَ» «۱». ۶- «... وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَا لْحَافِظَاتِ ...» «۲».

التفسير:

الفقير المتعطش

فى «الآية الاولى يتحدّث القرآن الكريم عن أفضل موارد الانفاق ويقول مخاطباً المؤمنين بأن انفاقكم يجب أن يختص بالفقراء الّذين هاجروا من بيوتهم واوطانهم ولم يستطيعوا تأمين نفقاتهم واحتياجاتهم عن طريق الجهاد فى سبيل اللَّه أو السفر للكسب والتجارة «لِلْفُقَرَآءِ الَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ لَايَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى الْأَرْضِ» «۳». ثمّ يشير إلى خصوصية مهمة اخرى من خصوصيات هؤلاء الفقراء، وهى أنّهم لشدة تعففهم وضبطهم لأنفسهم يحسبهم الناس أغنياء «يَحْسَبُهُمُ ا لْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ ...) «۴». أجل فإنّ هؤلاء يعيشون الضبط الأخلاقى لنوازع النفس ولا يرسلون السنتهم بالشكوى رغم احتياجهم الشديد، ويسلكون مسلك الأغنياء بين الناس ولكن المطلع على أحوالهم يعرف حاجتهم ومسكنتهم من سيماهم. ويبين القرآن الكريم سمة اخرى من سماتهم ويقول «لَايَسْئَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ...» «۵». فهؤلاء لا يطلبون قضاء حاجتهم من الآخرين مهما أمكنهم ذلك، ولو اشتد بهم الحال واضطروا إلى المسألة، فإنّهم يفضلون اقتراض ما يحتاجونه من المال على السؤال من دون الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۹۲ أن يكون لديهم اصرار على الآخرين. وفى ختام الآية يقول تعالى «وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ» «۱». أجل، فإنّ الأنفاق عملٍ إنسانى وفضيلة أخلاقية وخاصة على من يتمتع بعزّة النفس وعلو الطبع وعفة الروح. وبديهى أنّ المراد من «العفة» فى هذه الآية هى العفة فى المسائل المالية لا الامور الجنسية، وقد ذكر بعض المفسّرين فى شأن نزولها انها نزلت فى «أصحاب الصفة» هؤلاء كانوا جماعة يبلغ عددهم أربعمائة نفر تقريباً من المسلمين المهاجرين من مكّة وضواحى المدينة الّذين لم يكن لديهم دارٌ فى المدينة ولا معارف وأقرباء فيها ولا عملٍ يتكسبون فيه، ولكنهم فى نفس الوقت يعيشون فى غاية التعفف فى مكانٍ خاص إلى جوار مسجد النبى صلى الله عليه و آله، وكان هؤلاء يتحركون نحو الجهاد فى سبيل اللَّه متى ما أمرهم رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وكانوا يتمتعون بعزّة النفس والتعفف الشديد بالرغم من حاجتهم الشديدة وما يشعرون به من جوع. وعلى أى حال فالقرآن الكريم ذكر هؤلاء فى الآية محل البحث بتعبيرات مختلفة من المدح والثناء وجعلهم اسوة لجميع المسلمين. فى «الآية الثانية والثالثة» يتحدّث القرآن الكريم عن عفّة يوسف وطهارة ذيله فى أحلك الظروف الّتى توفرت فيها جميع أسباب التورط فى الإثم والمعصية ولكنَّ يوسف حفظ نفسه أمام تحديات الواقع وضغوط الحالة واستعاذ باللَّه تعالى، فنجح فى هذا الامتحان الإلهى الكبير وخرج منه مرفوع الرأس، وكما يذكر القرآن الكريم واصفاً هذه الحالة والحادثة الّتى حدثت ليوسف وامرأة العزيز فيقول: «وَرَا وَدَتْهُ الَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَا بَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبّى أَحْسَنَ مَثْوَاىَ إِنَّهُ لَايُفْلِحُ الظَّالِمُونَ» «۲». الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۹۳ فلم تجذب ملامح يوسف ووجهه الجميل عزيز مصر فحسب، بل احبته زوجة العزيز أيضاً وعشقته بشدّة إلى درجة أن هذا العشق أثّر اثَرُهُ فى نفس هذه الامرأة وامتد إلى أعماق قلبها، وشيئاً فشيئاً تعمق فى وجودها إلى درجة انها لم تعد تُطيق كبته، ولكن النبى يوسف الّذى كان يعيش العفة والطهارة والتقوى كان قد عشق اللَّه تعالى ولا غير. هذا وقد استخدمت امرأة العزيز الشابة الجميلة شتّى الطرق بمختلف الوسائل للوصول إلى هدفها، هذه الوسائل الّتى كان يكفى بعضها فى تحريك أى شابٍ أعزب فى عمر النبى يوسف، ولكنَّ يوسف عاش حالة الصمود أمام تحديات الشهوة الشديدة وفوّض نفسه وسفينة حياته إلى ذكر اللَّه تعالى ورحمته، وإلّا لكان الغرق فى الخطيئة من

نصيبه كما تصرّح الآية الّتى تليها «وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أن رَّءَا بُرْهَانَ رَبّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَا لْفَحْشَآءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا ا لْمخْلَصِينَ» «۱». إن عبارة «من عبادنا» وكذلك «مخلصين» من العبارات العميقة المعنى والّتى وردت فى هذه الآية بعنوان اوسمة افتخار ليوسف على موقفه الشجاع هذا. ورغم أنّ يوسف كان قد اتهم من قبل زوجة عزيز مصر بالخيانة مع عفته وطهارته بحيث يمكنها أن تودى بحياته، إلّاأنّ اللّه تعالى قد وعد المؤمنين الطاهرين بالنجاة وانقذ يوسف بواسطة شهادة طفل رضيع فى المهد ببراءته وطهارته من التهمة بصورة إعجازية. وهناك مسطورات لبعض الأفراد الجهلة والمغرضين الّذين ذكروا فى تفسير هذه الآيات أنّ المقصود بقوله «همَّ بها» هو أنّ يوسف بدوره همَّ بالمعصية ومقاربة زليخا، وكما هو المعلوم أنّ هذا المعنى لا يليق بمقام عصمة الأنبياء ولا ينسجم مع سياق الآيات المذكورة أعلاه بل إن القرآن الكريم يصرّح بأنه لولا برهان اللّه الّذى أعان يوسف فى وقت الشدّة لكان قد همَّ بها، ولكن بما إن برهان الرب حلَّ فى الوقت المناسب فإنه لم يقصد الخطيئة. وللفخر الرازى تعبير جميل فى تفسير هذه الآية حيث يقول: «وأما أنّ إبليس أقرّ بطهارته، فلأنه قال: فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلّاعبادك منهم المخلصين، فأقر بأنه لا الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۹۴ يمكنه اغواء المخلصين، ويوسف من المخلصين لقوله تعالى: «انه من عبادنا المخلصين» فكان هذا إقراراً من إبليس بأنه ما أغواه وما أضله عن طريق الهدى وعند هذا نقول: هؤلاء الجهال الّذين نسبوا إلى يوسف عليه السلام الفضيحة إن كانوا من اتباع دين اللّه تعالى فليقبلوا شهادة اللّه تعالى على طهارته وإن كانوا من اتباع إبليس فليقبلوا شهادة إبليس على طهارته» «۱». «الآية الرابعة» تتحدّث عن سيرة النبى يوسف المليئة بالأحداث بعدما حصل بينه وبين امرأة العزيز ماحصل، وتشير إلى محنة اخرى وامتحان آخر للنبى يوسف «قَالَتْ فَذلِكُنَّ الَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَا وَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ» فعندما امتد خبر وقوع هذه الحادثة ليشمل جميع بيوت المدينة وعلم الناس بقضية العشق الملتهب الّذى ألَمَّ بقلب امرأة العزيز اتجاه غلامها، فإنّ نسوة مصر اطلقن السنتهنَّ باللوم والتوبيخ لامرأة العزيز، ولكنها لما رأت ذلك أرادت إثبات براءتها فأعدت مائدة كبيرة واستضافت النسوة المعروفات ونساء الشخصيات الكبيرة فى مصر، ثمّ طلبت من يوسف أن يخرج عليهن ويدخل عليهنَّ ذلك المجلس الحافل. وعندما وقعت أعينهنَّ على الجمال العجيب ليوسف ارتبكن بشدّة وفقدن اختيارهُنّ وجرحنَّ أيديهنَّ بالسكين الّتى كانت بأيديهنّ لتقطيع الفاكهة وقلن جميعاً «حَاشَ لِلَّهِ مَا هذَا بَشَرًا إِنْ هذَآ إِلَّا مَلَكٌ» «۲». فعندما رأت امرأة العزيز منهن ذلك ورأت انها قد انتصرت فى هذا الموقف، توجهت إليهنّ بالخطاب وقالت «قَالَتْ فَذلِكُنَّ الَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَا وَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئن لَّمْ يَفْعَلْ مَآءَامُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مّنَ الصَّاغِرِينَ» «۳». وكان هو ثانى امتحان صعب يمر بيوسف حيث وقع بين أمرين وطريقين، فاما أن الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۹۵ يستسلم لنوازع امرأة العزيز ويُرضى هيامها وعشقها منه، وبالتالى يعيش حالة الترف والدلال والنعمة الدنيوية، واما أن يقاوم هذه الرغبة الممنوعة ويكون مصيره السجن وتحمل أنواع الضغوط والصعوبات. ولكن يوسف ومن دون أى ترديد انتخب الطريق الثانى وسأل اللّه تعالى أن يوفقه لذلك وقال «قَالَ رَبّ السّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِى إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مّنَ الْجَاهِلِينَ» «۱». ويتضح من سياق هذه الآية أنّ نسوة مصر اللواتى حضرن فى مجلس امرأة العزيز قد دعون يوسف إلى التسليم لامرأة العزيز والرضوخ لطلبها، فكلّ واحدة تحدثت معه بأنواع الوسوسة فأحداهنَّ تقول: ايها الشاب ألم تر الجمال الآسر لامرأة العزيز، ألست تلتذ بالجمال وممارسة العشق معها؟ والاخرى تقول: إذا لم يؤثر فى قلبك جمال هذه المرأة فلا ينبغى أن تنسى انها زوجة عزيز مصر، فلو استطعت أن تكسب قلبها فسوف يكون بإمكانك التمتع بالثروة والمقام وتمام ما تريد فى الحياة. الثالثة تحذره من أنك لو لم يؤثر فيك جمال هذه المرأة، ولم تكن تهم بمقامها ومكانتها الاجتماعية ولكنك يجب أن تعلم بأن هذه المرأة سوف تغضب عليك وتتحول إلى موجود خطر يهدد حياتك، وسوف تنتقم بنفسها وترسلك إلى قعر السجون المظلمة حيث تنسى إلى الابد. وبما أنّ الطريق الأخير الّذى يقف أمام يوسف وهو الوقوع فى السجن الموحش فإنّ يوسف طلب من اللّه تعالى ذلك فوراً، وخاطب ربّه بأن السجن احبُ إلىَّ من الوقوع بالمعصية والإثم، فانا مستعد لدخول السجن اطاعة لأمره وحفظاً لحدوده ومن أجل المحافظة على شرفى وعفتى فى مقابل طلب هؤلاء النسوة، وكان تهديد هؤلاء النسوة ليوسف بصورة جدية، وقد تمّ ذلك عملياً وأُلقى يوسف فى السجن، وبذلك

انقذ نفسه وشرفه من تلوثات القصر ومفاسد المحيط حيث تذكر الآيات الّتى تلى هذه الآية أنّ ذلك السجن الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۹۶ الموحش كان فى الحقيقة سُلَّماً لنيل يوسف مراتب سامية من الكمال الإلهى والمعنوى، وأخيراً تمكن يوسف بمشيئة اللَّه أن يجلس على عرش مصر واستطاع بمحافظته على تقواه وعفته وشرفه أن ينال كلّ شىء، فى حين أنّ جميع الملوثين افتضحوا ولم ينالوا مرادهم، فكان هذا هو جزاء اللَّه تعالى وثوابه الدنيوى للشرفاء والمخلصين من عباده، ويقول القرآن الكريم فى سياق هذه الآيات فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ» «۱».

العفة السمة الأخلاقية للمؤمن:

«الآية الخامسة» من الآيات محل البحث تتحدّث عن الصفات البارزة للمؤمنين حيث يذكرها القرآن الكريم بعبارات قصيرة ومليئة بالمعنى ضمن بيان قسم مهم من صفات المؤمنين، ويذكر صفة العفة والطهارة بأنّها إحدى الصفات والخصال الممتازة لهؤلاء المؤمنين ويقول «وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ* إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ* فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ» «۲». والملفت للنظر أنّ القرآن الكريم يذكر من ضمن الصفات الممتازة للمؤمنين صفة العفة بعد الصلاه والزكاة والامتناع من اللغو وحتّى انه يذكرها قبل صفة الأمانة والوفاء بالعهد أيضاً.

العفة مفتاح النجاة:

وفى (آخر آية) من الآيات محل البحث يستعرض القرآن الكريم عشرة طوائف من الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۹۷ الرجال والنساء الّذين نالوا المغفرة من اللَّه تعالى والأجر العظيم، فتذكر الآية فى سياقها أنّ الطائفة التاسعة من هؤلاء الرجال والنساء هم الّذين يعيشون العفة والطهارة من التلوث بالذنوب والّذين حفظوا اذيالهم وشرفهم من وحل الخطيئة. وتشير الآية الكريمة إلى الطائفة العاشرة من هؤلاء فى سياق بيان أوصافهم أنّهم كثيراً ما يذكرون اللَّه تعالى ولا يصعب أن تكون هذه الصفة مرتبطة مع الصفة السابقة، وهى العفة لوجود الارتباط الوثيق بين العفة وذكر اللَّه تعالى، فتكون من نتائج التحلّى بهذه الصفات هى المغفرة الإلهية والأجر العظيم الّذى لا يعلم عظمته إلّااللَّه تعالى. وقد وردت فى النصوص الدينية إشارة اخرى إلى أحد الطرق لحفظ النفس أمام تحديات الشهوة وطغيان الغريزة الجنسية، وهو «الصوم»، فعليه يكون بين العفة والصوم ارتباط وثيق ومباشر حيث يقول الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله «يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ من اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ فَانَّهُ اغَضُّ لِلْبَصَرِ وَاحْصَنُ لِلْفَرْجِ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيهِ بِالصَّوْمِ» «۱».

العفة فى الروايات الإسلامية:

وقد ورد فى المصادر الروائية الاهتمام الشديد بالعفة حيث نشير إلى بعض ما ورد فيها: ۱- ما ورد عن أميرالمؤمنين عليه السلام: «افْضَلُ الْعِبادةِ الْعِفافُ» «۲». ۲- يقول الإمام الباقر عليه السلام: «مَا عُبِدَ اللَّهُ بِشىءٍ افْضَلَ مِنْ عِفَّةِ بَطْنٍ وَفَرْجٍ» «۳». ۳- وفى روايةٍ اخرى عن هذا الإمام فى تفسيره للرواية السابقة انه جاء رجل إلى الإمام عليه السلام وقال: إنى ضعيف العمل قليل الصيام ولكنى أرجو أن لا آكل إلّاحلالًا. فقال له الإمام عليه السلام: «ايُّ الإجْتَهَادِ افْضَلُ مِنْ عِفَّةِ بِطْنٍ وَفَرْجٍ» «۴». الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۹۸ ۴- ويقول الإمام على عليه السلام: «اذا أَرادَ اللَّهُ بِعَبْدٍ خَيراً اعَفَّ بَطْنَهُ وَفَرْجَهُ» «۱». ۵- وفى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام يقول للمفضل فى وصف الشيعى الواقعى: «انَّما شِيعَةُ جَعْفَرٍ مَنْ عَفَّ بَطْنَهُ وَفَرْجَهُ وَاشْتَدَّ جَهَادَهُ وَعَمَلُ لِخَالِقِهِ وَرَجَا ثَوابَهُ وَخَافَ عِقَابَهُ، فَاذَا رَأَيْتَ اولئكَ فَاولئكَ شِيعَةُ جَعْفرٍ» «۲». ۶- ويقول أميرالمؤمنين على عليه السلام: «قَدْرُ الرَّجُلِ عَلَى قَدْرِ هِمَّتِهِ، وَصِدْقُهُ عَلَى قَدْرِ مُرُوَّتِهِ، وَشُجَاعَتُهُ عَلَى قَدْرِ انَفَتِهِ وَعِفَّتُهُ عَلَى قَدْرِ غَيْرَتِهِ» «۳».

النتيجة:

لقد تحصّل لدينا من خلال الآيات والروايات الشريفة أنّ الإسلام يهتم اهتماماً بالغاً بمسألة عبادة شهوة البطن والفرج وجعل من مسألة الغيرة على العرض علامة الشخصية المؤمنة وظاهرة من ظواهر سلوك الإنسان الشيعى الموالى لأهل البيت عليهم السلام، والتاريخ البشرى حافلٌ بالحوادث المأساوية الّتى تمتد جذورها إلى هذين العاملين «شهوة البطن والفرج» لأن شهوة البطن لا تسمح للإنسان فى التفكير المشروع لتحصيل الغذاء ورعاية حقوق الآخرين وسلوك طريق العدالة فى تحصيله، ولهذا السبب فإنّها تدفع الإنسان إلى أنواع الخطايا والذنوب فى سبيل ارضائها، مضافاً إلى ذلك فإنّ شهوة البطن تعدُ مصدراً وسبباً أكيداً إلى الكثير من الأمراض الجسمية والأخلاقية إلى درجة أنّ هذه الغريزة تصبح بمثابة الوثن الّذى يدعو صاحبه إلى عبادته وطاعته فى جميع سلوكياته فى حركة الحياة والواقع الاجتماعى. وفى هذا المجال يقول النبى الأكرم صلى الله عليه و آله فى معرض حديثه عن آخر الزمان «يَأْتِى عَلَى النّاسِ زَمانٌ بُطُونُهُمْ آلِهَتُهُمْ وَنِسائُهُم قِبلَتُهُمْ وَدَنانِيرُهُمْ دِينُهُمْ، وَشَرَفُهُمْ مَتاعُهُمْ، لا يَبْقى مِنَ الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۲۹۹ الايمَانِ الّا اسْمَهُ وَلا مِنَ الاسلام الّا رَسْمَهُ وَلا مِنَ القُرآنِ الّا دَرْسَهُ، مَساجِدُهُمْ مَعْمُورَةٌ مِنَ الْبَناءِ وَقُلُوبُهُمْ خَرابٌ عن الْهُدى» «۱». وقد ورد فى ذيل هذا الحديث أنّ اللّه تعالى سوف يبتلى هؤلاء الناس بأربع بلايا: جور السلطان، وقحط الزمان، وظلم الامراء والحكّام. والفرق بين الظلم والجور «كما ورد التقابل بينها فى الكثير من الروايات» يمكن أن يكون من جهة أنّ مفردة الجور فى الأصل تعنى الإنحراف عن طريق الحقّ، وعليه فإنّ جور السلطان يطلق على إنحراف سلوكيات أصحاب السلطة، فى حين أنّ الظلم يعنى عدم العدالة. وفى حديث آخر عنه يقول «ايّاكَ وَادْمَانَ الشَّبَعِ فَانَّهُ يُهَيّجُ الاسْقَامَ وَيُثيرُ العِلَلَ» «۲». وروى عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله أنّه قال: «من وُقى شرّ بطنه ولسانه وفرجه فقد وُقى من جميع البلايا» «۳».

طرق الوقاية من التحلل الأخلاقى:

اشارة

ومن أجل الوقاية من التحلل الأخلاقى وضبط الشهوات وخاصةً الشهوة الجنسية وشهوة البطن، هناك عدّة طرق عامة وكلية، أى سارية فى عملية الوقاية من جميع المفاسد الأخلاقية من قبيل تطهير المحيط الاجتماعى، دور الرفاق والأصدقاء، تربية الاسرة، العلم والمعرفة بنتائج وآثار الرذائل الأخلاقية، المسائل الثقافية وأمثال ذلك. وقد تحدّثنا فى هذا المجال بصوره مفصلة وكاملة فى الجزء الأوّل من هذه الدورة الأخلاقية تحت عنوان الشرائط اللازمة لتربية الفضائل الأخلاقية وهناك طريق آخر خاصّ الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۰۰ يتعلق بمسألة «العفة» فى المسائل الجنسية وسائر الشهوات النفسانية حيث يمكن استعراض عدّة امور للوقاية من استفحال وطغيان هذه الغريزة وضبط النفس على مستوى السلوك الأخلاقى:

۱- الحجاب وترك الزينة أمام الأجانب

لا شكّ أنّ أحد الامور الّتى تفعِّل الغريزة الجنسية وتزيد من ضراوتها هو «التعرى والتزين بالنسبة للرجال والنساء» حيث يقع تأثير أحدهما بالآخر بشدّة وخاصة بالنسبة إلى الشباب العزاب بحيث يمكن القول أنّ التلوث بالخطايا الجنسية والإنحراف الجنسى يرتبط مباشرة بعدم الحجاب والتعرى والتزين أمام الأنظار حتّى انه طبقاً لبعض الأحصائيات أنّ هناك علاقة طردية بين زيادة واشتداد هذا العامل وبين زيادة التلوث الجنسى والتحلل الأخلاقى، مثلًا فى فصل الصيف وبسبب حرارة الجو فإنّ النساء يخففن من البستهنّ، وبهذه النسبة يتعرضن إلى التحرشات اللاأخلاقية من قِبل الشباب، وعلى العكس من ذلك فإنّ النساء فى فصل الشتاء وبسبب الملابس

الشتوية وارتداء الثياب الّتى توفر لهنّ الحماية من برودة الجو فإنّ التعرض والتحرش بهنَّ يقل عن فصل الصيف، ولهذا فقد ورد التأكيد فى الشريعة الإسلامية على الحجاب حيث يذكر القرآن الكريم فى آيات متعددة منها الآيات ۳۱ و ۶۰ من سورة النور، والآيات ۳۳ و ۵۳ و ۵۹ من سورة الأحزاب على مسألة الحجاب ويخاطب أحياناً النساء المؤمنات، وأحياناً اخرى نساء النبى، وثالثة يستثنى العجائز والمسنات منهنّ حيث يتضح من ذلك التكليف الشرعى لسواهن، وعلى هذا يبين القرآن بعبارات مختلفة أهمية هذه الوظيفة الشرعية فى حركة الحياة والمجتمع الإسلامى. وبديهى أن ترك الحجاب أى السفور والتبرج هو مقدمة للتعرى والتحلل الجنسى الّذى يترتب عليه نتائج وخيمة ومفاسد كبيرة فى كلّ عصر وزمان. إن التبرج وعدم الإلتزام بالحجاب يسبب أن تتحرك بعض النسوة فى حالة منافسة ومسابقة مستمرة لابداء وعرض مكامن اجسادهن وتحريك الشبان من هذا الطريق، وهذه الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۰۱ الظاهرة تكاد تستفحل فى هذا العصر والزمان بسبب مشاكل التحصيل العلمى وما يرافق الزواج من مشكلات اقتصادية وارتفاع سن الزواج بحيث إن الغالبية من أفراد المجتمع هم من العزاب، وبهذا فإنّ المخاطر والأزمات الاجتماعية والنفسية الّتى يعيشها الناس فى هذا الزمان هى أكثر من أى وقتٍ مضى مضافاً إلى ذلك فإنّ التبرج والسفور من الناحية الأخلاقية والاجتماعية يتسبب فى ارباك العوائل على مستوى الأمن والاستقرار ويؤدى إلى بروز الجرائم الجنسية والأزمات العائلية، ويؤدى أيضاً إلى ازدياد الانفعال العصبى والأمراض النفسية الاخرى أيضاً الّتى تعد أحد افرازات ونتائج ضعف الوشائج الاسرية والروابط العائلية وضعف قيمة شخصية المرأة فى المجتمع.

۲- عدم اختلاط الرجل والمرأة

لا شكّ أنّ المجتمعات البشرية المعاصرة لا تتمكن من الفصل التام بين الرجل والمرأة فى حركة الواقع الاجتماعى، ولكن يمكن توقى الاختلاط فى الموارد غير الضرورية وبذلك يتسنّى للمجتمع التوصل إلى حفظ العفة الاجتماعية والتقوى الجنسية أكثر، والسبب الّذى يحتم هذ الضرورة هو كثرة المفاسد الأخلاقية والفضائح الاجتماعية فى مجتمعاتنا المعاصرة كما هو الملاحظ فى المجتمعات الغربية الّتى تبيح اختلاط الذكور والأناث بصورة فاحشة.

۳- رؤية التصاوير الخليعة والأفلام الرخيصة

إن للافلام الخليعة وبعض البرامج التلفزيونية دور مؤثر وكبير فى تحريك الغريزة الجنسية وخاصة بين الشباب، حيث يقوم الانتهازيون والفئات المنحرفة بالتكسب والتجارة عن هذا الطريق اللامشروع ويعملون على نشر الفحشاء والمنكر من خلال صناعة الأفلام المبتذلة أو كتابة القصص الخليعة ونشرها بين أفراد المجتمع بالوسائل المختلفة فتنتقل عِبر الأمواج إلى شتّى بقاع المعمورة من دون أى رادعٍ ووازع شرعى أو قانونى، وبهذا يتمكنون من خلق التعقيدات النفسية والأخلاقية للمجتمع البشرى، وأى غفلة عن الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۰۲ هذه السلوكيات المنحرفة تؤدى إلى السقوط الأخلاقى والحضارى للمجتمع الإنسانى. ومع غاية الأسف أنّ بعض الكتّاب وأهل العلم والمعرفة راجعوا هذه المسألة من موقع الانفعال، واستسلموا لهذه الفتنة، وسكتوا فى مقابل تحديات الواقع المنحرف بحجّة أنّ مخالفة هذه الظواهر المنحرفة غير ممكنة، أو مخافة الظهور أمام الناس بمظهر مختلف ورجعى أو مخافة الاتهام بالاصولية والرجعية، ولهذا فقد تركوا التصدى لقوى الإنحراف هذه وسلّموا المجتمع الإسلامى إلى أمواج الخطر. ۱۶

عامل الغفلة

تنويه:

«الغفلة» لها مفهوم واسع وشامل بحیث تستوعب فی طیاتها الجهل بشرائط الزمان والمکان وظروف الواقع الّذی یعیش فیه الإنسان وتشمل الظروف الماضیة والحاضرة والمستقبلیة، وکذلک أفعال الشخص وصفاته وسلوکیاته وما یظهر له من آیات الحقّ والنذر والعِبر الّتی تتزامن مع حوادث المعیشة والوقائع الّتی تصیب الإنسان فی حرکة الحیاة، والغفلة عن هذه الوقائع والحوادث وعدم اتخاذ موقف صحیح منها یمثل خطراً کبیراً یواجه سعادة الإنسان وشخصیته، هذا الخطر الّذی یمکن أن یحیط بالإنسان ویبتلعه ویهوی به فی مطاوی النسیان والعدم، الخطر الّذی بإمکانه أن یهدر أتعاب الإنسان بسنوات لذیذة من عمره فی لحظة واحدة. ولعلّکم سمعتم کثیراً بأن الشخص الفلانی الّذی کان یمتلک ثروة طائلة قد فقدها فی لحظة من لحظات الغفلة، وهکذا حال الإنسان فی طریق السعادة والحیاة المعنویة، فیمکن أن یعیش الإنسان الغفلة فی لحظة واحدة حتّی تتحول ثروته المعنویة وملکاته الإنسانیة إلی رماد وتراب. ولهذا السبب فإنّ علماء الأخلاق قد تحرکوا فی کتاباتهم لاستعراض مسألة «الغفلة» الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۳۰۴ وما یقابلها من «التذکر» وبحثوا أسباب هذه الظاهرة والعوامل الّتی تؤدی إلی استفحالها فی وجود الإنسان أو الطرق الکفیلة بإزالتها والحدّ من نتائجها السلبیة. وبهذه المقدمة نعود إلی القرآن الکریم لنستوحی من آیاته الإلهیة ما یسلط الضوء علی هذه المسألة المهمة فی حیاة الإنسان، والآیات الکریمة الّتی تتحدّث عن ظاهرة الغفلة کالتالی: ۱- «وَلَقَدْ ذَرَأْ نَا لِجَهَنَّمَ کَثِیرًا مّنَ ا لْجِنّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّایَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْیُنٌ لَّایُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّایَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَئِکَ کَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِکَ هُمُ ا لْغَافِلُونَ» «۱». ۲- «وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِیَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِینَ کَفَرُواْ یَاوَیْلَنَا قَدْ کُنَّا فِی غَفْلَةٍ مّنْ هَذَا بَلْ کُنَّا ظَالِمِینَ» «۲». ۳- «وَاصْبِرْ نَفْسَکَ مَعَ الَّذِینَ یَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَوةِ وَا لْعَشِیّ یُرِیدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُعَیْنَاکَ عَنْهُمْ تُرِیدُ زِینَةَ ا لْحَیَاةِ الدُّنْیَا وَلَاتُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِکْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَکَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا» «۳». ۴- «إِنَّ الَّذِینَ لَایَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِالْحَیَاةِ الدُّنْیَا وَاطْمَأَنُّواْ بِهَا وَالَّذِینَ هُمْ عَنْ ءَایَاتِنَا غَافِلُونَ* أُوْلَئِکَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا کَانُواْ یَکْسِبُونَ» «۴» ۵- «یَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مّنَ الْحَیَاةِ الدُّنْیَا وَهُمْ عَنِ الْأَخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ» «۵» ۶- «سَأَصْرِفُ عَنْ آیَاتِیَ الَّذِینَ یَتَکَبَّرُونَ فِی الْأَرْضِ بِغَیْرِ ا لْحَقّ وَإِنْ یَرَوْاْ کُلَّ آیَةٍ لَّایُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِنْ یَرَوْاْ سَبِیلَ الرُّشْدِ لَایَتَّخِذُوهُ سَبِیلًا وَإِنْ یَرَوْاْ سَبِیلَ ا لْغَیّ یَتَّخِذُوهُ سَبِیلًا ذَلِکَ بِأَنَّهُمْ کَذَّبُواْ بِآیَاتِنَا وَکَانُواْ عَنْهَا غَافِلِینَ» «۶». الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۳۰۵ ۷- «فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِی الْیَمّ بِأَنَّهُمْ کَذَّبُواْ بِآیَاتِنَا وَکَانُواْ عَنْهَا غَافِلِینَ» «۱». ۸- «فَإِذَا رَکِبُواْ فِی الْفُلْکِ دَعَوُاْ اللَّهَ مُخْلِصِینَ لَهُ الدّینَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَی الْبَرّ إِذَا هُمْ یُشْرِکُونَ» «۲». ۹- «وَمَن یَعْشُ عَن ذِکْرِ الرَّحْمنِ نُقَیّضْ لَهُ شَیْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِینٌ» «۳». ۱۰- «إِنَّ الَّذِینَ اتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مّنَ الشَّیْطَانِ تَذَکَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ». «۴» ۱۱- «لَّقَدْ کُنتَ فِی غَفْلَةٍ مّنْ هَذَا فَکَشَفْنَا عَنکَ غِطَآءَکَ فَبَصَرُکَ ا لْیَوْمَ حَدِیدٌ». «۵» ۱۲- «وَأَنذِرْهُمْ یَوْمَ ا لْحَسْرَةِ إِذْ قُضِیَ ا لْأَمْرُ وَهُمْ فِی غَفْلَةٍ وَهُمْ لَایُؤْمِنُونَ». «۶»

تفسیر واستنتاج:

«الغفلة» المنبع الأصلی للمشکلات

«الآیة الاولی من الآیات محل البحث تتحدّث عن أسوأ أفراد البشر وتستعرض فی طیاتها فئة من الناس هم أشقی الناس جمیعاً وتصفهم بعدّة أوصاف وتقول «وَلَقَدْ ذَرَأْ نَا لِجَهَنَّمَ کَثِیرًا مّنَ ا لْجِنّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّایَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْیُنٌ لَّایُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّایَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَئِکَ کَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِکَ هُمُ ا لْغَافِلُونَ» «۷». فی هذه الآیة الشریفة نجد أنّ عنصر الغفلة یمثل العامل الأساس لشقاء الإنسان والسبب الأصلی الّذی یدفع الإنسان إلی جهنم وبئس المصیر، الغفلة الّتی تنشأ من ترک الإنسان بالتفکر والتدبر وعدم استخدام بصیرته وعدم إصغائه لصوت الحقّ حتّی یصل به الأمر إلی الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۳۰۶ أن یصل إلی مستوی الانعام بل اضل منها واتعس، لأن الأنعام إنّما تعیش الغفلة فی حیاتها بسبب انها خلقت کذلک وعدم وجود ملکة التنبه والتعقل فی ذاتها، فی حین إن الإنسان إذا عاش الغفلة فی حیاته مع وجود عوامل التنبه بأدوات التذکر والتعقل فسیکون أضل من الأنعام بالتأکید. إن مفهوم الآیة أعلاه لا یعنی أنّ اللّه تعالی یجبر بعض الناس علی سلوک طریق جهنم بل کما ورد التصریح فی الآیة نفسها أنّ أهل النار عندما

صاروا من أهل النار بسبب اختيارهم لهذا الطريق والسلوك الشائن، لأن اللّه تعالى قد أعطاهم العقل ولكنهم لم يستخدموا عقولهم، وأعطاهم السمع والبصر ولكنهم لم يصحوا إلى الحقائق الإلهية فى آذانهم ولم يروا آيات اللّه بأبصارهم، إذن فكلما يواجهونه من مشاكل دنيوية أو اخروية فهو بسبب اختيارهم ومن ناحيتهم، وغاية الأمر أنّ اللّه تعالى قد قرر قانوناً وناموساً يحكم عالم الوجود فى دائرة الإنسان، وهو أنّ كلّ من لم يستخدم المواهب الإلهية فى مجالها الخاصّ ولم يتحرّك فى سبيل استخدام قابلياته الذاتية فى طريق التكامل المعنوى فسيكون مصيره إلى جهنم فى الآخر، فحصول هذا الشرط فى هذا القانون يرتبط بإرادة الإنسان ذاته. «الآية الثانية» تتحدّث عن الكتاب فى عرصات يوم القيامة، فى ذلك الوقت الّذى يقترب فيه وعد اللّه حيث تسرى فيه الوحشة ويملك الخوف جميع وجودهم وتتحجر عيونهم من الرعب، وهناك يتعالى صراخهم وعويلهم وينادون بالويل والثبور على ما كانوا فى غفلةٍ من هذا الحال «وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُواْ يَاوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ» «۱». وعلى هذا فإنّ هذة الفئة من الناس يُقرون بأن «الغفلة» هى العامل الأساس فى انحرافهم عن جادة الحقّ، الغفلة الّتى دعتهم إلى أن يتحركوا من موقع الظلم على أنفسهم وعلى الآخرين وتركهم لدعوة الأنبياء والكتب السماوية والقاءها وراء ظهورهم. الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۰۷ هؤلاء يتحدّثون بهذا الكلام عندما تصيب الزلزلة جميع عالم الوجود وتتجلّى يومئذٍ علامات القيامة وتزول حجب «الغفلة»، وهناك يعيش هؤلاء الندم حيث تكون أبواب التوبة والانابة إلى اللّه مؤصدة أمامهم «۱». «شاخصة» من مادّة «شخوص» وهى فى الأصل بمعنى الخروج من المنزل أو المدينة إلى مدينة اخرى، وبما أنّ الإنسان عندما يستولى عليه الرعب تشحب عيناه وتتوقفان عن الحركة حيث يظل ينظر إلى نقطة معينة فى حالة من البهت بحيث تكاد تخرج حدقة العين من مكانها، فهذه الحالة يطلق عليها بالشخوص. «الآية الثالثة» تخاطب النبى الأكرم صلى الله عليه و آله من موقع الارشاد لمن يصح معاشرتهم والحياة معهم وتقول «وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَوا ة وَا لْعَشِىّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُعَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ا لْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَاتُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا» «۲». فى هذه الآية نقرأ صفات الأشخاص الّذين يمتلكون اللياقة ليكونوا فى صحبة النبى ورفقته من موقع اتصافهم بالايمان والعبادة وذكر اللّه تعالى فى الصباح والمساء، وتحذر الآية الشريفة أيضاً من اطاعة الغافلين عن ذكر اللّه والّذين يتحركون من موقع الأهواء والشهوات إلى درجة الافراط، ومن خلال مضامين هذه الآية الكريمة نستوحى وجود علاقة بين اتباع الهوى وبين الغفلة، أجل فإنّ الغافلين عن ذكر اللّه هم الّذين يتبعون أهوائهم ويعيشون حالة الافراط فى سلوكياتهم، ولو لم يكن فى ذمّ «الغفلة» الا هذا لكفى وطبقاً لما بيّنته الآية أعلاه من أنّ اللّه تعالى قد أغفل قلوب هؤلاء «أغفلنا قلبه عن الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۰۸ ذكرنا» يتضح جيداً أنّ ذلك كان نتيجة أعمالهم السيئة فى الحياة الدنيا وعلى شكل عقوبة إلهية. والمعروف أنّ الآية محل البحث نزلت فى طائفة من الأثرياء والمتكبرين فى عصر النزول حيث جاءوا إلى النبى الأكرم صلى الله عليه و آله وقالوا له: يا رسول اللّه، إنك لو جلست فى صدر المجلس ونحيت عنّا هؤلاء وأرياح جبابهم- يعنون بذلك سلمان وأبا ذر وفقراء المسلمين وكانت عليهم جباب الصوف ولم يكن عليهم غيرها- جلسنا إليك وحادثناك وأخذنا عنك، فأنزل اللّه تعالى هذه الآية إلى قوله: إنا اعتدنا للظالمين ناراً ... «۱». إن اللّه تعالى كان يعلم ما فى نفوس هؤلاء الغافلين وأنّهم يعيشون الادعاءات الفارغة والشعارات الجوفاء وأنّهم ليسوا بقابلين للاعتماد والثقة لا فى حالة الصلح ولا فى زمن الحرب ولا يمكن الاستفادة من أفكارهم، ولهذا حذّر اللّه تعالى نبيّه الكريم صلى الله عليه و آله من وساوسهم. «الآية الرابعة» تتحرك فى سياقها من خلال استعراض بعض أوصاف أهل النار وتقول: «إِنَّ الَّذِينَ لَايَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّواْ بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَاتِنَا غَافِلُونَ* أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ» «۲» فى هذه الآية الكريمة نقرأ أنّ السبب الأساس لانكار المعاد لدى بعض الناس ورضاهم بالحياة الدنيا ونسيان الآخرة هو «الغفلة» عن آيات اللّه والّتى تمثل هذه الحالة المحور والمصدر الحقيقى لشقاء الإنسان وتورطه فى المشاكل والمصائب، فى حين أنّ السبب الحقيقى لسعادة المؤمنين وأصحاب النعيم فى الآخرة يمتد فى جذوره إلى حالة التنبأ والتذكر والانفتاح على اللّه تعالى كما ورد ذلك فى الآيات الّتى تلى هذه الآية. الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۰۹ ونقرأ فى تفسير روح البيان فى ذيل هذه الآية حديثاً قدسياً يقول:

العجب ممّن يؤمن بالنار كيف يضحك؟ وممّن يتعلق بالدنيا وهو يعلم أنّه مفارقها، ومن الغافلين كيف يلهون فى حين أنّهم يعلمون أنّه لا يُغفل عنهم. ويتحدّث صاحب التفسير المذكور فى ذيل هذا الحديث الشريف عن قصة «النعمان بن المنذر» الّذى كان أحد ملوك الحيرة فى عصر الجاهلية، ويقول: فى أحد الأيّام كان هذا الملك جالساً للهو واللعب تحت شجرة وارفة الظلال، فقال له «عدى» وكان أحد أقربائه: أيّها الملك أنّ هذه الشجرة تغنى فهل تعلم ما تقول؟ هذه الشجرة تقول: رُبَّ رَكْبٍ قَدْ اناخُوا حَولَنا يَمزَجُون الخَمْرَ بِالمَاءِ الزُّلالِ ثُمَّ اضْحُوا اسَفَ الدَّهرُ بِهِم وَكَذاك الدَّهرُ حالًا بَعد حالٍ «۱» «الآية الخامسة» تتحدّث عن الأشخاص الّذين يعيشون «الغفلة» عن أسرار وقضايا عالم الوجود ولا يرون إلّاظواهر الامور، ويقنعون بهذا الظاهر الجذّاب لهذه الحياة الدنيا عن حقيقتها مع الغفلة عن باطنها الّذى يشير إلى الحياة الاخرى وتقول «يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْأَخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ». «۲» فلو أنّ الغفلة لم تلق عليهم بظلالها ولم تكبل عقولهم بقيودها لرأوا فى كلّ شىء وفى كلّ كائنٍ وموجود من هذا العالم آية من الآيات الّتى تدلّ على اللّه تعالى والمعاد، فالقرآن الكريم يستعرض أسرار عالم الخلقة ويقرر أنّ هذا النظام المدهش للعديد من عالم المادّة والطبيعة إنّما هو آية وعلامة على وجود اللّه تعالى وعلامة كذلك على المعاد والحياة بعد الموت من خلال الحوادث المشاهدة والملموسة فى حركة الحياة والواقع، غاية الأمر انه لا يدرك مغزى هذه الآيات والعلامات ولا يقرأ مضمونها الباطنى سوى أصحاب البصيرة الّذين قرؤوا نغمة التوحيد والمعاد فى باطن هذه الحوادث لا الأشخاص الّذين يتعاملون مع الحياة الدنيا من موقع الأهواء والنوازع المادية الرخيصة. الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۱۰ هذا وإن تكرار ضمير «هم» فى الآية الشريفة يعد تأكيداً على هذا المطلب، وهو أنّ «الغفلة» هى السبب فى أن يتحرّك الإنسان من موقع الظواهر فحسب ولا يرى واقع الحال ويتوغل فى باطن الامور. والجدير بالذكر أنّ مفردة «الغفلة» وردت فى موارد تكون فيها أسباب ومقدمات التذكر والتنبه متوفرة لدى الإنسان، ولكنه وبسبب اتباعه للأهواء أو بسبب ضعف الإيمان أو لأسباب اخرى فإنه يتغافل عنها، والشاهد على ذلك الآيات الّتى وردت بعد هذه الآية من سورة الروم حيث يستعرض اللّه تعالى فيها نماذج من آثار التوحيد والمعاد فى عالم الخلقة وفى واقع الإنسان ويحذّر الغافلين عن التمادى فى غفلتهم وينذرهم من عاقبة هذه الحالة الوخيمة. «الآية السادسة» تتحدّث عن أخطر فئة من الكفّار، وهم الّذين يعيشون حالة التكبر والعناد مضافاً إلى كفرهم، وفى آخر الآية تقرر السبب الّذى ساقهم إلى الشقاء الدائم، وهو الغفلة عن آيات اللّه وتقول: «سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِىَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ ا لْحَقّ وَإِنْ يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لَّايُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِنْ يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لَايَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْاْ سَبِيلَ ا لْغَىّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ» «۱». وقد وقعت هذه الجملة من الآية الكريمة «سَأَصْرِفُ عَن آيَاتِى» مورداً لبحث المفسّرين ومناقشاتهم، ولعلّه كان بسبب أنّ من المسلّم أنّ اللّه تعالى يهدى الناس إلى طريق الحقّ، وأساساً فإنّ جميع الأنبياء والأوصياء كانوا يهتمون بارشاد الناس وهدايتهم إلى اللّه تعالى، فكيف يجتمع هذا المعنى مع قوله تعالى «سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِىَ» وانه تعالى هو الّذى يحرم هؤلاء عن الهداية والتوفيق لرؤية هذه الآيات على نفسها، ولهذا نجد أنّ الكثير من المفسّرين قد تكلفوا تأويل هذه الآية بما لا يتناقض مع الاصول والمبادىء المسلمة. ويتضح الجواب عن هذا السؤال من خلال استعراض الآيات القرآنية الاخرى فى هذا الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۱۱ المجال، حيث تمثل بعض اعمال الإنسان وحالاته النفسية من قبيل التكبر والعناد أمام الحقّ والتعصب الشديد حجباً مظلمة على قلب الإنسان تمنعه من مشاهدة جمال الحقّ، وفى الواقع أنّ هذه الأعمال والصفات القبيحة هى الّتى تسبب حجبهم عن الحقّ وتمنعهم من رؤية آيات اللّه، وعندما تنسب الآية عملية الحجب هذه إلى اللّه تعالى فإنما ذلك بسبب أنّ اللّه تعالى قد جعل هذه النتيجة كعقوبة طبيعية واثر طبيعى مترتب على تلك الأعمال والصفات، أى أنّ الانصراف عن آيات اللّه هو نتيجة طبيعية مقررة فى قانون الخلقة لمن يمارس تلك الأعمال والصفات القبيحة. والجدير بالذكر أنّ الآية الشريفة تقرر فى ختامها وتؤكد على أنّ سبب انصرافهم عن آيات اللّه هو تكذيبهم وغفلتهم عن هذ الآيات. «الآية السابعة» تتحرك من خلال استعراض حالة العناد لدى الفراعنة فى مقابل الآيات الإلهية والبلايا المتنوعة الّتى أنزلها اللّه على هؤلاء القوم الفاسقين لينتهوا من غفلتهم ويؤوبوا إلى رشدهم ويتبعوا نبيّهم «موسى بن عمران» وتقول «فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِى ا لْيَمّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ» «۱». ومن

خلال السياق القرآنى فى هذه الآية نستوحى أنّ مصدر شقاء قوم فرعون وهلاكهم هو تكذيب الآيات الإلهية والغفلة عنها، ويمكن أن تكون «الغفلة» سبباً للتكذيب، فإنّ الجذر الأصلى لشقائهم هو «الغفلة» عن آيات اللّه، أو أنّهم قد تحركوا فى مقابل الدعوة السماوية من موقع التكذيب أحياناً والغفلة أحياناً اخرى، وبهذا يكون كلّ من التكذيب والغفلة سبباً مستقلًا للشقاء والهلاك. بعض المفسّرين يرى أنّ ضمير «عنها» يعود إلى النقمة الإلهية والعذاب الإلهى، ففى هذه الصورة يكون عنصر التكذيب بآيات اللّه هو الموجب لشقائهم، ولكن هذا الاحتمال ضعيف جداً لأن هذا الضمير ورد إلى جانب الآيات، وحسب الظاهر انه يعود عليها، وقد أورد بعض الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۱۲ المفسّرين سؤالًا هنا، ولعلّ هذا السؤال كان هو السبب فى احتمال عودة الضمير إلى النقمة والعذاب، وهو أنّ «الغفلة» حالة غير اختيارية ولذلك لا يمكن أن تستوجب عذاب اللّه للإنسان. ولكن الجواب عن هذا السؤال واضح، لأن «الغفلة» فى كثير من الموارد تكون اختيارية فى جذورها ومقدماتها، فعندما يتحرك الإنسان باتجاه آيات اللّه ولا يتدبر فيها ولا يصغى لكلمات الأنبياء، فمن الطبيعى أن تستولى عليه حالة الغفلة، ومن هذا المنطلق نجد الناس كثيراً ما يذمون المجرمين والمنحرفين بسبب غفلتهم. «الآية الثامنة» وبالرغم من انها لم تذكر كلمة «الغفلة» فى سياقها، إلّاأنّ محتواها العام يتضمّن مفهوم الغفلة، فهذه الآية تتحدّث عن المشركين فى عصر النزول الّذين كانوا يتحركون من موقع الغفلة الشديدة وأحياناً ينتبهون من غفلتهم ويتجهون نحو التوحيد فى حالات خاصّة، وأحياناً اخرى يغرقون فى مستنقع الشرك والضلالة تماماً، فتقول الآية «فَإِذَا رَكِبُواْ فِى الْفُلْكِ دَعَوُاْ اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ» «۱». أجل، فإنّ اعصار الحوادث والأخبار من شأنه أن يزيح حُجب «الغفلة» عن أبصار هؤلاء ويتجلّى لهم حقيقة الأمر وواقع الحياة الدنيا، فطائفة منهم تستثمر هذا التنبيه وهذه اليقظة فى حركتها التكاملية والمعنوية ويتحركون لاصلاح أخطائهم وجبران ما فاتهم من العمر، ولكن هناك طائفة اخرى وهم الأكثرية يتنبهون فى هذه اللحظات فحسب وبعد انتهاء الحادثة يعودون ادارجهم نحو ما كانوا يعيشونه من الغفلة واتباع الهوى فى خط الباطل والإنحراف. بعض المفسّرين يذكر فى ذيل هذه الآية أنّ المشركين كانوا يصطحبون معهم أصنامهم فى أسفارهم البحرية ليحفظونهم من الغرق ولكنهم عندما يواجهون الخطر ويرون أمواج البحر الرهيبة الّتى تتقاذفهم من كلّ جانب كالريشة فى مهب الريح فإنّهم يلقون بأصنامهم الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۱۳ فى البحر ويتجهون نحو اللّه بكلّ اخلاص ويتعالى صراخهم «يااللّه يا اللّه» «۱». «الآية التاسعة» تقرر حكماً عاماً وكلياً بالنسبة إلى جميع أفراد البشر وتقول «وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمنِ نُقَيّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ» «۲». أجل، فإنّ التوجه إلى اللّه تعالى يتسبب أن يكون الذاكر جليس الملائكة بمقتضى قوله تعالى «انّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنا اللَّهُ ثُمَّ استَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الملائِكة ...». والحال أنّ التغافل عن ذكر اللّه يفضى بالإنسان أن يكون قرين الشياطين الّذين يسوقونه إلى حيث يريدون كما تقول الآية الشريفة «نُقَيّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ» وفى الواقع أنّ عمله هذا أى «الغفلة» عن آيات اللّه يورثه البعد عن رحمة اللّه وبالتالى يكون قرين الشياطين البعيدة عن رحمة اللّه، وبعبارة اخرى: أنّ هذه الحالة هى جزاءه الدنيوى على حالة الغفلة هذه. وبالنظر إلى أنّ كلمة «يعش» من مادّة «عشو» على وزن «نَشَر»، بمعنى ضعيف النور فى بصره فلا يرى شيئاً بوضوح وكأنما يغطى عينه حجاب فلا يرى الحقيقة بوضوح، ومفهومها ليس هو سوى الغفلة والاعراض عن اللّه تعالى، ويقول رسول اللّه صلى الله عليه و آله «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدٍ شَرّاً قَيّضَ لَهُ شَيطاناً قَبلَ مَوتِهِ بِسَنَةٍ، فَلا يرى حَسَناً الّا قَبّحَهُ عِنْدَهُ حَتّى لا يَعْمَلُ بِهِ، وَلا يَرى قَبِيحاً الّا حَسَّنَهُ حَتّى يَعْمَلُ بِهِ» «۳». وفى «الآية العاشرة» يتحدّث القرآن الكريم عن المتقين والّذين يقابلون امواج الوساوس الشيطانية ويعالجون حالات الغفلة مهما كانت قليلة بذكر اللّه تعالى، فتكون النتيجة أنّ حجب الغفلة وتراكمات الوساوس تنقشع عن القلب وتنفتح البصيرة فتقول الآية الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۱۴ «إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ» «۱». هذا التعبير فى الآية الكريمة يشير إلى أن ذكر اللّه تعالى يورث الإنسان بصيرةً فى قلبه فى حين أنّ الغفلة عن ذكر اللّه تمهد الطريق لنفوذ الشياطين إلى قلبه. «طائف» يعنى من يطوف حول شىء معين، والمراد به كما ذكره جمعٌ من المفسّرين الكبار هو الوساوس الشيطانية الّتى تطوف حول قلب الإنسان لتتمكن من العثور على منفذ لها فى كعبة القلب وتحول هذا القلب إلى معبد للأوثان، وعملية النفوذ هذه لا تتسنى لهؤلاء الشياطين إلّافى حالة «الغفلة» عن

ذكر اللَّه، لأن الإنسان بمجرد أن يـذكر اللَّه تعالى فإنّ الوساوس والخطرات الشـيطانية سوف تبتعـد وتتلاشـى ويتجلّى حينئـذٍ نور الحقّ أمام بصيرة الإنسان فى حركته المنفتحة على اللَّه والحقّ. «الآية الحادية عشـر» تتحدّث عن الغافلين الّذين يعيشون حالة الغفلة والجهل المطلق إلى آخر عمرهم، ولكن عندما يحين أجلهم ويقعون فى سكرات الموت ويرون بامّ أعينهم آثار أعمالهم السيئة فحينئذٍ يعيشون الرعب والقلق الشديـد، فيقال لهم حينئـذٍ «لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ا لْيَوْمَ حَدِيدٌ» «۲». إن الآيات القرآنية هذه توحى بوجود ملكين يصـطحبون الإنسان فى عرصات المحشـر، أحدهما يسوقه إلى محكمة العدل الإلهى، والآخر يحضر بعنوان الشاهـد على أعمـاله، ويحتمـل أن يكون هـذان الملكـان همـا الّـذين كانا يصـطحبان الإنسان فى الحياة الـدنيا ويكتبون أعماله الصغيرة والكبيرة، ففى القيامة يأخذان بيد المجرمين ومعهما كتابهما هذا إلى حيث المحكمة الإلهية الكبرى ولكنَّ هؤلاء المجرمين لم يكونوا يحسون بوجود هـذين الملكين فى الحيـاة الـدنيا بـل لم يكونوا يؤمنون بوجودهمـا بـالرغم انهما يصـحبون كلّ إنسان فى هـذه الحيـاة، ويـوم القيامـة حيث تزاح الحجب وتزال الاسـتار وتنفتـح عين البصـيرة يرى الاخلاـق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۱۵ الإنسان هذه الحقيقة الناصـعة. «الآية الثانية عشـر» والأخيرة من هذه الآيات محل البحث تتحدّث عن يوم القيامة وتبين حالات الغافلين فى هذا اليوم الملىء بالحسـرات واشـكال الحزن وتقول «وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ا لْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ا لْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَايُؤْمِنُونَ» «۱». وأحد أسماء يوم القيامـة هو يوم الحسـرة، لأن الغافلين الّـذين كانوا يعيشون فى هـذه الـدنيا بعيداً عن الحقّ سوف ينتبهون من نومتهم هذه ويرون جميع أعمـالهم، فهناك سـيجدون أمامهم كتاب يقرر ما ارتكبوه من أعمال، فهناك من جهـة اخرى الملائكـة الّـذين يشـهدون عليهم، ومن جهة ثالثة والأشد من ذلك هو شهادة أعضاء الإنسان حتّى الجلد على ما ارتكبته فى الحياة من أعمال وسلوكيات شائنة، وهناك ترتفع نار النـدم والحسـرة وتسـتولى على وجود الإنسان ولكنهم لا يجدون طريقاً سوى مزيد التحسـر على ما فاتهم من فرص ثمينة فى الحياة الـدنيا، فليس لهم الرجوع للعودة لجبران ما فات لأن الطريق موصـد من خلفهم والكتب قـد اغلقت، فلا مجال للتوبـة والانابـة، ولذلك سيملأ الحزن وجودهم وخاصّـةً عندما يسـمعون نداء الملائكة الموبخ لهم حيث يقولون «لقد كنت فى غفلةٍ من هذا». وبديهى أنّ هذه الغفلـة لاـ تتعلق بحالاـت يوم القيامـة ولاـ عالم البرزخ، لأن الإنسان وبمجرد أن ينتقل من هـذه الـدنيا ويعانق الموت فإنّ سـحب الغفلة ستزول أمـام عينه ويرى حقـائق العالم كما هى، وحينئـذٍ لا يبقى معنى لمفهوم «الغفلـة» كما تقول الآيـة ۹۹ و ۱۰۰ من سورة المؤمنون «حَتَّى إذا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُون* لَعَلِّى أَعْمَلُ صَالِحاً فِيما تَرَكْتُ كَلَّا انَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِم بَرْزَخٌ الَى يَومِ يُبْعَثُونَ».

النتيجة:

وممّا نسـتوحيه من الآيات المذكورة آنفاً أنّ الخطر الّذى يعيشه الإنسان بسبب الغفلة الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۱۶ عن ذكر اللَّه وتجاهل الحقائق الّتى تسـتبطن عالم الوجود أكثر ممّا يتصور عادةً حيث بإمكان «الغفلـة» أن تدمر جميع اركان سـعادة الإنسان وتحرق فى أجوائهـا جميع الآمـال الإيجابيـة فى حيـاة كريمـة وتهـدر جميع طاقـاته وقابليـاته الّتى يمكنه التوصـل بهـا إلى أعلى مراتب الكمال المعنوى والإنسانى وتحولها إلى رماد وهباء منثور.

الغفلة فى الروايات الإسلامية:

وقد ورد فى النصوص الروائية أحاديث مثيرة حول عواقب الغفلة وآثارها السيئة والمدمرة فى حياة الإنسان، وبسبب كثرة هذه الروايات فسوف نختـار منها ما يلى: ۱- عنـدما توجه النبى صـلى الله عليه و آله فى معراجه إلى السـماء سـمع الخطاب الإلهى له يقول «يَا احْمَدَ انْتَ لا تَغْفَلْ ابَداً مَنْ غَفَلَ عَنِّى لا ابَالِى بِاىِّ وَادٍ هَلَكَ» «۱» . وهذا الحديث يبين بوضوح أنّ عاقبة الغفلة هى الهلاك والدمار والمحقّ. ۲- ما ورد عن الإمام أميرالمؤمنين عليه السـلام فى عبارة مختصـرة ومليئـة بالمعنى «الْغَفْلَةُ اضَرُّ الاعْدَاء» «۲» لأن الغفلة هى السبب فى

الکثیر من الذنوب والآثام فی واقع الإنسان وسلوکه. ۳- ویقول أمیرالمؤمنین علیه السلام أیضاً فی حدیث آخر «الْغَفْلَةُ تَکْسِبُ الإغْتِرارَ وَتُـدْنِی مِنَ البَوَارِ» «۳». ۴- وأیضاً ورد عن هـذا الإمام علیه السـلام أنّه قال: «الْغَفْلَـةُ ضَـلالُ النُّفُوسِ وَ عُنْوَانُ النُّحُوسِ» «۴». لأن الطریق الوحیـد للنجاة من الضـلال هو التفکر والتدبر ولکن الغفلة هی الّتی تصد الإنسان عن هذا الطریق المنفتح علی اللّه والحقّ. الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۳۱۷ ۵- وفی حـدیث آخر عن هـذا الإمام علیه السـلام أیضاً أنّه قال: «وَیلٌ لِمَنْ غَلَبَتْ عَلَیْهِ الْغَفْلَةُ فَنَسِیَ الرَّحْلَةَ وَلَمْ یَسْتَعِدْ» «۱». ۶- وعن الإمـام الصادق علیه السـلام أنّه قال: «إنْ کَانَ الشَّیطانُ عَدُوّاً فَالْغَفْلَـةُ لِمَاذَا» «۲». وتقـدّم فی الأحادیث السابقة أنّ الغفلـة تارةً تکون عن اللّه، واخری عن یوم القیامـة، وثالثة عن وساوس الشـیاطین وهکذا. ۷- ویقول أمیرالمؤمنین علیه السـلام: «فَیَا لَهَا حَسْرَةً عَلَی کُلِّ ذِی غَفْلَـةٍ انْ یَکُونَ عُمُرُهُ عَلَیْهِ حُجَّةً وَانْ تُؤَدِّیَهُ ایَّامُهُ الَی الشَّقْوَةِ» «۳». والمقصود من الغفلـة فی هذا الحدیث هو الغفله عن أداء الوظـائف والواجبات الدینیـة طیلـة العمر. ۸- وقـد ورد فی بعض الروایـات أنّ هـذه المسألـة إلی درجـة من الأهمیـة حتّی انها اعتبرت هی الهدف لبعثة الأنبیاء، أی لعلاج مرض «الغفلة» بین الناس، کما نقرأ فی الخطبة ۱۰۸ من خطب نهج البلاغة فی بیان صفات النبی الأکرم صـلی الله علیه و آله «مُتَتَبِّعٌ بِدَوَائِهِ مَوَاضِعَ الْغَفْلَةِ وَمَوَاطِنَ الْحَیْرَةِ» «۴». ۹- وفی حدیثٍ آخر عن هذا الإمام العظیم یتحدّث فیه عن آثار الغفلـة المخربـة ونتائجها المـدمرة فی حیاة الإنسان ویقول: «بَیْنَکُمْ وَبَیْنَ الْمَوْعِظَـةِ حِجَابٌ مِنَ الْغَفْلَةِ وَالغِرَّةِ» «۵». ۱۰- وقد ورد فی الروایـات الإسـلامیة عن حالات عیسـی ابن مریم أنه مرّ علی قریـة مات أهلها بسـخط اللّه، فأحیا عیسـی بن مریم واحـداً منهم وسـأله عن أعمـالهم. قال: عبادة الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۳۱۸ الطاغوت وحبّ الـدنیا مع خوف قلیل وأمل بعیـد وغفلـة فی لهو ولعب» «۱». ۱۱- ویقول أمیرالمؤمنین علیه السـلام بالنسـبة للآثار الاجتماعیـة لحالـة الغفلـة «مِنْ دَلائِلِ الدَولَةِ قِلَّةُ الْغَفْلَةِ» «۲». أجل فإنّ الغفلة وتجاهل الامور الاجتماعیة ستفضی إلی ضیاع الدولة. ۱۲- ونختم هذا البحث بحدیثٍ عن أمیرالمؤمنین حیث یبین للناس مخاطر الغفلـة ویحـذرهم من سوء عاقبتهـا ویقول «اتَّقِ ایُّهَا السَّامِعُ مِنْ سَـکْرَتِکَ وَاسْتَیْقِظْ مِنْ غَفْلَتِکَ، وَاخْتَصِرْ مِنْ عَجَلَتِکَ» «۳». وطبقاً لهذا البیان الشامخ فإنّ السبب الأساس لشقاء الإنسان یکمن فی ثلاث أشیاء: سکر الشهوة، الغفلة عن حقائق العالم، العجلة فی الامور، حیث نجد أنّ الإمام أمیرالمؤمنین یحذر فی هذا الکلام المختصر أفراد الإنسان من کلّ طائفة وقوم من هذه العناصر الثلاثة لیکونوا من أهل النجاة والسعادة فی الدنیا والآخرة.

النتیجة:

وبـالرغم من أنّ أکثر النـاس یعیشون الغفلـة عن نتائـج حالـة الغفلـة، ولکن أئمّـة الـدین کانوا یرون الفاجعـة المترتبـة علی هـذه الحالة المأساویـة، وبیّنوا للنـاس بعبـارات مختلفـة وخامـة هـذا المرض العضال کما تقـدّم آنفاً فی الأحادیث الشـریفة ودعو الناس إلی التـدبر والتفکر. والجـدیر بالـذکر أنّ «الغفلـة» لها مفهوم واسع وشامل، أی أنّ هـذه المفردة وهـذا المفهوم یشـمل موارد کثیرة منها الغفلة عن اللّه، والغفلـة عن یوم القیامـة، والغفلـة عن کون الحیـاة الـدنیا الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۳۱۹ مهزوزة وغیر مستقرة، والغفلـة عن الشیطان ووساوسه، وبشکل عام فإنّ الغفلة تستوعب جمیع الامور الّتی تتعلق بشکل أو بآخر بسعادة الإنسان فی حرکة الحیاة.

ملاحظات مهمة حول الغفلة:

اشارة

بالرغم من أنّ هـذه الصـفة لها تأثیر کبیر فی حیاة الإنسان ومصیره وتعد من الصـفات الرذیلة، ولکن قد یثار هذا السؤال، وهو انه لماذا لم یتعرض علمـاء الأخلاق لهـذه الرذیلـة فی کتابـاتهم وکلمـاتهم، وحتّی لو تعرضوا لها بالکلام فلا یکون کلاماً وافیاً لهـذا الموضوع المهم، وعلی أی حال فهناک عدّة مباحث فی هذا الموضوع تستحق الدراسة والبحث کلًا علی انفراد وهی:

۱- عوامل الغفلة

ألف) الجهل «الغفلة» لها مصادر وأسباب كثيرة، من أهمها الجهل وعدم الاطلاع على حقيقة الحال، وكذلك عدم معرفة اللّه فى مقام الربوبية وعدم الاهتمام بمسألة المعاد وكذلك عدم معرفة وهمية الثروة والمناصب الدنيوية والجهل بوساوس الشيطان وأمثال ذلك. ويقول الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام فى هذا المجال «انَّ مَنْ عَرَفَ الايَّامَ لَمْ يَغْفَل عَنَ الاسْتِعْدَادِ» «۱». ب) الغرور والانانية يعتبر الغرور أحد عوامل الغفلة وأحياناً يكون الغرور نتيجة للغفلة أيضاً، لأن الإنسان المغرور لا يرى إلّانقاطه الإيجابية ولا يفكر إلّابميزاته الذاتية، وقد يتصور أحياناً انها باقية له مدى الحياة، وهذا الأمر يسبب له الغفلة عن الحقائق فى عالم الوجود والّتى يكون لها دور هام فى أن يتعرض هذا الإنسان للهزيمة والاندحار. الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۲۰ وقد شوهد فى التاريخ البشرى شخصيات كثيرة قد وقعت فى أسر «الغفلة» بسبب الغرور والعجب وتعظيم الذات حيث سلبتهم هذه الحالة القدرة على رؤية الواقع كما هو فتعرضوا للهزيمة أمام الأعداء ولم يتمكنوا من الصمود لأنهم لم يكونوا يروا نقاط ضعفهم. ج) سكر النعمة سكر النعمة (والّذى يشبه الغرور إلى درجة كبيرة ولكنه يختلف عنه فى الواقع) قد يوقع الإنسان فى مستنقع الغفلة أيضاً، فعندما تنفتح الدنيا على بعض الأشخاص فسوف يصابون بسكر النعمة، وسكر النعمة هذا يوقعهم فى مهاوى الغفلة عن الواقع المحيط بهم وتستمر هذه الغفلة حتّى يحين أجلهم ويستيقظون من نومتهم وسكرهم كما ورد عن أميرالمؤمنين عليه السلام قوله «مَنْ غَفَلَ عَنْ حَوَادِثِ الايَّامِ ايْقَضَهُ الْحِمَامُ» «۱». ويقول الإمام زين العابدين عليه السلام أيضاً «انَّ قَسْوَةَ الْبَطْنَةِ وَفَتْرَ الْمَيْلَةِ وَسَكْرَ الشَّبَعِ، وَعِزَّةَ الْمُلْكِ مِمَّا يُتَبِّطُ وَيُبْطِى عَنِ الْعَمَلِ وَيَنْسِى الذِّكْرَ وَيُلْهِى عَنِ اقْتِرَابِ الاجَلِ حَتّى كَانَّ الْمُبْتَلى بِحُبِّ الدُّنيَا بِهِ خَبْلٌ مِن سُكْرِ الشَّرَابِ» «۲». د) العافية والسلامة البدنية بالرغم من أنّ السلامة البدنية والعافية الجسمانية تعد من النعم الإلهية الكبرى على الإنسان، ولكنها من جهة اخرى تعد من عوامل الغفلة أيضاً، وهذا فإنّ من الالطاف الإلهية الخفية أن تؤخذ هذه السلامة البدنية من الإنسان ويبتلى بألوان المحنة والمرض لكى تزول عن بصيرته سُحب الغفلة، فيرى بعين القلب حقائق العالم، ويتحرك حينئذٍ فى سلوكياته وأفكاره بالاتجاه المناسب والطريق الصحيح. ولهذا أيضاً نجد أنّ الحديث الشريف الوارد عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله يذكر فيه منافع وبركات المرض ويقول مخاطباً سلمان الفارسى حينما عاده فى مرضه «انتَ مِنَ اللَّهِ بِذِكْرٍ وَدُعَاؤُكَ الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۲۱ فِيهِ مُسْتَجَابٌ» «۱» . أى أنك الآن تعيش حالة التذكر والتنبه وقد زالت منك حجب الغفلة ولهذا فإنّ دعائك مستجاب. ه) طول الأمل وأحد العوامل الاخرى للغفلة هو طول الأمل والتمنيات الدنيوية الموهومة، حيث تستولى على قلب الإنسان وفكره وتجعله غافلًا عمّا يراد به، ويقول أميرالمؤمنين عليه السلام فى الخطبة المعروفة بالديباج «وَاعْلَمُوا عِبَادَ اللَّهِ انَّ الامَلَ يَذْهَبُ الْعَقْلَ وَيُكَذِّبُ الْوَعْدَ وَيَحِثُّ عَلَى الْغَفْلَةِ وَيُورِثُ الْحَسْرَةَ» «۲».

۲- العواقب المشؤومة للغفلة

إن الغفلة عن ذكر اللّه والمعاد وما يتعرض له الإنسان فى هذه الحياة من محن وابتلاءات بسبب الذنوب والآثام كلّ هذه الامور تؤدى بالإنسان إلى الوقوع فى منزلقات الخسران والفناء وتسبب له اضراراً غير قابلة للجبران والتدارك، كما ورد هذا المعنى فى كلمات المعصومين وأئمّة الدين عليهم السلام ومن ذلك: ألف) الغفلة تورث قساوة القلب إن قساوة القلب ليست سوى نتيجة للغفلة والابتعاد عن المعارف الإلهية، لأن العامل المهم فى لطافة الروح وانعطاف القلب أمام الحقّ هو ذكر اللّه تعالى، فعندما ينقطع مطر الرحمة الإلهية عن أرض القلب بانقطاع الذكر فسيتحول القلب إلى صحراء قاحلة مليئة بالاشواك والحجارة كما ورد عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «ايَّاكَ وَالْغَفْلَةَ فَفِيهَا تَكُونُ قَسَاوَةُ الْقَلْبِ» «۳». ب) الغفلة وموت القلب الغفلة تفضى فى النهاية إلى موت القلب أيضاً، أى أنّ الإنسان بعد أن يعيش حالة الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۲۲ القساوة وعدم الانعطاف فى قلبه وروحه فسوف يقترب من موته المعنوى بحيث لا تعد المواعظ والنصائح تأثر فى مثل هذا الإنسان، وفى هذه الصورة سوف يوصد باب العودة والانابة إلى اللّه أمامه

ولا يبقى هناك أمل فى نجاته، يقول أميرالمؤمنين عليه السلام «مَنْ غَلَبَتْ عَلَيْهِ الْغَفْلَةُ مَاتَ قَلْبُهُ» «۱». وفى حديث آخر عن هذا الإمام عليه السلام أنّه قال: «بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الْمَوْعِظَةِ حِجَابٌ مِنَ الْغَفْلَةِ وَالْغِرَّةِ» «۲». ج) الغفلة وفساد الأعمال كما وأنّ «الغفلة» تسبب فى بطلان أعمال الإنسان وفسادها، ولهذا نجد أنّ الأشخاص الّذين يعيشون الغفلة عن اللّه والآخرة قلما يتحركون فى سلوكياتهم فى دائرة الخيرات والمبرات، ولو أنّهم تحركوا فى هذا السبيل فإنّ الغفلة لا تسوغ لهم أن يتمتعوا بحالة الأخلاص فى طريق الانفتاح على اللّه، فلا يصدر منهم ذلك العمل بنية خالصة. ومن ذلك يقول أميرالمؤمنين عليه السلام «ايَّاكَ وَالْغَفْلَةَ وَالِاغْتِرَارَ بِالْمُهْلَةِ فَانَّ الْغَفْلَةَ تُفْسِدُ الاعْمَالَ» «۳». ويحتمل فى تفسير هذا الحديث أنّ المراد منه فساد الأعمال السالفة للإنسان بسبب الغفلة اللاحقة، لأنّ الغفلة تتسبب فى ارتكاب الذنب والوقوع فى وادى الخطيئة، والخطيئة بدورها تستوجب حبط الأعمال وافسادها. د) الغفلة والقرب الإلهى مضافاً إلى ذلك فإنّ الغفلة تستوجب سلب الإنسان اللياقة لنيل مرتبة القرب من اللّه تعالى ولقائه، لأن الوصول إلى هذه المرتبة ونيل هذا المقام السامى لا يتسنّى للإنسان إلّافى ظلّ المعرفة والتذكر والتفكر وأن يعيش الإنسان حالة الوعى والاتصال مع المبدأ. الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۲۳ وقد ورد فى بحار الأنوار للعلّامة المجلسى إشارة إلى هذا الموضوع فى مناجات أميرالمؤمنين عليه السلام حيث يقول: «الهِى انْ أَنامَتْنِى الْغَفْلَةُ عَنِ الاسْتِعْدَادِ لِلِقَائِكَ فَقَدْ نَبَّهْتَنِى الْمَعْرَفَةُ بِكَرمِ آلائِكَ» «۱». «مَنْ طَالَتْ غَفْلَتُهُ تَعَجَّلَتْ هَلَكَتُهُ» «۲». هذه العبارة هى مقطع للمناجات المعروفة بالمناجات الشعبانية حيث يقول العلّامة المجلسى عنها انها المناجات الّتى كان أميرالمؤمنين والأئمّة المعصومين عليهم السلام يدعون اللّه بها فى شهر شعبان. ه) الغفلة سبب الوقوع فى الهلكة «الغفلة» كذلك تسبب للإنسان الهلاك فى الدنيا والآخرة، لأن الإنسان الغافل سوف لا يدرك جيداً منافعه «سواء المادية أو المعنوية» وبالتالى فسوف يضيع الفرص الثمينة الّتى تتعرض له، وسوف يؤدى به هذا الحال إلى اتلاف طاقاته وقابلياته الحيوية، ومن هذا المنطلق نقرأ فى الحديث الشريف الوارد عن الإمام على عليه السلام «مَنْ طَالَتْ غَفْلَتُهُ تَعَجَّلَتْ هَلَكَتهُ» «۳».

۳- علائم الغفلة

الكثير من الناس يمكن أن يترددون فى كونهم من الغافلين ولا يعلمون بهذه الحقيقه وهى هل أنّهم يتسمون بسمة الغفلة أم لا؟ إذاً فمن الضرورى أن يفحص السالك إلى اللّه ويتدبر حالته فى كلّ مرحلة من حياته لئلّا يقع فى زمرة الغافلين، ولذلك لابدّ من الالتفات والانتباه إلى علائم «الغفلة» حتّى لا يتورط فى الوقوع فى مخالبها وأسرها. ولحسن الحظ فإنّ النصوص الشريفة والأحاديث الإسلامية قد أوردت علائم كثيرة الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۲۴ للغافلين نكتفى بالإشارة إلى بعضها: ۱- ورد فى الحديث الشريف والمفصل عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله فى جوابه لشمعون بن لاوى أحد أقطاب النصارى فى ذلك الزمان عندما سأل شمعون النبى الأكرم عن علائم الغافلين فقال: «امَّا عَلَامَةُ الغَافِلِ فَارْبَعَةٌ الْعَمى وَالسَّهْو وَاللَّهْو وَالنِّسْيَانْ» «۱». ونفس هذا المضمون نجد فى حكم ونصائح لقمان الحكيم لولده حيث يقول: يا بنى لكلّ شىء علامة يعرف بها ويشهد عليها ... وللغافل ثلاث علامات: السهو واللهو والنسيان «۲». والفرق بين السهو والنسيان هو أنّ النسيان بمعنى عدم تذكر الحوادث والامور السابقة، ولكن السهو يعنى عدم التوجه والانتباه للُامور الّتى ينبغى التوجه والانتباه لها. ۲- وإحدى علائم الغفلة هى أنّ الإنسان يتحرك فى معاشرته ومجالسته مع الفاسدين والمفسدين ويبتعد عن مجالس العبادة، وفى ذلك يقول الإمام الحسن عليه السلام «الْغَفْلَةُ تَرَكُكَ الْمَسْجَد وَطَاعَتُكَ الْمُفْسِدَ» «۳». ۳- ومن العلامات المهمة الاخرى للغفلة هى عدم الاكتراث بالنذر، مثلًا عندما يمر الشخص على مقبرة فإنه لا يخطر فى ذهنه انه سوف يكون من أهالى هذه المقبرة غداً، أو عندما يشترك فى تشييع جنازة أحد أقربائه أو أصدقائه فإنه لا يفكر فى أنّه سوف يتعرض يوماً لمثل هذا الموقف ويكون هو المشيع ويسير الآخرون وراء جنازته. وقد ورد فى نهج البلاغة أنّ الإمام على عليه السلام كان يسير خلف جنازة لأحد المؤمنين فسمع أحدهم يضحك بصوت عال فتألم الإمام من ذلك وقال: «كَأَنَّ المَوْتَ فيهَا عَلَى غَيرِنَا كُتِبَ وَكَأَنَّ الْحَقَّ فيهَا عَلَى غَيرِنَا وَجَبَ وَكَأَنَّ الّذى نَرَى مِنَ الْاموَاتِ سَفْرٌ عَمَّا قَلِيلٍ الَيْنَا رَاجِعُونَ». الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۲۵ ثمّ أضاف:

«نُبَوِّئُهُمْ احْدَاثَهُمْ وَنَأْكُلُ تُرَاثَهُمْ كَأَنَّا مُخَلَّدُونَ بَعْدَهُم» «۱». ۴- ومن العلامات الاخرى للغفلة أنّ الإنسان ينفق وقته وعمره الثمين فى امور موهومة لا تنفعه لحياته الاخروية، أو يتلف السنوات المديدة من عمره وشبابه فى مواقف وأعمال لا تعود عليه بالنفع الدنيوى ولا الاخروى، يقول أميرالمؤمنين عليه السلام: «كَفى بِالْرَّجُلِ غَفْلَةً انْ يُضِيعَ عُمْرَهُ فِى مَا لا يُنْجيهِ» «۲». وفى رواية اخرى عنه أنّه قال: «كَفى بِالْمَرْءِ غَفْلَةً أَن يَصْرِفَ هِمَّتَهُ فِى مَا لا يَعْنِيهِ» «۳»

۴- الطرق الكفيلة بمكافحة الغفلة

تعتبر «الغفلة» من الأمراض الأخلاقية الخطرة، ولابدّ فى علاجها من استخدام الأصول الكلية والمبادئ العامّة المستخدمة فى هذه المباحث الأخلاقية. ففى المرحلة الاولى علينا التفكر فى عواقب ونتائج الغفلة وخاصّة ما تقدّم ذكره من الروايات الشريفة والمباحث الأخلاقية السابقة فى هذا الموضوع، فإنّ التدبر فى العواقب الوخيمة هذه له أثرٌ كبير فى التنبه فى أن يعيش الإنسان حالة التنبه والوعى ويعود إلى سلوك طريق المعرفة واليقظة، مثلًا عندما يريد التخلص من الأدمان على المواد المخدرة أو يريد الوقاية من الوقوع فى أسرها، فعليه أن يتفكر فى الأشخاص الّذين ابتلوا بهذه البلية السوداء، وما كانت نتيجة حالهم وعاقبة أمرهم، وما حلَّ بهم وبأسرهم وابنائهم من الدمار والارباك والاهتزاز فى العلاقة العائلية، وحينئذٍ سوف يتسنّى له التوقف والانتباه وسلوك طريق العودة بل وتقديم النصح للآخرين وتحذيرهم من الوقوع فى هذا الوادى المهلك، وكذلك لابدّ من الرجوع إلى جذور هذه الحالة والعمل على علاجها وقطع جذورها و ... فما دامت أسباب المرض باقية فى روح الإنسان فإنّ العلاج سوف يكون ابتراً. الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۲۶ وقد تقدّم فى المباحث السابقة تفصيل الكلام عن جذور الغفلة وأسبابها، فلا حاجة إلى التكرار، ولكن نواصل إلى المطالب السابقة نذكر فيما يلى بعض النقاط النافعة لإزالة الآثار السيئة للغفلة فى واقع الإنسان. ۱- كسب العبرة من التاريخ يجب دراسة التاريخ بدقة وتأمل وكسب العبرة من حوادثه ومجرياته، فأيوان كسرى فى المدائن واطلال قصور الملوك واهرام مصر تحدثنا بلسانها غير الناطق وتخبرنا عمّا جرى على الأقوام السالفة لنأخذ العبرة منهم، والخلاصة لابدّ من استطلاع تاريخ البشرية ومشاهدة آثارهم الباقية واستيحاء العبرة من كلّ ذلك. القبور المندثرة للابطال وقادة الحروب بالأمس ترزح أبدانهم المترفة أسيرة التراب، رؤية المسنين والعجائز الّذين كانوا بالأمس القريب شباباً ممتلئين حيوية ونظارة وهم الآن يعيشون العجز وعدم القدرة على ممارسة نشاطاتهم اليومية، كلّ هؤلاء كانوا بالأمس القريب أشخاصاً أقوياء وممتلئين بالفتوة والحيوية، ولكن حوادث الأيّام والسنين قد أخذت منهم مآخذها وأكلت منهم قوتهم وسلبتهم نشاطهم، ونحن الآن على آثارهم وسوف نبتلى بحالتهم. ومن الواضح إننا كلّما تفكرنا فى هذا المواضع أكثر وتأملنا فى تحول الأيّام وتبدل الحكومات وانتقال الثروات وتبدلّ المناصب الدنيوية فإننا سوف لا نعيش حالة الغفلة. الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام يقول: «انَّ مَنْ عَرَفَ الْاَيَّامَ لَمْ يَغْفَل عَنْ الاسْتِعْدادِ» «۱». وفى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام قال «اغْفَلَ النَّاسِ مَنْ لَمْ يَتَّعِظ بِتَغَيُّرِ الدُّنْيا مِنْ حَالٍ إلَى حالٍ» «۲». ۲- استمرار ودوام الذكر والعامل المؤثر الآخر لطرد آثار الغفلة هو استمرار ودوام الذكر، لأن ذكر اللَّه تعالى يحيى الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۲۷ القلب ويجلى الروح ويفتح نور البصيرة حيث يرى الإنسان حقائق عالم الوجود ويرى الحقّ حقّاً والباطل باطلًا، وحينئذٍ يتمكن من تشخيص الصديق والعدو لسعادته وكماله المعنوى فى حركة الحياة. ولذلك قال أميرالمؤمنين عليه السلام «بِمَدَوامِ ذِكْرِ اللَّهِ تَنْجابُ الْغَفْلَةُ» «۱». ۳- الصلاة مع حضور القلب إن أداء الصلاة فى الوقت المقرر مع حضور القلب والتوجه إلى مضامينها السامية ومفاهيمها العالية والتعامل مع اللَّه تعالى فى الصلاة من موقع الفقر والمناجاة كلّ ذلك من شأنه أن يطهر القلب من أدران «الغفلة» ويجلى مرآة الروح الإنسانية فى حركة الانفتاح على اللَّه والكمالات الإلهية. إن طبيعة الحياة الدنيوية موجبة للغفلة عادةً، ولذلك قد ينشغل الإنسان أحياناً إلى درجة انه ينسى ويغفل عن كلّ شىء حتّى عن نفسه، والصلاة تعتبر فرصة مناسبة جداً للعودة إلى الذات والتدبر فى واقع النفس وكيفية انقاذها من مخالب «الغفلة»، ولذلك يقول الإمام الباقر عليه السلام: «ايُّمَا مُؤْمِنٍ حَافَظَ عَلَى الصَّلَواتِ الْمَفْرُوضَةِ فَصَلّاهَا لِوَقْتِهَا فَلَيْسَ هَذَا مِنَ الْغَافِلِين» «۲». ۴- التفكر والتدبر الطريق

الآخر للوقایة من الغفلة وعلاجها هو التفکر والتدبر فی الامور، فکلّما تحرک الإنسان فی أعماله وأفعاله من موقع التدبر فی نتائجها الإیجابیة والسلبیة وتفکر فیما یترتب علیها من نتائج معنویة فی دائرة النفس والروح فإنّ ذلک من شأنه أن یبعد أمواج «الغفلة» الظلمانیة عن الإنسان. وقد ورد هذا المعنی فی الحدیث الشریف فی خطابه لأبی ذرّ قال «یَا أَبَاذَر! هَمٌّ بِالْحَسَنَةِ الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۳۲۸ وَانْ لَمْ تَعْمَلْهَا لِکَی لا تُکْتَبَ مِنَ الْغَافِلِینَ» «۱». التفکیر بالموت ونهایة الحیاة من جملة الأفکار الّتی تورث الإنسان الیقظة وتبعده عن الغفلة وخاصّةً عندما یمر الشخص علی مقبرة من المقابر ویتصور انه فی الغد القریب سیکون أحد سکنة هذه المقبرة وینقطع عن الحیاة الدنیا، فهذا التفکیر من شأنه أن یزیل استار الغفلة الّتی تتراکم علی القلب بسبب الأهواء والشهوات والنوازع الدنیویة الاخری. وفی ذلک یقول أمیرالمؤمنین علیه السلام فی أحد وصایاه لابنه الإمام الحسین علیه السلام «ای بُنَیَّ الْفِکْرَةُ تُورِثُ نُوراً وَالْغَفْلَةُ ظُلْمَةً» «۲». ۵- تغیر المحیط إن الکثیر من الاجواء الاجتماعیة والطبیعیة تورث الإنسان الغفلة وخاصةً الاشتراک فی مجالس الغافلین والبطالین، وجلسات اللهو واللعب، والسکن فی القصور الفخمة والمزخرفة وأمثال ذلک، فکلها تقود الإنسان باتجاه الغفلة عن حقائق الامور، وحتّی الکثیر من المدن فی عالمنا المعاصر قد تبدلت إلی مرکز من مراکز الفساد والغفلة. وأحد الطرق للخلاص من قیود الغفلة هذه هو ترک المشارکة فی مثل هذه الجلسات والاماکن، والهجرة من المدن الملوثة بالفساد، وفی غیر هذه الصورة فإنّ التخلص من سلطان الغفلة عسیرٌ جداً. فلذلک نری أنّ الإمام السجاد یقول لأبی حمزة الثمالی عند بیان أحد عوامل سلب التوفیق: «او لَعَلَّکَ رَأَیْتَنی آلِفُ مَجَالِسَ البَطَّالِینَ فَبِیْنی وبَیْنَهُم خَلَّیْتَنی». ونختم هذا البحث بحدیثٍ عن أمیرالمؤمنین علیه السلام حیث قال «احْذَرْ مَنَازِلَ الْغَفْلَةِ وَالْجَفاءِ وَقِلَّةَ الاعْوَانِ عَلَی طَاعَةِ اللَّه» «۳».

۵- الیقظة والانتباه

«الیقظة» هی الیقظة المقابلة للغفلة وتأتی بمعنی الانتباه من النوم البدنی أو النفسی، وقد ذهب بعض العرفاء إلی أنّ الیقظة هی أوّل منازل السیر والسلوک لأرباب المعرفة. والیقظة فی مصطلح العرفاء الإسلامیین هی الانتباه من نوم «الغفلة» والتوجه للأعمال والأفعال من موقع الضبط والوعی ولجبران الأخطاء السالفة وتصحیح المسیرة فی حرکة السلوک المعنوی للإنسان. الإمام الخمینی یری فی کتاب «الجهاد الأکبر أو جهاد النفس» ضمن اعتقاده بان الیقظة هی الخطوة الاولی فی تهذیب النفس یقول فی ذیل بحثه عن الیقظة «إلی متی ترید أن تبقی فی نوم «الغفلة» وأنت غارق فی لجة الفساد والشر، اتقِ اللَّه وأحذر عواقب الامور وانتبه من نوم الغفلة، فأنت لحدّ الآن لم تخطو الخطوة الاولی فی سلوکِکَ إلی اللَّه تعالی فالقدم الأوّل فی دائرة السلوک هو «الیقظة»، ولکنک مازلت فی حالة النوم، فافتح عینیک وقلبک واترک نومک، فلو أنّ قلبک لم یکن ملوثاً بآفاق الذنوب السوداء لم تقنع وتستمر علی هذا النوم وکأن شیئاً لم یکن، فلا تشعر ماذا یجری حولک بل تستمر فی سلوکک وأعمالک وأقوالک الباطلة، فلو أنک تفکرت قلیلًا فی أمر آخرتک وعاقبتک المخیفة یوم القیامة لتحرکت من موقع الاهتمام بالتکالیف وأداء المسؤولیات الثقیلة الملقاة علی عاتقک». امّا الآیات والروایات الشریفة الّتی تقرر هذا المضمون والمحتوی فکثیرة، وأساساً فإنّ جمیع آیات الإنذار والبشارة هو من أجل الوصول إلی هذه الغایة والهدف، أو إزالة آثار الغفلة عن قلب الإنسان وإیقاظه إلی ما ینتظره فی الغد ولکی لا یبقی فی نوم الغفلة والجهل. إن من جملة التعبیرات القرآنیة فی دائرة الانذار والتحذیر هی «افَلا تَعْقِلُون» «۱»» «أَفَلاتَذَکَّرُون» «۲» و «افَلَا تَتَفَکَرُونَ» و «او لَم یَتَدبَّرُوا القُرآن» وأمثال ذلک. فکلّها بمثابة الاعلام عن الخطر المحدق بالإنسان وایقاظه من النوم العمیق الّذی یعیشه الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۳۳۰ فی أجواء الطبیعة المادیة، ولذلک کان لابدّ له من منبه وجرس انذار لیستعد للمسیر فی خط الإیمان والصلاح والتقوی وکذلک الآیات الّتی تؤکد علی ذکر اللَّه تعالی لأن الاعراض عن ذکر الحقّ من شأنه أن یفسد حیاة الإنسان، ویعیش بالتالی «معیشة ضنکا» فی هذا العالم ویحشر یوم القیامة أعمی ولذلک نجد أنّ المفاهیم القرآنیة تتحرک باتجاه تحذیر المسلمین من اسباب اللهو أو الغفلة وتسوقهم باتجاه ذکر اللَّه تعالی وکلّ ذلک من شأنه انعاش حالة «الیقظة» والوعی بالمصیر فی واقع الإنسان وفکره. وقد أشارت الروایات

الإسلامیة بشکل واسع إلی مسألة «الیقظة» منها: ۱- ما ورد عن أمیرالمؤمنین فی خطبته لدی الإشارة إلی الهدف من بعثة النبی الأکرم صلی الله علیه و آله وقال «ایُّهَا النَّاسُ انَّ اللَّهَ ارْسَلَ الَیْکُمْ رَسُولًا لِیُزِیحَ بِهِ عِلَّتَکُمْ وَیُوقِظَ بِهِ غَفْلَتَکُمْ» «۱». ولیس هذا الهدف مختصٌ بنبی الإسلام فحسب بل یشمل جمیع الأنبیاء فإنّهم بعثوا لهذا الغرض أیضاً، وایقاظ الناس من غفلتهم، أو علی الأقل أنّ هذا الهدف هو أحد الأهداف الأساسیة من دعوتهم. ۲- ویقول الإمام الحسن علیه السلام فی خطبته لأهل الکوفة: «ایُّهَا النَّاسُ تَیَقَّظُوا مِنْ رَقْدَةِ الْغَفْلَةِ وَمِن تَکَاثُفِ الظُّلْمَةِ، فَوالّذی خَلَقَ الْحَبَّةَ وَبَرَءَ النَّسَمَةَ وَتَرَدّی بِالْعَظَمَةِ، لَئِن قَامَ الیَّ مِنْکُمْ عُصْبَةٌ بِقُلوبٍ صَافِیَةٍ وَنِیّاتٍ مُخلِصَةٍ، لا یَکُونَ فِیها شَوْبُ نِفاقٍ وَلا نِیّةَ افْتِرَاقٍ لَاجاهِدنَّ السَّیفَ قَدَماً قَدَماً وَلَاضَیّقَنَّ مِنَ السُّیُوفِ جَوَانِبَها وَمِنَ الرِّماحِ اطرافَهَا وَمِنَ الْخَیْلِ سَنابِکَها فَتَکَلَّمُوا رَحِمَکُمُ اللَّه» «۲». وهنا نری أنّ الإمام الحسن علیه السلام فی هذا الکلام یدعو أهل الکوفة إلی جهاد معاویة وجیش الشام فی حین أنّهم قد تمکنت منهم «الغفلة» فلم یستجیبوا له. ۳- ونقرأ فی کتاب «فلاح السائل» الدعاء الّذی أقرّه الإمام الصادق علیه السلام أیضاً بغرض الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۳۳۱ جبران الأخطاء والغفلة فی الصلاة حیث قال «فَصَلِّ عَلَی مُحَمّدٍ وَآلِهِ وَاجْعَلْ مَکَانَ نُقْصَانِها تَماماً وَعَجَلَتی تَثَبُّتاً وَتَمَکُّناً، وَسَهْوی تَیَقُّظاً، وَغَفْلَتی تَذَکُّراً، وکَسَلی نَشاطاً» «۱». ۴- وورد عن الإمام أمیرالمؤمنین علیه السلام فی نهج البلاغة قوله مخاطباً للإنسان اللاأبالی «أما مِنْ دائک بُلُولٌ امْ لَیْسَ مِنْ نَوْمِکَ یَقْظَةٌ» «۲». ۵- ویقول أمیرالمؤمنین فی حدیثٍ آخر أیضاً «الَا مُسْتَیْقِظٌ مِنْ غَفْلَتِهِ قَبْلَ نَفَادِ مُدَّتِهِ» «۳». وفی جمیع هذه الروایات نجد أنّ «الغفلة» شبهت بنوعٍ من النوم تارةً، واخری بنوع من السکر، وشُبه قصد التذکر بنوعٍ من الانتباه والیقظة، ویقول أمیرالمؤمنین علیه السلام فی هذا المجال: «سُکْرُ الْغَفْلَةِ وَالْغُرورِ ابْعَدُ افاقَةً مِنْ سُکْرِ الْخُمُورِ» «۴». ۶- ونختم هذا البحث بحدیثٍ آخر عن الإمام أمیرالمؤمنین فی تشبیهه الیقظة بالمصباح المنیر حیث قال «فَاسْتَصْبِحُوا بِنُورِ یَقْظَةٍ فِی الابْصَارِ وَالاسْماعِ وَالافْئِدَةِ» «۵».

التغافل الإیجابی:

کما تقدّم أنّ الغفلة فی نور الحیاة سببٌ للشقاء والانحطاط المادی والمعنوی فإنّ «التغافل» بالنسبة إلی هذه الامور یؤدی إلی نفس هذه النتیجة، أی أنّ الإنسان یجب أن یعلم بأن الواقع الدنیوی متزلزل وأنّ هذا العالم غیر ثابت علی أمرٍ واحد، وعلیه أن یعبرهُ إلی حیث الحیاة الخالدة، وأنّ الموت هو قانون طبیعی حتمی علی الأشیاء ولا اعتبار بالقوی الطبیعیة والثروات المادیة، ولکن مع کلّ ذلک فإنّ الإنسان الّذی یعیش الغفلة و «التغافل» یمر علی هذه الحقائق من الکرام ولا یعنیه من أمرها شیء. هذا هو التغافل السلبی الّذی قد یترتب علیه آثار ونتائج مضرة أکثر من الغفلة نفسها، الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۳۳۲ لأن «الغافلین» قد یقعون فی دوامة الحوادث والمشاکل عن جهلٍ وعدم علمٍ بواقع الحال، اما «المتغافل» فهو یخطو باتجاه هذه المشاکل عن وعی وعلم مسبق، وبذلک تکون مسؤولیته الإلهیة أکثر وظلم الناس له أشد. اما «التغافل الایجابی» فهو أن یعیش الإنسان بحالة یخفی معها الأشیاء الّتی ینبغی اخفاؤها، أی أن یقوم الشخص باظهار عدم اطلاعه وعدم علمه بالأشیاء الّتی یعلم بها ولکنَّ اظهارها له عواقب سیئة، ویتصرف معها تصرف المتغافل ویمر علیها مرّ الکرام من موقع سعة الصدر وقوّة الشخصیة، لغرض حفظ ماء وجه الآخرین واحترامهم وحیثیتهم الاجتماعیة. ومن جملة موارد التغافل الایجابی هو اخفاء عیوب الآخرین، فإنّ لکلّ شخص عیوباً وأخطاءً لا یحب أن یطلع علیها الآخرون، ولذلک یسعی لکتمانها، ولکن أحیاناً یعلم بها بعض الأشخاص الأذکیاء، ففی مثل هذه الموارد یکون التغافل مطلوباً، وفی الحقیقة هو نوعٌ من ستر العیوب الخفیة الّتی لا ینبغی اظهارها إلّافی موارد الأمر بالمعروف والنهی عن المنکر وذلک بشکل لطیف ومستور أیضاً. وهناک بعض الموارد یکون الکشف عن العیب فیها مؤدیاً إلی تسقیط شخصیة الأفراد وکذلک یؤدی إلی حث الآخرین علی المعصیة، فالفضیحة قد تؤدی إلی زیادة الایغال فی ارتکاب الذنوب، وبعبارة اخری: إذا زال حجاب الحیاء عن المذنبین فإنّهم سوف یقدمون علی ارتکاب الذنوب المختلفة، ولهذا ففی مثل هذه الموارد یکون «التغافل» مانعاً عن تفشی هذه الظاهرة الاجتماعیة السلبیة. وبیان عام یمکن القول أنّ أحد الاصول المهمة بالحیاة الهادئة والوادعة هی أن یعیش الإنسان «التغافل» عن بعض الامور لا سیّما بالنسبة إلی

المدراء وأصحاب المناصب الحساسة فی المجتمع حیث یجب علیهم الاستفادة من هذه المسألة بشکلٍ جید لحلّ الکثیر من المشاکل الّتی تعترضهم فی عملهم الاجتماعی، وهذا یعنی انه کلّما احتاج الأمر إلی تحذیر وتنبیه فعلیهم أن یقوموا بهذا الأمر، وکلّما احتاجت المسألة إلی «تغافل» لحلّها أو الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۳۳۳ جعلها تراوح فی مکانها ولا تنتشر وتتفشی وتتعاظم فإنه علیهم سلوک هذا الطریق، ومن المعلوم ان المدیر الّذی لا یری للتغافل شیئاً حاسماً فی سلوکه الإداری ولا یعیر له اهتماماً فإنه سیوقع نفسه فی مشاکل وصعوبات غیر موجهة وبدون مبرر. ولهذا السبب فإنّ الأئمّة المعصومین علیهم السلام أکدوا علی هذه المسألة فی أفعالهم وأقوالهم، فمثلًا نجد أنّ النبی الأکرم صلی الله علیه و آله یتعامل مع بعض الامور من موقع التغافل بحیث أدّی ذلک إلی اعتراض بعض المسلمین الجهلة، فمثلًا اعترضوا علی النبی بأنه سریع التأثر بما یسمعه من کلمات من هنا وهناک، فلو قیل له إنّ فلان یقول عنک کذا وکذا لأسرع فی تصدیقه وقبوله وأرسل خلف ذلک الشخص معاتباً إیاه، ولو أنّ ذلک الشخص أقسم له انه لم یقل هذا الکلام فی حقّه لاسرع کذلک إلی تصدیقه أیضاً. القرآن الکریم یشیر إلی هذا المعنی فی الآیة ۶۱ من سورة التوبة ویقول «وَمِنْهُمُ الَّذِینَ یُؤْذُونَ النَّبِیَ وَیَقُولُونَ هُوَ اذُنٌ قُلْ اذُنُ خَیْرٍ لَکُمْ یُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَیُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِینَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِینَ آمَنُوا مِنْکُمْ ...». ومن البدیهی أنّ نبی الإسلام مع کلّ ذلک الذکاء والحرکة والدرایة الّتی اعترف بها الأعداء والأصدقاء لم یکن بالشخص الساذج إلی هذه الدرجة، بل کان یری أنّ وظیفته فی بعض الموارد هی «التغافل» وهذا التغافل یُعد مصدر رحمة لجمیع المؤمنین.

التغافل فی کلمات المعصومین علیهم السلام:

۱- ورد فی الحدیث المعروف عن الإمام زین العابدین علیه السلام وکذلک الإمام الباقر والصادق علیهما السلام عن «التغافل» قولهم «صَلاحُ حالِ التَّعایُشِ وَالتَّعاشُرِ مِلُ مِکْیالٍ ثُلْثاهُ فِطَنَةٌ وَثُلْثُهُ تَغافُلٌ» «۱». هذه الروایة فی الواقع ضمن تأکیدها علی التغافل الایجابی تحذر الإنسان من التغافل السلبی، ففی البدایة تؤکد علی الفطنة والانتباه والیقظة فی الامور وترک الغفلة وأنّ ذلک یعد الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۳۳۴ ثلثی مکیال المعاشرة، ومفهومه هو أنّ الإنسان لا ینبغی أن یعیش الغفلة وعدم الاطلاع بالنسبة إلی مسائل الحیاة والمعیشة بل یجب الانتباه والیقظة والتعامل مع الامور بدقّة متناهیة لیحرز بذلک خیره وصلاحه، ولکن من جهة اخری یجب علیه أن یعیش «التغافل» بالنسبة إلی الامور الّتی ینبغی علیه التغافل عنها وجعلها فی زاویة النسیان والاهمال من قبیل التفکیر فی المسائل الجزئیة للحیاة والّتی لیست بذات قیمة، لأنّ التفکر فی مثل هذه الامور والسفاسف بإمکانه أن یمنع الإنسان من التفکیر فی المسائل الأهم منها، وکذلک اخفاء عیوب الآخرین المستورة فی الموارد الّتی تستوجب المصلحة ذلک فإنّ التغافل فی مثل هذه الموارد یعتبر أمراً محموداً. ۲- وقد ورد عن أمیرالمؤمنین علیه السلام قوله «مِنْ اشْرَفِ اعمالِ الْکَریم غَفْلَتُهُ عَمَّا یَعْلَمُ» «۱». ۳- وفی حدیثٍ آخر عن أمیرالمؤمنین علیه السلام أنّه قال: «مَنْ لَمْ یَتَغافَلْ وَلَا یَغُضَّ عَنْ کَثِیرٍ مِنَ الامُورِ تَنَغَّصَتْ عِیْشَتُهُ» «۲». وبدیهی أنّ الحیاة الدنیا لا تخلو من بعض الامور الّتی قد تحدث للإنسان من غیر توقع أو لا تسیر الحیاة کما هو المطلوب وکما یرید لها الإنسان، فلو أنّ الشخص قد تحرّک فی تعامله مع الحیاة من موقع الفحص والدقّة فی جزئیات الامور وعاش الفضول فی حیاة الآخرین وأخذ یحاسبهم ویعاتبهم علی کلّ صغیرة وکبیرة فإنّ حیاته ومعیشته سوف تتنغص ویتفرق الآخرون من حوله. ونختم هذا البحث بالحدیث الشریف الوارد عن أمیرالمؤمنین علیه السلام أیضاً حیث یقول «وَعَظِّمُوا اقْدَارَکُمْ بِالتَّغَافُلِ عَنِ الدَّنِّی مِنَ الامُورِ ... وَلَا تَکُونُوا بَحَّاثِینَ عَمَّا غَابَ عَنْکُمْ، فَیَکْثُرُ عَایِبُکُمْ ... وَتَکَرَّمُوا بِالتَّعَامِی عَنِ الاسْتِقْصَاءِ» «۳». ومن هذا الحدیث وکذلک بعض الأحادیث الاخری یستفاد جیداً أنّ هذا المفهوم «التغافل» لا یرد إلّافی الموارد الجزئیة والصغیرة من سفاسف الحیاة والواقع الاجتماعی. الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۳۳۵ وعلی هذا الأساس فإنّ «التغافل» لا یتقاطع مع الأمر بالمعروف والنهی عن المنکر والانتقاد البنّاء فی حرکة الحیاة الاجتماعیة لأن الأمر بالمعروف والنهی عن المنکر یتعلقان بالواجبات والمحرمات الّتی هی خارجة عن دائرة «التغافل»، واما الانتقاد البنّاء فیتعلق بالامور المصیریة فی حیاة الفرد والمجتمع والّتی یترتب علیها نتائج مهمة، فی حین أنّ التغافل لا یتعلق بالامور الجسیمة وذات الأهمیة أو

الامور الّتی تکون المصلحة فی سترها والتغاضی عنها. الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۳۳۶

البخل والشح

تنویه:

إن النعم والمواهب الإلهیة علی الإنسان تکون فی کثیرٍ من الموارد أکثر من حاجة الإنسان نفسه بحیث یمکنه أن یسهم الآخرین بها ویشارکهم فی الاستفادة منها بدون أی ضرر یُلحق به، ولکنَّ بعض الناس وبسبب البخل والشح یمتنعون من ذلک ولا یجدون فی أنفسهم رغبة فی العطاء والجود بما لدیهم من نِعم کثیرة، وأحیاناً یتحرکون من موقع التفرج والتفاخر بهذه النعم والثروات الدنیویة إلی درجة أنّهم یثیرون حفیظة المحرومین ویجرحون قلوبهم بذلک وکأن هؤلاء یجدون لذّة خاصّة فی إثارة المحرومین هؤلاء. وأحیاناً تقترن هذه الصفة مع حالة «الانانیة» و «التکبر» و «الحرص» وأمثال ذلک من الصفات السلبیة القبیحة. إذا نظرنا إلی عالم الوجود من موقع التدبر والتأمل فسوف نشاهد آیات البذل والکرم والجود والانفاق فی کلّ مکان، الشمس تحترق دائماً وتبدل بعض وجودها إلی نور وحرارة وتُرسله إلی جمیع المنظومة الشمسیة حیث تعیش المخلوقات والأحیاء بهذا النور الساطع وتستدفی بهذه الحرارة الکافیة. الأرض بدورها تُخرج ما فی باطنها من أنواع الکنوز والمعادن الثمینة والمواد الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۳۳۸ الغذائیة والمیاه الجوفیة، کلّ ذلک تضعه تحت اختیار الإنسان مجاناً وتعینه بذلک علی مصاعب الحیاة، وهکذا الحال فی سائر موجودات هذا العالم الفسیح فإنّ کلّ واحدة منها یعطی للإنسان ما لدیه مظهراً بذلک کرمه وجوده. ومضافاً إلی هذا العالم الکبیر نری فی العالم الصغیر، أی الإنسان أیضاً نفس هذه المسألة، فالقلب، والجهاز التنفسی، والمعدة، العین، الاذن، الید والرجل کلّها لا تعمل من أجل ذاتها فقط بل تخدم فی حرکتها وحیاتها جمیع أجزاء البدن، فلا معنی للبخل فی وجودها، بل کلّما هناک هو الکرم والجود یترشح من جمیع أجزاء البدن وجمیع خلایاه. فی هذا العالم الّذی تحکم فیه معالم الکرم والسخاء فهل هناک من مکان للإنسان البخیل؟ ألا یتقاطع وجود هذا الإنسان البخیل مع عالم الوجود وبالتالی فإنه محکوم بالموت والاندثار والزوال؟ علی هذا الأساس نری ذمّ «البخل» ومدح «السخاء والکرم» بشکل واسع فی الآیات والروایات الإسلامیة حیث نری أنّ «الجود والسخاء» بعنوان أنّهما من الصفات والأسماء الإلهیة البارزة فی عالم الوجود وتمثل سمة من سمات الأئمّة المعصومین علیهم السلام أیضاً. بهذه الإشارة نعود إلی آیات القرآن الکریم لنستوحی منها ما یضفی علی مفهوم «البخل» و «السخاء» ضوءاً وجلاءاً أکثر: ۱- «إِنَّ قَارُونَ کَانَ مِن قَوْمِ مُوسَی فَبَغَی عَلَیْهِمْ وَءَاتَیْنَاهُ مِنَ الْکُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُوْلِی الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَاتَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَایُحِبُّ الْفَرِحِینَ* وَابْتَغِ فِیمَآ ءَاتَاکَ اللَّهُ الدَّارَ الْأَخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِیبَکَ مِنَ الدُّنْیَا وَأَحْسِن کَمَآ أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَیْکَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِی الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَایُحِبُّ الْمُفْسِدِینَ» «۱». ۲- «انّا بَلَوْنَاهُم کَما بَلَوْنا اصْحَابَ الْجَنَّةِ اذ اقْسَمُوا لَیَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِینَ* وَلایَسْتَثْنُونَ* فَطَافَ عَلَیْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّکَ وَهُم نَائِمُونَ* فَاصْبَحَتْ کَالصَّرِیم» «۲». الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۳۳۹ ۳- «وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ ءَاتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَکُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِینَ* فَلَمَّآ ءَاتَاهُم مّن فَضْلِهِ بَخِلُواْ بِهِ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ* فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِی قُلُوبِهِمْ إِلَی یَوْمِ یَلْقَوْنَهُ بِمَآ أَخْلَفُواْ اللَّهَ مَاوَعَدُوهُ وَبِمَا کَانُواْ یَکْذِبُونَ» «۱». ۴- «وَلَایَحْسَبَنَّ الَّذِینَ یَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَیْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَیُطَوَّقُونَ مَابَخِلُواْ بِهِ یَوْمَ ا لْقِیَامَةِ وَلِلَّهِ مِیرَا ثُ السَّمَاوَا ت وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِیرٌ» «۲». ۵- «الَّذِینَ یَبْخَلُونَ وَیَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَیَکْتُمُونَ مَآءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْکَافِرِینَ عَذَابًا مُّهِینًا» «۳». ۶- «وَامَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنی وَکَذَّبَ بِالْحُسْنی فَسَنُیَسِّرُهُ لِلْعُسْری «۴». ۷- «هَا أَنتُمْ هَؤُلَا ء تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِی سَبِیلِ اللَّهِ فَمِنکُم مَّن یَبْخَلُ وَمَن یَبْخَلْ فَإِنَّمَا یَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ ا لْغَنِیُّ وَأَنتُمُ ا لْفُقَرَآءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْاْ یَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَیْرَکُمْ ثُمَّ لَایَکُونُواْ أَمْثَالَکُم» «۵». ۸- «.. وَمَنْ یُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَاولئکَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» «۶». ۹- «وَالَّذِینَ اذَا انْفَقُوا لَمْ یُسْرِفُوا وَلَمْ یَقْتُرُوا وَکَانَ بَیْنَ ذَلِکَ قَواماً» «۷». ۱۰- «قُل لَوْ انْتُم تَمْلِکُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبّی اذاً لَامْسَکْتُمْ خَشْیَةَ الانْفَاقِ وَکَانَ الإِنْسَانُ قَتُوراً» «۸».

تفسير واستنتاج:

مصير البخلاء

«الآيات الاولى من الآيات محل البحث تستعرض حادثة مهمة من الحوادث الّتى جرت على بنى إسرائيل، فكانت عبرة لمن اعتبر ذلك أنّ أحد أثرياء بنى إسرائيل وبسبب البخل والتكبّر والغرور، ابتلى بمصيرٍ عجيب وموحش. لقد كان «قارون» من أقرباء النبى موسى عليه السلام ومن الوجوه والشخصيات الثرية المعروفة لبنى إسرائيل، وحسب الظاهر كان من أوّل المؤمنين بموسى عليه السلام أيضاً وكان مطلعاً وعارفاً بالتوراة، ولكنه كان كمثل الكثير من الأثرياء انانياً ومحبّاً للدنيا وبعيداً عن اللّه، وكان يحبّ بشكل عجيب اظهار مالديه من الثروة أمام فقراء بنى إسرائيل، وكان فى كلّ مرّة يظهر عليهم بزينته وثروته الهائلة يخفق قلوب أصحاب الدنيا وأهل الطمع من بنى إسرائيل حتّى وصل بهم الأمر إلى أن يكون أملهم الوحيد أن يكونوا مثل قارون من حيث الثراء وكثرة المال. يقول القرآن المجيد فى هذه الآيات «إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ» «۱». لقد كان ظلمه وبغيه على قومه بسبب «البخل» الشديد حيث لم يكن راغباً فى بذل شىءٍ منها، وفى نفس الوقت كان يخرج على الناس والفقراء بزينته وثراءه الفاحش ويجد بذلك لذّة فى نفسه، والأمر الآخر أيضاً الّذى زاد من بغيه هو مخالفته الشديدة للنبى موسى عليه السلام وتعامله مع الفراعنة وخاصّةً عندما طلب منه موسى عليه السلام اداء الزكاة. وأساساً أنّ الأثرياء وأصحاب الدنيا لديهم علاقة شديدة فى تقوية نفوذهم وقدرتهم فى المجتمع، وهذه العلاقة تارةً تكون بدافع من حبّ التكاثر، واخرى بسبب الخوف من القدرات السياسية والاجتماعية الاخرى لكى لا يلحق بثروتهم الضرر من قبل هذه القدرات وقوى السيطرة والسلطة، ولهذا السبب كانوا يقفون من الأنبياء ودعوتهم السماوية الّتى كانت تستوعب الناس وتظلهم تحت خيمة الحكومة الإلهية، كانوا يقفون منها موقف العناد والرفض. الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۴۱ القرآن الكريم فى إدامة حديثه عن قارون وثروته يقول فى هذه الآية «وَءَاتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُوْلِى الْقُوَّةِ» «۱». لقد كان قارون فرحاً جدّاً من وضعه الاجتماعى وكان يعيش دائماً حالة اللهو واللّذة ولا يشعر بما يجرى على البؤساء والفقراء ولا يعيش محنتهم وحرمانهم وحتّى عندما قال له العقلاء من قومه «إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَاتَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَايُحِبُّ الْفَرِحِينَ* وَابْتَغِ فِيمَآ ءَاتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْأَخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِى الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَايُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ» «۲». هذه التعاليم الخمسة والنصائح المشفقة ليس لم تؤثر إطلاقاً فى قلب قارون الأسود، بل زادته طغياناً وضلالًا إلى درجة انه انكر بصراحة التوحيد الأفعالى للّه‌تعالى وقال: «إنما اوتيته على علم». ويتحدّث القرآن الكريم فى آياتٍ اخرى من هذه السورة عن إحدى الرذائل الأخلاقية لقارون الّتى تتمثل تقريباً بدرجة من الجنون الّذى يبتلى به جميع الأثرياء المغرورين والّذين يتحركون فى خطّ الإنحراف وطلب المزيد من الثروة والمال بعيداً عن اللّه تعالى فتقول الآية: «فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِى زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَالَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِىَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ» «۳». وأخذ يتبرج بهذه الثروة الطائلة من موقع الغرور والتفاخر حيث استعرض معه الجياد الغالية المزينة بالذهب وحمل معه الجوارى الجميلات الغارقات بأنواع الزينة والمجوهرات وكذلك سائر أنواع الأموال والثروة وزخارف الدنيا وبريقها الخداع حتّى أنّ طائفة من المؤمنين نصحوه بترك هذه السلوكيات الذميمة، إلّاأنّه بدلًا من أن يستمع إليهم ويسلك مع الفقراء والمعدمين مسلك اللطف والكرم والمواساة فانه انطلق من موقع العناد الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۴۲ والإصرار لوضع الملح على جراح هؤلاء الفقراء والبؤساء ويجعلهم حيارى غارقون بالحسرة أمام هذا الغرور العجيب. وعندما ازدادت حدّة طغيانه لم يمهله اللّه تعالى أكثر من ذلك، فكان أن اصابت زلزلة قصره ومحل إقامته فقط فخسفت به الأرض وغاص فى أعماقها هو وجميع ثروته، وهكذا صار حديثاً بعد عين وعبرةً لمن اعتبر على طول التاريخ البشرى. إن الجذور الأصلية لشقاء «قارون» هو حالة «البخل» الّتى كان يعيشها بعمق بكامل وجوده، البخل الّذى صار منشأً وسبباً لانكاره لنبوّة موسى عليه السلام وتعامله مع عقيدة التوحيد الإلهى من موقع الاعتراض والرفض، وأخيراً ادّى به الحال إلى اتهام نبى اللّه موسى عليه السلام بالعمل المنافى للعِفة مع زانية معروفة، ولكن اللّه تعالى فضح أمره سريعاً، فكان يتصور انه مع

تملكه لهذه الثروة العظيمة فإنه لا أحد يقدر على إيصال الضرر إليه، ولهذا السبب فلم يكن يمتنع من أى ظلم وجور على قوم بنى إسرائيل إلى أن نال جزاءه وعقابه. «الطائفة الثانية» من الآيات محل البحث تشير إلى قصة اخرى من قصص هؤلاء البخلاء ومصيرهم الأسود حيث يتحدّث القرآن الكريم هنا عن جماعة يسموهم «أصحاب الجنّة» ويرى بعض المفسّرين أنّهم كانوا جماعة من بنى إسرائيل يسكنون «اليمن» على مقربة من «صنعاء»، وذهب بعض المحققين إلى أنّ كلمة «حرد» الواردة فى سياق هذه الآيات يعنى «المنع» وهى من الكلمات المتداولة فى اليمن وتشير إلى أنّ هؤلاء كانوا من أهل اليمن. لقد كان عدد هؤلاء عشرة أشخاص وكان لديهم بستان كبير وثروه من أبيهم الّذى كان رجلًا كريماً وسخياً وصالحاً، وكان عندما يحين قطاف الثمار يفتح باب البستان على مصراعيه للفقراء والمساكين لينالوا منه حاجتهم، وبذلك كانت البركة وسعة المال والثراء تزداد فى أموال الأب، ولكنَّ ابناءه البخلاء كانوا يتصورون أنّ مثل هذا البذل والعطاء الكثير الّذى يصب فى جيوب الفقراء والمحتاجين لا مسوّغ له، ولا مبرر لأن ينفق الإنسان من أمواله بهذه الدرجة، وبذلك لقد عزموا على أن يمنعوا كلّ فقير من الدخول إلى هذا البستان الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۴۳ الكبير، وقرروا أيضاً فيما بينهم أن ينهضوا فى الصباح الباكر ومن دون اعلان أو سخط ليقطفوا ثمار هذا البستان مع مجموعة من العمال وقبل أن يستيقظ الفقراء والمساكين من نومهم ويصل إليهم الخبر فإنّهم يقومون بنقل هذا المحصول الكثير. يقول البرسوئى فى «روح البيان»: «إنّ هذه الحادثة وقعت بعد عصر عيسى بقليل حيث كان لهم أب كريم جداً، فكان يأخذ من بستانه ما يكفيه لسنته ويوزع الباقى على الفقراء، ولكن ما أن توفى الأب حتّى قال الأولاد: إننا إذا سرنا بسيرة والدنا فإنّ حياتنا ستكون شاقة، لكثرة عيالنا وأطفالنا، فأقسموا أن يعجلوا فى الصباح الباكر على قطف الثمار وحتّى أنّهم لم يقولوا: إن شاء اللَّه» «۱». وقد أنزل اللَّه تعالى عليهم عذاباً أليماً وعاقبهم بأشد العقاب كما تقول الآية «فَطَافَ عَلَيهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ» «۲». أجل، إن صاعقة محرقة ونار رهيبة نزلت على ذلك البستان وأحرقته من أوّله إلى آخره «فَاصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ» «۳». «الصريم» هو الشجرة غير المثمرة، أى أنّ الصاعقة اتلفت الثمار فقط دون الأشجار الّتى بقى منها الجذوع فقط، وفى الغد عندما نهض الاخوة وذهبوا فى الصباح الباكر إلى بستانهم ترجموا خطتهم على أرض الواقع، فلما وصلوا إلى ذلك البستان ورأوا ذلك المنظر المهيب والمفجع قالوا: «فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا انَّا لَضَالُّونَ* بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ» «۴». جملة «انّا لضالّون» إشارة إلى أنّهم لم يكونوا يصدقون أنّ هذا البستان قد احترق بأكمله بعد ما كان قبل قليل زاهراً ومليئاً بالثمار ولكن عندما دققوا النظر أدركوا من خلال القرائن أنّ هذا البستان المحترق هو بستانهم الّذى اصبح بهذه الصورة لذلك قالوا «بَلْ نَحْنُ مَحرُومُونَ». الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۴۴ وهناك احتمال آخر، وهو أنّ المراد بالضلالة هنا هى الانحراف عن طريق اللَّه والحقّ لأنهم كانوا يتصورون إن السعادة تكمن فى عنصر «البخل»، والحال أنّ الطريق الصحيح لنيل السعادة الحقيقية هو الطريق الّذى سلكه أبوهم الكريم من قبل. وجاء فى الآيات التالية إن هذه المجموعة من البخلاء انتبهوا من نوم الغفلة بسرعة وأخذوا يلومون أنفسهم واعترفوا بذنبهم وعزموا على عدم تكراره فى المستقبل بعد أن طلبوا من اللَّه تعالى بستاناً أفضل من السابق، وقد ورد فى بعض الروايات أنّ اللَّه تعالى قبل توبتهم ووهبهم بستاناً أفضل وأحسن من بستانهم السابق. وعلى أية حال فإنّ الآية أعلاه تبين العواقب المؤلمة لحالة «البخل» والشُّح بحيث إن هذه الرذيلة تضر الإنسان حتّى فى أمر دنياه العاجلة. والملفت للنظر أنّ القرآن الكريم يقول فى بداية هذه الآيات «إنا بَلَوناهم كما بلونا أصحاب الجنّة» ولعلّ هذا التعبير إشارة إلى حالة القحط الشديد الّذى أصاب مكّة المكرمة بسبب البخل وترك الانفاق من قبل أثرياء قريش. «الآية الثالثة» تتحدّث عن مصير شخص بخيل فى عصر رسول اللَّه، وطبقاً للكثير من التفاسير فإنّ هذا الشخص كان من الأنصار ويدعى «ثعلبة بن حاطب» والّذى كان فى بداية أمره معسراً وفقيراً بشدة وكان يتمنّى أن يكون يوماً من الأثرياء ولذلك طلب من النبى بإلحاح شديد أن يدعو له بذلك ليكون من الأثرياء. فقال له النبى صلى الله عليه و آله: يا ثعلبة قليل تؤدى شكره خير من كثير لا تطيقه، ولكنه أصرّ على ذلك وقال: يا رسول اللَّه، ادع اللَّه أن يرزقنى مالًا والّذى بعثك بالحق لئن رزقنى اللَّه مالًا لاعطين كلّ ذى حقّ حقه وهو قوله «وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ ءَاتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ» «۱». ثمّ إنّ النبى الأكرم دعا لهذا الرجل بعد إصراره الشديد ليكون عبرةً لغيره فلم تمض فترة

الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۳۴۵ إلّا وانفتحت علیه أبواب الرزق والثراء ببرکة دعاء النبی صلی الله علیه و آله وحصل علی ثروة طائلة غیر متوقعة، فملک قطعان کبیرة من الأغنام والإبل وأصبح من الموسرین جدّاً، ولکن عندما نزلت آیة الزکاة وسمع بها وعلِمَ انه یجب علیه أن یدفع مقداراً قلیلًا من هذه الأموال بعنوان الزکاة إلی الفقراء والمساکین، فما کان من هذا الرجل البخیل إلّاأن نقض عهده مع اللَّه تعالی ومع رسوله الکریم ونسی وعده بمساعدة الفقراء وامتنع من دفع الزکاة. وهنا یتحدّث القرآن الکریم عن هذه الحالة بایجاز فیقول «فَلَمَّآ ءَاتَاهُم مّن فَضْلِهِ بَخِلُواْ بِهِ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ» «۱». وبالرغم من أنّ «ثعلبة» لم یکن سوی رجل واحد، ولکن عندما ازدادت أمواله وکثرت ثروته استخدم بعض الأشخاص لحفظها ورعایتها، ولذلک فمن المحتمل أن تکون صیغة الجمع الواردة فی الآیة إشارة إلی هذا المطلب. وهناک احتمال آخر وذلک بأن مثل هذه الحالات لا تختّص بثعلبة وطلبه من النبی الأکرم صلی الله علیه و آله، بل إن هذه الحالة تکثر بین الناس فی المجتمعات البشریة حیث یطلبون من اللَّه تعالی هذا الطلب ویعدون بشتّی الوعود ولکنهم لا ینجحون فی الامتحان الإلهی ویتحرکون بعد ذلک من موقع نقض العهود هذه، والسلوک فی خط الانانیة والبخل وحب الدنیا وعلی أیة حال فإنّ النتیجة الحتمیة لنقض العهد والبخل هو أن تدب ریح النفاق فی قلوب هؤلاء البخلاء وتستمر معهم إلی یوم القیامة کما تقول الآیة «فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِی قُلُوبِهِمْ إِلَی یَوْمِ یَلْقَوْنَهُ بِمَآ أَخْلَفُواْ اللَّهَ مَاوَعَدُوهُ وَبِمَا کَانُواْ یَکْذِبُونَ» «۲». أجل، فإنّ الرجل کان فی أحد الأیّام من العباد والزهّاد وکان یسمّی بحمامة المسجد وکانت جبهته متورمة کثفنات البعیر من أثر السجود ولکن بسبب البخل والانانیة والشح فإنه أصبح فی مواجهة النبی الأکرم صلی الله علیه و آله بحیث إنه اعترض علی رسول اللَّه صلی الله علیه و آله بسبب الأمر بالزکاة وقال بأن الزکاة تشبه الجزیة الّتی تؤخذ من أهل الکتاب، وبهذا أصبح فی عداد الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۳۴۶ المنافقین وأخیراً تم طرده من المجتمع الإسلامی. «الآیة الرابعة» تبین فی سیاقها العقوبة الإلهیة الشدیدة للبخلاء، وما ورد فی هذه الآیة من المجازات والکنایات بالنسبة إلی البخل لم ترد فی سائر آیات القرآن الکریم حیث تقول الآیة «وَلَایَحْسَبَنَّ الَّذِینَ یَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَیْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ...» «۱». ثمّ تضیف الآیة «سَیُطَوَّقُونَ مَابَخِلُواْ بِهِ یَوْمَ ا لْقِیَامَةِ» «۲». فتکون الأموال الّتی جمعوها علی شکل سلسلة ثقیلة تکبلهم وتمنعهم من أی حرکة فی عرصات المحشر، وفی ختام الآیة یقول تعالی «وَلِلَّهِ مِیرَا ثُ السَّمَاوَا تِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِیرٌ» «۳». هذه الآیة تشیر إلی أنّ المحافظة علی المال والسعی لاکتنازه والبخل به لا ینفع الإنسان شیئاً فی حیاته الدنیویة لأنّه سوف یضطر إلی ترک کلّ ما لدیه ویرحل. وبالرغم من أنّ بعض الروایات فسّرت الآیة أعلاه بمسألة منع «الزکاة» ولکن حسب الظاهر فإن مفهوم الآیة یستوعب فی مضمونه جمیع أشکال البخل وحتّی مضافاً إلی البخل بالأموال یشمل البخل بالعلم والمعرفة وأمثال ذلک کما ذکر بعض المفسّرین. أمّا تصویر الحالة الّتی تجعل هذه الأموال علی شکل حلقة وطوق حول رقبة البخیل یوم القیامة، فینبغی القول طبقاً لما ورد فی بعض الروایات أنّ تلک الأموال تأتی یوم القیامة علی شکل طوق من نار کما ورد فی تفسیر العیاشی عن الإمام الباقر علیه السلام أنّه قال: «ما من عبد منع زکاة ماله إلّاجعل اللَّه ذلک یوم القیامة ثعباناً من نار مطوقاً فی عنقه ینهش من لحمه حتّی یفرغ من الحساب، وهو قول اللَّه: «سَیُطَوَّقُونَ مَابَخِلُواْ بِهِ یَوْمَ ا لْقِیَامَةِ» قال: ما بخلوا به من الزکاة» «۴». الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۳۴۷ ومن التعبیر أعلاه یستفاد بوضوح أنّ التعبیر بکلمة «الطوق» هو فی الواقع من قبیل تجسم الأعمال التی یسلکها الإنسان ویعملها فی الدنیا. لأن «الطوق» لا یبتعد ولا ینفصل عن الإنسان بأیة حال، وعلی کلّ حال فإنّ التعبیرات المختلفة للآیة کلّها تحکی عن قبح «البخل» وحسن «الانفاق» فی سبیل اللَّه والسخاء فی المال وسائر المواهب الإلهیة علی الإنسان. والملفت للنظر أنّ أموال «البخلاء» لا تطوق الإنسان البخیل یوم القیامة فحسب، بل فی الدنیا أیضاً تکون بمثابة القیود الّتی تثقل کاهل الشخص بسبب الاهتمام بحفظها وحسابها والخوف من نقصانها او تلفها وأمثال ذلک حیث یتلف الإنسان السنوات العزیزة من عمره من أجلها، ثمّ یضطر إلی ترکها والتوجه للحیاة الاخری محملًا بالمسؤولیة بسببها. «الآیة الخامسة» تتحدّث عن الأشخاص الّذین لا یعیشون البخل لوحدهم فقط وإنّما یدعون الناس إلی البخل أیضاً، وتبین حالهم من موقع الذمّ والتقبیح وأنّهم مصداق عنوان «مختالٍ فخور»، وقد صرَّح القرآن الکریم فی عدّة مواضع أنّ اللَّه تعالی لایحب من کان مختالًا فخوراً، ویقول اللَّه تعالی أیضاً بالنسبة إلی هذه الطائفة من

الناس «الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا» «۱». ومن البديهى أنّ اللّه تعالى لا يحبّ الشخص الّذى يعيش التضاد المطلق مع صفاته الحسنى وأسماء الجلال والجمال للّه‌تعالى، وبالتالى فإنّ مثل هذا الإنسان يخرج من دائرة سُبل عنايات اللّه الخاصّة. والملفت للنظر هو أنّ الآيات الّتى سبقت هذه الآية تشير إلى ما يصيب الإنسان من المصائب والبلايا وأن لا يتعلق الإنسان بهذه الحياة ولا يغتر بما لديه من امكانات مادية وقابليات دنيوية، وليعلم أنّ «البخل» لا يجديه شيئاً فى عملية الثراء والغنى بل إنّ الحياة الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۴۸ الدنيا تتقلب من شكلٍ إلى آخر، وبذلك قد يكون أثرى الناس وأكثرهم مالًا فى يوم آخر من أفقر الناس، ويتبدل حال الفقير كذلك بين عشية وضحاها ليكون من أغنى الناس، إذاً فلا داعى إلى الفخر والمباهات والغرور بهذه الثروات المتنقلة لانها لا تحل مشكلة حقيقية للإنسان فى واقعه النفسى. والملاحظة المهمة الاخرى هى دعوة هؤلاء البخلاء الآخرين لسلوك طريق البخل أيضاً ليصبح الناس كلّهم مثلهم، فلا يفتضح أمرهم ولا يعيب عليهم الناس حالة الشح والبخل فيهم، مضافاً إلى أنّ مثل هؤلاء الأشخاص قد سحقوا العواطف الإنسانية تحت أقدامهم فهم يعيشون قساوة القلب وعدم الاحساس بالرحمة والعطف تجاه الآخرين، لذلك فإنّهم يتألمون عندما يرون سخاء الآخرين وترحمهم وعطفهم على الفقراء والمحتاجين ويودون أنّهم لو كانوا مثلهم فى البخل. وفى هذا الصدد يقول الإمام الصادق عليه السلام: «إن أميرالمؤمنين عليه السلام بعث إلى رجل بخمسة أوساق من تمر المعيقة، وكان الرجل ممن يرجو نوافله ويؤمل نائله ورفده وكان لا يسأل علياً عليه السلام ولا غيره، فقال رجل لأميرالمؤمنين عليه السلام: واللّه ما سألك فلان ولقد كان يجزيه من الخمسة أوساق وسق واحد، فقال له أميرالمؤمنين عليه السلام: لاكثّر اللّه فى المؤمنين ضربك اعطى أنا وتبخل أنت، للّه‌أنت، إذا أنا لم اعط الّذى يرجونى إلّابعد المسألة ثمّ أعطيته بعد المسألة فلم أعطه إلّاثمن ما أخذت منه، وذلك لأنى عرضته أن يبذل لى وجهه الّذى يعفّره فى التراب لربى وربّه ...» «۱». «الآية السادسة» وضمن الإشارة إلى العقوبة الشديدة والعذاب الاليم الّذى ينتظر البخلاء تقول «وَامَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنى فَسَنُيَسِرُهُ لِلْعُسْرى وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُ اذْا تَرَدّى «۲». الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۴۹ ويتضح جيداً من سياق هذه الآيات ما يلى: ۱- إن البخل لا يتسبب فى رفع حالة الاحتياج والفاقة فى النفس بل إنّ سلوك هذا الطريق سوف يزيد من مشاكل الإنسان الدنيوية والاخروية (والملفت للنظر أنّ كلمة «العسرى» فى الآية مطلقة تشمل جميع اشكال العسر فى الدنيا والآخرة). ۲- على فرض أنّ هذا الإنسان استطاع الحصول على ثروة طائلة من هذا السبيل واستطاع نقلها إلى الآخرة، ولكن ماذا ينفع ذلك عندما يهوى إلى جهنم فى ذلك اليوم؟ وقد ذكر المفسّرون فى تفسير كلمة «يسر» وهى النقطة المقابلة للعسر، احتمالات كثيرة تأتى كلّها أيضاً فى النقطة المقابلة لها، أى مفهوم «العسر»، الاحتمال الأوّل: أنّ المقصود من ذلك تهيئة أسباب التوفيق للتحرّك فى خطّ الطاعة والإيمان والانفتاح على اللّه تعالى، وعلى العكس من ذلك كلمة «العسر» و الّتى تعنى سلب التوفيق للطاعة والايمان، وذهب بعض آخر إلى أن معنى هذه الكلمة هو سهولة الحياة فى الدنيا وعدم مواجهة الإنسان صعوبات ومشاكل مهمة فى امور المعيشة، ويرى البعض الآخر آنها تعنى تيسير طريق الجنّة والثواب الإلهى العظيم يوم القيامة، والبعض الآخر فسّرها بالامدادات الإلهية الغيبية للإنسان وأمثال ذلك ولكن كما تقدّمت الإشارة إليه فإنّ مفهوم «العسر» وكذلك «اليسر» مفهوم واسع يستوعب جميع هذه الامور المتعلقة بحياة الإنسان الدنيوية والاخروية. وفى «الآية السابعة» نجد خطاباً إلهياً لأصحاب النبى الأكرم صلى الله عليه و آله من موقع الذم والتقريع حيث تقول الآية «هَا أَنتُمْ هَؤُلَا ء تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ» «۱». ومن أجل أن لا يتصور بعض الجهّال أنّ اللّه تعالى يحتاج لمثل هذه الأموال والانفاق تقول الآية فى سياقها أيضاً «وَاللَّهُ ا لْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ا لْفُقَرَآءُ» «۲» وعلى هذا الأساس فإنّ ما ينفقه الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۵۰ الإنسان من الأموال هو فى الواقع أداء للأمانة الإلهية الّتى أودعت عنده لغرض اختباره وامتحانه وتربيته، وبذلك فإنّ اللّه تعالى أمر عباده بإيصال بعض هذه الأمانة إلى الفقراء والمساكين أو إنفاقها فى طريق الجهاد فى سبيل اللّه. وفى ختام الآية يتحرّك القرآن الكريم من موقع التهديد للأشخاص الّذين يعيشون البخل والشُّح ويقول: «وَإِنْ تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَايَكُونُواْ أَمْثَالَكُم» «۱». وعلى هذا الأساس تنطلق الآية من موقع التهديد للبخلاء بالفناء والاندثار، وهذا من أشد

اشکال التهدید الوارد للبخلاء. وبالرغم من أنّ مصداق الانفاق فی سبیل اللّه ومع ملاحظة سیاق الآیة والقرائن الموجودة هو الأنفاق فی طریق الجهاد، ولکن المفهوم واسع ویشمل کلّ عملٍ خیر یتحرّک فیه المؤمن من موقع البذل والعطاء للآخرین. والکثیر من المفسّرین من الشیعة وأهل السنّة ذکروا فی ذیل هذه الآیة انه بعد نزولها سأل بعض الصحابة النبی الأکرم صلی الله علیه و آله عن مراد القرآن الکریم من هؤلاء القوم الّذین یأتون بعد البخلاء ویحلون محلهم ولا یکونوا أمثالهم من هم؟ فوضع النبی الأکرم صلی الله علیه و آله یده علی رجل سلمان الّذی کان جالساً إلی جنبه وقال «هَذا وَقَومُهُ وَالّذی نَفْسی بِیَدِهِ لَوْ کَانَ الإیمانُ مَنُوطاً بِالثُرَیّا لَتَناوَلَهُ رِجالٌ مِنْ فَارْسٍ» «۲». «الآیة الثامنة» بعد أن تأمر بالانفاق وتؤکد علی أنّ الانفاق یورث الإنسان کلّ خیر وبرکة تقول: «.. وَمَنْ یُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَاولئکَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» «۳». یقول الراغب الاصفهانی فی کتابه «مفردات القرآن» الشُّح، (علی وزن مخ) بخلٌ مع الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۳۵۱ حرص وذلک فیما کان عادة. «الفلاح» بمعنی الشق والقطع، ویستخدم لکلّ اشکال السعادة والنجاح والنصر والوصول إلی المقاصد والأهداف فی حرکة الحیاة، وینقسم أیضاً إلی الفلاح المادی والمعنوی. وقد ورد فی الآیات السابقة لهذه الآیة انذار وتحذیر للمسلمین بالنسبة إلی الفتنة من الأموال والأولاد، والظاهر انه مع هذا البیان ترید الآیة أن تبیّن موانع الانفاق لانه أحیاناً یواجه الشخص الوساوس من قبل الأبناء لکیلا یؤدی بهم انفاق الأب إلی الفقر والحاجة أو یعیشوا بدون میراث، وأحیاناً اخری یعیش الإنسان الوساوس النفسیة من مستقبل ابنائه وأنّهم سوف یعیشون حالة الفقر بعده، فیمنعه ذلک من الانفاق، ومن المعلوم أنّ جمیع هذه الوساوس تعد من أحابیل الشیطان ومن موانع «الفلاح» والنجاح فی معراج الکمال المعنوی، وتورث الإنسان الحرص والبخل الشدید. وقد ورد فی حدیث عن الإمام الصادق علیه السلام انه کان یطوف بالبیت من اللیل إلی الصباح ویقول «اللّهُمَّ قِنی شُحَّ نَفْسی» یقول الراوی فسألته: بأبی أنت وامّی لم اسمع منک هذه اللیلة غیر هذا الدعاء، فقال «وَایُّ شَیءٍ اشَدُّ مِنْ شُحِ النَّفْسِ انَّ اللَّهَ یَقُولُ وَمَنْ یُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَاولئکَ هُمُ المُفلِحُون» «۱». وعلی هذا فصفة «البخل» تعد من الموانع المهمة للفلاح إلی درجة أنّ الإمام الصادق علیه السلام یدعو اللّه تعالی فی طوافه بالبیت من اللیل إلی الصباح بهذا الدعاء ویعتبر أنّ هذه الحاجة هی من أهم حاجاته فی خطّ الإیمان والطاعة والتربیة النفسیة. وتعبیر «خیراً لأنفسکم» بعد الأمر بالانفاق هو إشارة إلی هذه النکتة اللطیفة، وهی أنّ السخاء والانفاق فی سبیل اللّه تعود معطیاته الایجابیة علی الإنسان نفسه حیث تربّی فیه الروح الإنسانیة ویتخلص قلبه من ظلمات الحرص وقیود «البخل»، ویترتب علی ذلک الکثیر من البرکات المادیة والمعنویة فی حیاة الإنسان الفردیة والاجتماعیة. الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۳۵۲ ونختم هذا البحث بذکر حدیث شریف فی تفسیر معنی «الشُّح» عن الإمام الصادق علیه السلام حیث سأل «الفضیل بن عیاض»: هل تعلم معنی «الشحیح» فقال: البخیل، فقال له الإمام «الشُّحُ اشَدُّ مِنَ الْبُخلِ انَّ الْبَخیلَ یَبْخَلُ بِمَا فِی یَدِهِ وَالشّحیحُ یَشُحُّ عَلَی مَا فِی ایْدِی النّاسِ وَعَلَی مَا فِی یَدِهِ حَتَّی لا یَری فِی ایْدِی النّاسِ شَیْئاً الّا تَمَنّی انْ یَکُونَ لَهُ بِالْحِلِّ وَالْحَرَامِ، لا یَشْبَعُ وَلا یَقْنَعُ بِمَا رَزَقَهُ اللَّهُ عَزّوَجَلّ» «۱». «الآیة التاسعة» وضمن استعراضها لمسألة «البخل» تحت عنوان التقتیر تقول فی ذکر صفات عباد الرحمان: «وَالَّذِینَ اذَا انْفَقُوا لَمْ یُسْرِفُوا وَلَمْ یَقْتُرُوا وَکَانَ بَیْنَ ذَلِکَ قَوَاماً» «۲». «یقتروا» من مادّة «قتر» علی وزن «صبر» ویقع هذا المفهوم فی النقطة المقابلة للاسراف، وأحی وفی الواقع فإ

النتیجة:

إن الآیات محل البحث تدلّ علی المفهوم الإسلامی والموقف القرآنی بالنسبة إلی «البخل» وقد ذکرت الآیات الشریفة نماذج من سلوک البخلاء ومصیرهم المشؤوم وعاقبتهم الالیمة والنتائج السلبیة المترتبة علی البخل فی حیاة الإنسان المادیة والمعنویة، وقد ذکرت الآیات الشریفة البخل بعنوان رذیلة أخلاقیة شنیعة من شأنها أن توقع الإنسان فی ورطة الشقاء والتعاسة وتبعده عن «الفلاح» والسعادة المنشودة.

البخل فی منظور الروایات الإسلامیة:

ونقرأ فى الأحاديث الشريفة روايات شديدة، توضح موقف الإسلام من ظاهرة «البخل» منها: ۱- قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله «الْبَخيلُ بَعيدٌ مِنَ اللَّهِ بَعيدٌ مِن النّاسِ، قَريبٌ مِنَ النّارِ» «۱». ۲- وفى حديث آخر يقول أميرالمؤمنين عليه السلام «النَّظَرُ الَى الْبَخيلِ يُقْسِي الْقَلْبَ» «۲». ۳- ونقرأ فى حديث آخر عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله انه كان يطوف بالبيت فإذا رجل متعلق بأستار الكعبة وهو يقول: بحرمة هذا البيت إلّاغفرت لى ذنبى، قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: وما ذنبك؟ صفه لى، قال: هو أعظم من أن أصفه لك، قال: ويحك ذنبك أعظم أم الأرضون؟ قال: بل ذنبى يا رسول اللَّه، قال صلى الله عليه و آله: ويحك ذنبك أعظم أم الجبال؟ قال: بل ذنبى يا رسول اللَّه. قال صلى الله عليه و آله: فذنبك أعظم أم البحار؟ قال: بل ذنبى يا رسول اللَّه، قال صلى الله عليه و آله: فذنبك أعظم أم الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۵۵ السماوات؟ قال: بل ذنبى يا رسول اللَّه، قال صلى الله عليه و آله: ذنبك أعظم أم اللَّه؟ قال: بل اللَّه أعظم وأعلى وأجل. قال: ويحك فصف لى ذنبك، قال: يا رسول اللَّه، إنى رجل ذو ثروة من المال، وأنّ السائل ليأتينى ليسألنى فكأنما يستقبلنى بشعلة من النار، فقال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: إليك عنى، لا تحرقنى بنارك، فوالّذى بعثنى بالهداية والكرامة، لو قمت بين الركن والمقام، ثمّ صليت الفى ألف عام، وبكيت حتّى تجرى من دموعك الأنهار وتسقى بها الأشجار، ثمّ متّ وأنت لئيم، لأكبك اللَّه فى النار، ويحك أما علمت أنّ اللَّه يقول: «... وَمَن يَبْخَلْ فَانَّمَا يَبْخَلُ عَن نَفْسِهِ ...» «۱». «.. وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» «۲» «۳». هذا الحديث يدلّ بوضوح على أنّ «البخل» هو مصدر لأنواع الذنوب والمفاسد بحيث يبعده عن اللَّه تعالى إلى هذه الدرجة. ۴- وجاء فى حديثٍ آخر عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله أنّه قال: «يَقُولُ قَائِلُكُم الشَّحيحُ أَعْذَرُ مِنَ الظّالِمِ وَأَيُّ ظُلْم أَظْلَمُ عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الشُّحِّ حَلَفَ اللَّهُ بِعِزَّتِهِ وَعَظَمَتِهِ وَجَلالِهِ لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ شَحيحٌ وَلا بَخيلٌ» «۴». ۵- وورد فى حديث آخر عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله «الشُّحُ وَالايمانُ لا يَجْتَمِعانِ فِي قَلْبِ واحِدٍ» «۵». ۶- وورد فى حديث آخر عن النبى صلى الله عليه و آله أيضاً قوله «الْبُخْلُ شَجَرَةٌ تَنْبُتُ فى النّارِ فَلا يَلِجُ النّارُ الّا بَخيلٌ» «۶». ۷- وورد فى أحد الروايات أنّ أحد أصحاب النبى صلى الله عليه و آله استشهد فى ميدان الجهاد الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۵۶ فجاءت امرأة من ذويه وأرحامه تبكيه وتقول يا شهيداه، فقال النبى صلى الله عليه و آله: من أين علمتى انه شهيد، «فَلَعَلَّهُ كَانَ يَتَكَلّمُ بِمَا لا يَعنيهِ اوْ يَبْخَلُ بِمَا لا يَنْقُصُهُ» «۱». هذا الحديث يبين أنّ الكلام بما لا يعنى والبخل ولا سيّما بما لا يضره يتسبب فى سلب أكبر افتخار قد يناله الإنسان ألا وهو الشهادة فى سبيل اللَّه. ۸- وقد ورد فى النصوص الإسلامية عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله كذلك قوله «جَاهِلٌ سَخيٌّ احَبُّ الَى اللَّهِ مِنْ عَابِدٍ بَخيلٍ وَادْوَى الدّاءِ البُخْلُ» «۲». هذا الحديث يوضح أنّ البخل قد يؤدى إلى تلف معطيات العبادة وزوال آثارها الايجابية فى حياة الفرد. ۹- وأيضاً نقل عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أنّه قال: «المُوبِقاتُ ثَلاثٌ شُحٌّ مُطاعٌ وَهَوىً مُتَبَّعٌ وَاعجَابُ المَرْءِ بِنَفِسِهِ» «۳». ۱۰- ونختم هذا الموضوع برواية اخرى عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله رغم وجود روايات كثيرة فى هذا الباب، فقد ورد فى الحديث النبوى أنّ جماعة من الأسرى جيء بهم إلى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فأمر أميرالمؤمنين عليه السلام بضرب أعناقهم ثمّ أمره بإفراد واحد منهم وأن لا يقتله فقال الرجل لم أفردتنى من أصحابى والجناية واحدة؟ فقال: إن اللَّه عزّوجلّ أوحى إليّ أنك سخى قومك ولا اقتلك. فقال الرجل: فانى أشهد أن لا إله إلّااللَّه وأنك رسول اللَّه «۴».

جذور البخل وعلائمه:

إن الجذور الأصلية لهذه الرذيلة الأخلاقية مثل سائر الرذائل الأخلاقية الاخرى تتمثل فى ضعف دعائم الإيمان ومعرفة اللَّه لدى الشخص، فالإنسان إذا اعتقد بأن اللَّه تعالى قادر الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۵۷ على كلّ شيء وإن جميع مفاتيح الخيرات والبركات بيده تعالى يجب أن يتيقن من أنّ اللَّه سيوفى بوعده بالنسبة إلى ما يترتب على الانفاق فى سبيل اللَّه إلى النتائج المادية والمعنوية، فإذا عاش الإنسان بهذه العقيدة، فلا مجال لأن يتلوث قلبه بالبخل أو يتصف قلبه بالامساك. يقول الإمام أميرالمؤمنين عليه

السلام «البُخْلُ بِالمَوجُودِ سُوءُ الظَنِّ بِالمَعْبُودِ» «۱». أى أنّ الإنسان يسىء الظن بما وعد اللَّه تعالى من الثواب على الانفاق والبذل فى سبيله. وفى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «ان كانَ الخَلَفُ مِنَ اللَّهِ عزّوجلّ حَقّاً فَالبُخْلُ لِماذَا» «۲». ونقرأ فى كتاب «فقه الرضا» «ايّاكُمْ وَالبُخْلَ فَانَّهَا عَاهَةٌ لا تَكُونُ فى حُر وَلا مُؤمِنٍ انَّها خِلافُ الإيمانِ» «۳». وورد فى الحديث القدسى عن رسول اللَّه تعالى صلى الله عليه و آله يقول «يَاعَبدِى اتَبَخَّلُنى ام تَتَّهِمُنى أَم تَظُنُّ انّى عَاجِزٌ غَيرُ قَادِرٍ عَلَى اثَابَتِكَ» «۴». أجل، إن الأحرار والمؤمنين والّذين يؤمنون بوعد اللَّه تعالى فإنّهم يعيشون الاطمئنان لقدرة اللَّه تعالى على جميع أنواع الثواب، فلا تهتز لهم يد فى عملية الانفاق فى سبيل اللَّه، ولا يجد البخل إلى أنفسهم سبيلًا، بل يتحركون دائماً فى خطّ الانفاق والجود على عباداللَّه من الفقراء والمساكين والمحتاجين ولا يطلبون الأجر إلّاممن هو قادر على كلّ شىء وكريم بذاته وعليم بحال عباده. ومن العلائم الاخرى للبخل هى الاعتذار بالأعذار المختلفة لتبرير الامساك ومنع البذل للآخرين، البخلاء يتحركون دائماً فى عملية التغطية على هذه الرذيلة الأخلاقية المترسخة الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۵۸ فى أنفسهم من موقع التذرع بالأعذار الواهية بل أنّهم يخدعون أنفسهم أيضاً بمثل هذه الأعذار، وعلى سبيل المثال من كان لديه مالٌ كثير ولكنه غير مستعد للانفاق منه أو إقراض الغير فإنه يتمسك فى هذا المنع بالأعذار من قبيل انه يحتمل اننى سأواجه مشكلة احتاج فيها إلى هذا المال، أو يحتمل أن يقع ابنى مريضاً على الفراش، أو من المحتمل أن يرد علىّ بعض الضيوف، أو أنّ المستقبل الاقتصادى للسوق يتجه إلى الكساد وأمثال ذلك. يقول الإمام على ابن أبى طالب عليه السلام فى هذا الصدد «الْبَخِيلُ مُتَحَجِّجٌ بِالمَعاذِيرِ وَالتَّعالِيلِ» «۱». ويقول فى مكان آخر «كَثْرَةُ العِلَلِ آيَةُ البُخْلِ» «۲». فمن العلائم الاخرى للشخص البخيل هى ستر النعم والمواهب الإلهية بحجج وذرائع مختلفة عن أنظار الناس لكيلا يطلب الناس منه شيئاً منها، وبالطبع فإنّ هذه الحالة فى الكثير من الأوقات تلبس لباس المنطق والدليل من قبيل الخوف من الحسد أو الخوف من الأخطار غير المتوقعة وأمثال ذلك. العلامة الاخرى للبخل هى انه عندما يواجه الأمر الواقع وينفق شيئاً فى سبيل اللَّه فإنه يجد فى نفسه ألماً وحزناً كبيراً وكأنه قد فقد شيئاً عزيزاً عليه أو أحد أحبته.

آثار ونتائج البخل:

إن من بين الصفات الذميمة والرذائل الأخلاقية قلما نجد صفة من الصفات تورث الإنسان مشاكل ومصاعب كالبخل بما له من افرازات سلبية كبيرة فى حركة الحياة والمجتمع، ومن جملة ذلك فان البخيل بالرغم من سعيه لحفظ أمواله وثروته فإنه يتنازل ويفقد الكثير من شخصيته وحرمته بين الناس، وفى هذا الصدد نجد أنّ الروايات الإسلامية الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۵۹ قد أشارت إلى هذا المعنى على نحو الاجمال ومنها: ۱- يقول الإمام على عليه السلام «الْبَخيلُ يَسْمَحُ مِنْ عِرْضِهِ بِاكْثَرِ مِمَّا امْسَكَ مِنْ عَرَضِهِ» «۱». ۲- إن البخيل سوف يفقد باستمرار أصدقائه ورفاقه وبالتالى يصبح وحيداً غريباً أمام المشكلات الكبيرة الّتى تفرزها تحديات الواقع الصعب، وفى ذلك يقول أميرالمؤمنين عليه السلام «لَيْسَ لِبَخيلٍ حَبيبٌ» «۲» ؛ وعلى فرض انه كان له صديق لمدّة قصيرة من الزمان فإنّ «البخل» يتسبب فى الحاق الذلّة لأصدقائه والعزّة لأعدائه كما يقول أميرالمؤمنين عليه السلام «اَلبُخْلُ (البَخيلُ) يُذِلُّ مُصاحِبَهُ وَيُعِزُّ مُجانِبَهُ» «۳». ۳- إن «البخيل» يوقع نفسه فى التعب والضنك دائماً، وفى نفس الوقت فإنّ ورثته هم المستفيدون من عمله وتعبه، فهو فى الدنيا يتعب نفسه فى جمع الأموال، وفى الآخرة يجد نفسه مسؤولًا عنها كما يقول أميرالمؤمنين عليه السلام «الْبَخيلُ خَازِنٌ لِوَرَثَتِهِ» «۴» الورثة الّذين قد لا ينفقون من أمواله درهماً فى سبيل اللَّه وفى سبيل بذل الخيرات والمثوبات له. ۴- «البخيل» يعيش عيشة الفقراء لأن البخل عندما يشتد على الإنسان فإنه يبخل حتّى على نفسه، وبذلك لايجد السعادة والحياة الطيبة والمريحة لأنّه يعيش التفكير الدائم فى كيفية حفظ أمواله وزيادتها، وأحياناً تعرض عليه حالات نفسانية سلبية من قبيل سوء الظن الشديد بمن يحيط به، مثلًا يتصور أنّ الناس ينظرون إليه بعين الطمع ويحسدونه على ما لديه من الأموال والثروات بل ويعادونه أيضاً، وفى الأحاديث الإسلامية نجد أشارات جميلة إلى هذه المسألة، ومن ذلك ما ورد عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: «عَجِبْتُ لِشَقِىَ الْبَخيلِ يَتَعَجَّلُ الفَقْرَ الّذى مِنْهُ هَرَبَ

وَيَفُوْتُهُ الْغِنَى الّذى ايّاهُ طَلَبَ فَيعيشُ فى الدُّنيا عَيشَ الفُقَراءِ وَيُحاسَبُ فِى الآخِرَةِ حِسابَ الاغنياءِ» «۵». الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۳۶۰ وفی حدیثٍ آخر عن رسول اللّه صلی الله علیه و آله أنّه قال: «اقَلُّ النّاسِ راحَةً الْبَخيلُ» «۱». ۵- «البخل» یوجب سوء الشهرة والسمعة ویؤدی إلی تهکم الناس ولعنهم لهذا الشخص البخیل کما قال أمیرالمؤمنین علیه السلام «بِالْبُخْلِ تَكْثُرُ المَسَبَّةُ» «۲». ۶- «البخل» جامعٌ للکثیر من الأخلاق الرذیلة والصفات الذمیمة ویعتبر مصدراً للکثیر من الرذائل الأخلاقیه من قبیل سوء الظن، الحسد، الخوف، الجبن، سوء النیّة وتلوث الباطن وقساوة القلب وما إلی ذلک، یقول أمیرالمؤمنین علیه السلام فی هذا الصدد «النَّظَرُ الَى البَخيلِ يُقْسِىَ الْقَلْبَ» «۳». وورد حدیث آخر جامع لمساوىء البخل، یقول أمیرالمؤمنین علیه السلام «الْبُخْلُ جَامِعٌ لِمَساوِى العُيوبِ وَهُوَ زِمامٌ يُقادُ بِهِ الَى كُلِّ سُوءٍ» «۴».

درجات البخل:

إن حال «البخل» کحال سائر الصفات الرذیلة فی أنّ له درجات ومراتب، وبعض هذه المراتب قد تکون خفیة إلی درجة تخفی حتّی علی الشخص نفسه وتخفی علی الآخرین أیضاً، وهناک بعض المراتب إلی درجة من الوضوح بحیث إن کلّ إنسان یدرکها حتّی الأطفال. بعض الناس یبخلون بأموالهم فحسب أی أنّهم غیر مستعدین بأن ینتفع الآخرون بأموالهم بأی مقدارٍ کان، والبعض الآخر یتجاوز هذا الحدّ فیبخل بأموال الناس أیضاً، أی انه لو رأی أنّ شخصاً یقوم بالبذل والانفاق علی الآخرین فإنه یتألم بذلک، وبعض آخر یتجاوز هذه المرحلة أیضاً فکلما رأی کرماً من الناس حتّی علی نفسه فإنه یتألم بذلک وهذا أعجب أشکال البخل. الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۳۶۱ ومن جهة اخری فإنّ البعض یبخلون فی الامور المادیة، والبعض الآخر فی الامور المعنویة کمن یبخل فی بذل العلم والمعرفة، وبعض الناس یبخلون فی الموضوعات المهمة من قبیل بذل الأموال الکثیرة، فی حین أنّ البعض الآخر یبخلون حتّی بالمسائل الجزئیة من قبیل السلام، والبعض قد یبخل فی العطاء والانفاق المستحب فی حین أنّ هناک من یبخل حتّی فی الواجبات مثل أداء الخمس والزکاة، وبعض البخلاء لا یتحرکون فی تبریر بخلهم وامساکهم بینما نجد البعض الآخر یتسترون علی هذا الامساک والاقتار بالتمسک بعناوین ظاهریة من قبیل عدم الاسراف أو تأمین نفقات الابناء أو الابتعاد عن الریاء والتظاهر أو التشکیک فی استحقاق المستحقین وأمثال ذلک. وعلی هذا فإنّ للبخل فروع متعددة وأشکال مختلفة، وینبغی علی المؤمن المتقی مراقبة جمیع هذه الاشکال والحذر منها والتصدی لها بإبعادها عن نفسه والحذر من التلوث بها کیما یحصل علی مقام القرب الإلهی والکمال المعنوی فی حرکة الحیاة. ونجد فی الروایات الإسلامیة اشارات لطیفة إلی أشکال وفروع البخل هذه ومنها: ۱- ما ورد عن الإمام أمیرالمؤمنین علیه السلام أنّه قال: «الْبُخْلُ بِاخْراجِ مَا افْتَرَضَهُ اللّهُ سُبْحَانَهُ مِنَ الامْوَالِ اقْبَحُ البُخلِ» «۱». ۲- وورد فی حدیثٍ آخر أنّ الإمام علی علیه السلام بعث إلی رجل بخمسة أوساق من تمر ... فقال رجل لأمیرالمؤمنین علیه السلام: واللّه ما سألک فلان ولقد کان یجزیه من الخمسة أوساق وسق واحد، فقال له أمیرالمؤمنین علیه السلام: لاکثّر اللّه فی المؤمنین ضربک، أعطی أنا وتبخل أنت ...» «۲». ۳- وجاء فی الحدیث الشریف عن رسول اللّه صلی الله علیه و آله أنّه قال: «انَّ ابْخَلَ النّاسِ مَنْ بَخِلَ بِالسَّلامِ» «۳». الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۳۶۲ ۴- وفی الحدیث عن النبی الأکرم صلی الله علیه و آله أنّه قال: «الْبَخيلُ حَقّاً مَنْ ذُكِرْتُ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَىَّ» «۱». ۵- ویستفاد من بعض الروایات أنّ بعض مراحل البخل ینطوی تحت عنوان «اللئیم» وهو الّذی یعیش الدرجة الشدیدة من البخل کما قال رسول اللّه صلی الله علیه و آله: «الرِّجالُ أرْبَعَةٌ سَخىٌّ وَكريمٌ وَبَخيلٌ وَلَئيمٌ، فَالسَّخىُ الّذى يَأْكُلُ وَيُعْطِىَ وَالكَريمُ الّذى لا يَأْكُلُ وَيُعطِىُ وَالبَخيلُ الّذى يَأْكُلُ ولايُعطِىُ واللّئيمُ الّذى لا يَأكُلُ ولايُعطِىُ» «۲».

الوقایة من البخل وعلاجه:

کما أنّ الأمراض البدنیة یتم التصدی لها والوقایة منها بالبحث عن جذورها وأسبابها فکذلک الحال فی الأمراض الأخلاقیة، لأنّه ما لم

تقلع جذور المرض فإنّ عناصر المرض تراوح فی مکانها وسوف تظهر فی آونة اخری بالرغم من زوال آثارها بشکل مؤقت. وبما أنّ دوافع «البخل» متعددة وکثیرة، فینبغی البحث عن جذور هذا المرض لأن البعض یعیشون التعلّق الشدید بشهوات الدنیا، وبما أنّ الأموال هی الوسیلة للوصول إلی هذه الشهوات فإنّهم یتعلقون بها ویعشقونها إلی درجة أنّهم غیر مستعدین لبذل أی مقدار منها، هؤلاء الأشخاص یجب علیهم قطع هذه العلاقة الشدیدة بتوجیه النفس واشغال العواطف بامورٍ اخری والتفکر فی العواقب الألیمة للخوض فی الشهوات وما یقع فیه أهل الدنیا من المشاکل والازمات، وعند ذلک یتحفظون من السیر فی هذا الخط المنحرف. الدافع الآخر للبخل هو طول الأمل، فإنّ الآمال الطویلة تدعو الإنسان إلی جمع المال والبخل فی انفاقه، فلو أنّ هذا الإنسان قطع آماله وطموحاته وأدرک أهتزاز الدنیا وتذبذبها وعدم استقامتها علی حالٍ واحد، ورأی الأشخاص الّذین رحلوا عن هذه الدنیا بحوادث الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۳۶۳ مختلفة وأمراض متنوعة بدون انذار أو مقدمات وقد کانت لدیهم أعمال وطموحات طویلة وعریضة فی هذه الدنیا، فإنّ ذلک من شأنه أن یحد من حالة «البخل» لدی هذا الإنسان. الباعث الآخر للبخل هو التعلق والعشق للأولاد والأهل والعیال حیث یدفعه ذلک إلی جمع الأموال وادخارها تحسباً لمستقبلهم فی حین أنّ اللّه تعالی قد ضمَّن رزقهم ومعیشتهم، فلو کانوا من أولیاء اللّه وأحباءه فإنّ اللّه تعالی سوف لا یترکهم لوحدهم ولحالهم، ولو کانوا من أعداء اللّه فإنّ جمع المال لمثل هؤلاء الأشخاص سیکون أداة لتوغلهم فی الذنوب والآثام وستقع مسؤولیة ذلک علیه، فلیس من العقل والمنطق أن یجمع الإنسان المال ویدخره لمثل هؤلاء الأشخاص، وبالطبع أحیاناً نجد بعض الأشخاص وبسبب لیاقتهم الذاتیة فإنّهم یتمتعون بعیشة حسنة وطیبة من دون أن یرثوا درهماً واحداً من والدیهم بل قد یعیشون أفضل من حیاة الّذین ورثوا أموالًا طائلة من أبیهم. والباعث الآخر لذلک کما یقول بعض علماء الأخلاق هو ما یشبه المرض من دون علاج، أی أنّ البعض یحب المال من أجل نفس المال ویعشقه ویسعی دائماً لجمعه والاکثار منه ویستوحش من بذله وانفاقه، هؤلاء اصابتهم حالة من النسیان والغفلة عن أنّ المال إنما هو وسیلة للتوصل إلی الأغراض المادیة أو المعنویة، وألا فلو استخدم فی غیر هذا السبیل وأصبح بحدّ ذاته هدفاً یجمعه الإنسان فإنه لا یختلف حاله مع الحجر والخشب والآجر. امّا الطریق إلی الوقایة من «البخل» فإنّ علی الشخص البخیل أن یجاهد نفسه ویعض علی نواجذه وینفق من أمواله مهما مانعته نفسه من ذلک، وکلما تکرر منه هذا العلم فإنّ العشق للمال سوف یذوب ویتلاشی من قلبه ومشاعره، کما هو الحال فی الشخص الجبان الّذی إذا دخل میادین الحیاة من موقع مواجهة التحدیات للواقع والمعیشة، فإنّ ذلک الخوف سوف یزول ویتلاشی بالتدریج، وهکذا بالنسبة إلی الشخص الخجول حیث إنه إذا دخل مجالس الکبار ودفع بنفسه إلی التحدّث فی مثل هذه المجالس مرّات عدیدة فسوف تزول منه حالة الخجل هذه. الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۳۶۴ ومن الطرق الاخری هی التفکر فی کراهیة الناس وانزجارهم من الشخص البخیل والأشخاص الّذین لا یعیشون حالة الکرم والبذل، فإنّ الناس یتعاملون معهم علی مستوی أنّهم أشخاص غیر مرغوب بهم ولا یحترمونهم کما یحترمون الاسخیاء والکرماء من الناس، وأحد طرق علاج «البخل» والابتعاد عن هذه الرذیلة الأخلاقیة هو التفکّر فی العواقب الوخیمة والآفاق السلبیة الکبیرة لحالة البخل حیث یترتب علی ذلک أن یتخلص الإنسان تدریجیاً من هذه الحالة الذمیمة. وفی هذا الصدد یقول أمیرالمؤمنین علیه السلام «البَخیلُ یَبْخَلُ عَلَی نَفْسِهِ بِالیَسیرِ مِن دُنیاهُ وَیَسمَحُ لِوُرّاثِهِ بِکُلِّها» «۱». وجاء فی حدیثٍ آخر عن الإمام الصادق علیه السلام أنّه قال: «مَن بَرِءَ مِنَ البُخلِ نالَ الشَّرَفَ» «۲». فالتفکر فی کلّ هذه الامور بإمکانه أن یخلص الإنسان من أسر البخل وخاصّة إذا التفت إلی الروایات الشریفة الّتی تقرر أنّ البخل لا یجتمع مع الإیمان إطلاقاً. ۱۸

الجود والسخاء

تنویه:

تقع هاتین المفردتین «الجود والسخاء» فی مقابل البخل، وتستعملان غالباً بمعنی واحد، ولکن أحیاناً یستفاد من بعض کلمات العلماء

أنّ الجود لنفس المرحلة أعلى من السخاء، لانه ورد فى تعريف الجود انه «البذل بدون طلب وفى نفسه يرى ما بذله قليلًا» وقيل أيضاً فى تعريفه «الجود هو الفرح من طلب الناس والسرور من العطاء لهم» وقال البعض أيضاً «الجود هو بذل المال بأن يراه مال اللّه والسائل عبداللّه ويرى نفسه فيما بينهما واسطة فقط» فى حين أنّ السخاء له معنىً واسع ويشمل كلّ أنحاء البذل والعطاء. وذكر البعض فى تعريفهما أنّ «الشخص الّذى يهب قسماً من أمواله إلى الغير ويبقى لنفسه القسم الآخر فهو السخى، والشخص الّذى يهب أكثر ماله إلى الغير ويبقى مقداراً قليلًا منه لنفسه فهو الجواد» ويتبين طبقاً لجميع هذه التعاريف أنّ «الجود» مرحلة أعلى من «السخاء». وعلى أية حال فإنّ «الجود والسخاء» من الفضائل الأخلاقية المهمة، وكلّما كان «البخل» من علامات الدناءة والحقارة وضعف الإيمان وفقدان الشخصية للإنسان البخيل كان الجود والسخاء من علائم الإيمان وقوّة الشخصية وسمو المكانة الاجتماعية للشخص. الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۶۶ اما فى القرآن الكريم رغم أنّ كلمة «الجود» أو «السخاء» لم تستخدم فى سياق الآيات الكريمة، ولكن التعبيرات الاخرى للآيات تنطبق على هذين المفهومين حيث يتبين جيداً أنّ القرآن الكريم يعطى أهمية بالغة لهما، وكنموذج على ذلك نورد هذه الآيات الشريفة: ۱- «... يُحِبُّونَ مَن هاجَرَ اَلَيهِم وَلايَجِدُونَ فِى صُدورِهِم حَاجَةً مِمَّا اوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى انْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِم خَصَاصَةٌ ...» «۱». ۲- «وَيُطْعِمُونَ الطَّعامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتيماً وَاسيراً* إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزاءً وَلَا شُكوراً» «۲». ۳- «مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ» «۳». ۴- «الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِالَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَاخَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَاهُمْ يَحْزَنُونَ» «۴». ۵- «لَنْ تَنَالُواْ ا لْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَاتُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ» «۵». ۶- «الَّذِينَ يُؤمِنُونَ بِالغَيبِ وَيُقيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُون» «۶». ۷- «وَلَا تَجْعَلَ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ البَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً» «۷».

تفسير واستنتاج:

سيماء الكرماء فى القرآن

«الآية الاولى من الآيات محل البحث تتحدّث عن طائفة من الكرماء الأنصار فى الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۶۷ المدينة الّذين استقبلوا المهاجرين إليهم من مكّة برحابة صدر واستضافوهم فى بيوتهم وفضلوهم على أنفسهم بل حتّى أنّهم قالوا: نحن على استعداد لتقديم أموالنا وبيوتنا بيننا وبين المهاجرين ولا نطمع بشىءٍ من الغنائم الحربية. القرآن الكريم يستعرض حالة هؤلاء المؤمنين فى الآية الشريفة فيقول «... يُحِبُّونَ مَن هاجَرَ اَلَيهِم وَلايَجِدُونَ فِى صُدورِهِم حَاجَةً مِمَّا اوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى انْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِم خَصَاصَةٌ ...» «۱». وقد ذكر بعض المفسّرين المعروفين أنّ التاريخ البشرى لم يعرف مثل هذا الاستقبال والحفاوة لجماعة من الغرباء لدى دخولهم إلى مدينة من المدن حيث استقبلهم المؤمنون استقبالًا عظيماً حتّى أنّهم كانوا يفضلوهم على أنفسهم وسعوا إلى تقسيم كلّ ممتلكاتهم معهم بالسوية بل ورد فى بعض الروايات أنّ عدد المهاجرين كان أقل من المستعدين لضيافتهم وكان ذلك سبباً فى حدوث خلاف بينهم فى نيل افتخار الضيافة. فكانوا يقترعون فيما بينهم على ذلك «۲». وعلى أية حال فإنّ اللّه تعالى قد مدح هذا الخلق الكريم وأثنى على هذا الايثار والسخاء بهذه العبارات الكريمة. «الآية الثانية» تتحدّث عن الكرماء الّذين قدموا طعامهم إلى المسكين واليتيم والأسير فى حين أنّهم محتاجون إليه بشدّة ومن دون طمع فى أجرٍ وثناء من الطرف المقابل «وَيُطْعِمُونَ الطَّعامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتيماً وَاسيراً* إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزاءً وَلَا شُكوراً» «۳». وهناك روايات كثيرة من طرق الشيعة وأهل السنّة تتحدّث عن أنّ الآيات ۸- ۹ من الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۶۸ سورة الدهر نزلت فى أهل البيت عليهم السلام، كما ذكر العلّامة الأمينى فى كتابه «الغدير» عن أربع وثلاثين نفر من علماء السنّة المعروفين وأنّهم ذكروا هذا الحديث الشريف فى كتبهم (مع ذكر اسم الكتاب ورقم الصفحة). وعلى هذا فإنّ الحديث المذكور مشهور بين أهل السنّة بل متواتر، وأما علماء الشيعة فهو محل اتفاق وأنّ جميع سورة الدهر أو قسم مهم منها نزلت فى أهل بيت النبى صلى الله عليه و آله وهم «على وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام». ولدى التأمل

والتدقيق فی آيات سورة الدهر يتضح جيداً أنّ اللّه تعالى قد ذكر هؤلاء الكرماء من موقع التمجيد والثناء والمدح ووعدهم جزيل الثواب فی الآخرة ووصفهم بأوصاف سامية، فتارةً وصفهم بأنّهم «أبرار»، وفی مكانٍ آخر ذكرهم بعنوان «عباد اللّه». «الآية الثالثة» تتحرك من موقع التشويق والترغيب الشديد لمسألة الانفاق والبذل وتثنی على الكرماء والاسخياء بتعابير فی غاية العلو والجمال وتقول «مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَا لَهُمْ فِی سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِی كُلّ سُنۢبُلَةٍ مّاْ ئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ» «۱». فلو أننا أخذنا بظاهر الآية ولم نرتكب بعض التأويل والحذف والتقدير للمفهوم منها فإنّ الآية الشريفة تدلّ على أنّ روح المنفق والمحسن تنمو أو تشتد إلى درجة كبيرة بعملية البذل والانفاق كما أنّ أمواله تتضاعف وتتكاثر عدّة أضعاف بسبب الانفاق وكذلك يتصاعد الإنسان الكريم فی مدارج الكمال بسرعة كبيرة وحتّى أنّ الخطوات الصغيرة فی هذا السبيل تترتب عليها آثار عظيمة ونتائج كبيرة. وعلى هذا الأساس فإنّ الانفاق والبذل مضافاً إلى أنّه يُعد قوّة تصعد بالإنسان فی مدارج الرشد والكمال المعنوی والإنسانی للمجتمع البشری، فكذلك هو الحال بالنسبة إلى الشخص نفسه. الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۳۶۹ وقد ورد فی الرواية الشريفة عن الإمام زين العابدين عليه السلام انه كلّما جاءه سائل وأعطاه من ماله فإنه يُقبل يد السائل، فلمّا سُئل عن سبب ذلك قال «لِانَّها تَقَعُ فِی يَدِ اللَّهِ قَبْلَ يَدِ العَبدِ» «۱». «الآية الرابعة» وضمن الإشارة إلى نكتة مهمة فی دائرة الانفاق تقول «الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَا لَهُم بِالَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرّاً وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبّهِمْ وَلَاخَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَاهُمْ يَحْزَنُونَ» «۲». وعلى هذا الأساس فإنّ «السخاء» و «الانفاق» فی سبيل اللّه بأی شكل كان فإنه مطلوب ومحبوب، ومن جهة اخرى فإنّ «الانفاق» يورث الإنسان الأمن من عذاب اللّه ويزيل الهمّ والحزن من قلبه، فالأشخاص الكرماء لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون لأن اللّه تعالى قد ضمن رزقهم وسعادتهم فلا يحزنون على ما بذلوه فی سبيل اللّه لانهم يعلمون انما ينتظرهم من فضل اللّه تعالى أكثر وأكثر ممّا بذلوه فی هذه الحياة الدنيا. «الآية الخامسة» تقرر هذا المعنى بتعبير آخر وتتحدّث عن الانفاق بالقول «لَنْ تَنَالُواْ ا لْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَاتُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ» «۳». وفی لغة العرب فإنّ كلمة «بر» تأتی بمعنى الاحسان المقارن للقصد والاختيار، وهذه من علامات شخصية الإنسان ومعنويته، واللطيف أنّ «البر» فی هذه الآية جاء بشكل مطلق، وهذا يدلّ على أنّه ما لم يكن الإنسان سخياً وكريماً فإنه لا يصل إلى حقيقة البر والاحسان، رغم أنّ بعض المفسّرين فسّر كلمة «البرّ» بمعنى الجنّة، وبعض آخر ذكر أنّها بمعنى «التقوى و «الثواب الجزيل» ولكنَّ الظاهر أنّ مفهوم البرّ واسعٌ يشمل جميع ما ذُكر له من مصاديق. الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۳۷۰ «الآية السادسة» تقرر أنّ الانفاق مضافاً إلى انه أحد الأركان المهمة للتقوى وأنّه مصدر الهداية الإلهية للمؤمنين، تقول: «الَّذِينَ يُؤمِنُونَ بِالغَيبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُون» «۱». ومع ملاحظة أنّ «ينفقون» جاءت بشكل فعل مضارع، ومفهومها أنّ هؤلاء ينفقون من المواهب الإلهية والعطايا الربانية الّتی لديهم بصورة مستمرة، وهذا يدلّ على كرمهم وسخائهم المتجذر فی نفوسهم بحيث اصبح ملكة إنسانية وصفة كريمة لديهم. فتعبير «مما رزقناهم» يشير إلى نكتة لطيفة فی المقام، وهی أنّ هؤلاء يرون أنّ جميع ما لديهم من الأموال والنعم هی مواهب إلهية ومن مال اللّه، وعليه فلا دليل على البخل فی بذل شیءٍ منها إلى الفقراء والمساكين والمحتاجين، ويتضح أيضاً من ذلك أنّ «الانفاق» لا ينحصر بالزكاة بل يستوعب معنیً أكبر من ذلك بحيث يشمل الصدقات الواجبة والمستحبة. «الآية السابعة» والأخيرة من الآيات محل البحث وضمن الأمر بضرورة رعاية الاعتدال فی البذل والعطاء والابتعاد عن الافراط والتفريط تصور لنا صياغة للسخاء والكرم الّذی هو الحدّ الوسط بين البخل والإسراف وتقول: «وَلَا تَجْعَل يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ البَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً» «۲». وقد ورد فی الحديث الشريف عن الإمام الصادق عليه السلام بيان هذا المطلب فی مثال جميل حيث قال أخذ الإمام عليه السلام قبضة من التراب من الأرض وأمسك عليها بشدة وقال: هذا هو البخل، ثمّ أخذ قبضة اخرى وفتح يده إلى درجة أنّ جميع التراب انثال على الأرض فقال: هذا هو الإسراف، وفی الثالثة أخذ قبضة وقلب كفه نحو السماء وفتحها فوقع شیء من الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۳۷۱ التراب من بين أصابعه وأطراف كفه على الأرض فقال عليه السلام: «القوام ما يخرج من بين الأصابع ويبقى فی الراحة منه شیء» «۱». وفی الآية مورد البحث ورد التعبير عن البخل بأنه «اليد المغلولة إلى العنق»، وعبّرت الآية عن الإسراف بقولها «تبسطها كلّ البسط»،

وبذلك تحدّثت عن هذين المفهومين من موقع الذمّ والتوبيخ وذكرت فی هذا السبيل عاقبة هذين السلوكين بقولها «ملوماً محسوراً». ومن مجموع الآيات الشريفة المذكورة آنفاً والّتی تحدّثت عن السخاء والانفاق والبذل وما ورد فی تفسيرها يتضح جيداً عظمة وأهمية هذه الصفة الإنسانية والسامية من بين الصفات الأخلاقية والقيم الإنسانية حيث إنّ الجود والكرم والسخاء لا تتسبب فی سعادة المجتمعات البشرية ومحاربة الفقر وأنواع الحرمان والّتی هی بدورها تكون منشئاً للكثير من الذنوب والسلبيات الاخری فحسب، بل لها دورٌ مهم فی تكامل الإنسان المعنوی والروحی فی خط التقوی والانفتاح علی الحقّ.

السخاء فی الروايات الإسلامية:

وقد ورد فی الروايات الإسلامية تعبيرات كثيرة وشامخة حول الجود والسخاء يقل نظيرها بالنسبة إلی الصفات الاخری، ونختار منها نماذج لبيان هذا المضمون والمحتوی ۱- ورد فی الحديث الشريف عن النبی الأكرم صلی الله عليه و آله أنّه قال: «السَّخاءُ خُلْقُ اللَّهِ الاعْظَمُ» «۲». وفی الحقيقة أنّ جميع أشكال السخاء والكرم فی عالم الوجود ما هو إلّاتجليات للكرم الإلهی الواسع لأن كلّ ما لدينا فهو من اللَّه تعالی من أنواع النعم والمواهب، الأرض والسماء، الحياة ومتعلقاتها الكثيرة وكلّ شیء فهو من نعمه وكرمه، وكلّ كرم فهو فرعٌ من ذلك الأصل اللامتناهی والأبدی، لأنّه لو لم نحصل علی نعمة وموهبة من اللَّه تعالی فليس بامكاننا بذل الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۳۷۲ شیء منها، وحتّی صفة الجود والكرم هی من مواهبه ونعمه علی الإنسان. ۲- يقول الإمام الصادق عليه السلام «السَّخاءُ مِن اخْلَاقِ الْانْبِيَاءِ وَهُوَ عِمَادُ الْايْمَانِ وَلَا يَكُونُ المُؤمِنُ الّا سَخِيّاً وَلايَكُونُ سَخِيّاً الّا ذُو يَقينٍ وَهِمَّة عَالِيَةٌ لَانَّ السَّخاءُ شُعاعُ نُورِ اليَقينِ، وَمَنْ عَرَفَ مَا قَصَدَ هانَ عَلَيْهِ مَا بَذَلَ» «۱». ويستفاد من هذا الحديث أنّ هذه الصفة السامية تتمثل أوّلًا فی وجود الأنبياء كصفة كريمة من الصفات الأخلاقية العالية ومن علامات الإيمان واليقين للمؤمن. ۳- ونقرأ فی حديث آخر عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: «تَحَلَّ بِالسَّخاءِ وَالْوَرَعِ فَهُما حِلْيَةُ الإيمَانِ وَاشْرَفُ خَلالِكَ» «۲». وهذا الحديث يبين أنّ هذه الصفة الشريفة من أفضل صفات المؤمن علی الاطلاق. ۴- وورد فی حديثٍ آخر عن هذا الإمام عليه السلام أيضاً أنّه قال: «السَّخاءُ ثَمَرَةُ العَقْلِ وَالقَناعَةُ بُرهانُ النُبْلِ» «۳». فالأشخاص الّذين يمتنعون عن بذل شیءٍ ممّا لديهم إلی الآخرين ويسعون لجمع الأموال الطائلة ثمّ يتركونها ويرحلون إلی العالم الآخر، فهم فی الحقيقة ليسوا بعقلاء لأنهم لم يحصلوا من جزاء ذلك سوی علی التعب والنصب ولن ينتفعوا من أموالهم علی المستوی المادی والمعنوی، فأیُّ عقلٍ يرتكب مثل هذه الحماقة؟! ۵- وفی تعبير آخر عن هذا الإمام فی بيانه لأهمية «السخاء» يشير إلی نقطة لطيفة اخری ويقول «غَطُّوا مَعايِبَكُم بِالسَّخاءِ فَانَّهُ سَتْرُ العُيوبِ» «۴». وقد ثبت بالتجربة صدق هذا الكلام الحكيم حيث نری أشخاصاً لهم عيوب كبيرة ولكنَّ الناس مع ذلك يحترمونهم من أجلِ كرمهم وجودهم. الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۳۷۳ ۶- وفی تعبير آخر عن هذا الإمام عليه السلام يقول «السَّخاءُ يَمْحَصُ الذُّنُوبَ وَيَجْلُبُ مَحَبَّةَ الْقُلُوبِ» «۱». وهذا التعبير يدلّ علی أنّ السخاء كفّارة للكثير من الذنوب. ۷- ويقول مولی الموحدين الإمام علی عليه السلام فی بيانه للتأثير العميق للسخاء فی جذب قلوب الناس ومحبتهم «مَا اسْتَجْلَبَتِ المَحَبَّةُ بِمِثلِ السَّخاءِ وَالرِّفْقِ وَحُسْنُ الخُلْقِ» «۲». ۸- ويقول رسول اللَّه صلی الله عليه و آله فی هذا الصدد «السَّخیُّ قَريبٌ مِنَ اللَّهِ قَريبٌ مِنَ النّاسِ قَريبٌ مِنَ الجَنَّةِ» «۳». ۹- وفی حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «شَابٌّ سَخیٌّ مَرْهَقٌ فی الذُّنُوبِ احَبُّ الَی اللَّهِ عَزّوَجلّ مِنْ شَيخٍ عَابِدٍ بَخيلٍ» «۴». ومن المعلوم أنّ «السخاء» هو يتسبب فی الامدادات الإلهية للإنسان وبالتالی فإنه يفضی إلی انقاذ ذلك الشاب الملوث بالذنوب من واقعه المزری، ولكنَّ ذلك الشيخ العابد والبخيل يغرق فی الذنوب بسبب بخله. ۱۰- ونختم هذا البحث بحديثٍ شريف عن النبی الأكرم صلی الله عليه و آله حيث يقول «تَجَافُوا عَنْ ذَنْبِ السَّخی فَانَّ اللَّهَ آخِذٌ بِيَدِهِ كُلَّما عَثُرَ» «۵». ومن مجموع الأحاديث الشريفة المذكورة آنفاً تتبين الأهمية الكبيرة للسخاء فی كلمات المعصومين عليهم السلام حيث رأينا أنّ هذه الفضيلة تتميز من بين سائر الفضائل الأخلاقية علی مستوی الأهمية والفضيلة.

معطيات السخاء:

إنّ الآفاق والمعطيات الإيجابية للسخاء ثابتة بالتجربة فى حياة الإنسان الفردية والاجتماعية، وقد مرّت الإشارة إليها فى الأحاديث الإسلامية أيضاً، وهى معطيات كثيرة منها: ۱- ما يستفاد من الروايات المتعددة والتجارب الكثيرة ان السخاء يولد المحبّة فى قلب الصديق والعدو وبالتالى فإنه يزيد من كثرة الأصدقاء ويقلل من عدد الأعداء. ۲- إنّ «السخاء» يعد ستاراً على عيوب الشخص وبالتالى يحفظ ماء وجهه وحيثيته فى أنظار الناس والمجتمع. ۳- إن السخاء فى الوقت الّذى هو ثمرة من ثمار شجرة العقل فإنه يزيد من عقل الإنسان أيضاً، فالعقل يقول: انه لا معنى لأن يتعب الإنسان فى جمع الأموال وتكديسها وبالتالى تركها للورثة بدون أن يستفيد منها فى تحصيل الثواب وكسب الوجاهة بين الناس، ومن جهة اخرى فإنّ «السخاء» بإمكانه أن يجمع العلماء حول هذا الإنسان السخى وبالتالى يمكنه الاستفادة من أفكارهم وعقولهم وعلومهم. ۴- إن «السخاء» يتسبب فى تقليل الفاصلة بين طبقات المجتمع وبذلك يعمل على إزالة حالات التوتر النفسى المتولدة من حالات الصراع الطبقى أو يقلل من حدتها وتأثيرها، ويطفىء نار الحقد على الأثرياء فى قلوب المحرومين ويقلل من حس الانتقام لديهم، وبذلك يعمل على توطيد عنصر المحبّة والمودّة بين أفراد المجتمع. ۵- إن «السخاء» يؤدى إلى زيادة أنصار الإنسان السخى ويحفظ له وجاهته وسمعته فى المجتمع، ويدفع عنه شرَّ الأعداء والمغرورين، فلذلك يقول أميرالمؤمنين عليه السلام «الْجُودُ حَارِسُ الْاَعْرَاضِ» «۱». ۶- إن الجود و «السخاء» لهما من الآثار والمعطيات المعنوية الكبيرة جدّاً، ولهذا السبب فإنّها من صفات الأنبياء بالخصوص كما قرأنا فى الروايات السابقة، والسخاء شعاعٌ لنور الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۷۵ اليقين، وحتّى لو كانت هذه الفضيلة لدى الأشخاص الّذين يعيشون البعد عن الإيمان والتقوى فإنّ ذلك سيكون مفيداً لهم، وفى حديثٍ شريف أنّ اللّه تعالى أوحى للنبى موسى عليه السلام بأنه «لا تَقْتُلُ السَّامِرِىَّ فَاَنَّهُ سَخِىٌّ» «۱». ومن المعلوم أنّ السامرى تسبب فى فساد عظيم فى بنى إسرائيل واشاع فيهم دين الوثنية وعبادة الاصنام وفى النهاية عاش طريداً وحقيراً إلى درجة انه ربما رجّح الموت على الحياة، ولكن مع ذلك فإنّ اللّه تعالى أوحى لموسى عليه السلام أنّ يحفظ دمه ولا يقتله لسخاءه وكرمه. وقد نقل عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله أنّه قال لعدى ابن حاتم الطائى «دُفِعَ عَن أَبَيكَ العَذابُ الشَّديدُ لِسَخاءِ نَفْسِهِ» «۲». وفى ذيل هذا الحديث ورد أنّ رسول اللّه عليه السلام أمر بقتل جماعة من الجناة القتلة فى أحد الغزوات واستثنى منهم واحداً، فتعجب ذلك الرجل وقال: إن جنايتنا واحدة، فلماذا لم تأمر بقتلى؟ فقال له النبى صلى الله عليه و آله: إن اللّه تعالى أوحى إلىّ بانك كريم قومك ولا ينبغى أن أقتلك. فلمّا سمع الرجل هذا الكلام من النبى اسلم وتشهد الشهادتين، أجل فإنّ سخاء هذا الرجل قاده إلى الجنّة. ورد عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله قوله: «السخىّ محبب فى السماوات، محبب فى الأرض ... والبخيل مبغض فى السماوات ومبغض فى الأرضين» «۳».

حدود السخاء:

إن السخاء كسائر الصفات والأفعال الحسنة لابدّ له من مقدار بحيث إذا تجاوز الإنسان ذلك المقدار وقع فى الإفراط وبالتالى يكون من الرذائل، فلا ينبغى أن يؤدى السخاء إلى الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۷۶ الاضرار بشخصية الإنسان ووجاهته وحيثيته ووجاهة من يلوذ به أيضاً. يجب أن يكون «السخاء» فى الأموال الحلال لا- فى الأموال الّتى يحصل عليها الإنسان من الطريق الحرام والظلم والعدوان مثل سخاء الكثير من السلاطين والملوك الجبابرة وامراء الجور. وكذلك لا ينبغى أن يكون «السخاء» فى الأموال المتعلقة ببيت المال، لأن أموال بيت المال ينبغى فيها الدقّة فى الحساب ورعاية العدالة فيها.

طرق تحصيل ملكة السخاء:

إن هذه الفضيلة الاجتماعية كسائر الفضائل الاخرى تحصل فى نفس الإنسان بالتعليم والتربية والتفكر والممارسة العملية. إذا توجه الإنسان والتفت إلى هذه الحقيقة، وهى أنّ هذه الأموال والثروات أمانة إلهية بيده ولا دوام لها، فهذا العلم يدفع الإنسان إلى البذل

والعطاء ويحسب ذلك وكأنه يضع هذه الأموال فى صندوق أمين يحفظها ليوم الحاجة والفاقة، وكذلك التأمل فى آثار وبركات السخاء ومعطياته المهمة فى واقع الإنسان وحياته فإنّ ذلك يمكنه أن يكون مؤثراً فى تحريك عامل الشوق بالبذل والسخاء. إن مطالعة تاريخ حياة الكرماء والبخلاء وسيرتهم والمقارنة بين هاتين الطائفتين من الاحترام الكبير والشخصية النافذة لدى الناس بالنسبة إلى الطائفة الاولى، والذلّة والحقارة والدناءة وسوء السمعة الّتى تحدق بالطائفة الثانية، كلّ ذلك من شأنه أن يورث الإنسان «السخاء» فى دائرة السلوك الأخلاقى. هذه الامور هى من البعد النظرى للمسألة، اما من حيث البعد العملى فإنّ الإنسان كلّما مارس هذا العمل أكثر وتمرّن عليه فى واقعه الاجتماعى فان هذه الفضيلة سوف تتعمق فى نفسه حتّى تحصل له ملكة الجود والسخاء، لأن تكرار الأعمال الكريمة والتحرّك من موقع البذل والعطاء فى التعامل مع الناس حتّى لو كان ذلك شاقاً على النفس فإنّه سيكون الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۷۷ بالتدريج عادة، ثمّ يتحول إلى حالة، وبالتالى يكون ملكة أخلاقية فى واقع النفس. وضمناً فإنّ عملية تربية الوالدين والمعلم والاستاذ مؤثرة كثيراً فى هذا المجال، فلو أنّهم عودوا الطفل حالة الجود والسخاء منذ الطفولة فإنّ هذه الملكة الأخلاقية سوف تمد جذورها إلى أعماق نفوسهم وقلوبهم وتكون فى الكبر جزءاً من شخصيتهم، ويذكر فى حالات «الصاحب بن عبّاد» أنّه كان فى أوان صغره إذا أراد المضىّ إلى المسجد ليقرأ تعطيه والدته ديناراً ودرهماً كلّ يوم وتقول له تصدّق بها على أوّل فقير تلقاه فجعل هذا دأبه فى شبابه إلى أن كبر وماتت والدته. وكان لا يدخل عليه فى شهر رمضان بعد العصر أحد كائناً من كان فيخرج من داره إلّابعد الافطار عنده وكانت داره لا تخلو فى كلّ ليلة من ليالى شهر رمضان من ألف نفس مفطرة فيها وكانت صلاته وصدقاته وقرباته فى هذا الشهر تبلغ مبلغ ما يطلق منها فى جميع شهور السنة «۱». ونختم هذا البحث فى بعض الأحاديث الشريفة: ورد عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله أنّه قال: «اَلجَنَّةُ دَارُ الاسْخِياء» «۲». ويقول الإمام الصادق عليه السلام أنّ اللّه تعالى يقول «انّى جَوادٌ كريمٌ لا يُجَاوِرُنى لَئيمٌ» «۳». وفى حديث آخر عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله أنّه قال: «طَعامُ الجَوادِ دَواءٌ وَطَعامُ البَخيلِ داءٌ» «۴». وأحد العرفاء يدعى «ابن سمّاك» «۵» يقول «عَجِبْتُ لِمَن يَشتَرِىَ الْمَمالِيكَ بِمالِهِ الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۷۸ وَلايَشتَرِى الْاحرارَ بِمَعروفِهِ» «۱». وقيل لابن عربى: من هو سيّدكم؟ فقال: «مَنِ احْتَمَلَ شَتْمَنَا وَاعطى سَائِلَنَا وَاغْضى جَاهِلَنا» «۲». الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۷۹

العجلة والتسرع

تلويح:

إن لكلّ عمل مقدّمات بحيث إذا لم تتوفر هذه المقدمات فالاقدام عليه يكون بغير طائل وبلا نتيجة مثمرة، وإذا توفرت هذه المقدمات ولم يقدم الشخص عليه وأفلتت الفرصة من بين يديه فالنتيجة تكون كذلك، فالشخص المدير والمدبر هو الّذى ينتظر ويصبر إلى أن تحين اللحظة المناسبة وتترتب المقدمات ثمّ يقدم على العمل لتحصيل النتيجة المرجوة ولا يتكاسل أو يهمل الموضوع حتّى تفلت منه الفرصة، ولهذا ورد فى معنى العجلة والتسرع، أنّ هذه الحالة من الصفات الرذيلة حيث يقدم الإنسان على عملٍ بدون توفر المقدمات المطلوبة وبدون أن تتهيأ الأرضية اللازمة لذلك، وفى مقابل هذه الحالة ورد «الصبر والتأنى» الّذى يعد من الفضائل الأخلاقية ودليلًا على عقل الرجل وحركته «وبالطبع فإنّ الصبر له أقسام اخرى سنشير إليها فى الفصول اللاحقة». إن الخسارة العظيمة الّتى تلحق بالأفراد والمجتمعات من جهة العجلة والتسرع أكثر من أن تحصى والقرآن الكريم يوصى الناس من موقع صياغة برنامج جامع للحياة بالصبر والتأنى والاجتناب من «العجلة والتسرع» مستعيناً بذلك بقصص من سيرة الأنبياء والقادة المصلحين للمجتمعات البشرية السالفة ليبين من خلال هذه القصص والوقائع اضرار الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۸۰ العجلة المخربة ومعطيات الصبر والتأنى الطيبة. وبهذه الأشارة نعود إلى القرآن الكريم لنستوحى من آياته الشريفة ومن سيرة الأنبياء الماضين مفاهيم مؤثرة فى حركة الحياة الفردية

والاجتماعية للإنسان: ۱- «قالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا* قالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا* وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَالَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا* قالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَآءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا» «۱». ۲- «وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ* ... وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ» «۲». ۳- «فَاصْبِر لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تَكُن كَصاحِبِ الحُوتِ اذ نادى وَهُوَ مَكظُومٌ* لَولَا أَنْ تَدارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالعَراءِ وَهُوَ مَذمُومٌ* فَأجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ» «۳». ۴- «.. وَلَا تَعْجَلْ بِالقُرآنِ مِن قَبْلِ ان يُقضى اليكَ وَحيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً» «۴». ۵- «خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ» «۵». ۶- «وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَآءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا» «۶». ۷- «وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ» «۷». ۸- «وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَايَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ» «۸». الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۸۱ ۹- «وَيَقُولُونَ مَتَى هذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ* ... فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُمْ مُّنتَظِرُونَ» «۱». ۱۰- «فَاصْبِر كَمَا صَبَرَ اوُلُوا العَزمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَستَعْجِلْ لَهُم كَانَّهُم يومَ يَرَونَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلبَثُوا الّا سَاعَةً مِنْ نَهارٍ بَلاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ الّا الْقَومُ الفَاسِقُونَ» «۲».

تفسير واستنتاج

فى «الآيات الاولى من الآيات محل البحث يستعرض القرآن قصة الخضر عليه السلام والنبى موسى عليه السلام، وطبعاً فإنّ القرآن الكريم لم يذكر اسم الخضر بل عبّر عنه بقوله «عَبْدَاً مِنْ عِبَادِنَا»، هذه القصة مشهورة ومعروفة لدى القارىء الكريم، وما هو محل نظرنا وبحثنا منها هو أنّ النبى موسى عليه السلام طلب العلم وذهب إلى حيث ينال العلم بسفرٍ خاصّ وجاء إلى الخضر ليستقى من علومه ومعارفه ما يختلف عن العلوم الّتى اكتسبها عن طريق الوحى، وهى العلوم المتعلقة بأسرار الطبيعة وحقائق الامور والحياة البشرية الّتى لابدّ أن يطلع على قسم منها نبىّ من اولى العزم مثل موسى عليه السلام لتتضح له الصورة جيّداً فى عملية التفاعل الإنسانى والاجتماعى وليكون على بيّنة من هذه الامور. وهنا قال الخضر لموسى عليه السلام بعد طلب موسى عليه السلام التعلم منه: بانك لا تتحمل ولا تطيق ما تراه من هذه العلوم لأنك لم تدرك حقائق الامور فى باطنها، ولكنَّ النبى موسى عليه السلام وعده بالصبر والتأنى واجتناب العجلة والتسرع، فشرط عليه الخضر هذا الشرط وانه إذا صحبتني فيجب أن تلتزم السكوت اتجاه أى فعلٍ يصدر منى مهما كان عجيباً ومنافياً للمقررات والاصول السائدة بين الناس، ولابدّ أن تعلم أنّ فى ذلك حكمة سوف أُطلعك عليها، فتقول الآيات وهى تحكى هذه الحادثة «فَوَجَدا عَبداً مِن عِبادِنا ... قَالَ فَانِ الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۸۲ اتَّبَعْتَنى فَلا تَسْئَلْني عَنْ شَيءٍ حَتّى احدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكراً» «۱». وعلى هذا الأساس أراد الخضر عليه السلام أن يُعلم موسى عليه السلام درساً فى روح الصبر والتأنى أمام الحوادث والمسائل المختلفة فى حركة الحياة ليتربى موسى عليه السلام على هذه الصفة الأخلاقية، ويسلك حياته الاجتماعية بعيداً عن حالة «العجلة والتسرع» فى تعامله مع الواقع والحياة «خاصة العجلة فى القضاء والحكم ولا سيّما بالنسبة إلى أعمال شخصيات كبيرة مثل موسى عليه السلام ء ومع هذا الوعد والشرط تحركا فى مسيرهما وسفرهما حتّى وصلا البحر فوجدا سفينة تريد أن تتحرك وترحل فركبا فيها، فلمّا مضت مدّة رأى موسى عليه السلام أمراً عجيباً من الخضر عليه السلام حيث شاهد الخضر عليه السلام وهو يحاول ايجاد ثقب فى اسفل السفينة سراً، فلم يتمالك موسى عليه السلام نفسه أمام هذا العمل الشنيع واعترض على الخضر بشدّة، ولكنَّ الخضر عليه السلام ذكره بوعده والشرط الّذى اشترط عليه، فما كان من موسى عليه السلام إلّاأن تراجع واعتذر عن فعله. ثمّ استمر فى طريقهما وسفرهما، وفجأة ارتكب الخضر عملًا أعجب من الأوّل حيث شاهد صبياً فقتله، وهنا صرخ به موسى عليه السلام محتجاً عليه بانك لماذا تقتل الأبرياء، ولماذا ترتكب هذه الأفعال القبيحة؟ وهنا نجد الخضر عليه السلام يذكره مرّة اخرى بعهده ووعده السابق من إلتزام الصبر والسكوت، فأجابه موسى معتذراً عن هذا التسرع وقال له: إذا رأيت منى اعتراضاً للمرّة الثالثة فإنّ لك الحقّ فى أن تنفصل عنى. ثمّ تحركا متنقلين من مدينة إلى اخرى إلى أن وصلا إلى قرية يتسم أهلها بالبخل الشديد وعدم اعتنائهم بالضيف، ولكنَّ الخضر

عليه السلام لم يهتم لذلك بل شرَع فى ترميم جدار وجده فى حالة الانهيار والسقوط، فرأى موسى عليه السلام أنّ مثل هذا العمل تجاه ما رأوه من جفاء أهل هذه القرية هو عمل سخيف، ولذلك نسى مرّة اخرى عهده مع الخضر عليه السلام واعترض عليه فى هذا العمل. الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۸۳ وهنا جلس الخضر عليه السلام ليشرح لموسى عليه السلام أسرار هذه السلوكيات والأفعال الغريبة ويبين له الحقائق الخفية لعالم الوجود بحيث إن موسى عليه السلام شعر بأنه قد فتحت أمامه نافذة جديدة على أسرار حياة الناس، وعندها ودع الخضر عليه السلام موسى عليه السلام بعد أن حمله معارف جمة من هذه العلوم الغريبة. وأخيراً تقول الآيات الكريمة فى استعراضها لما حدث بين الخضر وموسى عليهما السلام حيث تبين تفاصيل ورموز العلل الكاملة وراء هذه التصرفات العجيبة للخضر عليه السلام وتقول على لسان الخضر عليه السلام «أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَساكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً». «وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً وَكُفْراً* فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْماً». «وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً» «۱». ولو أنّ موسى عليه السلام لم يستعجل بحكمه على أفعال الخضر عليه السلام لكان قد بقى مع الخضر واستفاد أكثر من علومه، ولكنَّ «العجلة والتسرع» كانا السبب لأن يحصل على هذه الثمار الثلاثة فقط ويحرم من الزيادة. «الطائفة الثانية» من الآيات محل البحث تستعرض واقعة اخرى لأحد الأنبياء العظام حيث تسببت العجلة والتسرع فى القضاء والحكم أن يقع مورد العتاب الإلهى. والقصة هى انه بينما كان داوود عليه السلام يوماً فى محرابه إذ دخل عليه رجلان أحدهما يشتكى من الآخر ويقول: «انَّ هَذَا اخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۸۴ اكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ» «۱». وقبل أن يتحقق داود من المسألة ويدرس كافة تفاصيلها تسرع فى الحكم «... لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ الَى نِعَاجِهِ ...» «۲». وهنا انتبه النبى داوود عليه السلام إلى انه ارتكب الترك الأولى «وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ» «۳». وليس هذا البحث محلًا مناسباً لدراسة هذه الواقعة بتمام تفاصيلها الدقيقة «وقد بحثناها فى التفسير الأمثل بالتفصيل» ولكننا نقتصر على بيان هذه الحقيقة، وهى أنّ «العجلة والتسرع» وخاصّةً بالنسبة إلى القضاء والحكم بين الناس سيفضى حتماً إلى تعقيد الامور والفضيحة وتعميق المشكلة على المستوى الفردى والاجتماعى. وتتعرض «الطائفة الثالثة» من الآيات محل البحث إلى قصة النبى يونس عليه السلام ومسؤوليته العظيمة فى الدعوة إلى الحقّ وهداية الناس إلى اللَّه، ولكنه فى لحظة من اللحظات تساهل فى أمر هذه المسؤولية الإلهية وارتكب الترك الأولى وبالتالى أصابه العقاب الإلهى بسبب ذلك. والقصة هى أنّ النبى يونس عليه السلام عاش مدّة طويلة مع قومه كالأب الحنون حيث تحمل مسؤولية انقاذ قومه من الضلالة والإنحراف، ولكنه لم يواجه منهم أمام منطقه الحكيم سوى السفسطة والمغالطة والسخرية، ولم يؤمن له من قومه إلّاعدد قليل جدّاً، ولعلّه لم يتجاوز الرجلين «أحدهما عابد والآخر عالم»، وأخيراً فإنّ النبى يونس عليه السلام أصابه اليأس من إيمان قومه، فدعى عليهم باقتراح من الرجل العابد، واستجاب اللَّه دعاءه، وأوحى إليه انه سينزل عليهم العذاب الإلهى فى اليوم الفلانى، وعندما اقترب زمان نزول العذاب ترك النبى يونس الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۸۵ عليه السلام هؤلاء القوم وصحب معه الرجل العابد بدون أن يُتم الحجّة عليهم فلعلّهم يتوبون تلك اللحظات الأخيرة ويعودون إلى اللَّه تعالى، ولكنَّ الرجل العالم بقى معهم واستمر فى تبليغ الرسالة الإلهية. وقد أثمر هذا التبليغ وهذه الدعوة من الرجل العالم ثمره تزامناً مع اقتراب لحظات نزول العذاب، فحدث أن أوجب كلام هذا العالم وعلامات نزول العذاب تحولًا كبيراً فى أعماق نفوس هؤلاء القوم، وأثابوا إلى رشدهم وخرجوا مصطحبين معهم ذلك العالم إلى الصحراء ليعلنوا توبتهم وانابتهم إلى اللَّه وسلوكهم فى طريق الإيمان والتقوى، فلعلّ اللَّه يرحمهم ويغفر لهم، وهكذا قبل اللَّه تعالى توبتهم وتاب عليهم ولكنه وبخّ يونس عليه السلام على تسرعه وعجلته فى ترك هؤلاء القوم. القرآن الكريم يخاطب نبى الإسلام فى هذه الآيات الكريمة أن لا يستعجل فى طلب العذاب الإلهى على المشركين من قريش ولا يكون كيونس عليه السلام «فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تَكُن كَصاحِبِ الحُوتِ اذ نادى وَهُوَ مَكظُومٌ* لَولَا أَنْ تَدارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالعَراءِ وَهُوَ مَذمُومٌ» «۱». ولكن اللَّه تعالى

قبل توبته من هـذا الترك الأولى، وعنـدما خرج يونس عليه السـلام من بطن الحوت كان قد تطهر من كلّ ذنب وترك للأولى، ولهذا نقرأ بعـد هـذه الآية قوله تعالى «فَأجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ» «۲». فالبرغم من أنّ يونس لم يتم الحجّة على قومه بالمقـدار اللازم، ولكن اللّه تعـالى كـان يتوقع من هـذا النبى الكريم أن يصبر ويتأنى أكثر من ذلك، ولـذلك عاقبه على عجلته وتسـرعه فى مقابل عناد اولئك القوم. وتتحرك «الآية الرابعة» من موقع منع نبى الإسـلام صـلى الله عليه و آله من «العجلة والتسرع» وتقول الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۸۶ «فَتَعالَى اللَّهُ المَلِكُ الحَقُّ وَلَا تَعجَلْ بِالقُرآنِ مِن قَبلِ ان يُقضى اَلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِى عِلْماً» «۱». ويستفاد من بعض الآيات القرآنيـة الاخرى أنّ النبى الأكرم صـلى الله عليه و آله عنـد نزول الوحى كان يعيش حالـة خاصّة من الشـغف والشوق والحرارة تقوده إلى الاسـتعجال فى اسـتلهام الوحى، ولـذلك تصـدت هـذه الآية الشـريفة لتذكير النبى صـلى الله عليه و آله بذلك ومنعه «.. وَلَا تَعْجَلْ بِالقُرآنِ مِن قَبْلِ ان يُقضـى اَلَيكَ وَحيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِى عِلْماً» «۲». ورغم أنّ المفسّـرين ذكروا احتمالات عديدة فى تفسـير هذه الآيـة الشـريفة، ولكنّهم متفقون على أنّ الآيـة ناظرة إلى أنّ النبى الأكرم صـلى الله عليه و آله لا ينبغى أن يسـتعجل فى اسـتلام الوحى بالرغم من أنّ أصل الموضوع هو عمل إلهى ويتضـمّن هداية الناس إلى اللّه تعالى. وعلى الرغم من أنّ اسـتعجال النبى صلى الله عليه و آله فى اسـتلام الوحى أو تلاوة الآيات القرآنية على أصـحابه أو طلبه بنزول الوحى كلّ ذلك كان بسـبب عشـقه وشوقه لهداية الناس، ولكن حتّى هـذا العمـل الإيجابى والإنسـانى لا ينبغى أن يتم من موقع العجلـة بـل ينبغى أن يكون متزامنـاً مع الصـبر والتـأنى. «الآيـة الخامسـة» تتحـدّث عن جميع الناس، أو بتعبير آخر عن طبيعـة الإنسان وتقول: «خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَاتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ» «۳». وكأن الإنسان فى سـلوكه وحركته فى حياته إلى درجـة من العجلـة وكأن ذاته ونفسه قـد عجنت بالعجلة فهى عين العجلة. وتشـير هذه الآية إلى أنّ طبيعة الإنسان مخلوقة منذ اليوم الأوّل بالعجلة والتسـرع، ولكنه يجب عليه استخدام هذه الحالة وسلوك طريق التسرع والعجلـة بعـد توفر المقـدمات للعمـل لا الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۸۷ قبـل ذلـك. وعبـارة «بآياتى» يمكن أن تكون إشارة إلى معجزات النبى الأكرم صـلى الله عليه و آله أو آيات القرآن الكريم أو علائم العذاب الإلهى أو حلول القيامة أو جميع ذلك من الآيات الإلهيـة، فلا يختلف الحال فى أخـذنا لكلّ هـذه التفاسـير المـذكورة لهـذه الآيـة، لأن جميع هذه الامور من نزول آيات القرآن وظهور المعجزات وحصول علائم القيامـة وكـذلك نزول العذاب الإلهى كلّها تتفق مع الحكمة الإلهية فى ظرف نزولها الخاصّ، ولا تقترن مع العجلـة والتسـرع لأـن اللّه الحكيم لا يعمل عملًا على خلاف حكمته، وعليه فلا ينبغى الاسـتعجال فى طلب هـذه الامور. أمّا قوله تعالى للآية الشـريفة «خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ» فهو إشارة إلى الأشـخاص الّذين لم يتحركوا فى خطّ التربية الإلهية ولم يرّبوا أنفسهم فى عملية تهذيب النفس وجهادها، وبعبارة اخرى: إن طبع الإنسان الأولى هو أن يتحرك بسـرعة باتجاه اشـباع حاجاته ورغباته البدنية والنفسـية، وقـد ورد هـذا المضـمون أيضاً فى الآية ۱۹ من سورة المعـارج حيث يقول تعـالى «انّ الإنسـانَ خُلِقَ هَلُوعـاً» أى حريصـاً وقليـل الصبر. ولـذلك نجـد أنّ بعض الآيـات الّتى تشـير إلى كون الإنسان عجولًا فإنّها تتحـدّث عن هدايـة الإنسان قبل ذلك كما فى الآيـة ۱۱ من سورة الإسـراء والّتى سـتأتى الإشارة إليها لاحقاً. وهـذه الخاصـية فى الإنسان «كونه عجولًا» حالها حال الأهواء النفسـية والنوازع البـدنية الاـخرى الّتى هى بنّاءة وضـرورية ومفيـدة فيمـا لو تحرّك الإنسـان على مسـتوى تعـديلها وتهـذيبها والاسـتفادة منها فى خطّ السـعادة والتكامل المعنوى والإنسانى، وبـذلك تخرج هـذه الحالات السـلبية فى الظاهر كونها مخربة وسـلبية، فهى مثل السـيل الهادر فإنه رغم ظاهره المـدمر ولكنه إذا بنى الإنسان أمامه السـدود لضـبطه والاسـتفادة من قوته فإنه يتحول إلى قوّة ايجابيـة تؤدى إلى العمران والنور والرقى فى حركـة الحياة الدنيويـة. ونفس هذا المضـمون ورد أيضاً فى «الآية السادسة» من الآيات محل البحث مع تفاوتٍ الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۸۸ يسـير وهو أنّ فى هـذه الآية نجد إشارة إلى أحد الافرازات السـلبية والسـيئة للعجلة والتسـرع حيث تقول الآية: «وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرّ دُعَآءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا» «۱». وهنا أيضاً نجد مفردة «الإنسان» الّتى تشير إلى طبيعة الإنسان الأولية، وقد تكررت هـذه الكلمـة فى أوّل الآيـة وفى آخرهـا أيضاً. «دعا» فى هـذه الآيـة بمعنى طلب وأراد، سواءاً كان باللسان أو بالعمل، وبما أنّ الإنسان يتصف بالعجلة فى ذاته والتسرع فى تحصيل المنافع الشخصية فإنّ ذلك قد يتسبب فى أن لا يدرس جوانب المدرسة بشكل

جيد ولا يدرك خيره وشره وبالتالى يوقع نفسه فى المخاطر والمشاكل المتنوعة. وهذا «الدعاء» تارةً يكون بصورة لفظية، يعنى أنّ الإنسان يطلب من اللّه تعالى وباصرار شديد بعض الامور الّتى لا تكون خيراً له فى الواقع بل هى شرٌّ له وإن كانت فى ظاهرها أنيقة ومطلوبة كما يقول الإمام الصادق عليه السلام «وَاعرِفْ طَريقَ نِجاتِكَ وَهَلاكِكَ كَى لاتَدعُوا اللَّهَ بِشَيءٍ عَسى فِيهِ هَلاكُكَ وَانْتَ تَظُنُّ انّ فيهِ نَجاتُكَ قَالَ اللَّهُ تَعالى «وَيَدْعُ الإنسانُ بِالشَّرِّ دُعائَهُ بِالخَيرِ وَكانَ الإنسانُ عَجُولًا» «۲». وأحياناً يتحرّك الإنسان على مستوى العمل فى طلب شيءٍ بدافع من وحى الأهواء والشهوات ويكون شقاءه فى ذلك ولكنه بسبب تزيين النفس وتسويلات الشيطان يحسب ذلك خيراً له وموجباً لسعادته ويحزن عندما لم يحصل عليه، فى حين انه سيتضح له بمرور الزمان انه إذا كان اللّه قد استجاب له طلبه ذلك ونال حاجته وحقق هدفه فإنّ ذلك سيكون سبباً لشقائه مدى الحياة. وتستعرض «الآية السابعة» مطلباً جديداً على مستوى عجلة الإنسان، وهو أنّ هذا الإنسان العجول أحياناً بدلًا من أن يستعجل فى طريق الخير واكتساب الحسنات على الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۸۹ الأقل فإنه يستعجل فى طريق الشر والفساد، كما نرى هذا الحال لدى الكفّار المعاندين عندما يحذرهم النبى الأكرم صلى الله عليه و آله من عذاب اللّه وعقوباته الدنيوية، فتجدهم يستعجلون بهذا العذاب ويطلبون من النبى أن يسرع فى نزول العذاب المهلك، وفى الحقيقة يطلبون موتهم وهلاكهم من النبى الأكرم صلى الله عليه و آله كما تتحدّث الآية مورد البحث عن ذلك: «وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ» «۱». أجل، إذا اقترنت العجلة لدى الإنسان بالعناد والإصرار، فالنتيجة هى ما قرأناه فى هذه الآية الشريفة، فبدلًا من الاستعجال لطلب الخير واكتساب الحسنات فإنّهم يستعجلون فى طلب الشرّ ويوقعون أنفسهم بأمواج البلاء والشقاء كما نجد هذا المضمون فى الآية الاولى من سورة المعارج «سَئَلَ سائِلٌ بِعَذابٍ وَاقِعٍ* لِلْكافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دافِعٌ». وقد ذكر الكثير من المفسّرين وأرباب الحديث أنّ هذه الآية نزلت فى «النعمان بن الحارث الفهرى» عندما نصب النبى الأكرم صلى الله عليه و آله الإمام على فى غدير خم خليفة له وقال قولته المشهورة «مَنْ كُنتُ مَولَاهُ فَهَذَا عَلِيٌّ مَولاهُ» فلمّا سمع بذلك هذا الرجل اغتاظ من ذلك وجاء إلى النبى معترضاً بشدّة، وعندما سمع من النبى أنّ هذا الأمر إنما هو أمرٌ إلهيٌّ ازداد غيظاً وقال: إلهى إن كان هذا هو الحقَ من عندك فانزل علينا حجارةً من السماء، فلم يمكث مدّة حتّى نزلت عليه حجارةً من السماء فأصابته فى رأسه وقتلته، وقد نزلت الآية فى هذه الواقعة «۲». ألم يكن من الأفضل لمثل هؤلاء الأشخاص أن يطلبوا من اللّه تعالى بدلًا من العناد واللجاجة، الهداية والمغفرة وإزالة حالة التعصب والعناد فى ذاتهم؟ وطبقاً للآية مورد البحث فإنّ مغفرة اللّه تسبق عذابه «سَبَقَتْ رَحْمَتُهُ غَضَبَهُ» وهكذا فإنّ اللّه تعالى لا يعذب أحداً ما دام احتمال هدايته موجوداً، ولكن مع الأسف فإنّ بعض الناس المعاندين الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۹۰ والمتعصبين يستعجلون بالعذاب الإلهى بدلًا من المغفرة والرحمة. وتتحرّك «الآية الثامنة» من الآيات مورد البحث للكشف عن بعد آخر من أبعاد صفة العجلة لهذا الإنسان وتقول: «وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ...» «۱» ولكن بما أنّ اللّه تعالى غفور رحيم كريم فإنه لا يسرع فى عقاب القوم الفاسقين فلعلّهم ينتبهون من غفلتهم ويسيرون فى خطّ التقوى والإيمان والتوبة. ويضيف القرآن الكريم فى ذيل هذه الآية الشريفة «فَنَذَرُ الَّذِينَ لَايَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ» «۲» إلى أن يحين وقت مجازاتهم وعقوبتهم. وعليه فإنّ اللّه تعالى لا يعمل مثل عملكم، فانتم تستعجلون باكتساب الخيرات والمنافع، ولكن اللّه تعالى لا يُسرع فى عقابكم، لأن المقصود الأصلى للّه‌تعالى ليس هو عقابكم بل غرضه هدايتكم وأنزال الرحمة عليكم. وطبقاً للآيات القرآنية الاخرى فيحتمل فى تفسير هذه الآية أن يكون المراد منها هو أنّ هؤلاء الناس يستعجلون بطلب نزول العذاب الإلهى عليهم كما يستعجلون فى طلب الخيرات والمنافع الدنيوية، ولكن القرآن الكريم يقول لهم: «لو أنّ اللّه تعالى استجاب لطلبكم فى مسألة التسريع بنزول العذاب لم يبق أحداً منكم» «۳»، ولكنَّ المعنى الأوّل أو التفسير الأوّل للآية ينسجم أكثر مع ظاهرها. وفى «الآية التاسعة» وضمن الإشارة إلى حالة الاضطراب والقلق لدى الكفّار والمشركين فى مقابل وعد اللّه تعالى للمسلمين بالنصر وهزيمة أعدائهم الكافرين الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۹۱ ومعاقبتهم تقول: «وَيَقُولُونَ مَتَى هذَا ا لْفَتْحُ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ» «۱». أى لماذا لم تتحقق هذه الوعود الإلهية؟ أليس هذا دليلٌ على كذبكم وانكم تخادعون أنفسكم بهذه

الوعود الزائفة؟ ويجيب القرآن الكريم على هذا التساؤل ويأمر النبى صلى الله عليه و آله بأن يقول لهم «قُل يَوْمَ الفَتحِ لا يَنْفَعُ الّذِينَ كَفَرُوا إيمَانُهُمْ وَلَا هُم يُنْظَرُونَ ...» «۲». فلا تستعجلوا بنزول العذاب، لأنّه فى ذلك اليوم لايجد هؤلاء الكافرون فرصة للعودة إلى الحقّ. إن اللّه تعالى بلطفه وكرمه وعنايته قد أمهلكم هذا اليوم لتعودوا إلى وجودكم وتسلكوا فى طريق الحقّ والإيمان، ولكن عندما يأتى ذلك اليوم فإنّ العذاب الإلهى سينزل عليكم وتوصد أمامكم أبواب التوبة فلا تستطيعون العودة والانابة إلى اللّه، إذاً فبدلًا من أن تستعجلوا نزول العذاب عليكم، لابدّ أن تستثمروا هذه الفرصة والمهلة الإلهية وتتحركوا من موقع إصلاح الذات والسلوك فى خطّ التوبة والإيمان والانفتاح على اللّه تعالى. ثمّ تأمر الآية الشريفة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله وتقول «فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُمْ مُّنتَظِرُونَ» «۳»، فعليك أن تنتظر رحمة اللّه ونصره وهؤلاء ينتظرون عذابه وعقوبته. وقد ذكر بعض المفسّرين أنّ جملة «أنّهم منتظرون» هى إشارة إلى ما كان ينتظره الكفّار من موت نبى الإسلام أو هزيمته فى ميدان القتال، ولكنَّ التفسير الأوّل المذكور أعلاه أنسب إلى جو الآية. «الآية العاشرة» تخاطب النبى الأكرم صلى الله عليه و آله وتوصيه بالصبر والاستقامة كما هى حالة الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۹۲ الأنبياء الماضين، وبالرغم من أنّ التاريخ شاهدٌ على أنّ النبى الأكرم صلى الله عليه و آله لم يتحرك من موقع العجلة والتسرع بل كان يسلك فى خطّ المثابرة والصبر والاستقامة فى كلّ أعماله وأفعاله، ولكنَّ الآية الشريفة جاءت لتؤكد هذا المعنى على نبيّنا الكريم وتقول «فَاصْبِر كَمَا صَبَرَ اوُلُوا العَزمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَستَعْجِلْ لَهُم كَانَّهُم يومَ يَرَونَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلبَثُوا الّا سَاعَةً مِنْ نَهارٍ» «۱». ونظراً إلى أنّ جميع عمر الدنيا فى مقابل الآخرة لا يعد سوى ساعة واحدة من الزمان، فعليه لا تستعجل فى الأمر إلى أن تتم الحجّة عليهم، ويستفاد من هذا التعبير إلى أنّ جميع الأنبياء والمرسلين كانوا يعيشون الصبر والمثابرة والاستقامة مقابل عناد أقوامهم وجهالتهم ولجاجتهم وكانوا يمهلون أقوامهم حتّى النفس الأخير لغرض اصلاحهم وهدايتهم. ولم يكن نبى الإسلام صلى الله عليه و آله إلّاكأحد هؤلاء الأنبياء اولى العزم، وما ورد فى الآية أعلاه هو فى الواقع يعبر عن تأكيد الآية على هذا المعنى أو أنّ مضمون الآية له بعد تعليمى أو تربوى للآخرين، أو هو إنذارٌ إلى الكافرين بأن لا يهمل هذه الفرصة الثمينة ولا يُسيء الاستفادة من الامهال الإلهى. وهذه الآية شاهدٌ أكيد على أنّ الصبر والاستقامة وترك العجلة من الفضائل الأخلاقية المتوفرة لدى جميع الأنبياء العظام الّذين كانوا طيلة التاريخ البشرى أُسوةً وقدوةً لأقوامهم فى التحلّى بهذه الصفة الأخلاقية السامية.

النتيجة:

ويتضح من مجموع الآيات أعلاه أنّ العجلة والتسرع لدى الأقوام والشعوب البشرية المختلفة فى نظر الإسلام صفة سلبية، وتقع فى مقابل القيم الأخلاقية الايجابية من الصبر والمثابرة والتأنى إلى أن تتوفر مقدمات العمل، وأنّ الصبر والتأنى يعد من أهم الفضائل الأخلاقية والإنسانية، وهى الفضيلة الّتى كانت متوفرة لدى جميع الأنبياء العظام وقادة البشرية فى خطّ الحقّ والإيمان.

العجلة والتسرع فى الروايات الإسلامية:

وقد وردت بحوث كثيرة فى الروايات الإسلامية فى ذمّ العجلة ومدح التأنى والصبر ونقرأ فى مضامينها نكات دقيقة فى هذا الموضوع من قبيل: ۱- ما ورد عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله أنّه قال: «الْاناةُ مِنَ اللّهِ وَالعَجَلةُ مِنَ الشَّيْطانِ» «۱». ۲- وقال رسول اللّه صلى الله عليه و آله فى حديث آخر «انَّما اهْلَكَ النّاسَ الْعَجَلَةُ وَلَوْ انَّ النّاسَ تَثَبَّتُوا لَمْ يُهلِكْ أَحدٌ» «۲». وطبعاً أنّ المقصود من الهلكة هو الموت بسبب الحوادث غير المتوقعة والّتى تكون معلولة بالعجلة وعدم التثبت من الامور. ۳- وقد ورد عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله قوله: «ايّاكَ وَالعَجلةَ فَانّكَ ان عَجَّلْتَ اخْطَأْتَ حَظَّكَ» «۳». ۴- ويقول أميرالمؤمنين عليه السلام: «مَعَ العَجَلِ يَكثُرُ الزَّلَلَ» «۴». ۵- وفى وصية الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام لابنه الإمام الحسن عليه السلام عندما كان الإمام على على فراش المرض قال: «انْهاكَ عَنِ التَّسَرُّعِ بِالقَوْلِ وَالْفِعْلِ» «۵». ۶- وقد ورد أيضاً عن الإمام أميرالمؤمنين قوله «الْعَجَلُ قَبلَ الْامْكانِ يُوجِبُ الغُصَّةَ» «۶» ؛ لأنّ العجلة تهدر

أتعاب الإنسان وسعيه ولا يصل إلى نتيجة مطلوبة. ۷- وورد عن هذا الإمام عليه السلام قوله: «مَن رَكِبَ العَجَلَ رَكِبَتْهُ المَلامَةُ» «۷». ۸- وعن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «مَعَ التَّثَبُّتِ تَكونُ السَّلامَةُ وَمَعَ العَجَلَةِ تَكونُ النَّدامَةُ» «۸». الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۹۴ ۹- وجاء عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: «العَجَلَةُ مَذمُومَةٌ فِي كُلِّ أمْرٍ الّا فِي مَا يَدفَعُ الشَّرَّ» «۱». ۱۰- ونختم هذا البحث بحديثٍ شريف عميق المغزى عن الإمام على عليه السلام أنّه قال: «مَنْ اسْتَطَاعَ ان يَمْنَعَ نَفْسَهُ مِن أَرْبَعَةٍ أَشياءٍ فَهُوْ خَليقٌ بِانْ لا يَنْزِلَ بِهِ مَكرُوهٌ ابَداً. قِيلَ وَ مَا هِي؟ قَالَ: الْعَجَلَةُ وَاللَّجاجَةُ وَالعُجْبُ وَالتَّوانى» «۲». وقد رأينا فى هذه الأحاديث الشريفة أنّ التأنى هو عطية إلهية وموهبة ربانية للإنسان بينما «العجلة» هى صفة شيطانية تدفع بالإنسان إلى طريق الخسران والزيغ فى حركة الحياة وتضيع عليه الفرص الثمينة، وتكثر اشتباهاته، وتكون عاقبته إلى الندم والهلكة، فى حين أنّ النقطة المقابلة لها، أى التأنى والصبر والتدبر يقود الإنسان إلى الفلاح والسعادة والاستفادة الكبيرة من الفرص الثمينة فى حياته الدنيوية.

ملاحظات مهمة:

۱- مفهوم العجلة والتسرع

إن العجلة بما هى صفة ذميمة فى سلوك الإنسان تظهر باشكال مختلفة، بمعنى أنّ الإنسان وقبل أن يوفر مقدمات العمل يُقدم على تحصيل النتيجة، وهذا العمل لا يترتب عليه سوى الفشل أو يثمر ثمرة ناقصة. وهذا كما لو أنّ الإنسان قطف الثمرة قبل نضجها فإنه يحرم نفسه من طيب هذه الثمرة أو تكون ذات فائدة قليلة، أو أنّه يقوم بنثر البذور على الأرض قبل أن يحرثها فتكون النتيجة تلف البذور أو قلّة المحصول الزراعى، ويقول أميرالمؤمنين عليه السلام فى هذا الصدد: «وَمُجْتَنِى الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۹۵ الثَّمَرةِ لِغَيرِ وَقتِ ايناعِهَا كَالزّارِعِ لِغَيرِ ارْضِهِ» «۱». أى انه يتلف طاقاته ورأس ماله بدون أن يعود عليه بالفائدة المطلوبة، والعجول: يقال للأشخاص الّذين لا يتمتعون بحالة الصبر فى أعمالهم وأقوالهم وتعاملهم مع الآخرين ولغرض الوصول إلى هدفهم لا يسلكون الطريق الصحيح لذلك، فلهذا السبب فإنّهم يقعون فى دوامة من المشكلات والنواقص فى حركتهم الاجتماعية وسلوكهم فى خطّ التكامل المادى والمعنوى. والصفة المقابلة للعجلة والتسرع هى «التأنى» والتريث والتحمل والطمأنينة والوقار. ولا ينبغى أن تؤخذ «العجلة» بمعنى السرعة فى الأقدام على العمل والّذى يحمل مضموناً ايجابياً فى حركة الحياة، فالسرعة فى العمل تكون بعد ترتب وتوفر المقدمات المطلوبة لذلك العمل وأن لا يدع الإنسان الفرصة تفلت من يده للحصول على النتيجة والثمرة، فمثل هذا العمل من الواضح أنّه يعد أحد العوامل المهمة للفلاح والنجاة والموفقية، ولكننا نرى فى موارد كثيرة وجود الاشتباه والخلط بين مصاديق العجلة وموارد السرعة، أو نرى أنّ البعض ولغرض تبرير كسلهم واهمالهم يضيعون الفرص الثمينة ويقولون انه لا ينبغى العجلة فى الامور وأنّ العجلة من الشيطان، فى حين أنّ هناك فرقاً واضحاً بينهما، ففى بعض الروايات نقرأ أنّ العجلة تعد من أسباب الندم، وأنّ التأنى من أسباب السلامة، وهذا هو ما أشرنا إليه آنفاً. ونختم هذا الكلام بحديثٍ عن أميرالمؤمنين عليه السلام يبين فيه الفرق بين مفهوم العجلة والسرعة أو مفهوم التسرع والسرعة ويقول «ايّاكَ وَالعَجَلَةَ بِالامُورِ قَبْلَ اوانِهَا، وَالتَّساقُطَ فِيها عِندَ امْكانِها» «۲».

۲- المسارعة فى الخيرات

ونقرأ فى القرآن الكريم فى آيات متعددة انه يدعو إلى المسارعة فى الخيرات والمسابقة فى الحسنات، ومن ذلك ما ورد فى الآية ۱۱۴ من سورة آل عمران فى وصف بعض المؤمنين الحقيقين حيث يقول «.. وَيُسارِعُونَ فِي الخَيراتِ وَاولئكَ مِن الصَّالِحينَ ...». ويقول فى سورة الأنبياء الآية ۹۰ فى وصف جماعة من الأنبياء العظام مثل زكريا ويحيى ويقول عنهم «.. انَّهُم كَانُوا يُسارِعُونَ فِي الخَيراتِ ...». ويقول فى الآية ۶۱ من سورة المؤمنين فى شرح الصفات البارزة لهؤلاء المؤمنين ويقول: «اولئكَ يُسارِعُونَ فِي الخَيراتِ

وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ». وجاء فى الآيـة ۱۳۳ من سورة آل عمران أنّ هـذه المسألـة بعنوان خطاب عام لجميع المؤمنين أن يتحركوا من موقع المسارعـة، ويقول: «وَسَارِعُوا الَى مَغفِرةٍ مِن رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرضُـهَا السَّمَاوَاتُ وَالْارْضُ اعِـدَّتْ لِلمُتَّقينَ». ونفس هـذا المعنى ورد فى الآية ۱۴۲ من سورة البقرة تحت عنوان المسابقـة فى الخيرات حيث تقول الآية «... فَاستَبِقُوا الخَيراتِ ...». وبديهى أنّ المسارعة فى الخيرات كلها إشارة إلى هـذه الحقيقـة الواحـدة، وفى الواقع آنها من قبيل اللازم والملزوم لأن المسابقـة لا تتحقق بدون المسارعة، وكلّما طوى الشـخص الطريق إلى مقصوده بسـرعة أكثر فإنه بلا شكّ سيصل إلى مقصوده أسـرع. وقد ورد فى الروايات الإسلامية إشارات جميلة وعميقـة المعنى بالنسـبة إلى هـذا الموضوع، نختار منها نماذج معيّنة وهى: ۱- قـال رسـول اللّه صـلى الله عليه و آله: «انّ اللّهَ يُحِبُّ مِنَ الخَيْرِ مَـا يُعَجَّلُ» «۱». ۲- وفى حـديث آخر عن أميرالمؤمنين عليه السـلام أنّه قـال: «بَـادِرُوا بِعَمَـلِ الخَيرِ قَبلَ ان تُشـغَلُوا عَنْهُ بِغَيرِهِ» «۲». الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۹۷ ۳- وفى أحاديث متعددة عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «مَن هَمَّ بِخَيرٍ فَلْيُعَجِّلْهُ وَلا يُؤَخِّرْهُ» «۱». ۴- وجاء هذا المعنى أيضاً فى حديث آخر بصورة مفصلة، قال الإمام الصادق عليه السـلام «اذا هَمّ احَدُكُم بِخَيرٍ أوَ صِـلَةٍ فَانّ عَن يَمينِهِ وَشِمالِهِ شَيطانَينِ فَلْيُبادِرْ لا يَكُفّاهُ عَن ذَلِكَ». ۵- وقال أميرالمؤمنين عليه السلام «لَيْسَ مِن عَادَةِ الْكِرامِ تَأخيرُ الْانعام» «۲». ۶- وقال الإمام الباقر عليه السـلام «مَن هَمَّ بِشَـىْءٍ مِنَ الخَيرِ فَلْيُعَجِّلْهُ فَانَّ كُلَّ شَـىْءٍ فيهِ تَأخيرٌ فَانَّ لِلشَّيطانِ فِيهِ نَظْرَةً». وخلاصة الكلام فإنّ الموانع النفسانيـة والوساوس الشـيطانية تصـد الإنسان دائماً عن أعمال الخير، ولهذا فعندما تتوفر مقدمات ذلك العمل تجب المسارعة إليه قبل أن يضع بعض الجهـال الضـيقوا الافق العوائق فى طريق الحركـة نحو الخير ويثبطوا الإنسـان عن سـلوك طريق الكمال المعنوى، ولابدّ أيضاً أن يفرق الإنسان بين السـرعة والمسارعة فى أعمال الخير، وبين العجلة المذمومة الّتى تكون قبل توفر مقدمات العمل. ونختم هذا الكلام بحديث شـريف عن أميرالمؤمنين عليه السـلام حيث قال «لا تُؤَخِّر انالَةَ الْمُحتَاجِ الَى غَدٍ، فَانَّكَ لا تَدْرِى مَا يَعْرِضُ لَكَ وَلَهُ فِى غَدٍ» «۳».

الآثار السلبية للعجلة والتسرع:

۱- اتلاف الوقت والطاقات

إن هـذه الصـفة الذميمة يترتب عليها آثار مخربة كثيرة فى حياة الإنسان الفردية والاجتماعية، والأضـرار التى تعود على الإنسان بسـبب هـذه الحالـة السيئة هى أكـثر من أن الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۳۹۸ تحصـى ومن ذلـك أنّهـا تعمل على اهـدار طاقات الإنسان واتلافهـا وبالتـالى تمنعه من الوصول إلى مقصوده ومطلوبه، مثلًا إذا قصـد جيش العـدو بلاد الإسـلام ولم يتريث جيش الإسـلام لكى يباغت العـدو فى موقف من مواقف الضـعف والعسـر بالنسـبة للعـدو، أو قبل أن ينتهى جيش الإسـلام من حيث العـدّة والعـدد والخطّة العسـكرية يقوم هذا الجيش بالهجوم على العدو، فتكون النتيجة الاندحار والهزيمة لجيش الإسـلام واتلاف الكثير من الطاقات والقوى وبالتالى تقويـة جيش الأعداء وجرأتهم أكثر. وهذا المعنى يصدق أيضاً بالأعمال الفردية، لأن كلّ حركة تتصف بالعجلة فإنّها تتسبب فى اهـدار الطاقات واتلاف الامكانات للإنسان. وينقل الفيض الكاشانى فى «المحجّة البيضاء» حـديثاً جميلًا ويعتبر شاهداً ناطقاً على ما تقدّم آنفاً، حيث جاء فى هذا الحديث انه عندما ولد المسيح عليه السـلام فإنّ الشياطين جاءوا إلى إبليس فقالوا: أصبحت قد نكست رؤوسـها، قال: هنا حادث قد حدث، مكانكم، فطار حتى جال خافقى الأرض ولم يجد شيئاً، ثم وجد عيسـى عليه السلام قد ولد، وإذا الملائكة قد حفّت حوله، فرفع إليهم فقال: إنّ نبيّاً قد ولد البارحة ما حملت انثى قط ولا وضعت إلّاوأنا بحضرتها إلّاهذا فآيسوا أن تعبد الأصنام بعد هذه الليلة ولكن ائتوا بنى آدم من قبل العجلة والخفّة «۱».

۲- اليأس

ومن المعطيات السلبية الاخرى للعجلة، هو حالة اليأس الّتى تصيب الإنسان عندما لا ينال مقصوده ولا يتسنّى له تحصيل النتيجة من عمله، وقد يفضى به هذا الحال إلى أن يسىء الظنّ بكلّ شىء حتّى بالتقدير الإلهى، ولذلك ورد فى الحديث الشريف عن الإمام الحسن العسكرى عليه السلام أنّه قال: «لا تَعْجَلْ عَلَى ثَمَرَةٍ لا تدرك وَانَّما تَنالُها فِى اوانِها وَاعْلَمْ انَّ المُدَبِّرَ لَكَ اعْلَمُ بِالوَقتِ الّذى يُصلِحُ حَالُكُ فيهِ، فَثِقْ بِخِيَرَتِهِ فِى جَميع امورِكَ، يُصلِحُ حَالُكَ، وَلا تَعجَلْ بِحَوائِجِكَ قَبلَ وَقِتها فَيَضِيقُ قَلبُكَ وَصَدرُكَ وَيَخشاكَ (يغشاك) القُنوط» «۲».

۳- الندامة

الثالث من الآثار السيئة للعجلة هى الندم كما مرّت الإشارة إليه فى الأحاديث السابقة، فما أكثر الأشخاص الّذين استعجلوا فى تحصيل النتيجة قبل أن تتوفر المقدمات وقبل أن تتهيأ الأرضية لذلك، فكانت النتيجة هى اتلاف طاقاتهم وامكاناتهم وعدم تحصيل مقصودهم الحقيقى، فى حين أنّهم لو مكثوا وصبروا قليلًا فسوف لا يتورطون فى ما وصلوا إليه، وما أكثر الأشخاص الّذين اتجهوا من موقع العجلة فى طريق خاص وإذا بهم يرون الخسارة تحيط بهم من كلّ جانب وعندها أدركوا خطأ هذا الطريق بعد فوات الأوان فاصبحوا يتحسرون على ما صدر منهم ويقولون يا ليتنا لم نسلك هذا الطريق. وفى ذلك يقول أميرالمؤمنين عليه السلام: «فَكَمْ مِن مُستَعجِلٍ بِما ان ادرَكَهُ وَدَّ انَّهُ لَمْ يُدرِكْهُ» «۱».

۴- الحزن والغم

الرابع من العواقب السلبية للعجلة فى الأعمال هو أن يعيش الإنسان امواج الحزن والهم، لأن الفشل فى حركة الحياة الاجتماعية المترتب على العجلة والتسرع تكلف الإنسان غالياً فى كثير من الأوقات وتجعل الإنسان يعيش دائماً القلق والاضطراب والحزن. وقد ورد هذا المعنى فى إحدى الكلمات القصار لأميرالمؤمنين عليه السلام حيث قال «العَجَلُ قَبْلَ الإمكانِ يُوجِبُ الغُصّةَ» «۲».

۵- زيادة الخطأ

إن من الآثار السيئة الاخرى للعجلة والتسرع هو كثرة ما يقع فيه الإنسان من الخطأ والاشتباه بسبب ذلك، لأن التخطيط الصحيح يحتاج إلى كثير من التأمل والتدبر والدقّة، وهذا المعنى يتقاطع مع العجلة والتسرع، ولذا نرى الأشخاص الّذين تستولى عليهم حالة العجلة فى تصرفاتهم وسلوكياتهم فإنّهم يبتلون عادة بأخطار كثيرة سواءً على مستوى تشخيص الهدف أو على مستوى المنهج والطريق للوصول إليه. الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۴۰۰ يقول أميرالمؤمنين عليه السلام «مَعَ العَجَلِ يَكْثُرُ الزَّلل» «۱». وكذلك يقول عليه السلام: «مَن عَجَل كَثُرَ عِثارُهُ» «۲».

۶- كثرة الزلل

السادس من آثار العجلة والتسرع «كثرة الزلل» والّذى يمكن أن يكون بمعنى واحد مع كثرة الأخطاء ويمكنه أن يكون قسماً مستقلًا «الخطأ فى تشخيص الهدف والزلل فى طريق الوصول إليه». ويقول أميرالمؤمنين عليه السلام فى هذا المجال «اصابَ مُتَأَنٍّ اوْ كادَ، واخطَأَ مُسْتَعجِلٌ او كَادَ» «۳». وعلى أية حال فإنّ الأضرار الناشئة من العجلة والتسرع أكثر من أن يتصورها الإنسان، والضرر والخسارة الّتى يدفعها الإنسان العجول فى واقع الحياة من الامكانات المادية والأضرار النفسية والمعنوية أكثر من أن تحصى

جذور هذه الصفة الذميمة:

۱- اتباع الهوی

إن هـذا الخلق الذميم حال سائر الأخلاق الرذيلة الاخری ينبع من اتباع الهوی فی الأساس، فالإنسان إذا تحرّک بوحی أهوائه فإنه عادةً ولأجل تحصـيل مطامعه ورغباته النفسـية يستعجل فی ذلک، والغالب أنّ الهوی لا يسمح له بأن يتدبر عواقب الامور ويتأمل فی الطريق السـليم فی الوصول إلی مقصـده، ولهـذا السـبب فإنه يلقی بنفسه بصورة عشوائيـة فی هذا الاتجاه ويرکض خلف ارضاء النوازع الذاتية والأهواء النفسية وبالتالی يتورط فيما لا يحمد عقباه.

۲- حبّ الدنيا والتعلق بها

الثانی من أسـباب العجلة والتسرع هو حبّ الدنيا والتعلق بها الّذی يعد رأس کلّ خطيئة، الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۴۰۱ فمن کان عبداً للدنيا فإنه لا يری غيرها وکأنما يغلق عينه واذنه عن رؤية عواقب الامور ويلقی بنفسه وبدافعٍ من العشق للدنيا والشوق إلی تحصيل زخارفهـا من موقع العجله والتسـرع وهـو يتصـور إنمـا يسـعی لخيره ومصـلحته ولکنَّ الأـغلب هـو أنّ هـذه العجلـة تتسـبب فی تورطه بالمشاکل واصـطدامه بالموانع الّتی لم يکن يراها بسـبب العجلـة ولم يکن مسـتعداً نفسـياً لمواجهتها، ولهذا السـبب فإنه يمنی بالهزيمة والفشل الذريع.

۳- ضيق الصدر وسعته

ومن الـدوافع الاخری للعجلـة والتسـرع هو ضـيق الصدر وافق التفکير، فالأشـخاص الّذين يعيشون ضـيق الصدر وضـيق الافق هم الّذين يسـلکون طريق العجلـة فی تحصـيل مبتغاهم، واما من کان يعيش سـعة الصـدر ويتسم بسـعة الافق فی تفکيره فنجـده يخطو فی حرکته الاجتماعيـة بتأنٍ ووقـار وتـدبّر فيمـا يصـدر منه من سـلوکيات وأعمـال ويتجه لتحصـيل مقاصـده بعزم قـوی وفی نفس الوقت بـبرودة أعصاب، ولهـذا فإنه قلما يصاب بالفشل والهزيمة. إن تسويلات الشـيطان وخداع رفاق السوء والمتملقين والکاذبين والحساد والنمامين هی بـدورها من العوامل المهمـة للوقوع فی دائرة الاسـتعجال والتسـرع. يقول أميرالمؤمنين عليه السـلام فی هذا الصدد «وَلا تَعجَلَنَّ اَلَی تَصديقِ ساعٍ فَانَّ السَّاعِیَ غَاشٌّ وَان تَشبَّهَ بِالنَّاصِحينَ» «۱».

۴- الجهل

وأحد العوامل الاخری للاسـتعجال بالامور الجهل والسـفه، فان الشخص الجاهل والسفيه يعيش فی الغالب فی دائرة الأوهام والخيالات الباطلـة فيتصور أن مقـدمات هـذا العمل الفلانی متهيئـة وأنّ الأرضـية مساعـدة لـذلک فيلقی بنفسه فی دوامة الحوادث ولا يرجع منها إلّـابخف حنين ولاـ يکون مصـيره منهـا سوی الفشل، فی حين أنّ الشـخص العالِم بالامور والعاقل الـذکی فإنه يسـعی لبرمجـة خطواته العمليـة فی سبيل الوصول إلی هـدفه ومقصـده وبالتالی فسوف يحصـد ثمار هـذا التأنی والتـدبر ولا يصـيبه سوی الفلاح. الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۴۰۲ يقول أميرالمؤمنين عليه السلام «مِنَ الْحُمُقِ الْعَجَلَةُ قَبلَ الْامْکانِ» «۱».

طرق العلاج:

ولغرض التصـدی لهذه الرذيلة الأخلاقية وعلاجها أو الوقاية منها فقبل کلّ شـیء يجب التفکر فی هذه العواقب الوخيمة والآثار السـيئة

لحال الاستعجال والتسرع، فنحن نشاهد الكثير من الوقائع المؤلمة والحوادث والمشاكل الكثيرة الّتى تكون بسبب التسرع ... وهناك نماذج كثيرة من ذلك ذكرها لنا تاريخ الانسانية. فلو أنّ الشخص تفكر فى هذه الامور والآثار السيئة، فإنه سيدرك حتماً أنّ الاستعجال فى العمل مضافاً إلى انه لا يوصله إلى مقصده ولا يحصل على غايته بسرعة فإنه قد لا يحصل عليها أبداً فيما بعد. وما تقدّم من العبارات العميقة فى الروايات الشريفة من قبيل «العَجَلَةُ مِنَ الشَّيْطانِ» و «وَالعَجَلَةُ قَبْلَ الامْكانِ يُوجِبُ الغُصّةَ وَمَعَ العَجَلَةِ تَكوُن النَّدامَةُ» «۲» . يجب أن تكون بمثابة الشعار لحياة الإنسان الفردية والاجتماعية يضعه نصب عينه كى يحد ذلك من عجلته فى الامور، ويضع فى خاطره دائماً الحديث الشريف الوارد عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله أنّه قال: «إنّما أهلك الناس العجلة ولو أنّ الناس تثبّتوا لم يُهلك أحد» «۳». ومن جهة اخرى يجب عليه أن يمارس عملية التأنى ويتمرن عليها ويلقن نفسه بها حتّى يمتزج هذا الخُلق الحسن بروحه ويمتد إلى أعماق وجوده، فيكون له كالطبيعة الثانية، لأن كلّ عمل يتبدل بالممارسة والتمرن إلى عادة، وكلّ عادة تتبدل إلى خُلق وطبيعة فى نفس الإنسان.

الصبر والتأنى

تنويه:

إن الحياة الدنيوية مليئة بالمشاكل والمصائب الّتى تستوعب حياة الإنسان فى واقعه الفردى والاجتماعى، ولو انه تصدى لهذه المشكلات وواجه هذه المخاطر والتحديات للواقع العملى بصبرٍ ومقاومة ومثابرة فإنه سوف يتجاوزها وينتصر عليها قطعاً، وإلّا فإنه لن يصل إلى مقصوده أبداً، وسيجد نفسه يعيش الخنوع والخضوع للتحديات الصعبة الّتى يفرضها عليه الواقع. والمراد من الصبر هو الاستقامة أمام المشاكل والحوادث المختلفة، والصفطة المقابلة له هو «الجزع» ويعنى افتقاد عنصر المقاومة والاستسلام أمام تحديات الواقع والمشاكل الاجتماعية والنفسية فى حركة الحياة على المستوى المادى والمعنوى، فلو أنّ الإنسان لم يقف أمام أهوائه الطاغية ونوازعه النفسية ولم يقاوم الجوانب الدنيوية ولم يسلك فى طريق «معرفة اللّه» واطاعته، فإنه لن يصل إلى أى مرتبة من مراتب الكمال المعنوى والإنسانى، ولذلك قسم علماء الأخلاق الصبر إلى ثلاثة أقسام: ۱- الصبر على الطاعة، أى على المشكلات الّتى تواجه الإنسان فى خط التقوى والإيمان وطاعة اللّه تعالى. الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۴۰۴ ۲- الصبر على المعصية، ويعنى الصمود أمام النوازع النفسية والأهواء الشيطانية ومقاومتها والتصدّى لها. ۳- الصبر على المصيبة، ويعنى الصمود أمام المصائب والحوادث المرة الّتى تصيب الإنسان فى حركة الحياة وعدم الانفعال عند حدوثها والخضوع لتحدياتها وترك الجزع والفزع فى عملية مواجهتها. ويعتبر «الصبر» من أهم أركان الإيمان حيث يشبه الإمام على مكانة الصبر بالنسبة إلى الإيمان كمكانة الرأس بالنسبة إلى الجسد، وقد لا نجد فى القرآن الكريم مورداً اهتم فيه القرآن من موقع التأكيد والمدح مثل ما نجد ذلك بالنسبة إلى الصبر، فقد وردت سبعون آية تقريباً فى هذا الموضوع، عشرةٌ منها مختصة بتوصيات القرآن للنبى الأكرم صلى الله عليه و آله نفسه. ونقرأ فى آيات القرآن أنّ اللّه تعالى وعد الصابرين أجراً عظيماً وبدون حساب «انَّما يُوَفّى الصَّابِرُونَ اجْرَهم بِغَيْرِ حِسَابٍ» «۱». وأنّ الصبر هو مفتاح الجنّة كما تقول الآية «سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارُ» «۲». وجاء فى الحديث النبوى المعروف اشارات إلى هذا المعنى وأنّ الصبر نصف الإيمان، كما سيأتى تفصيله لاحقاً. وبهذه الإشارة نعود إلى آيات القرآن الكريم بدراسة هذا الموضوع الأخلاقى المهم من جوانبه وابعاده المختلفة.

آيات الصبر:

۱- «إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ ا لْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ» «۳». ۲- «وَجَآءُو عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ

الاخلاق فى القرآن، ج ۲، ص: ۴۰۵ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَاتَصِفُونَ» «۱». ۳- «وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ» «۲». ۴- «قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا» «۳». ۵- «قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَقُواْ اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ» «۴». ۶- «فَاصْبِر كَمَا صَبَرَ اوُلُوا العَزمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَستَعْجِلْ لَهُم كَانَّهُم يومَ يَرَونَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلبَثُوا الّا سَاعَةً مِنْ نَهارٍ ...» «۵». ۷- «فَاصْبِر صَبراً جَميلًا» «۶». ۸- «يأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» «۷». ۹- «يَا ايُّها الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلوةِ انَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرينَ» «۸». ۱۰- «قُلْ يَاعِبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُواْ اتَّقُواْ رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَا سِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ» «۹». ۱۱- «سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارُ» «۱۰». ۱۲- «أوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا» «۱۱». ۱۳- «وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ا لْخَوْفِ وَا لْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَا لِ وَالْأَنفُسِ وَالَّثمَرَا تِ الاخلاق فى القرآن، ج ۲، ص: ۴۰۶ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ» «۱». ۱۴- «.. وَتَواصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَواْ بِالصَّبْرِ» «۲».

تفسير واستنتاج:

اسوة الصبر والمقاومة

«الآيـة الاولى تسـتعرض حياة أحـد الأنبياء العظام الّـذى صار مثلًا للصبر والاسـتقامة فى مواجهته للبلايا والمصائب فى الحياة، فى حياته الفرديـة والاجتماعيـة، ولهذا فإننا نقرأ فى حالاته وسـيرته المذكورة فى سورة «ص» إن القرآن الكريم يضـربه مثلًا للمسـلمين فى أوائل البعثـة الّـذين كانوا يعيشون التحـديات الصـعبة والضـغوط المسـتمرة من قِبل المشـركين فى مكّة ويتعلموا منه درس الصبر والاسـتقامة والصـمود فى مواجهـة المشاكل والمصاعب المفروضة عليهم. وصـحيح أنّ اسم النبى أيوب عليه السـلام أو سـيرته قد وردت فى عدّة سور فى القرآن الكريم، ولكنَّ مـا ورد فى سورة «ص» يعـدو شـرحاً وافيـاً لسـيرته الكريمـة حيث تقول الآيـة ۴۴ من هـذه السورة: «إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ ا لْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ» «۳». وهكـذا واجه النبى أيوب عليه السـلام مصائب عظيمـة لغرض اختباره وامتحانه لمعرفة درجة شكره وطـاعته للَّهتعـالى وليصـعد بهـذا الطريق إلى مقامـات ساميـة من القرب الإلـهى، فقـد كانت له ثروة كبيرة وبساتين وأغنام كثيرة وأبنـاء صالحون، ولكن كلّ ذلك فقـده بين عشـية وضـحاها حتّى أبناءه أيضاً ونفس أيوب ابتلى بمرض شديـد ومزمن إلى درجـة انه كـان يتلوى فى فراشه من شـدّة الالـم الّـذى أوقعه فى الفراش أسـيراً، ولكن أى واحـدٍ من هـذه الامـور لم يسـتطع أن يقلل من شـكره للَّهتعـالى، ولم يتمكن أن يخـدش فى صـبره واسـتقامته فى الاخلاـق فى القرآن، ج۲، ص: ۴۰۷ خط الإيمان والطاعـة. هذا وقد سـمع أيوب الكثير من التعريض به وبشخصـيته، ولعلّ هذه المصـيبة كانت عليه من أعظم المصائب، وأحياناً كان عُبّاد بنى إسرائيل ورهبانهم يأتون لرؤيته ويقولون له بصـراحة: ما هو الذنب العظيم الّذى ارتكبته حتّى ابتلاك اللَّه بهذا الابتلاء والعذاب الشديد؟ ولكن هذا النبى العظيم لم يفقـد صبره بـل كـان يعيش الانضـباط الأخلاـقى أمـام نوازعه النفسـية ويلهـج لسانه بشـكر اللَّه تعالى ويتعامل مع كلّ هـذه المصائب من موقع الشـكر لا من موقع كفران النعمة والشـكوى والجزع، وبعد أن مضت عليه سنوات عديدة وهو يتحدى هذه الصعاب العظيمة دعا اللَّه تعالى لأن يكشف عنه هذا البلاء كما تقول الآية: «وَاذْكُر عَبْدَنا ايّوبَ اذ نَادى رَبَّهُ انّى مَسَّنِىَ الشَّيطانُ بِنُصْبٍ وَعَذابٍ». فعنـدما ختم هـذا النبى العظيم جميع مراحـل هـذا الامتحـان الإلـهى الكبير ووقف أمـام البلايـا والمصـائب المختلفـة كجبـلٍ من الصبر والاستقامة وأخجل الشيطان الرجيم من أن ينال منه ولو كلمة جزع وشكوى واحدة حتّى يئس منه، عندها فتح اللَّه تعالى أبواب رحمته عليه، وعاد عليه كلّ ما فقده من المال والأولاد والمواهب الدنيوية الاخرى بل ضاعفها له أضعافاً مضاعفة، والأهم من ذلك انه نال من ذلـك مقامـاً عظيمـاً فى دائرة القرب الإلـهى ونـال وسـام «نِّعْمَ ا لْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ». وذكر المفسّـر المعروف «ابن مسـعود»: إن أيوب عليه السلام كان «رَأسُ الصَّابِرينَ الَى يَومِ القِيامَةِ» «۱» وهكذا سجّل أيوب لنفسه هذا الشرف والافتخار على طول التاريخ البشرى. ولا ينبغى التساهل فى المرور على هذا المطلب، وهو أنّ إنساناً كان يتمتع بجميع الامكانات المادية والدنيوية، وفجأةً فقد كلّ شىء وجلس صفر اليـدين حتّى انه لـم يسـلم من تعريضـات قومه من الأصـدقاء والأعـداء وكناياتهم الموجعـة الّتى كانت تؤلمهُ أكثر من طعنات السـيوف

والخناجر ومع ذلك لم يصدر منه حتّى كلمة واحدة على خلاف رضى اللَّه تعالى بل كان لسانه لهجاً بذكر اللَّه وشكره، وفى نهاية أمره قال كلمة واحدة تعبر عن دعاءه الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۴۰۸ وتضرعه إلى اللَّه تعالى لا- غير، وهى العبارة الّتى تصور البعض أنّها من قبيل الشكوى ولكنه خطأ فاحش لأنها لاتتضمن أى نوع وأى أثرٍ للشكوى فيها حيث تقول: «اذ نَادى رَبَّهُ انّى مَسَّنِيَ الشَّيطانُ بِنُصْبٍ وَعَذابٍ». وتأتى «الآية الثانية» لتستعرض صبر «النبى يعقوب» الّذى يُعد اسطورة فى الصبر والاستقامة، فقد فَقَدَ ابنه وأعز ما لديه فى الحياة، وهو «يوسف» الّذى كان يحبّه حبّاً جمّاً، وعاش سنوات مديدة بعينٍ باكية وصبرٍ عظيم حتّى انه عميت عيناه، ولكن رغم ذلك فإنه لم تفلت منه كلمة مخالفة لرضى اللَّه تعالى وكان شاكراً وصابراً دائماً وكما تعبر الآية على لسان يعقوب نفسه بكلمة «صبرٌ جميل» حيث تقول «وَجَآءُو عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَاتَصِفُونَ» «۱». وهكذا نرى إن الاخوة الكذّابين غفلوا عن تمزيق قميص يوسف عندما جاءوا به ملطخاً بالدم وقالوا لأبيهم إنّ الذئب قد أكل يوسف فى غفلة منا، ولهذا لم يصدق يعقوب كلامهم هذا وقال: «بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا»، ولكن بما انه لم يكن يملك أى شىء اتجاه هذه الحادثة المؤلمة فاكتفى بالبكاء على يوسف وقال: «فَصَبْرٌ جَمِيلٌ» أى الصبر المقترن مع الشكر للَّه‌على هذه المحنة دون أن تمتد إلى قلبه حالة الجزع الذميمة. وبالنسبة لعبارة «فَصَبْرٌ جَمِيلٌ» فللمفسّرين بيانات مختلفة فى تفسيرها، فذهب البعض إلى أنّ «الصَبْرٌ الجَمِيلٌ» هو الصبر الّذى لا يخالطه الجزع ولا الشكوى للناس من المصيبة، وذهب البعض الآخر إلى أنّ الصبر الجميل أن يكون بدافع إلهى وطلباً لرضى اللَّه تعالى وقد ورد فى الروايات انه سُئل رسول اللَّه صلى الله عليه و آله عن الصبر الجميل ما هو؟ وقال «هُوَ الّذى لَا شَكْوَى مَعَهُ» «۲». وذهب آخرون إلى أنّ الصبر الجميل هو ما لم يقترن مع الشكوى إلى الناس، وأجمل منه الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۴۰۹ أن يعرض حاله على اللَّه تعالى ويلتجى إليه فى هذه المصيبة ويؤدى حقّ الطاعة والعبودية له. فعندما اعترض أبناء يعقوب على أبيهم بسبب كثرة البكاء على يوسف وتذكره الدائم قال لهم إننى لا أشكو حالى إلى الناس وإليكم بل «قَالَ انَّمَا أَشْكُوا بَثّى وَحُزْنِى الى اللَّهِ وَاعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلمُونَ» «۱». «الآية الثالثة» تتحدّث عن طائفة اخرى من الأنبياء الإلهيين الّذين سلكوا فى دعوتهم لأقوامهم وفى مواجهة المشكلات والمصاعب فى خطّ الاستقامة والتحمل، من أجل ذلك فإنّ اللَّه تعالى أغرقهم برحمته وجعلهم فى زمرة الصالحين: «وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مّنَ الصَّابِرِينَ» «۲». أما صبر إسماعيل فواضح، وذلك بانه أوّلًا: استعد لأن يضحى بنفسه فى طاعة اللَّه وامتثال أمره وامتثل لما أمره به أبوه من ذبحه كما أمر اللَّه، ولكن اللَّه تعالى شملهما بعنايته وأرسل لإبراهيم خروفاً أو كبشاً ليذبحه بدل إسماعيل. وثانياً: لبقائه فى الصحراء المحرقة فى منطقة مكّة وإلى جانب بيت اللَّه الحرام كى ما يقوى ويشتد أمر هذا المركز الإلهى ويشيع أمرهُ بين الناس. وأمّا بالنسبة إلى صبر إدريس فقيل: أنّه أوّل من بُعث من بين قومه يدعوهم إلى عبادة اللَّه تعالى ولكنه بالرغم من ذلك واجه صعوبات كبيرة فى هذا السبيل ولم يستجب له أحدٌ من قومه. وأمّا «ذى الكفل» فإنما سمى بهذا الاسم وصار فى زمرة الصابرين الكبار من الأنبياء الإلهيين فبسبب انه كان يعيش فى بنى إسرائيل، وكان يحكمهم نبيّاً من الأنبياء، وفى يوم من الأيّام جاء الوحى إلى ذلك النبى وأخبره بحلول أجله وأنّ عليه أن يسلم مقاليد الحكم إلى الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۴۱۰ شخص آخر تتوفر فيه هذه الصفات الثلاثة: أن يقوم فى كلّ ليلة بالعبادة والصلاة، وأن يصوم كلّ يوم، وأن يحكم بين الناس دون أن يغضب، فقال شابٌّ من المؤمنين: أنا أتكفل بكلّ هذه الامور، قال ذلك واستمر على الوفاء بعهده والاتيان بهذه الثلاثة (مع جميع ما تتضمنها من مشاكل وصعوبات) وبذلك نال مقام النبى أيضاً فسُمى: ذى الكفل. أجل، فإنّ هؤلاء العظماء الثلاثة كانوا اسطورة للصبر والاستقامة بحيث إنّ القرآن الكريم جعلهم اسوة لجميع المسلمين فى العالم وأشار إليهم بذلك فى هذه الآية الكريمة. وتتعرض «الآية الرابعة» إلى الحديث عن «قصة موسى عليه السلام والخضر عليه السلام» ونقرأ فى هذه القصة دروساً وعبراً مهمة ونافعة حيث جاء موسى عليه السلام إلى الخضر عليه السلام لطلب العلم وسأله أن يعلمه من العلوم والأسرار الإلهية، لأن هذه العلوم والأسرار هى غير «علم الشريعة» الّذى تلقاه موسى عليه السلام بطريق الوحى وكان على اطلاع عام به، ولكنَّ تلك العلوم والمعارف متعلقة بأسرار عالم التكوين والحوادث الواقعة فى عالم الوجود، ولكن على أية حال فإنّ الخضر عليه السلام كان قلقاً

من عدم تحمل موسی علیه السلام بهذه العلوم والمعارف وقال له کما تذکر الآیة «قَالَ إِنَّکَ لَنْ تَسْتَطِیعَ مَعِیَ صَبْرًا* وَکَیْفَ تَصْبِرُ عَلَی مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً» «۱». فکان أن وعد موسی علیه السلام معلمه بأن یصبر ویتریث ولا یعترض علی شیء، ولکن الحوادث والوقائع الّتی رآها فیما بعد کانت عجیبة وغریبة إلی درجة أنّ موسی علیه السلام لم یطق صبراً إلی أن یخبره الخضر علیه السلام عن أسرارها، وفتح فمه بالاعتراض علی معلمه، فما کان من الخضر علیه السلام إلّاأن ذکره بوعده بالصبر والتریث، فاعتذر موسی علیه السلام بذلک ولکنه فی المرّة الثالثة قرر الانفصال إلی الأبد. وهذه القصة العجیبة تتضمن دروساً ومعارف کثیرة، ولکن ما یرتبط ببحثنا هذا هو أنّ موسی علیه السلام لو صبر أکثر ولم یعترض علی الخضر علیه السلام لکان یکتشف أسراراً جدیدة ویزداد علماً إلی علمه، ولکن عدم صبره هذا تسبب بأن لا یتعلم سوی ثلاثة امورٍ فقط، فی حین انه الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۴۱۱ وکما یقول بعض المفسّرین المعروفین أنّ موسی علیه السلام لو صبر أکثر لکان یتعلم من الخضر علیه السلام آلاف الأسرار والمعارف الموجودة فی عالم التکوین والخلقة. وعلی هذا فإنّ الصبر یعد أحد مفاتیح العلوم والمعارف. ویمکن أن یتساءل البعض: ألم یکن الأنبیاء أعلم الناس فی زمانهم؟ فکیف طلب موسی من اللّه تعالی أن یتعلم بعض العلوم من الخضر وحتّی انه فارقه بعد ذلک ولم یتعلم منه سوی بعض الامور والأسرار القلیلة؟ والجواب علی هذا السؤال واضح، وهو أنّ کلّ نبی یجب أن یکون أعلم الناس بالنسبة إلی دائرة مهمته ووظیفته فی تحمل مسؤولیة الدعوة إلی اللّه وهدایة الناس إلی الحقّ، وهکذا کان موسی أعلم الناس بنظام الشریعة والدین، ولکنَّ مسؤولیة الخضر ودائرة علومه ترتبط بعالم التکوین وعمله وهو کعمل الملائکة «المدبرات أمراً» المأمورین بتدبیر عالم الوجود، ولهذا فإنّ الأعمال الّتی صدرت من الخضر قد لا تکون مطابقة لموازین الشرع فی الظاهر حتّی أنّ موسی علیه السلام اعترض علیه فی ذلک، ولکن عندما شرح الخضر علیه السلام الأسرار الکامنة فی أعماله قبل موسی علیه السلام منه ورضی بذلک. وأساساً فإنّ القوانین الحاکمة علی عالم التکوین رغم أنّها تصب فی نتیجة واحدة مع قوانین عالم التشریع إلّاآنها منفصلة عنها فی الظاهر، ولهذا السبب فإنّ صداقة موسی والخضر علیهما السلام لم تدم طویلًا. ومن الممکن أنّ أن یکون لبعض الأنبیاء وکذلک الأئمّة إحاطة بأسرار عالم التکوین أیضاً «کما یستفاد ذلک من الروایات بالنسبة إلی نبی الإسلام والأئمّة المعصومین علیهم السلام» ولکن هذا الأمر لا لزوم له فی توکید مرتبة النبوة للأنبیاء وکذلک مرتبة الإمامة للأئمّة لأن ذلک یعد مجرد فضیلة لا شرطاً للرسالة والإمامة. «الآیة الخامسة» تتحدّث عن أحد أنبیاء بنی إسرائیل الّذی ورد اسمه فی التفاسیر والتواریخ انه «اشموئیل» لکی یعین لهم رئیساً وقائداً للجیش لیحاربوا معه جالوت، فاختار الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۴۱۲ لهم رجلًا یدعی «طالوت» لانه یمتاز ببعض المیزات والصفات الإیجابیة الموجودة فیه بتفاصیل قد تخرج عن موضوع هذا البحث. وعندما جاء طالوت بذلک الجیش العظیم من بنی إسرائیل لحرب جالوت أدرک جیداً بفراسة من اللّه تعالی أنّ هذا الجیش العظیم غیر قابل للاعتماد، لانه رأی کثیراً من أفراده یعیشون حالة الکسل والخمول وعدم الهمة، فمضافاً إلی أنّ وجودهم لیس فقط لا یبعث علی تقویة الجیش، بل سیؤدی إلی تضعیف روحیة الآخرین أیضاً، لذا عزم علی تصفیة جیشه بالعدید من الاختبارات والامتحانات، وبعد أن نجح فی ذلک وأتم اختباره لجیشه لم یبق منه إلّاعدّة قلیلة. وهذه الفئة القلیلة کانت تعیش القلق والاضطراب من قلّة الأفراد، فکان أحدهم یقول للآخر: نحن لا نستطیع مقاومة جیش جالوت العظیم ولا نتمکن من الصمود أمام قوته وجحافله، ولکنَّ البعض منهم کما یقول القرآن الکریم «قَالَ الَّذِینَ یَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَقُواْ اللَّهِ کَم مِّن فِئَةٍ قَلِیلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً کَثِیرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِینَ» «۱». ثمّ إن هذه الفئة القلیلة عندما برزوا لجالوت دعوا اللّه تعالی أن یرزقهم حسن الصبر کما تقول الآیة: «وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَیْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَی الْقَوْمِ الْکَافِرِینَ» «۲». وعلی هذا فقد اثبتوا أنّ الجماعة الکثیرة للجنود والجیش العظیم إذا کانوا فارغین من الدوافع المعنویة والاستقامة والصبر فإنّهم سینالهم الفشل الذریع فی میدان القتال، بخلاف الفئة القلیلة، الّتی تعیش الاستقامة والصبر والثبات فإنه یمکنها الانتصار علی الجیش العظیم فی العدّة والعدد، وبذلک استطاعت هذه العدّة القلیلة مع قائدهم طالوت بالانتصار علی جالوت وجنوده الکثیرین ویهزموهم شرَّ هزیمة، وهناک قتل داود الّذی کان شاباً قویاً فی جیش طالوت، «جالوت» واستطاع بنو إسرائیل العودة إلی دیارهم وأهلیهم فتخلصوا من الاخلاق فی القرآن، ج۲،

ص: ۴۱۳ سيطرة عدوهم جالوت وتحرروا من أسره، وبهذا فقد خلفوا للتاريخ البشرى درساً آخر عن أهمية الصبر والاستقامة فى سلوكهم العملى. ويستفاد من هذه الآيات الشريفة أنّ التوكل على اللّه بالإيمان بالآخرة والثواب الإلهى يشكل دعامة قوية للصبر والاستقامة فى واقع النفس، ونقرأ فى بعض الروايات أنّ عدد جيش جالوت ۳۱۳ نفراً كما كان أصحاب بدر كذلك فى العدد، واللطيف أنّ داود مع صغر سنه ولكنّه كان مسلحاً بقوّة الإيمان، وكان قد أخذ معه مقلاعاً وعدّة أحجار ورمى بأحدها باتجاه جالوت فأصابته بجبينه وخرَّ جالوت صريعاً بسبب ذلك، فلمّا رأى جيشه ذلك أسرعوا بالفرار يحدوهم خوف عظيم وتلاشى ذلك الجيش الكبير الّذى يبلغ عدده كما ورد فى بعض الروايات «منه ألف نفر» مسلحين بأنواع الأسلحة. وتستعرض «الآية السادسة» خطاب اللّه تعالى للنبى الكريم صلى الله عليه و آله موصيةً له بالاستقامة وأن يقتدى بذلك بسيرة الأنبياء اولى العزم من قبله وتقول: «فَاصْبِر كَمَا صَبَرَ اوُلُوا العَزمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَستَعْجِلْ لَهُم ...» «۱». ورغم أنّ هذه الآية الشريفة تتحدّث عن الصبر والتأنى فى مقابل طلب نزول العذاب الإلهى على المخالفين والأعداء إلى أن تتم الحجّة عليهم فلعلّه يوجد من بينهم من له رغبة فى سلوك طريق الحقّ ويهتدى بالتالى إلى الإيمان ويكون فى زمرة السعداء، ولكن هذا الأمر الإلهى بمثابة دستور عام ودليل واضح على فضيلة الصبر بعنوان منهج عام لجميع الأنبياء من اولى العزم. أجل فإنّ جميع الأنبياء العظام وأصحاب الشرائع السماوية عندما كانوا يواجهون أعدائهم المعاندين والأشخاص الّذين يعيشون الجهل والسفه والعناد كانوا يتسلحون بالصبر والاستقامة أكثر ليتمكوا من هداية الامّة إلى ساحل النجاة بصورة أفضل. النبى نوح عليه السلام دعا قومه إلى طاعة اللّه «۹۵۰ سنة» ليل نهار فى الخفاء والاجهار الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۴۱۴ ووعظهم وحذرهم طيلة هذه المدّة المديدة ولكنه لم يؤمن له سوى بضع أفراد معدودين. النبى إبراهيم عليه السلام أُلقى فى النار الملتهبة، والنبى موسى عليه السلام تعرض هو والمؤمنين من قومه إلى أشد العذاب من قبل فرعون وأتباعه، وكذلك ما واجهه عيسى عليه السلام من بنى إسرائيل من الأذى والاتهام والطرد إلى أن أرادوا صلبه وقتله ولكن اللّه تعالى انقذه فى اللحظة الأخيرة، والخلاصة أنّ الحياة الدنيا هى دائماً محل التضاد بين الحقّ والباطل حيث لا يمكن التغلب على المشكلات والمصاعب الّتى يواجهها الإنسان فى حركة الحياة إلّابقوّة الصبر والاستقامة. امّا المراد من الأنبياء اولى العزم من هم؟ فقد ذكر بعض المفسّرين أنّ المراد به هم الأنبياء الّذين يأتون بشريعة جديدة وعددهم مع نبى الإسلام خمسة أشخاص، وامّا اختيار هذا الأسم والعنوان لهم فهو من أجل ارادتهم القوية وعزمهم القاطع فى الدعوة إلى الحقّ وهداية الناس إلى اللّه تعالى، ولا شكّ أنّ هذه الفئة من الأنبياء كانوا يواجهون من المشاكل والمصاعب فى حركة التغيير بالرسالة الإلهية أكثر من غيرهم، لأن عرض شريعة جديدة تتقاطع مع كلّ ما يألفه الناس من الشرائع والقوانين السائدة لديهم يتضمّن مشكلات كثيرة وصعوبات يقوم بها المتعصبون من هذه الأقوام البشرية. وذهب بعضٌ آخر إلى أنّ عددهم «۱۸ نفر» حيث ورد اسمهم فى الآيات ۸۳ إلى ۹۰ من سورة الأنعام، وذهب البعض الآخر إلى أنّهم تسعة أشخاص، وآخرون إلى سبعة أشخاص، بينما ذهب البعض إلى ستة أشخاص، وبعض قال بأنّهم خمسة أشخاص، وذكر آخرون أنّ جميع الأنبياء الإلهيين هم «اولى العزم»، لأنهم يرون أنّ جميعهم يتمتعون بالعزم الراسخ فى أداء المسؤولية الإلهية الملقاة على عاتقهم، ولكنَّ القول الأخير بعيد حسب الظاهر، وسائر الأقوال لا دليل عليها سوى ما ورد من الروايات الشريفة عن المعصومين عليهم السلام فى تفسير هذه الآية وأنّ عددهم مع نبى الإسلام هو خمسة أشخاص. وأما «الآية السابعة» فتعود لتخاطب نبى الإسلام صلى الله عليه و آله من موقع الأمر بالصبر مقابل الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۴۱۵ استهزاء وتكذيب المشركين واذاهم وتقول: «فَاصْبِر صَبراً جَميلًا» «۱». وقد ذكر المفسّرون فى تفسير «صبراً جميلًا» تفاسير مختلفة وقد تقدّم البحث عنها فى تفسير الآية الثانية فى هذا البحث وسنتابع الكلام فيها فى حديثٍ آخر لاحقاً، ويقول الإمام الباقر عليه السلام فى الجواب عن معنى الصبر الجميل فى هذه الآية، «صَبْرٌ لَيْسَ فِيهِ شَكْوىً الَى النّاسِ» «۲». وفى «الآية الثامنة» يخاطب اللّه تعالى جميع المؤمنين ويأمرهم بالصبر والمثابرة وأنّ ذلك هو مفتاح السعادة والنجاة ويقول «يأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» «۳». فنقرأ فى هذه الآية أربع أوامر تمثل مفتاح السعادة ومصدر الخيرات والبركات على الإنسان فى حياته المادية والمعنوية. الأوّل: الصبر والاستقامة والصمود أمام الحوادث والمشكلات والمصائب

والموانع الّتى يجدها الإنسان فى حركته الدنيوية لتحديات الواقع وصعوبة الظروف. الثانى: المصابرة، وهى من باب «مفاعلة» وتأتى بمعنى الصبر والاستقامة مقابل صبر واستقامة الآخرين، وفى الحقيقة فإنّ الدستور الأوّل ناظرٌ إلى الصبر والاستقامة أمام أنواع المشكلات والحوادث الّتى يفرضها الواقع على الإنسان، أما الدستور الثانى فناظرٌ إلى الصبر والاستقامة أمام الأعداء، وعليه فكلّما بذل الأعداء جهداً فى سبيل المقاومة فى ميدان القتال، فعلى المؤمنين أن يبذلوا جهداً أكبر من ذلك ويعيشوا الصبر بأقوى ممّا لدى العدو كى ينالوا النصر والغلبة عليه. «رابطوا» من مادّة «مرابطة» وهى فى الأصل من «رباط» بمعنى شد الشىء إلى مكان معين، وتستعمل هذه المفردة «مرابطة» عادّةً بمعنى مراقبة الحدود والثغور لأن جنود الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۴۱۶ الإسلام يضعون مراكبهم وأدوات حربهم وامتعتهم فى ذلك المكان. وآخر دستور إلهى فى هذه الآية هو الأمر بتقوى اللَّه الّذى هو من قبيل الخيمة الّتى تستوعب بظلّها جميع الأوامر والدساتير السابقة، فعندما يكون الصبر والمصابرة والمرابطة من أجل اللَّه وبعيداً عن أى أشكال الرياء والأمراض الشخصية وتكون مقترنة بالتقوى فإنّ ذلك سيتسبب فى الفلاح والنجاة فى الدنيا والآخرة. بعض المفسّرين ذكر فى تفسير «المصابرة» أنّها الصمود ومقاومة العادات والأهواء النفسانية، لانها تقف فى المقابل أمام الإنسان لتمنعه من سلوك طريق الهدى والصلاح والسير فى خطّ التقوى والإيمان، فيجب على الإنسان أن يقف فى مقابلها بالمثل، وقالوا فى تفسير «المرابطة» أنّ المراد منها هو ربط النفس بطاعة اللَّه أو ربط القلب باللَّه تعالى وقد نقل عن أحد العرفاء انه كان يتجه إلى الحجّ مشياً على الأقدام، فالتقى بأعرابى راكباً جمله فقال له الأعرابى: أين تذهب يا شيخ؟ فقال له: إلى بيت اللَّه الحرام. فقال: لماذا أنت راجل؟ فقال: بل لدى مراكب كثيرة، فتعجب الأعرابى من ذلك فسألة: وما هى هذه المراكب؟ فقال العابد: عندما تنزل علىّ مصيبة فسأركب مركب الصبر، وعندما تنزل علىّ نعمة أركب مركب الشكر، وعندما يداهمنى القضاء والقدر أركب مركب الرضا، وعندما تطغى نفسى وتطلب منى شيئاً فأعلم أنّه لم يبق من عمرى شىء وما مضى منه أكثر ممّا بقى. فقال الأعرابى: فى الواقع أنت الراكب وأنا الراجل والسلام عليكم، فودعه وانصرف. «الآية التاسعة» تخاطب جميع المؤمنين بتعبيرٍ جديد وتتحرك ضمن توصيتهم بأن يلتزموا الصبر ويستعينوا بالاستقامة والتحمل فى مقابل تحديات الواقع الصعبة والمشكلات المفروضة عليهم وتقول: «يَا ايُّها الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلوةِ انَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ» «۱». وهذه الآية لها مفهوم واسع بحيث تشمل كلّ أشكال الصبر والاستقامة، سواءٌ الصبر على الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۴۱۷ الطاعة أو الصبر على المعصية أو الصبر على المصيبة، فتوجب على الإنسان أن يستعين بكلّ عمل مهم بالصبر سواءً كان ذلك العمل هو الجهاد فى سبيل اللَّه أو غير ذلك، فلابدّ من الاستعانة بأحد أقسام الصبر بما يتناسب مع المشكلة الّتى تواجه الإنسان. ولابدّ من القول فى من فسّر الصبر بالصوم أنّ الصوم أحد المصاديق البارزة للصبر لا أنّه يستوعب جميع مفهوم الصبر فى هذه الآية الشريفة. وهنا يثار سؤال، وهو أنّه ما هى الرابطة بين الصبر بمعناه الواسع، وبين الصلاة؟ ذكر بعض المفسّرين فى مقام الجواب أنّ الرابطة بينهما هو أنّ الإنسان قد يفقد صبره أحياناً أو يتضعضع أمام المشكلات وضغط الواقع الصعب فتأتى الصلاة لتمنحه قوّة القلب الإرادة والعزم والتوكل على اللَّه تعالى، وبذلك فإنّ الصلاة تزيد الإنسان قوّة فى عملية الصبر والمقاومة. وبتعبير آخر: عندما يتجه الإنسان إلى البارى تعالى من خلال الصلاة فإنه يجد نفسه مرتبطاً بالقدرة اللامتناهية والحقّ الأزلى، وهذا العمل يزيد من مقاومة الإنسان فى مقابل المشكلات بحيث يبلغ به مرتبة أن يتغلب على جميع ما يواجهه من صعوبات ومشاكل ويستمر فى خط الاستقامة والتحمل والمثابرة، ولهذا ورد فى الحديث الشريف عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله، وأحياناً عن أميرالمؤمنين عليه السلام، وكلا الحديثين صحيحان من حيث السند: «اذَا أَهَالَهُ أَمْرٌ فَزِعٌ، قَامَ الى الصَّلَوةِ ثُمَّ تَلى هَذِهِ الآيَةِ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَوةِ «۱»» «۲». وعلى أية حال فإنّ هذه الآية من أوضح الآيات القرآنية الّتى تبيّن أهمية الصبر وكونه عاملًا مهماً فى نجاح الإنسان فى حركة الحياة الفردية والاجتماعية. «الآية العاشرة» تخاطب نبى الإسلام صلى الله عليه و آله «من جانب اللَّه تعالى» بأن يقول لجميع عباده المؤمنين: «قُلْ يَاعِبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُواْ اتَّقُواْ رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هـذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۴۱۸ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ» «۱». وهذه الآية الشريفة تدلّ من جهة على أنّ الإنسان يجب عليه أن يستعين بقوّة الصبر والاستقامة فى مقابل الصعوبات الّتى

يفرضها الواقع وتفرضها عليه عملية الصراع مع الظالمين والجبابرة، لأنّه بدون ذلك فلا يوجد منفذ أمام الإنسان سوى الاستسلام للظالمين وقوى الإنحراف والخضوع لهم. ومن جهة اخرى فإنّها تشير إلى ثواب الصابرين عند اللّه وأنّه لا يقبل العد والحساب. عبارة «بغير حساب» تشير إلى أنّ اللّه تعالى سوف يجازى هؤلاء الصابرين بالثواب العظيم إلى درجة أنّ أحداً لا يقدر على عدّه واحصائه إلّااللّه تعالى، ولهذا نقرأ فى الحديث الشريف عن رسول اللّه أنّه قال: «إذا نشرت الدواوين ونُصبت الموازين لم ينصب لأهل البلاء ميزان ولم ينشر لهم ديوان، ثمّ تلا هذه الآية: إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ» «۲». وهذه العبارة «بغير حساب» وردت فى آيات متعددة اغلبها يتعلق بالرزق الدنيوى الكثير الّذى يهبه اللّه تعالى لبعض الناس، ولكن فقط فى هذه «الآية ۴۰ من سورة المؤمن» فتتحدّث عن الثواب الإلهى للمؤمن والصابر يوم القيامة، ومن المعلوم انه إذا كان الرزق الدنيوى بدون حساب فإنّ ذلك لا يعنى انه يتناسب مع كمية العمل أو كيفيته، بل يتناسب مع لطف اللّه تعالى وعنايته لعبده، وبالتالى تكون ثمرته سامية جداً فى مقام القرب الإلهى والكمال المعنوى. ونقرأ فى «الآية الحادية عشر» تعبيراً جميلًا جداً عن أهمية الصبر والاستقامة، وذلك أنّ الملائكة عندما تستقبل أهل الجنّة من كلّ باب يردون إليها يقولون لهم: «سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۴۱۹ صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارُ» «۱». واللطيف أنّ الملائكة هنا أشاروا من بين جميع الأعمال والطاعات والعبادات الّتى أتى بها أهل الجنّة إلى الصبر والاستقامة لأن ذلك كان سبب دخولهم الجنّة، ولو دققنا النظر لرأينا أنّ الصبر بحد ذاته له دورٌ مهم فى سعادة الإنسان ونجاته فى الآخرة ودخوله الجنّة لانه بدون الصبر فلا يستطيع الإنسان أن يتوقى من الذنوب ولا يؤدى العبادات والطاعات ولاجهاد النفس أو جهاد الأعداء، ولهذا السبب فإنّ الملائكة فى أوّل سلام وتبريك لهؤلاء ذكروا مسألة الصبر. والشاهد على هذا الكلام أنّ جميع الطاعات يأتى بها الإنسان فى ظلّ عنصر الصبر ونقرأ فى الآية ۲۲ من هذه السورة قوله تعالى: «وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَاقَامُوا الصَّلَوةَ وَانْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلانِيَةً وَيَدْرَئُونَ بِالْحَسَنَةِ السيِّئَةَ ...». وجاء فى تفسير هذه الآية حديثاً جميلًا عن الإمام على بن الحسين عليه السلام أنّه قال: «إذا كان يوم القيامة ينادى مناد: ليقم أهل الصبر، فيقوم جمعى من الناس فيقال لهم: انطلقوا إلى الجنة، فتتلقاهم الملائكة فيقولون إلى أين؟ فيقولون: إلى الجنة. قالوا: قبل الحساب؟ قالوا: نعم، فيقولون: من أنتم؟ فيقولون: نحن أهل الصبر، قالوا: وما كان صبركم؟ قالوا: صبرنا أنفسنا على طاعة اللّه، وصبرناها عن معاصى اللّه، وصبرناها على البلاء والمحن فى الدنيا، قال على بن الحسين عليه السلام: فتقول لهم الملائكة: «سلام عليكم بما صبرتم فنعم أجر العاملين» «۲». وذكر بعض رواة هذا الحديث أنّ الملائكة تقول لهم: «سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ» «۳». «الآية الثانية عشر» تكرر هذا المطلب بصورة جذابة، وهذه الآية هى استمرار للآيات الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۴۲۰ الّتى تحدّثت عن صفات «عباد الرحمان» واستعرضت فى سياقها اثنى عشر صفة ايجابية تبين شخصيتهم السامية فى جميع الأبعاد «اولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَروا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلاماً» «۱». «غُرفة» من مادّة «غَرْف» على وزن «ظرف» بمعنى حمل الشىء وأخذه باليد ولذلك يقال لمن يتناول الماء من العين بيده انه: اغترف من الماء، وكذلك تطلق هذه الكلمة على الأقسام العلوية من البناء فيقال لها «غرفة» وفى هذه الآية اطلقت هذه الكلمة على أعلى المنازل فى الجنّة وأنّها من نصيب الصابرين. ويستفاد من تعبير الآية أعلاه أنّ الصبر هو العنصر المشترك الممتد فى جميع الصفات الاثنى عشر لهؤلاء العباد المخلصين «عباد الرحمان». وتأتى «الآية الثالثة عشر» وهى من الآيات المعروفة فى مسألة الصبر لتثير فى أجواء الصابرين البشارة بالثواب الإلهى الجزيل وتقول: «وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مّنَ الْأَمْوَال وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَات وَبَشّرِ الصَّابِرِينَ* الَّذِينَ اذَا اصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا انَّا للَّهِ وَانَّا الَيهِ رَاجِعُونَ* اولئِكَ عَلَيْهِم صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِم وَرَحْمَةٌ وَاولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ» «۲». وبالرغم من أنّ هذه الآيات تشير إلى غصن واحد من اغصان شجرة الصبر، وهو الصبر على المصائب والمشكلات، ولكن تتضح أهمية ذلك من خلال ما يترتب على هذا اللون من الصبر من صلوات اللّه ورحمته على هؤلاء الصابرين وأنّهم يسيرون فى خطّ الهداية والاستقامة والتوجه إلى اللّه تعالى من خلال حالة الاستقامة والصبر أمام البلايا والمصائب. فنظراً إلى أنّ الامتحان الإلهى للإنسان فى هذا العالم الدنيوى يُعد من السنن الحتمية فى عالم التكوين، وأنّ العبور من هذا النفق والوادى العسير لا يتسنّى ألا بالاستعانة بالصبر، الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۴۲۱ وحينئذٍ يتضح

دور الصبر والاستقامة فى حركة الحياة الدنيوية والنتائج المترتبة على ذلك، فما أعظم أن يجد الإنسان نفسه مشمولًا بثلاث عنايات إلهية فى مقابل الصبر وهى: الاولى: الصلوات والتحيات الإلهية من النوع الّذى يصلى فيه اللَّه تعالى على نبيّه الكريم، ثمّ شمول رحمته الواسعة لهذا الإنسان ودخوله فى دائرة اللطف الإلهى، والأهم من ذلك أنّ الهداية الإلهية ستكون من نصيب هؤلاء والّتى هى مصدر جميع النعم والمواهب وأشكال السعادة الدنيوية والاخروية. وأما لماذا وردت كلمة «صلوات» بصورة جمع؟ هنا ذكر تفسيران كلّ منهما محتمل فى معنى الآية، الأوّل أنّ ذلك إشارة إلى أنواع الاكرام الإلهى والاحترام الربانى لهؤلاء، والآخر انه إشارة إلى تكرار هذه العملية وأنّ اللَّه يصلّى عليهم عدّة مرّات، اما التعبير بالرحمة بصورة نكرة فهو إشارة إلى الأهمية والعظمة لهذه النعمة. واما الفرق بين الصلوات والرحمة فقد ذكر البعض أنّ الصلوات إشارة إلى مدح اللَّه ولطفه ومغفرته، فى حين أنّ الرحمة إشارة إلى النعم المادية والمعنوية فى الدنيا والآخرة. «الآية الرابعة عشر» والأخيرة من الآيات مورد البحث والّتى وردت فى سورة العصر فإنّها ضمن بيان هذه الحقيقة، وهى أنّ جميع الناس سيكون مصيرهم إلى الخسران حتماً ما عدا الأشخاص الّذين يتمتعون بأربع صفات، وأحدها: الصبر والاستقامة وتقول «وَالْعَصْرِ* انَّ الْانْسَانَ لَفِى خُسْرٍ* الَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلوا الصَّالِحَاتِ وَتَواصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ» «۱». جملة «تواصوا» من مادّة «تواصى» وتشير إلى انه ينبغى على المؤمنين بعد الإيمان والمعرفة والعمل الصالح أن يتحركوا من موقع التكاتف والتعاون لاحقاق الحقوق والانصاف والعدالة فى التعامل مع الغير والتوصية بذلك فيما بينهم، لأنّ إحقاق الحقّ واجراء العدالة فى المجتمع الإنسانى لا يتسنّى إلّابالاستقامة والصبر أمام تحديات الواقع الصعبة الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۴۲۲ والموانع العسيرة، ولذلك أوصت الآية الشريفة بالصبر على مستوى العامل الرابع من العوامل المؤدية إلى النجاة، وفى الحقيقة أنّ هذا العامل هو دعامة وأساس للعوامل الثلاثة الاخرى، وعليه فإنّ الصبر يعد أحد الأركان الأصلية لسعادة الناس وتحركهم فى خطّ الإيمان وتعميق شجرة الأخلاق والصلاح فى قلوبهم، وبدونه سوف لا تثمر القيم الأخلاقية والأعمال الصالحة فى واقع الإنسان والمجتمع شيئاً، ولا يمكن احقاق الحقوق واجراء العدالة فى المجتمع البشرى، ولا شكّ أنّ احقاق الحقوق واجراء العدالة يعد من أهم الامور والوظائف، لأنّه أحياناً يكون الحقّ فى الطرف المقابل للإنسان أو لأحد أحبته وأقربائه، وهنا تكون اجراء العدالة والعمل بالحقّ بحاجة إلى الاستمداد والاسترفاد من عنصر الصبر. ومن مجموع ما تقدّم من الآيات الشريفة تتضح هذه الحقيقة، وهى أنّ أهمية الصبر والاستقامة والمثابرة فى خطّ العدالة والحقّ إلى درجة من الأهمية أكثر ممّا نتصور، وكما يقول بعض المفسّرين أنّ الصبر فى القرآن الكريم ورد أكثر من سبعين مرّة أو تكرر بما يقرب من مئة مرة، فى حين اننا لا نجد فضيلة من الفضائل الأخلاقية والإنسانية قد وردت بمثل هذا التأكيد فى الكتاب العزيز، وهذا إنما يدلّ على أنّ القرآن الكريم يولى هذه الفضيلة الأخلاقية أهمية كبيرة ويعدها عصارة جميع الفضائل والأساس لجميع أشكال السعادة الدنيوية والاخروية والاداة الحاسمة للوصول إلى أى نوع من أنواع الفلاح والنجاح والموفقية.

الصبر فى الأحاديث الإسلامية:

وكما يقول بعض علماء الأخلاق أنّ الروايات الواردة عن المعصومين عليهم السلام فى فضيلة الصبر والاستقامة أكثر من أن تحصى وقد ورد فى بعض الكتب الأخلاقية ما يقرب من الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۴۲۳ تسعمائة حديثاً عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله والأئمّة المعصومين عليهم السلام فى هذا الموضوع، ولذلك نختار بعض النماذج من هذه الأحايث الشريفة لنستوحى منها دوراً فى هذه الفضيلة: ۱- قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله «الصَّبْرُ خَيْرُ مَرْكَبٍ مَا رَزَقَ اللَّهُ عَبْداً خَيراً لَهُ وَلَا اوسَعُ مِنَ الصَّبْرِ» «۱». وعبارة «خيرُ مركب» الواردة فى هذا الحديث الشريف تشير إلى أنّ الصبر هو أفضل وسيلة للوصول إلى السعادة والنجاة وأنّ الإنسان بدونه لا يصل إلى شىء من المقامات الاجتماعية والمعنوية فى الدنيا والآخرة. ۲- وعن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: «عَلَيْكُم بِالصَّبْرِ فَانَّ الصَّبْرَ مِنَ الْايمَانِ كَالرَّأسِ مِنَ الجَسَدِ» «۲». وهذا الحديث يدلّ على أنّ الصبر يعد مفتاحاً لجميع الأبعاد الحيوية فى حركة الإنسان المادية والمعنوية، ولهذا ورد فى ذيل الحديث المذكور «لا ايمانَ لِمَنْ لا صَبْرَ لَهُ». ۳- وفى حديث آخر عن هذا الإمام عليه السلام

أيضاً أنّه قال: «لا يَعْدِمُ الصَّبُورُ الظَّفَرَ و انْ طَالَ بِهِ الزَّمانُ» «۳». ومع الالتفات إلى أنّ الصبر ذكر هنا بشكل مطلق وكذلك الظفر والنصب، فهذا يدلّ على أنّ هذه الحكم يستوعب جميع الأبعاد المادية والمعنوية فى حياة الإنسان. ۴- وقال رسول اللّه صلى الله عليه و آله فى باب الصبر «الصَّبْرُ نِصْفُ الإيمانِ» «۴». وجاء فى بعض الروايات الاخرى أنّ نصف الإيمان هو الشكر والنصف الآخر هو الصبر. أى الصبر والاستقامة للوصول إلى النعم والمواهب الإلهية ثمّ الشكر على هذه النعمة، أى الاستفادة الصحيحة من المواهب والنعم الإلهية. الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۴۲۴ ومن الواضح أنّ هذا الحديث لا يتنافى مع الأحاديث السابقة، لأنّه كما تقدّم أنّ المؤمن إذا لم يتمسك بالصبر فإنّ إيمانه سوف يتعرض للاهتزاز والارتباك بسبب الموانع الكثيرة الّتى يجدها فى طريقه، وكذلك لو لم يكن شكوراً على نعم اللّه تعالى، فإنّ هذه النعم ستزول وتهرب من يده كما ورد فى الآية: «وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ انَّ عَذَابِى لَشَديد». ۵- وفى حديث آخر عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله أنّه قال: «الصَّبْرُ كَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ» «۱». ۶- ودليل هذا المعنى ما ورد فى حديث آخر عن أميرالمؤمنين عليه السلام يوضح هذا المعنى ويقول «الصَّبْرُ عَوْنٌ عَلى كُلِّ امْرٍ» «۲». لأنّه كما تعلمون أنّ نظام الحياة فى الدين والدنيا يضع أمام كلّ عملٍ مهم بعض الموانع الّتى لايتجاوزها ولا يعبرها إلّابالاستعانة بالصبر والاستقامة. ۷- اما بالنسبة للصبر عند المعصية فورد فى الحديث الشريف «وَمَنْ صَبَرَ عَنْ مَعْصِيَةِ اللّهِ فَهُوَ كَالْمُجَاهِدِ فِى سَبيلِ اللّهِ» «۳». أجل فكليهما مجاهد فى سبيل اللّه، مع فارق أنّ أحدهما يجاهد العدو الخارجى «الجهاد الأصغر» والآخر يجاهد العدو الداخلى «الجهاد الأكبر». ۸- وورد فى حديثٍ آخر عن أميرالمؤمنين قوله: «انْ صَبَرْتَ ادْرَكْتَ بِصَبْرِكَ مَنازِلَ الابْرارِ وَان جَزَعْتَ اوْرَدَكَ جَزَعَكَ عَذابَ النّارِ» «۴». ۹- وعن الإمام الصادق عليه السلام قال فى الصبر فى مقابل البلايا والمصائب «مَن ابْتُلى مِنَ المُؤمِنينَ بِبَلاءٍ فَصَبَرَ عَلَيهِ كَان لَهُ مَثلُ اجرِ الْفِ شَهيدٍ» «۵». ويقول العلّامة المجلسى بعد ذكر هذا الحديث فى الجزء ۶۸ من بحار الأنوار انه كيف يعقل أنّ للصبر مثل هذا الثواب فى حين أنّ للشهيد بنفسه أحد الصابرين لانه صبر أمام الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۴۲۵ العدو حتّى استشهد؟ ويمكن فى مقام الجواب عن هذا السؤال أن نقول: إنّ الشهيد يصبر أمام هجوم الأعداء، وهؤلاء الصابرون إنما يصبرون فى مقابل الصعوبات المرة الّتى تعترضهم فى الحياة من قبيل أنواع المرض، الفشل، وفقد الأحبّة وأمثال ذلك. والدليل الآخر على أفضلية الصابر بالنسبة إلى الشهيد هو أنّ الشهادة تحدث مرة واحدة للإنسان، ولكنَّ صعوبات الحياة تتكرر آلاف المرات. ۱۰- ويقول النبى الأكرم صلى الله عليه و آله بالنسبة إلى الثواب المعنوى للصابرين «مَنْ ابْتُلِىَ فَصَبَرَ وَاعْطِىَ فَشَكَرَ وَظُلِمَ فَغَفَرَ اولَئِكَ لَهُمُ الْامْنُ وَهُم مُهتَدونَ» «۱». ۱۱- ويقول الإمام الصادق عليه السلام أيضاً: «الصَّبْرُ يُظْهِرُ مَا فِى بَوَاطِنِ العِبادِ مِنَ النُّورِ وَالصَّفاءِ والْجَزَعُ يُظْهِرُ مَا فِى بَوَاطِنِهِم مِنَ الظُّلْمَةِ وَالْوَحْشَةِ» «۲». ۱۲- ونختم هذا البحث عن أحاديث الصبر بحديث آخر عن أميرالمؤمنين عليه السلام يقول «الصَّبْرُ مَطِيَّةٌ لا تَكبُوا وَالقَناعَةُ سَيفٌ لا يَنْبُوا» «۳».

معطيات الصبر ونتائجه:

كما تقدّم فى المباحث السابقة فإنّ طبيعة الحياة الدنيا تقترن بالموانع والمشكلات والبلايا، فلو أنّ الإنسان لم يلتزم بالمقررات والقوانين الّتى تنسجم مع هذه الحياة ويحل بذلك ما يواجهه من مشكلات فإنّه سوف لايصل إلى مقصده ولا يحقق غايته، وكذلك فإنّ الآفات والمصائب موجودة فى ضمن النعم والمواهب وتتسبب فى فقدها أو الاضرار بها من الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۴۲۶ قبيل المصائب الّتى تواجه الإنسان فى أولاده وأقربائه وأمثال ذلك. فالإنسان بدون الاستعانة بالصبر والاستقامة سوف لا يتمكن من سلوك طريق الكمال والسعادة فى بعده الإيجابى، وكذلك لا يتمكن من الصمود أمام عناصر الشَّر فى حركة الحياة، ولهذا السبب فإنّ المفتاح الأصلى للموفقية والنجاح فى الحياة هو الاستعانة بالصبر والاستقامة، وبما أنّ الدين هو عبارة عن مجموعة الواجبات والمحرمات، أو الطاعات وترك المعاصى، فإنّ الإيمان والإلتزام بالدين لا يكون ولا يتحقق بدون الصبر والاستقامة، لانه وطبقاً لما تقدّم من البيان فإنّ الصبر بالنسبة للإيمان كالرأس بالنسبة إلى الجسد، ولذلك ورد فى بعض الأحاديث الإسلامية «ومنها الأحاديث الواردة عن أميرالمؤمنين عليه السلام» أنّ الصبر قرين الظفر «الصَّبْرُ الظَّفَرُ» «۱». ونقرأ أيضاً فى الآيات القرآنية أنّ الشرط المهم لإنتصار

المجاهدین فی سبیل اللّه هو الصبر والاستقامة فی هذا الطریق ومن ذلک قوله تعالی «... إِنْ یَکُن مّنکُمْ عِشْرُونَ صبِرُونَ یَغْلِبُواْ مِاْ تَتَینِ وَإِنْ یَکُن مّنکُم مّاْ ئَةٌ یَغْلِبُواْ أَلْفًا مّنَ الَّذِینَ کَفَرُواْ» «۲». ما هذه القوّة الّتی تمنح رجلًا واحداً القدرة علی مقابلة عشرة أشخاص، وتمنح مئة شخص القدرة علی مقابلة ألف شخص؟ إن هذه القوّة هی قوّة الصبر والاستقامة الّتی ورد التصریح بها فی الآیة الشریفة. فالأشخاص الّذین یعیشون ضعف الإرادة وقلّة العزیمة سوف یواجهون الحوادث والمشاکل من موقع الاذعان والخنوع أو یدیرون ظهورهم لها ویجمحون عن مقاومتها، ولکنه لا الدنیا تتحقق للإنسان بدون الصبر والاستقامة ولا الآخرة، ولهذا السبب فان الشعوب الّتی حقّقت تقدماً علمیاً وتطوراً حضاریاً فإنما تحقق لها ذلک بواسطة الاستقامة والمثابرة والصبر، ویذکر فی حالات العلماء الکبار، سواءاً الشخصیات الدینیة الّتی فتحت أبواب العلوم والمعارف الدینیة أمام الناس، أو علماء العلوم الطبیعیة الّذین حققوا للبشریة الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۴۲۷ اکتشافات واختراعات مهمّة، أنّهم کانوا یعیشون قبل کلّ شیء حالة الصبر والاستقامة والمثابرة فی أعمالهم ودراساتهم، فأحیاناً یضطر أحد العلماء للکشف عن قانون علمی إلی اختیار العزلة والانزواء فی المکتبة أو المختبر لعدّة سنوات حتّی یوفق أخیراً إلی هدفه واکتشافه. وقد ورد عن الإمام أمیرالمؤمنین علیه السلام قوله «مَنْ رَکِبَ مَراکِبَ الصَّبْرِ اهْتُدِیَ الَی مَیْدَانِ النَّصْرِ» «۱». وکذلک ورد عن هذا الإمام قوله «مِفْتَاحُ الظَّفَرِ لُزُومِ الصَّبْرِ» «۲». ومن جهة اخری نجد أنّ الأشخاص الّذین یشکون ضعف العزم وقلّة الصبر والاستقامة فإنّهم یتلوثون بسرعة بأنواع الذنوب، لأنّ الذنوب لها جاذبیة قویة للنفس الأمارة فی الإنسان، فلو لم تکن فی الإنسان قدرة علی مقاومتها لأسرع الإنسان الخطی فی منزلقات الانحطاط والرذیلة. وورد فی الحدیث الشریف عن الإمام الصادق علیه السلام قوله «کَمْ مِنْ صَبْرٍ سَاعَةٍ قَدْ اوْرَثَتْ فَرَحاً طَوِیلًا وَکَمْ مِنْ لَذَّةِ سَاعَةٍ قَدْ اوْرَثَتْ حُزْناً طَوِیلًا» «۳». ومن الممکن أن یبتلی الإنسان فی مسیرة حیاته بأنواع الضرر والخسارة المادیة والمعنویة والاجتماعیة، مثلًا بالنسبة إلی موت الأحبّة یجب القول: إن هؤلاء الأحبّة من الأصدقاء والاقرباء لم یتولدوا فی وقت واحد وسوف لا یرحلون من هذه الدنیا فی وقتٍ واحد أیضاً، فهناک من یرحل قبل الآخر وهناک من یتأخر، والأشخاص الّذین یرحلون من هذه الدنیا أسرع سوف یخلفون فی قلوب أحبتهم حالات الغم والحزن علی فراقهم، فلو أنّ الإنسان لم یتحل بالصبر فسوف یفقد سلامته النفسیة وصحّته الجسمیة ویعیش الیأس فی الحیاة ویتأخر عن القافلة. الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۴۲۸ أجل فإنّ الصبر مع وجود جمیع هذه الحوادث والمصاعب یمنح روح الإنسان وقلبه القدرة علی الاستمرار فی حرکة الحیاة وإدامة السلوک فی خطّ التکامل الإنسانی. وقد رأینا فی الأحادیث السابقة أنّ الإمام الصادق علیه السلام یقول إنّ ثواب الصبر لدی الشیعة مقابل المصائب والبلایا یعادل ثواب ألف شهید، وهذا المعنی یدلل علی ما تقدّم آنفاً من أهمیة الصبر. والخلاصة هی إننا کلّما تحدّثنا عن أهمیة الصبر ودوره فی الصعود بالإنسان فی مدارج الکمال المادی والمعنوی، الدنیوی والأخروی، فلا نصل إلی غایة الکلام ولا نحیط بتمام الموضوع، ولهذا فلا ینبغی أن نتصور أنّ ما ورد فی الروایات الشریفة عن ثواب الصابرین هو مبالغة فی الکلام، وبعبارة اخری: یمکن التمسک بالحدیث الشریف الوارد عن الإمام الباقر علیه السلام حیث قال «انَّهُ مَنْ صَبَرَ نَالَ بِصَبْرِهِ دَرَجَةَ الصّائِمِ الْقائِمِ، وَدَرَجَةِ الشَّهیدِ الّذی ضَرَبَ بِسَیفِهِ قُدّامَ مُحَمَّدٍ صلی الله علیه و آله» «۱».

أقسام الصبر:

وقد ورد فی الکثیر من کتب الأخلاق وکلمات علماء الأخلاق أنّ الصبر ینقسم إلی ثلاثة أقسام: ۱- الصبر علی الطاعة. ۲- الصبر علی المعصیة. ۳- الصبر علی المصیبة. والمراد من «الصبر علی الطاعة» هو مقاومة المشکلات الّتی تعترض طریق الطاعة للّه تعالی وامتثال أوامره من قبیل أداء الصلاه والصوم والحجّ والجهاد ودفع الحقوق المالیة مثل الخمس والزکاة، وکذلک الصبر والاستقامة مقابل المشکلات الّتی تقع فی طریق طاعة الأوامر الاستحبابیة والّتی تستوعب دائرة عریضة، والمقصود من «الصبر علی المعصیة» هو الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۴۲۹ الوقوف أمام الأهواء والدوافع النفسیة والنوازع الدنیویة الّتی تستعر فی قلب الإنسان وباطنه، وقد تستعر نیرانها إلی درجة أن تتحول إلی اعصار یدمر جمیع عناصر الخیر فی الإنسان، ویتلف ما لدیه من الإیمان والتقوی والطهارة والصدق

والصفاء وأمثال ذلك. والمقصود من الصبر على المصيبة هو أن يتحلّى الإنسان بالصبر فى حياته مقابل الحوادث المؤلمة من قبيل فقد الأحبّة، الخسارة المالية الكبيرة، وقوع شخصيته وسمعته الاجتماعية فى الخطر، وقوع الإنسان فى مخالب المرض العسير والمؤلم، والابتلاء برفاق السوء أو الشريك الخائن أو الحكومة الظالمة وأحياناً الزوج والزوجة الفاسدة وأمثال ذلك. وقد أورد علماء الأخلاق هذا التقسيم للصبر اقتباساً من الروايات الشريفة كما ورد فى الحديث الشريف النبوى أنّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قال: «الصَّبْرُ ثَلاثَةٌ، صَبْرٌ عَلَى الْمُصيبَةِ وَصَبْرٌ عَلَى الطَّاعَةِ وَصَبْرٌ عَلَى الْمَعْصِيَةِ، فَمَنْ صَبَرَ عَلَى المُصيبَةِ حَتَّى يَرُدَّهَا بِحُسْنِ عَزائِهَا، كَتَبَ اللَّهُ لَهُ ثَلاثَ مِائةِ دَرَجَةٍ مَا بَيْنَ الدَّرَجَةِ الَى الدَّرَجَةِ كَما بَيْنَ السَّمَاءِ الَى الارضِ، وَمَنْ صَبَرَ عَلَى الطَّاعَةِ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ سِتَّ مائةِ دَرَجَةٍ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَةِ الَى الدَّرَجَةِ كَمَا بَيْنَ تُخُومُ الْارضِ الَى الْعَرْشِ وَمَنْ صَبَرَ عَلَى الْمَعْصيةِ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ تِسْعَ مِائةِ دَرَجَةٍ مَا بَيْنَ الدَّرَجَةِ الى الدَّرَجَةِ كَمَا بَيْنَ تُخُومِ الارْضِ الَى مُنْتَهَى الْعَرْشِ» «۱». ويستفاد من عبارات هذا الحديث الشريف الصبر على المعصية أهمّ من الجميع، ثمّ الصبر على الطاعة، ثمّ الصبر على المصيبة الّذى يأتى فى المرتبة الثالثة من حيث الأهمية والثواب. ويقول أميرالمؤمنين عليه السلام فى حديث آخر بعد أن يقسم الإيمان إلى أربع «الصَّبْرُ مِنْهَا عَلَى ارْبَعِ شُعَبٍ، عَلَى الشَّوْقِ وَالشَّفَقِ وَالزُّهْدِ وَالتَّرَقُّبِ» «۲». ومع قليل من التأمل يتضح أنّ هدف الإمام عليه السلام من هذا البيان هو شرح دوافع الصبر والاستقامة لا فروعه وأغصانه، وهو مثل ما تقدّم من الحديث النبوى الشريف.

دوافع الصبر والاستقامة:

إن العوامل والعناصر الّتى تمنح الإنسان القدرة على الصبر مقابل مشكلات الطاعة وترك المعصية أو مقابل المصائب هى كثيرة، ولكلٍّ واحدٍ منها تأثير خاصّ فى تقوية وتعميق هذه الفضيلة الأخلاقية فى واقع النفس، وأهمها: ۱- تقوية دعائم الإيمان واليقين فى القلب، وخاصّةً مع ملاحظة هذه النكتة، وهى أنّ اللَّه تعالى هو أرحم الراحمين وهو المتكفل لرعاية مصالح عباده والعناية بهم، ومن هذا المنطلق قد يبتلى الإنسان ببعض الحوادث الّتى تكون أسرارها ومنافعها خفية على الإنسان ليقوى به روح الصبر، وهنا ينبغى الالتفات والتفكر بالثواب العظيم الّذى أعده اللَّه تعالى للمطيعين والورعين عن ارتكاب المعاصى فإنّ ذلك من شأنه أن يرسخ فى عزم الإنسان عنصر الصبر والاستقامة. ومن ذلك ما ورد عن أميرالمؤمنين عليه السلام قوله: «أَصْلُ الصَّبْرِ حُسْنُ الْيَقِينِ بِاللَّهِ» «۱». وبديهى انه كلّما اشتد إيمان الإنسان وكثرت معرفته بحكمة اللَّه ورحمته فإنّ صبره سيزداد تبعاً لذلك، وبتعبير آخر: أنّ تحمل الصبر سيكون أسهل وأيسر، ولهذا ورد فى الحديث الشريف عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال لبعض أصحابه «انَّا صُبَّرٌ وَشِيعَتُنا اصْبَرُ مِنّا» فقال له الراوى: جعلت فداك كيف يكون شيعتكم أصبرُ منكم؟ فأجابه الإمام عليه السلام «لَانّا نَصْبِرُ عَلَى مَا نَعْلَمُ وَشيعَتُنا يَصْبِرُونَ عَلَى مَا لايَعْلَمُونَ» «۲». ۲- إن تحصيل ملكة الصبر واكتساب هذه الفضيلة حاله حال الفضائل الأخلاقية الاخرى لابدّ فيه من الممارسة والتمرن ومقابلة الحوادث الصعبة ومواجهة التحديات المفروضة على الإنسان، ولهذا ورد عن أميرالمؤمنين قوله «مَنْ تَوالَتْ عَلَيهِ نَكَباتُ الزَّمانِ اكْسَبَتْهُ فَضيلَةُ الصَّبْرِ» «۳». وبعبارة اخرى: إن الإنسان فى بداية مواجهته للمصيبة قد يصرخ ويحزن بشدّة، وكذلك الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۴۳۱ عندما يتحرّك فى خط الطاعة والاتيان بالعبادة فإنه قد يواجه مشكلة من ثقل هذه العبادة ويشعر بالتعب، ولكن تكرار هذه الحوادث وممارسة هذه العبادات سوف تكسبه بالتدريج فضيلة الصبر وتمنحه القوّة فى ذاته على الاستمرار فى خطّ الاستقامة. ۳- ومن العوامل المهمة فى تقوية ملكة الصبر فى الإنسان أن يلتفت الشخص إلى هذه الحقيقة، وهى أنّ الدنيا دار الحوادث والمشكلات، ولا يتسنّى له الحصول على أية موهبة من المواهب المادية والمعنوية من دون عبور هذه الموانع المختلفة والتغلب على تلكم المشكلات، وأيضاً يلتفت إلى هذه الحقيقة، وهى أنّ الأفراد الّذين يعيشون النزق وقلة الصبر وسرعة الانفلات لا يصلون إلى مرتبة من مراتب الكمال النفسى والاجتماعى، كلّ ذلك من شأنه أن يقوى فى الإنسان العزم والإرادة والصمود أمام المشكلات والحوادث. وكما تقدّمت الإشارة إليه انه لابدّ لقطف الوردة من تحمل ألم الوخزة، ولتناول جرعة من العسل لابدّ من تحمل لسع النحل، وأنّ

الکنوز موجودة عادّةً فی الخرائب، والجنّة کامنة فی أعماق المشاکل والحوادث المؤلمة. ومن المعلوم أنّ کلّ إنسان یتفکر جیّداً فی هذه الامور فإنه سیجد فی نفسه القدرة علی الصبر أکثر وتتعمق فیه هذه الفضیلة الأخلاقیة، ومن ذلک ورد فی حدیث آخر عن أمیرالمؤمنین علیه السلام أنّه قال: «لِکُلِّ نِعْمَةٍ مِفْتاحٌ وَمِغْلاقٌ وَمِفتاحُهَا الصَّبْرُ وَمِغلاقُها الْکَسَلْ» «۱». ۴- وأحد العوامل والدوافع الاخری للصبر وسُبل تقویته فی وجود الإنسان هو أن یتشبه الإنسان بالصابرین، وهذا الأمر یصدق علی جمیع الفضائل الأخلاقیة، فکلّما تحلّی الإنسان فی الظاهر بصفة معیّنة فسوف تنفذ وتمتد إلی باطنه بالتدریج ویکتسب بذلک هذه الملکة. وورد فی حدیث شریف عن رسول اللّه صلی الله علیه و آله «مَنْ یَتَصَبَّرْ یُصَبِّرْهُ اللَّهُ وَمَنْ یَسْتَعْفِف یَعُفَّهُ اللَّهُ، وَمَن یَسْتَغْنِ یُغْنِهُ اللَّهُ وَمَا اعْطِی عَبْدٌ عَطاءً هُوَ خَیرٌ وَاوسَعُ مِنَ الصَّبْرِ» «۲». الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۴۳۲ ۵- الصبر له علاقة وثیقة بسعة وجود الإنسان وشخصیته، فکلّما اتسعت ظرفیة الإنسان وقویت شخصیته فإنه یعیش الصبر والاستقامة أکثر وأشد، ولهذا السبب فإنّ الأطفال وکذلک الکبار الّذین یعیشون حالة الطفولة یجزعون لأقل حادثة، فی حین أنّ الأشخاص الّذین یتمتعون بشخصیة قویة وسعة صدر فإنه یهضمون المشکلات ویتغلبون علیها. إن المسبح الصغیر قد یتماوج بأدنی نسیم وأقل ریح بینما البحر الکبیر لا یتماوج بهذه السهولة، وإنما سمّی أکبر المحیطات فی الدنیا بالمحیط الهادی لأن هیجان أمواجه هی أقل من هیجان الأمواج فی المحیطات الاخری. إن مطالعة سیرة الشخصیات المهمة فی التاریخ البشری وخاصّة الأنبیاء والأولیاء الإلهیین الّذین وصلوا إلی مقامات عالیة ومراتب سامیة فی دائرة الکمال المعنوی بسبب الصبر والاستقامة، یمکنها أن تکون من العوامل المؤثرة فی تقویة هذه الملکة الحمیدة فی الإنسان ویکون دافعاً له علی التحلی بهذه الفضیلة أسوةً بهؤلاء العظام. إن مسألة الصبر والاستقامة مقابل الحوادث المؤلمة والمشکلات الکبیرة الّتی تواجه الإنسان فی حرکة الحیاة لا تقتصر علی البعد الأخلاقی والمعنوی فحسب بل هی مؤثرة بالنسبة إلی سلامة البدن وقواه الحیویة، فالأشخاص الّذین لا یملکون حالة الصبر أمام الحوادث فإنّ حیاتهم عادةً تکون مقترنة بأنواع الأمراض وأهمها الأمراض القلبیة والعصبیة، فی حین أنّ الصابرین یتمتعون بعمرٍ طویل مع سلامة بدنیة نسبیة، ولذلک فإنّ علماء النفس یرون أنّ الدین بصورة عامة «والّذی یقوی فی الإنسان حالة الصبر أمام المشکلات» یعد أحد شروط سلامة الجسم والصحّة النفسیة. وفی الحدیث الشریف عن أمیرالمؤمنین علیه السلام أنّه قال: «مَن احَبَّ الْبَقاءَ فَلْیُعِدَّ لِلْمَصائِبِ قَلْباً صَبُوراً» «۱». «الجزع» یقع فی النقطة المقابلة للصبر، وهو الحالة النفسیة الّتی لا- تنضبط فیها النفس أمام الحوادث والمشاکل بحیث یعیش الإنسان الرضوخ والإذعان بالأمر الواقع وتحدیاته الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۴۳۳ الصعبة وتتملکه حالة الیأس من الخلاص، أو تمنعه هذه الحالة من التحرّک والسعی نحو المقصود والهدف. إن الجزع یعد من اشنع الصفات الأخلاقیة وأسوأ الحالات النفسیة للإنسان حیث تفضی به إلی الشقاء فی الدنیا والآخرة وتمنعه من تحصیل المقامات والمراتب العالیة فی معراج الکمال، وتؤدی کذلک إلی فقدان شخصیته وحیثیته فی المجتمع وتکون حیاته ملیئة بالمنغصات والمؤلمات فلا- یری للراحة والسعادة وجهاً. وقد وصف القرآن الکریم الإنسان فی سورة المعارج بأنه موجود حریص وقلیل الصبر عندما یدهمه بلاءٌ وسوء، وعندما یحصل علی شیء من النعمة والخیر فإنه یتحرک فیه عنصر البخل ویمنعه من البذل والعطاء کما تقول الآیة: «انَّ الْانْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً* اذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً* وَاذَا مَسَّهُ الْخَیْرُ مَنُوعاً» «۱». والمراد من الإنسان فی هذه الآیة «کما وردت هذه الکلمة فی آیات قرآنیة اخری تصف الإنسان بصفات سلبیة مشابهة» هو الإنسان الّذی لم یصل بعد إلی مستوی النضج الأخلاقی والعاطفی ولم یسلک فی خطّ تهذیب النفس، ولذلک ورد فی ذیل هذه الآیات استثناء الأشخاص الّذین یعیشون الإیمان ویسلکون فی خطّ الصلاة ومساعدة المحرومین ومراعاة اصول العفة والأمانة کما تقول الآیات «الَّا الْمُصَلِّینَ ..... والَّذِینَ هُمْ عَلَی صَلاتِهِم یُحَافِظُونَ» «۲». إنّ تعبیر الآیات أعلاه لعلّه إشارة إلی هذه الحقیقة وهی أنّ الأشخاص الّذین یعیشون الجزع وقلّة الصبر هم عادةً من البخلاء أیضاً، کما أنّ البخلاء یتسمون بالجزع أیضاً، وبعبارة اخری: أنّ هاتین الصفتین یرتبطان برابطة وثیقة ویجتمعان فی دائرة مفهوم «هلوع». وقد ورد فی الروایات الإسلامیة أیضاً بحوث عمیقة وجذابة تتضمن ملاحظات دقیقة فی هذا المجال، وفیما یلی نشیر إلی بعض النماذج منها: الاخلاق فی القرآن، ج۲، ص: ۴۳۴ ۱- ما ورد عن أمیرالمؤمنین علیه السلام فی ذمّ الجزع قوله «ایَّاکَ وَالْجَزَعَ فَانَّهُ یَقْطَعُ الامَلَ

وَيُضَعِّفُ الْعَمَلَ وَيُورِثُ الهَمَّ» «۱». ۲- وقد ورد أيضاً عن هذا الإمام يقول فى حديث آخر ضمن الإشارة إلى نكتة لطيفة اخرى: «الْجَزَعُ اتْعَبُ مِنَ الصَّبْرِ» «۲». والسبب فى ذلك واضح، وهو أنّ الجزع وقلّة الصبر لا يحل أيَّة مشكلة وليس له أثر سوى أن يحطم عناصر القوّة والاستقامة فى روح الإنسان وجسمه، ولهذا فإنّ الّذى يعيش الجزع يوقع نفسه فى التعب أكثر من الصابر، مثلًا عندما يفقد الإنسان عزيزاً له يمكن أن يصرخ ويلطم وجهه ويضرب رأسه بالجدار أو ينتحر أخيراً، ولكن أية واحدة من هذه السلوكيات لا تعيد له عزيزه، بل من شأنها أن تدمر دعائم الإيمان فى قلبه وتحطيم أركان سلامته البدنية والروحية، مضافاً إلى انه سيتلف ثوابه الأُخروى. ۳- ويقول الإمام على عليه السلام أيضاً «الْجَزَعُ لا يَدْفَعُ الْقَدَرَ وَلَكِنْ يُحْبِطُ الاجْرَ» «۳». وبالنسبة إلى سبب احباط الأجر فلابدّ من القول: أنّ الجزع وعدم الصبر علامة على عدم الرضا وعدم التسليم لقضاء اللَّه وقدره، فهو فى الواقع اعتراض على عدل اللَّه وحكمته حتّى لو كان الجازع غافلًا عن هذا المطلب. ۴- وورد فى حديثٍ آخر عن الإمام الهادى عليه السلام وضمن الإشارة إلى نكتة اخرى «الْمُصِيبَةُ لِلصَّابِرِ وَاحِدَةٌ وَلِلْجَازِعِ اثْنانِ» «۴» . وكما تقدّم أنّ الجزع وعدم الصبر من شأنه مضافاً إلى زوال أجره وانعدام ثوابه أن يزيد فى مشكلته، وعليه فإنّ المصيبة على الجازع مضاعفة. ۵- ويقول الإمام الكاظم عليه السلام فى بيانه لأحد وصايا المسيح عليه السلام «وَلَا تَجْعَلُوا قُلُوبَكُم مَأْوىً لِلشَّهَواتِ انَّ اجْزَعَكُم عِنْدَ الْبَلاءِ لَاشَدُّكُم حُبّاً لِلدُّنيا وَانَّ اصْبَرَكُمْ عَلَى الْبَلاءِ الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۴۳۵ لَازْهَدُكُم فِى الدُّنيا» «۱». ويستفاد من هذه الرواية أنّ المصدر الأساس للجزع وعدم الصبر هو الحرص وحبّ الدنيا، ولأجل أن يخفف الإنسان من شدّة الجزع عليه أن يخفف من حبّه للدنيا وتعلقه بزخارفها. ۶- ونقرأ فى حديثٍ آخر عن الإمام الصادق عليه السلام عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أنّه قال: «انْ تَحْتَسِبُوا وَتَصْبِرُوا تُوجَرُوا، وَانْ تَجْزَعُوا تَأْثِمُوا وَتُوزَرُوا» «۲». ۷- وفى حديثٍ مختصر وعميق المعنى عن أميرالمؤمنين عليه السلام يقول «مَنْ لَمْ يُنْجِهِ الصَّبْرُ اهْلَكَهُ الْجَزَعُ» «۳». ونختم هذا البحث بحديث آخر عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله بعنوان «مسك الختام» فقد ورد فى هذا الحديث أنّ رسول اللَّه كتب إلى بعض أصحابه يعزّيه بابنه: «أما بعد فعظم اللَّه جلّ اسمه لك الأجر والهمك الصبر ... فلا تجمعن أن يحبط جزعك أجرك وأن تندم غداً على ثواب مصيبتك وانك لو قدمت على ثوابها علمت أنّ المصيبة قد قصرت عنها واعلم أنّ الجزع لا يرد فائتاً ولا يدفع حزن قضاء فليذهب أسفك ما هو نازل بك مكان ابنك والسلام» «۴». وينقل المرحوم المحدّث القمّى فى «سفينة البحار» قصة جميلة عن «بزرجمهر» وزير كسرى تتعلق بمسألة الصبر هذه ويقول: «حكى عن بعض التواريخ أنّه سخط كسرى على بزرجمهر، فحبسه فى بيت مظلم وأمر أن يصفّد بالحديد، فبقى أياماً على تلك الحال، فأرسل إليه من يسأله عن حاله، فإذا هو منشرح الصدر مطمئن النفس، فقالوا له: أنت فى هذه الحالة من الضيق ونراك ناعم البال. فقال: اصطنعت ستة أخلاط وعجنتها واستعملتها فهى الّتى ابقتنى على ما ترون. الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۴۳۶ قالوا: صف لنا هذه الأخلاط لعلّنا ننتفع بها عند البلوى. فقال: نعم، أما الخلط الأوّل فالثقة باللَّه عزّوجلّ. وأما الثانى: فكلّ مقدّر كائن. وأما الثالث: فالصبر خير ما استعمله الممتحن. وأما الرابع: فإذا لم أصبر فماذا أصنع ولا أعين على نفسى بالجزع. وأما الخامس: فقد يكون أشدّ ممّا أنا فيه. وأما السادس: فمن ساعة إلى ساعة فرج. فبلغ ما قاله كسرى فأطلقه وأعزّه «۱».

علاج الجزع وقلّة الصبر:

اشارة

إن هذا المرض النفسى والأخلاقى مثل بقية الأمراض الاخرى له طرق للعلاج ونشير إليها فيما يلى:

۱- تشخيص المرض

عندما يتوجه المريض إلى الطبيب الروحانى يقوم هذا الطبيب بالفحص عن علامات المرض الأخلاقى والروحى من قبيل: الضرب على

الرأس والوجه، عض الأنامل، الصراخ والعويل، سوء الأخلاق والجفاف فى التعامل مع الآخرين، سوء المعاملة مع الزوجة والأطفال وكذلك الشكوى وعندها يدرك هذا الطبيب وجود مرض الجزع فى مثل هذا الشخص وبالتالى يقوم بعلاجه بطرق مختلفة.

۲- التفكير بالعواقب السلبية للجزع وقلّة الصبر

إن تفكير المريض بعواقب الجزع الوخيمة والآثار السلبية لقلّة الصبر له دورٌ مهم فى علاج هذا المرض الروحى، وقلما يسمع الإنسان بعواقب هذا المرض الوخيم ولا ينزجر لهذه الحالة ويتصدّى لرفعها من نفسه وإزالتها من أخلاقه. الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۴۳۷ أجل، فعندما يعلم الإنسان أنّ الجزع يذهب بأجره وثوابه عند اللّه تعالى من دون أن يحل له أية مشكلة، وكذلك يحطم أعصابه وقواه النفسية ويسلب منه سلامته البدنية والروحية، والأسوأ من ذلك انه يوصد أمامه أبواب حلّ المشكلة، لأن الإنسان إذا احتفظ ببرودة أعصابة عند بروز المشكلات والمصائب وتسلط على نفسه فإنّ ذلك من شأنه أن يفتح أمام عقله أبواب الحلّ لذلك المشكل أو على الأقل يقلل من شدّة المصيبة، ولكنَّ الإنسان وبسبب حالة الجزع والاضطراب وعدم التسلط على الأعصاب وبالتالى عدم تمركز الفكر فإنه لا يجد أمامه نافذة مفتوحة للأمل والحلّ، بل حتّى لو فتحت له الأبواب والنوافذ ليرى حلًا لهذه المشكلة فإنه وبسبب ما يعيشه من حالة الأضطراب والتوتر لا يرى هذه الأبواب والنوافذ، بخلاف ما إذا هدأ لحظة وضبط نفسه لفترة وجيزة ونظر إلى ما حوله فسيجد طريق النجاة والحلّ أمامه يسيراً. إن النظر الدقيق إلى هذه الحقائق والتدبر فيها له تأثير مهم فى تغير حالة الجزع لدى الإنسان وبالتالى مع تكرارها سينطوى الشخص تحت لواء الصابرين.

۳- مطالعة الآيات والروايات الواردة فى هذا الباب

إن مطالعة الآيات والروايات الشريفة الّتى تتحدث عن أجر الصابرين وثوابهم ومقامهم عند اللّه له دور مهم فى تقوية عناصر الصبر والاستقامة فى روح الإنسان، ومن ذلك ما ورد فى الآية الشريفة الّتى تبشر الصابرين بأعظم بشارة وتقول: «وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ* الَّذِينَ اذَا اصَابَتْهُمْ مُصيبَةٌ قَالُوا انَّا للَّهِ وَانَّا الَيهِ رَاجِعُونَ* اولئِكَ عَلَيْهِم صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِم وَرَحْمَةٌ وَاولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ» «۱». وعبارة «أُولئك هم المهتدون» تتضمن معنىً عميقاً ولها تفاسير مختلفة، وأحدها هو ما ذكر آنفاً من أنّ الصابرين سيجدون حلًا لمشكلاتهم أسرع من الآخرين وتفتح أمامهم أبواب النجاة والخلاص من الأزمات والبلايا، لأن أحد العوامل الأصلية للجزع هو «ضعف النفس» فكلّما سعى الإنسان فى تقوية معنوياته وتكريس عناصر الشد والقوّة فى نفسه فإنّ الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۴۳۸ ذلك من شأنه أن يمنحه التوفيق لإزالة عناصر الجزع وقلّة الصبر من نفسه.

۴- مطالعة حالات الأنبياء والأولياء

وأحد الطرق لعلاج حالة الجزع هى مطالعة حالات الأنبياء والأولياء فى دائرة صبرهم واستقامتهم أمام المصائب والبلايا الكثيرة وما كانوا يتحملونه من أعدائه وأقوامهم، وتذكر هذه الحالات ومطالعتها يلهم الإنسان القوّة فى الصمود أمام حجم التحديات المفروضة عليه من الواقع الخارجى والداخلى.

۵- تلقين الاعتماد على النفس فى تحمّل الصعاب

ولا ينبغى أن ننسى هذه الحقيقة، وهى أنّ التلقين سواءً كان من طرف الشخص نفسه أو من قبل الآخرين فإنه يشكل عاملًا مؤثراً فى إزالة الأخلاق السيئة والصفات الذميمة من واقع النفس، فلو أنّ الشخص الّذى يعيش قلّة الصبر والجزع يلقن نفسه كلّ يوم بضرورة أن

يتحلّى بالصبر، وكذلك يسعى ممن حوله من افراد الاسرة أو الأصدقاء فى تعميق هذا التلقين لديه، فلا شكّ فى ظهور آثار الصبر على سلوكياته وحالاته النفسية. ونختم هذا البحث بدعاء شريف للإمام زين العابدين عليه السلام يقول فيه: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ أَوَّلَ يَوْمِي هَذَا صَلاحاً وَاوسَطَهُ فَلاحاً وَآخِرَهُ نَجاحاً واعُوذُ بِكَ مِنْ يَوم اوَّلُهُ فَزَعٌ وَاوسَطُهُ جَزَعٌ وَآخِرُهُ وَجَعٌ» ويستفاد من هذا الحديث أنّ الجزع يورث الإنسان الألم والوجع، فمضافاً إلى انه لا يزيل همه وألمه فإنه من شأنه أن يزيده ألماً وهمّاً.

الفرق بين الجزع والعواطف المعقولة:

إن قلب الإنسان هو مركز العواطف والاحساسات الإنسانية، وكلّما فقد الإنسان عزيزاً له فإنه يتألم لذلك ويجرى دمع عينه من شّدّة التأثر، ولكن لا ينبغى الخلط بين إظهار التأثر والحزن مع الجزع وقلّة الصبر، لأن قلب الإنسان يتأثر بالحوادث المؤلمة بطبيعة الحال، ويمكن أن تعكس عينه حالة التأثر هذه وتبكى بسبب ذلك. الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۴۳۹ وعليه فإنّ البكاء والحزن على فقد الأحبّة يعد أمراً طبيعياً وإنسانياً. فالمهم هو أنّ الإنسان لا يسلك فى المصيبة فى خطّ الجزع والشكوى وعدم الشكر ويتكلّم بكلمات لا تنسجم مع الإيمان والعبودية للّه‌تعالى والرضا بقضائه، وفى هذا المجال نقرأ حديثاً عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله يقول: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ ضَرَبَ الخُدُودَ وَشَقَّ الجُيُوبَ وَدَعا بِدَعْوَىَ الجَاهِلِيَّةِ» «۱». وقد ورد فى سيرة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله انه عندما توفى ولده إبراهيم عليه السلام بكى النبى صلى الله عليه و آله عليه بحيث جرت دموعه على خديه وصدره الشريف فقالوا: يا رسول اللّه أنت تنهانا عن البكاء ولكنك تبكى لوفاة إبراهيم؟ فقال «لَيْسَ هَذَا بُكاءً وَانّ هَذِهِ رَحْمَةٌ وَمَن لَم يَرحَمْ لا يُرْحَمُ» «۲». أى هذا نوع من إظهار المحبة والرحمة الصادرة من العاطفة الإنسانية الّتى يعيشها الإنسان الواقعى. وقد ورد هذا الموضوع بتفصيلٍ أكثر فى كتاب «بحار الأنوار» حيث ذكر المجلسى أنّه عندما اتى رسول اللّه صلى الله عليه و آله ابنه إبراهيم وهو يجود بنفسه فوضعه فى حجره فقال له: يا بنى أنّى لا أملك لك من اللّه شيئاً وذرفت عيناه، فقال له عبدالرحمن: يا رسول اللّه تبكى أو لم تنه عن البكاء، قال: إنّما نهيت عن النوح عن صوتين أحمقين فاجرين صوت عند نعم لعب ولهو ومزامير الشيطان وصوت عند مصيبةٍ خمش وجوه وشق جيوب ورنّة شيطان إنّما هذه رحمة، من لا يرحم لا يرحم، لولا أنّه أمر حقّ ووعد صدق وسبيل باللّه وأن آخرنا سيلحق أولنا لحزنا عليك حزناً أشد من هذا وأنا بك لمحزونون»، «وَإِنَّا بِكَ لَمَحْزُونُونَ تَبْكِىَ الْعَينُ وَيَدْمَعُ الْقَلْبُ وَلا نَقولُ مَا يُسْخِطُ الرَّبَّ عَزَّوَجَلَّ» «۳». وأحياناً يمكن أن يفقد الإنسان انضباطه وإلتزامه ويشق جيبه ويخمش وجهه ولكن كلّ ذلك يكون بالمقدار المعقول والطبيعى لغرض إيجاد الهيجان العام وتعبئة العواطف الاخلاق فى القرآن، ج۲، ص: ۴۴۰ والاحساسات فى مقابل الأعداء فإنّ ذلك قد يكون ضرورياً أيضاً ويستثنى من الأصل، إذاً فما ورد من بعض الحالات الاستثنائية لبعض العظماء يكون من هذا الباب. ونختم هذا الحديث بحديث آخر عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله يقول: «النِّياحَةُ عَمَلُ الجَاهِلِيَّةِ» «۱». والمراد من النياحة هنا ليس إقامة المآتم أو ذكر المصيبة والبكاء على الميت بصورة فردية أو جماعية بل هو إشارة إلى ما كان مرسوماً ومتداولًا فى زمان الجاهلية بين العرب عندما كان يفقدون أحد الأحبّة، فإنّهم يدعون نسوة لإقامة النياحة والتحدّث بكلمات لزيادة النوح والبكاء على الميّت، وفى الغالب يصفونه بأوصاف كاذبة ومبالغ فيها وقد يعملن على تمزيق ثيابهنَّ فيلطمن وجوههن ويخدشن خدودهن، وبذلك يسعين إلى تثوير عواطف أهل العزاء وتفعيل حرارة المجلس.

نهاية الجزء الثانى:

اللّهمّ! أنت تعلم جيداً بأننا إذا وفقنا لسلوك طريق أوليائك فى تهذيب النفس وحسن الأخلاق وصفاء الباطن فانّا نطلب ذلك ونتعشقه من صميم القلب، فزدنا توفيقاً فى سلوك هذا الطريق وأعنا فى سلوك خطّ الإيمان والتقوى وحسن الأخلاق والحقنا بجماعة «مَنْ انْعَمَ اللَّهُ عَلَيهِمْ» واجعلنا من جملة «وَحَسُنَ اولئكَ رفِيقاً». (آمين يا ربَّ العالمين) الاخلاق فى القرآن، ج۳، ص: ۴

تعريف المركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فی سَبیلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱). قالَ الإمامُ علیّ بْنُ موسَی الرِّضا – علَيهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْيَا أمْرَنَا... يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فی تلخيص بحار الأنوار، للعلّامة فيض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُيونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشَّيخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷). مؤسّس مُجتمَع "القائميّة "الثّقافيّ بأصبَهانَ – إيرانَ: الشهيد آية الله "الشمس آباذی – "رَحِمَهُ اللهُ – كان أحداً من جَهابذة هذه المدينة، الذی قدِ اشتهَرَ بشَغَفِهِ بأهل بَيت النبیّ (صلواتُ اللهِ علَيهِم) و لاسيَّما بحضرة الإمام علیّ بن موسَی الرِّضا (عليه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرجَهُ الشَّريفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درايته، فی سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجريّة الشمسيّة (=۱۳۸۰ الهجريّة القمريّة)، مؤسَّسةً و طريقةً لم يَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَی و أحسَنِ مَوقِفٍ كلَّ يوم. مركز "القائميّة "للتحرِّی الحاسوبیّ– بأصبَهانَ، إيرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجريّة القمريّة) تحتَ عناية سماحة آية الله الحاجّ السيّد حسن الإمامیّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّيجی الحوزات العلميّة و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، فی مجالاتٍ شتّی: دينيّة، ثقافيّة و علميّة... الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثَقافة الثَّقَلَين (كتاب الله و اهل البيت عليهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزيز دوافع الشَّباب و عموم الناس إلی التَّحَرِّی الأدَقّ للمسائل الدّينيّة، تخليف المطالب النّافعة – مكانَ البَلاتيثِ المبتذلة أو الرّديئة –فی المحاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوتريّة)، تمهيد أرضيّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافيّةٍ علی أساس معارف القرآن و أهل البيت– عليهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطّلّاب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِج العلوم الإسلاميّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشُّبُهات المنتشرة فی الجامعة، و... – مِنها العَدالة الاجتماعيّة: التی يُمكِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحديثة متصاعدةً، علی أنّه يُمكِن تسريعُ إبراز المَرافِق و التسهيلاتِ – فی آكناف البلد – و نشرِ الثّقافةِ الاسلاميّة و الإيرانيّة – فی أنحاء العالَم – مِن جهةٍ أُخرَی. – من الأنشطة الواسعة للمركز: الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ كتبٍ، كتيبة، نشرة شهريّة، مع إقامة مسابقات القِراءة ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقيقيّة و مكتبية، قابلة للتشغيل فی الحاسوب و المحمول ج) إنتاج المَعارض ثّلاثيّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّكة و... الأماكن الدينيّة، السياحيّة و... د) إبداع الموقع الانترنتی" القائميّة "www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ أُخرَ ه) إنتاج المُنتَجات العرضيّة، الخَطابات و... للعرض فی القنوات القمريّة و) الإطلاق و الدَّعم العلمیّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعيّة، الاخلاقيّة و الاعتقاديّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴) ز) ترسيم النظام التلقائیّ و اليدویّ للبلوتوث، ويب كشك، و الرّسائل القصيرة SMS ح) التعاون الفخریّ مع عشراتِ مراكزَ طبيعيّة و اعتباريّة، منها بيوت الآيات العِظام، الحوزات العلميّة، الجوامع، الأماكن الدينيّة كمسجد جَمكرانَ و... ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفيذ مشروع" ما قبلَ المدرسة "الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِكين فی الجلسة ی) إقامة دورات تعليميّة عموميّة و دورات تربية المربّی (حضوراً و افتراضاً) طيلة السَّنَةِ المكتب الرّئيسیّ: إيران/أصبهان/ شارع"مسجد سيّد/ "ما بينَ شارع"پنج رَمَضان" ومُفترَق"وفائی/"بناية"القائميّة "تاريخ التأسيس: ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجرية القمريّة) رقم التسجيل: ۲۳۷۳ الهويّة الوطنيّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶ الموقع: www.ghaemiyeh.com البريد الالكترونی: Info@ghaemiyeh.com المَتجَر الانترنتی: www.eslamshop.com الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱) الفاكس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱) مكتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱) التّجاريّة و المَبيعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹ امور المستخدمين ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱) ملاحَظة هامّة: الميزانيّة الحاليّة لهذا المركز، شَعبيّة، تبرّعيّة، غير حكوميّة، و غير ربحيّة، اقتُنِيَت باهتمام جمع من الخيّرين؛ لكنّها لا تُوافِی الحجمَ المتزايد و المتّسِعَ للامور الدّينيّة و العلميّة الحاليّة و مشاريع التوسعة الثّقافيّة؛ لهذا فقد ترجَّی هذا المركزُ صاحِبَ هذا البيتِ (المُسمَّی بالقائميّة) و مع ذلك، يرجو مِن جانب سماحة بقيّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرَجَهُ الشَّريفَ) أن يُوفّقَ الكلَّ توفيقاً متزائداً لإعانتهم – فی حدّ

التّمکّن لکلّ احدٍ منهم – إیّانا فی هذا الأمر العظیم؛ إن شاءَ اللّه تعالی؛ و اللّه ولیّ التوفیق.

مركز
القائمية
اصفهان
للبحوث والتحريات الكمبيوترية
WWW
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للایصاء من فضلكم
٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٠٩